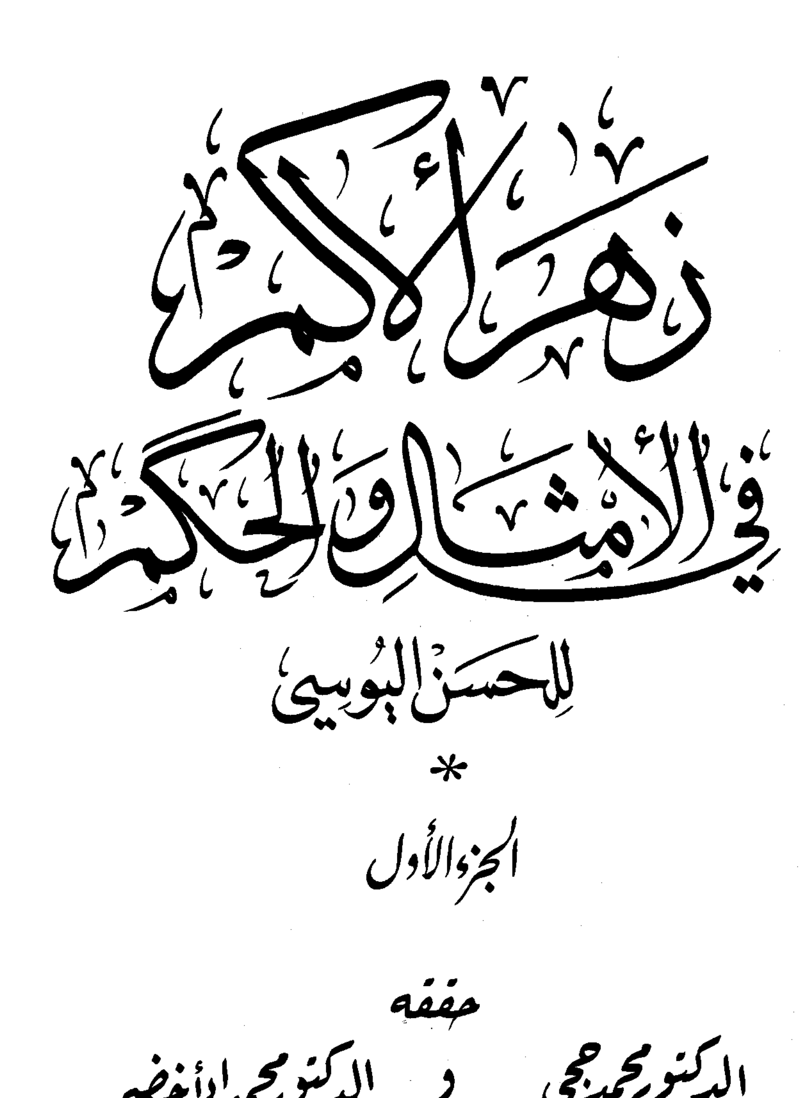
منشورات معهد الأبحاث والدراسات للتعريب



حققه
الدكتور محمد حجي و الدكتور محمد الأخضر

الشركة الجديدة
دار الثقافة
34·32 شارع فكتور هيكو
الهاتف 26·53·46 — 26.23.75
ص.ب. 4038 الدار البيضاء (المغرب)



الطبعة الأولى 1401 — 1981


زهر الأكم
في الأمثال والحكم

تقديم

تحدثنا عن الحسن اليوسي في كتابينا **الزاوية الدلائية** (1) **والحياة الأدبية بالمغرب على عهد الدولة العلوية** (2)، وعرفنا به فيهما كعالم مغربي يمثل المشاركة في عصره ويؤلف عشرات الكتب في مختلف ميادين المعرفة عقائد وفقها وأصولا وحديثا ومنطقا وبلاغة ولغة وأدبا.

ولعل مما يميز اليوسي في التأليف اقتحامه مواضيع طريفة لا صلة لها بالشروح والحواشي التي طغت على مؤلفي عصر الانحطاط، ومحاولته الرجوع إلى ينابيع الثقافة الاسلامية في عهودها المزدهرة الأولى يستقي منها بجهده الشخصي، ويضيف إليها من فكره وكده ما يغني التراث العربي الاسلامي ويجدده ويحببه الى النفوس، فكان من ذلك كتبه **المحاضرات، والقانون، وزهر الأكم في الأمثال والحكم**.

يرجع عهد اشتغال المسلمين بالأمثال الى العصر العباسي الأول مع الأصمعي وخلف الأحمر وعمرو بن العلاء وغيرهم من الرواة في تلك الحركة الرائدة لجمع اللغة وتدوينها، فرويت الأمثال ضمن أيام العرب وأشعارها، وأخبار فرسانها وأجوادها وأقيالها وصعاليكها. ثم أخذ اللغويون يفردون الأمثال بالتأليف في القرون التالية، واشتهر من بين ذلك كتاب **مجمع الأمثال** لأبي الفضل أحمد بن محمد النيسابوري الميداني المتوفى عام 518 / 1124 . وقد اشار الميداني في مقدمة كتابه الى صعوبة التأليف في هذا الموضوع، ورجوعه هو إلى نحو خمسين كتابا مما كتبه من تقدمه من اللغويين.

ويجيء اليوسي في القرن الهجري الحادي عشر الذي خمدت فيه جذوة الدراسات اللغوية وطال العهد بها، لا سيما في أقصى الغرب الاسلامي ليؤلف كتابا في الأمثال يفوق

1) صفحات 97-108
2) صفحات 122-136

ـ لوتم ـ كتاب الميداني وغيره من المتقدمين . يشتمل زهر الأكرم ـ في تصميمه ـ على ستة وستين بابا مقسمة قسمين أو سمطين، في السمط الأول الأمثال وما يلتحق بها، في مقدمة وخاتمة وأربعة وثلاثين بابا، تسعة وعشرون بابا في الأمثال مرتبة على حروف المعجم، والأبواب الخمسة التالية في الأمثال التركيبية، والأعيان، والأمثال القرآنية، والحديثية، والتشبيهات الشعرية. ويحتوي السمط الثاني على الحكم وما يلتحق بها في اثنين وثلاثين بابا، تسعة وعشرون في الحكم المرتبة على حروف المعجم، وفي الأبواب الثلاثة الأخيرة طائفة من الحكم المجموعة، والنوادر، والأوليات.

ويشاء القدر ألا يمهل اليوسي ليحقق غرضه كاملا من الكتاب، فيموت وهو لم يكتُبْ منه غير المقدمة والخاتمة وأربعة عشر بابا من السمط الأول، غير أن المقدمة وحدها تدل دلالة قاطعة على ضلاعة اليوسي اللغوية، وقوة عارضته وسعة تفكيره. وفيها يعجب القارىء عندما يعرف أن اليوسي ألف كتابه هذا وهو لم يطلع على أي كتاب من كتُب المتقدمين في الأمثال، وانما رجع الى قريحته وحصيلته اللغوية الخاصة. يؤكد هذه الدعوى، فضلا عن مروءة اليوسي وعدالته، مقارنة ما كتبه في زهر الأكم بما كتبه الميداني في مجمع الأمثال، فشتان بين مُشرِّق ومُغرِّب ! بل حتى الأمثال القليلة التي توارد عليها المؤلفان معا يختلف أسلوبهما في طريقة شرحها والتعليق عليها.

وقد قمنا بمقارنة [3] ـ على سبيل المثال ـ بين ما كتبه الميداني واليوسي عن المثل : « أنَـا جُـذَيْـلُـهَـا الـمُـحَـكَّـكُ وَعُـذَيْـقُـهَـا الـمُـرَجَّـبُ » فاستخلصنا الملاحظات التالية :

ـ نسب المؤلفان معا المثل الى الحباب بن المنذر خطيب الأنصار يوم السقيفة، إلا أن اليوسي بيّن الاطار التاريخي للمثل بتلخيص حادث السقيفة واختلاف المهاجرين والأنصار. ثم لم يقتصر على لفظ المثل ـ كما فعل الميداني ـ بل أتى بكلام الحباب كاملا : « أنَـا جُـذَيْـلُـهَـا الـمُـحَـكَّـكُ، وَعُـذَيْـقُـهَـا الـمُـرَجَّـبُ، مِـنَّـا أَمِـيرٌ وَمِـنْـكُـم أَمِـيرٌ » ليظهر وجه الافتخار والدعوى.

ـ أورد اليوسي معاني متعددة للجذل ـ بدل المعنى الوحيد عند الميداني ـ وذكر

---

3) انظر بحثنا : « الحسن اليوسي اللغوي » في مجلة المناهل، العدد 15، يوليوز 1979، ص. 211 ـ 229.

جموعه مستشهدا ببيت امرىء القيس، وقول الراجز، وقصة الأصمعـي مع الاعرابي أبي الزيابل، وشارحا ما غمض فيها.

- أتى اليوسي بمادة (رجب) مبينا معانيها الأصلية والفرعية، مستشهدا بالقطعتين اللتين رواهما الأصمعي عن العامري، وقد ورد في أولاهما : « وَادٍ مُرَجَّب » وفي الثانية : كَأَنَّ فُضُولَ الرَّقْمِ.... عُذُوقُ » مبينا كذلك اختلاف معاني العذق باختلاف فتح أوله أو كسره، في حين اقتصر الميداني على معنى اجمالي للكلمتين معا.

ولم يفت اليوسي هنا أن ينبه الى ما اشتهر عند القدامى من تشبيه البرود الملونة بالنخيل المونع، مستشهداً بابيات امرىء القيس، قبل أن ينتقل للكلام عن ترجيب النخل وطرقه المختلفة عند العرب.

- افترض اليوسي لتصغير كلمتي المثل أحد احتمالين : التعظيم على مذهب الكوفيين، أو التقريب على مذهب غيرهم، في حين جزم الميداني أن التصغير للتكبير.

- بين الميداني مضرب المثل في الأخير بجملة واحدة : « يريد أنه رجل يستشفى برأيه وعقله » وهو بيان مبتور لا ينطبق إلا على الشطر الأول من المثل. في حين أتى اليوسي بفقرة كاملة تتساوق فيها العبارات المسجعات المتكاملات، لتستوعب الشروح الضافية السابقة وتلخصها.

وقلنا في الأخير اننا لم نقصد الى التنقيص من قدر أبي الفضل الميداني أو غيره، وانما قصدنا الى بيان أصالة الحسن اليوسي في فن سبقه الميداني الى التأليف فيه بستة قرون، وسبقه غير الميداني فيه بسبعة أو ثمانية أو تسعة قرون، ومع ذلك كتب اليوسي ما كتب في الأمثال، أواخر القرن الهجري الحادي عشر، ابتكارا على غير مثال سابق، بل ودون أن يطلع على أي كتاب في الأمثال، وكأن **زهر الأكم** ألف في عصر ازدهار العلوم العربية أيام العباسيين، اذ المصادر مصادر ذلك العصر، والأسلوب متين سليم، والتفكير حر مبدع لا يعرف قيود التقليد والترديد.

وهناك الصبغة المغربية في **زهر الأكم**، تتمثل فيما اختاره اليوسي من أشعار المغاربة والاندلسيين، كقول مالك بن المرحل :

لاَ تُخَالِفْ مَالِكًا في رَأيِهِ فبِهِ يَأْخُذُ أهْلُ الْمَغْرِبِ

وفي الأمثال المغربية المتداولة في عصره التي أورد عددا غير قليل منها عند المناسبات في ثنايا الأبواب، لكنه (فصَّحها) ولم يذكرها بلسان العامة، واضطر بسبب ذلك الى تغيير بعض ألفاظ هذه الأمثال ليستقيم تركيبها الفصيح، ولم يحتفظ باللفظ العامي الا نادرا كالسباط مثلا في قولهم :

(امْشِ بالنَّعْلَيْنِ حتَّى تَجِدَ السُّبَّاط)(3م)

في باب الباء لدى ذكر المثل العربي : يُبْلَغُ الخَصْمُ بِالقَضْمِ.

بقي أن نشير الى بعض مآخذ الكتاب، وهي في الواقع نتيجة حتمية لعدم تمكن اليوسي من اتمام عمله ومراجعة ما كتب بالتهذيب والترتيب. وأكثر ما يظهر ذلك في مجموعات الأمثال الشعرية التي لم يرتبها ترتيبا دقيقا داخل الأبواب، ولم ينبه في الغالب الى موطن المثل عندما تتعدد الأبيات، علما بأن بعضها يبلغ العشرة والعشرات، الى ترك بياضات لم يسودها، وتكرار أبيات ومقطعات لم ينتبه اليها الا نادرا.

3م) اثبت أخونا محمد بن شريفة في كتاب أمثال العوام في الأندلس (القسم الأول، ص. 191-194) نحو أربعين مثلا عاميا استخرجها من كتاب زهر الأكم، وحاول أن يبرر ندرة الأمثال المغربية - نسبيا - عند اليوسي.

مخطوطات زهر الأكرم وطريقتنا في التحقيق :

اطّلعنا في الخزانة العامة وفي المكتبة الملكية بالرباط على ستة عشر مخطوطا(4) من كتاب **زهر الأكم**، واعتمدنا في التخريج والمقابلة أربعة من مخطوطات الخزانة العامة : عدد 178 ج. ورمزنا اليه بحرف أ، وعدد 596 ج ورمزنا اليه بحرف ب، وعدد 1001 د ورمزنا اليه بحرف ج وعدد 210 ق ورمزنا له بحرف د. واذا ما اختلفت النسخ اخترنا مابدا لنا صوابا دون أن نشير في الهامش الى ما ألغينا الا اذا كان له وجه، ووضعنا الكلمات والجمل أو الفقرات والأبيات الناقصة في احدى النسخ بين قوسين ونبهنا على ذلك في الهامش أيضا.

وقد قسمنا الكتاب ثلاثة أجزاء كما قسمه المؤلف أو بعض النساخ القريبين من عصره.

---

4) هي المخطوطات التالية :

1 - مخطوط خ. ع(= الخزانة العامة بالرباط) عدد 178ج، وهو في جزئين، ينتهي الأول بنهاية باب التاء، ويبتدىء الثاني بباب الذال المعجمة، ففيه بتر خمسة أبواب (الثاء الى الدال) وذكر الناسخ في الأخير أنه نقل من خط المؤلف.

2 - مخطوط خ. ع عدد 596 ج بخط مغربي دقيق، تام انتسخ عام 1134.

3 - مخطوط خ. ع عدد 1001 د، جيد الخط ناقص ينتهي أثناء باب الدال بقصيدة دالية لليوسي.

4 - مخطوط خ. ع عدد 210 ق، تام ذو خط مدمج، قابله بأصله أصل المؤلف العالمُ الفاسي الشهير محمد بن قاسم ابن زاكور المتوفى عام 1120، وكتب ذلك بخطه في الاخير.

5 - مخطوط خ. ع عدد 844 ج، ناقص ينتهي أثناء باب الدال كالمخطوط رقم 3، كتبه أحد تلاميذ المؤلف.

6 - مخطوط خ. ع. 388ق ، ناقص يبتديء من باب الحاء وينتهي أثناء باب الصاد بنقص ورقة أو ورقتين من الأخير.

7 - مخطوط م. م (= المكتبة الملكية بالرباط) عدد 788، تام جيد الخط كتب من نسخة عن خط المؤلف عام 1158.

8 - مخطوط م. م عدد 798، تام جيد الخط مذهب، دون تاريخ.

9 - مخطوط م. م عدد 937، تام دقيق الخط، دون تاريخ.

10 - مخطوط م. م عدد 2377، تام جيد الخط ومذهب، دون تاريخ.

11 - مخطوط م. م عدد 2591، تام جيد الخط الا أن الأرضة أكلته أو كادت.

12 - مخطوط م. م عدد 66/586 (الزيدانية) تام بخط دقيق جميل مذهب، انتسخ من خط المؤلف عام 1122.

13 - مخطوط م. م عدد 2845 (الجزء الأول فقط) ينتهي أثناء باب التاء، خط عادي دون تاريخ.

14 - مخطوط م. م عدد 680، ناقص ينتهي اثناء باب الدال مثل المخطوط رقم 3.

15 - مخطوط م. م عدد 5719 (الجزء الأول فقط) ينتهي بباب التاء، خط عادي دون تاريخ.

16 - مخطوط م. م عدد 1861 (الجزء الثاني فقط) يبتدىء أثناء باب الحاء، انتسخ من خط المؤلف عام 1132.

ينتهي الجزء الأول بباب التاء المثناة، ويبتدىء الثاني بباب الثاء المثلثة، ويبتدىء الثالث بباب الذال المعجمة لينقطع أثناء باب الصاد ببيتي طرفة :

كُنْتُ فِيكُمْ كَالْمُغَطّي رَأْسَهُ   فَانْجَلَى الْيَوْمَ قِنَاعِي وَخُمُرْ

سَادِراً أَحْسِبُ غَيِّي رَشَداً   فَتَنَاهَيْتُ وَقَدْ صَابَتْ بِقُرْ

وهو ما اتفقت عليه جميع النسخ المخطوطة التامة وكتبت : (هنا انتهى ما وجد في الأصل بخط المؤلف).

ولم نشأ أن نثقل الهوامش بالشروح اللغوية مكتفين بتوثيق الكلمات الصعبة وضبطها بالشكل التام، والتزمنا شكل الآيات القرآنية، والاحاديث النبوية، والأمثال والحكم والأبيات الشعرية، والمفردات اللغوية وأعلام الأشخاص والقبائل والأماكن، ليقرأها القارىء قراءة سليمة، ويبقى المجال فسيحا أمام الدارس للتنقيب عن المادة اللغوية والأدبية في مظانها لتتم الفائدة المرجوة.

وإننا إذ ننشر اليوم هذا الكتاب نرمي الى غايتين اثنتين، تُحقّق إحداهما رغبة اليوسي الذي كتب زهر الأكم ((لينتفع به المتصرف ويتضلع منه الكاتب والشاعر وغيرهما)) [5]، وتهدف الثانية الى التعريف بانتاج عالم مغربي أسهم باضافة لبنات في صرح اللغة العربية المشيد، بهذا البلد السعيد. والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الرباط في فاتح رمضان 5/1399 غشت 1979

المحققان

5) خاتمة مقدمة زهر الأكم، ص. 40.

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه

سبحان اللهِ المُتَعالِي عن الأشْباه والأمْثَال، والحمدُ لله ذي الفضلِ العظيمِ والكرمِ المُنْثَالِ، ولا إلَه إلا الّلهُ المتوحّدُ بالكِبرياء والأثَال، واللهُ أكبر أنْ يتطاولَ الى سَمِيٍّ جلالهِ خيالٌ أو مثال. ولا حولَ ولا قوّةَ إلا بالله العلي العظيم، نحمده على ما أسْدَى مِن جزيل الرغائب، وأجْدَى من جميل المواهب، وسَنَّى من جليل المآرب، وأسْنَى من كَميلِ المراتب، وأولَى من الجميل العميم. ونشكره على أفئدةٍ بنور الايمان هَدَاهَا، وألْسِنةٍ أطال في شَأوِ البيانِ مَدَاهَا، وبصائرَ أسَامَ سَرْحَها إلى مراتعِ العِبَرِ وحَدَاها، وانْتَجَعَ بها مَواقِعَ غيثِ الفِكَرِ وجَدَاهَا ؛ حتى أصبحتْ نَشْوَى مِنْ كُؤُوسِ العِرْفَانِ تَهِيم، وتجلُو بِلَوامِعِ التّبْيَان كلَّ ليلٍ بَهِيم. ونُصَلّي على نبيه محمَّد المختار المُقْتَعِد حقًّا ذُرْوَةَ الكمالِ والفَخَار، والمُرتَدِي بِرِداءِ الاجلال والاكبار، والمُبْتَعَثِ مِنْ أطْيَبِ عُنْصُرٍ وأكرمِ نجَار، في حَسَبٍ حسيب وشرف قديم. الذي أنار بطلْعَتِهِ الغرّاءِ عَلَمَ المُهْتَدين، وسَمَكَ بِعِزّتِهِ القَعْسَاءِ مَنَارَ الدّين، وثلَّ بِشِرعَتِهِ البيضاءِ عُرُوشَ الجاحدين والحائدين، واسْتَأصلَ بِشَوكَتِه الشّوكاءِ شَأفةَ العادين والمُعَادِين، وجعله صِفْوَةَ الصّفْوة، ونُخْبَةَ النُّخْبَة، وسِرَّ السِّرّ، وخُلاصةَ الخُلاصة، ومُصَاصَةَ المُصَاصَة، ولُبَابَ اللُّبَابَ، وخِيَارَ الخِيَار، وصَمِيم الصّمِيم. صلّى اللهُ عليه صلاةً تلُوحُ في أفُقِ مكانَتِه العلياءِ قَمَرًا، وتَفُوحُ على طَلْعَتِه الغرّاءِ عَنْبَرًا، وتَنْهَمِلُ في جناب مَجَادَتِه الفيحاءِ كَوثَرًا، وتَخْضَلُّ في رَوْضَةِ جَمَالِه الغَنّاءِ زَهَرًا، ما هبَّ نسيم، وذهَبَ ذُو رَسِيم. وعلى آله الأمَاثِل، بُدُورِ المَحَافِل، وصُدورِ الجَحَافِلِ، ويَنَابيعِ الفَضَائِلِ والفَوَاضِلِ، وأعْلامِ الدّينِ القَويم، والصِّراطِ المُسْتَقِيمِ، مَا بَدَا عَلَى وجَنَاتِ الوَرْدِ تَخْجِيل، مِنْ رشَفَاتِ النّسِيمِ البَلِيل، واصْفَرَّ رَوْعَةً وجْهُ الأصِيل، مِنْ

لـحَـظاتِ طـرْفِ اللّيْـلِ الكحيل، وأسْفـرَ الصـّبَـاحُ عن ثـغْـر بَـسِيم، ومَـنْـظر وسيم.

أمَّا بعدُ، فان العِلمَ أنفسُ عِلْقٍ يُـقْـتَـنَـى، وأحلى ثـمَرٍ يُـجْـتَـنَـى ؛ وأعدلُ محجّة، وأقومُ حُجَّة، وأحصنُ جُنَّة، وأضوأُ بَـدْرٍ في دُجُـنَّة ؛ وأرْبحُ مَـتْـجَرٍ يُـثَـابَـرُ عليه، وأنـجَـعُ مَرْعَـى يُـنْـتَـجَـعُ إليه ؛ وأرْجَـى بارقٍ يُـشْـتَـام، وأفضلُ جنابٍ يُـعْـتَـام ؛ وأنْـوَرُ نـورٍ يُـسْـتَـضَـاءُ به في الظّلُمات، وأمْـنَـعُ وزَرٍ يُـعْـتَـصَمُ به في الأزَمات ؛ وأوثقُ عُـرْوَةٍ يَـسْـتَـمْسِكُ بها ذَوُو الـبَـصَائِـر، وأعظمُ عُـدَّةٍ تُـعْـقَـدُ عليها الخَـنَـاصِر ؛ وأقوى مَـطِيَّةٍ تُـرْكَـب، وأتمُّ سِلاَحٍ يُـنْـتَـكَـب ؛ وأطيبُ نَـسمَةٍ تُـسْـتَـنْـشَـق، وأجملُ محبوب يُـعْـلَـق ؛ وأبْـهَـى زينةٍ يَـتَـحَـلّـى بها المُـتَـحَـلُّون، وأرفعُ مِـنَـصَّةٍ يتجلّـى عليها الـمُـتَـجَـلُّون.

فإنَّ العِـلْـمَ غِـذاءُ العقل، وبه يعرف الحَكم العَـدْل ؛ وإنَّ الـخَـصِّيصَـى التي بها شرفُ الانسان إنما هي العلمُ ؛ فإن المرءَ لَـوْ بَـلَـغَ فِـي كمالِ الجسمِ أطْـوَرَيْـه، لا يكونُ إنسانـاً إلاّ بأصْـغَـرَيْـه :

لولا العقولُ لكان أدْنَـى ضَـيْـغَـمٍ أدْنى الى شَـرَفٍ مِـنَ الانسانِ[1]

وما امتاز اللّسِنُ الذكِـيُّ عن الـعَـيِـيِّ إلا بِـرَجَـاحَـةِ الـجَـنَـان، وفَـصَاحة اللّسان ؛ فإن الخليق للأفكار، عند افْـتِـراعِـها الـمَـعَـانِـيَ الأبْكار؛ والجديرَ لِـلألسنة عند اقتطافها أزاهيرَ الـبَـيَـان، واهْـتِـصَـارِها أفانِـينَ الـتّـبْـيان، أن يتميَّزَ فيها الـفَـائقُ من المَـائـِق، والسَّابِـقُ من السَّائـِق ؛ وعند السِّيَـاق في ميدانها الـوَثِـيم، أنْ يَـتَـجَـلّـى المُـجَـلِّي عن الّلطِيم، وعند مُزَاوَلَةِ الـغَـرَضِ المُـعْـضِـل، أنْ يُـعْـرَفَ الـمُـقَـرْطِـسُ مِـنَ الـمُـخْـضِـل. وعند انْـتِـيَـاش مَـضاربِ الأفهام، أن يَـمْـتَـازَ الصَّارِمُ عن الـكَـهَـام ؛ وعند اقتباس حِكمةٍ تُـسْـتَـشْـعَـر، أن يَـشْـرُفَ الـمُـوري عن الأدْعَـر ؛ وعند اقتسام مزايا الفضل الـفَـسِـيح، أن يَـفُـوزَ الـمُـعَـلّـى دُونَ السَّفِـيح ؛ وعند اسْـتِـفْـتَـاح الـمَـغَـالق، وتَـغَـشّي الـمَـضَـائِـق، أنْ يُـعْـلَـمَ الـمُـجْـحِـم مِـنَ المُـحْـجِـم، والـهَـصَـور مِـنَ

---

1) هذا البيت لابي الطيب المتنبي من قصيدة مدح بها سيف الدولة، مطلعها
الـرأيُ قبل شجـاعة الشجعـان هو اول وهي المـحلُ الثـاني

الـْحَـصُـور. فلا جَـرَمَ كان من أجلّ العلومِ وأفْخرِها، وأحقّها بالاعتناء به وأجدرِها، علمُ الأدب، والتَّضَلُّع مِن كلام العرب، إذ به تَـنْـحَـلُّ عُقْلَـةُ اللسان، وتُـزَاحُ رَوْعَـةُ الجَنَـان. وهو لسانُ نبيِّنا نُخْبَـةِ الْعَالَـمِ، وصِفْوَةِ وَلَـدِ آدَم، وكتابِـه الذي أخْرَسَ بِـهِ مَصَاقِـعَ الْبَـيَـان، مِنْ بُـلَـغَـاء عَدْنَـان وقَحْطان، حتَّى عَدَلُـوا عَنِ الْمُجَادَلَـةِ الى الطّعَـان، وعن الْمُعَارَضَـةِ إلى الاذْعَـان. صلى الله وسلم عليه وعلى آله ما لَـمَعَ بَـارِق، وَطَـلَـعَ شَـارِق. فهو لَـعَـمْرِي أجلُّ الكلام، وأشرفُ ما اعْـتَـوَرَتْـهُ الألْـسِـنَةُ والأفْـهَـام، وأبْـهَـى بَـدْرٍ يُـسْـتَـجْـلَـى وَعَـرُوس، وأسْـنَـى أثرٍ يُـسْـتَـبْـقَـى في ميادينِ الطُّرُوس. لا سِيَّمَا عِلْمُ أمْثَـالِـها الَّتِـي هِـيَ زِمَامُ كلِّ مَعْنَـى، ومَـنَـاطُ كُـلِّ مَـبْـنَـى، ومَـنَـارُ كلِّ مَرْمَـى، ومِصْبَـاحُ كُـلِّ ظَـلْـمَـا. وبها يَـرْتَـاضُ كُـلُّ جَـمُـوح، ويُـصْـبِـحُ الْمُـنْـبَـهِـمُ ذَا وُضُـوح. وبها يعودُ الْغائِـبُ مَشْهُوداً بَـلِ الْمَعْدُومُ مَوْجُـوداً.

وكان الأقدمون بهذا الفنّ مُعْـتَـنِـين، ولِـنَـوَادِرِه مُـلَـقَّـنِـين، ومُدوِّنين، يَـرِدُونَ مَوَارِدَهَا، ويَـقْـتَـنِـصُونَ شَـوَارِدَهَا ؛ ويقتطفون أزهارها النَّضِرَة، ويَـتَـنَـسَّمُونَ نسماتِـها الْعَـطِـرَة ؛ ويَـرْتَـشِـفُونَ ثُغُورَهَا، ويقتبِسُون نُـورَهَا ؛ وَيَـشِيمُونَ لَـمَحَاتِ تلك الْـبَـوَارِق، ويَـشِـمُونَ بِـدُرَرِهَـا[2] صفحات المَهَارِق. فلما طال العهدُ بِأَزْمَان العرب، وقَـضَـى مَنْ تَـنَـاسَـى أيَّامَـها كُـلَّ أرَب، تَـغَـلَّـبَـتِ العُجْمَـةُ على الألسنةِ والطِّباع، فَـخَـلَـتْ مِنْ قَـطِـينِـهَـا هاتِـيكَ الرِّبَـاع، وأصْبَـحَـتْ حَـدِيثًـا مَهْجُورا، كَأنْ لَـمْ تَـكُـنْ شَـيْـئًـا مَذْكُوراً، وعادَتْ أيّـامُها مَحْضَ أوْهام، فكأنها وكأنهم أحلام، وتقلص ضافي بَـرْدها، وتكدر صافي وردها، وذهبت المعارف العوارف، وتقَلَّصَ ظِلُّها الوَارف ؛ وأمست رباعُ الأدبِ قَـفْـرا، ورَاحةُ الخَواطِرِ منه صِفْـرا.

وكانت نفسٌ تَـشُـوقُـنِـي الى هذا الفن ومآثِـره، وتُـنَـازِعُـنِـي الى تَـتَـبُّـعِ دَاثِـرِه. فكنتُ أشْـتَـاقُ أن أرى في هذا موضوعا، وأُصادِفَ كتابًا مجموعا، مما عُـنِـيَ به الأقْدَمُون، واقْـتَـفَـى آثَـرَهُـمْ فِيهِ المُتَـأَخِّرُون. فلم يسمح بذلك الدهرُ العقيم، ولم يُـظْـفِـرْ بشيءٍ منه الْجَـدُّ السَّـقِـيم. ولما لم أذُقْ مِنْ ذلك لَـمَاقًا، ولم يَـزْدَدِ

2) في نسخة (أ) بدورها ؛ وفي (ب) بدررها.

القلبُ إلاّ اشتيَاقا، طَفِقْتُ أجُولُ في عَرَصَاتِ كُتُبِ الأدب، وكُلٌّ ما له مَاسَّةٌ بِكلام العرب. ولم أزل أتتبّعُ ظِلالَها، وأشْتَفُّ بِلاَلَهَا، وأرْعَاها قُنَنًا وَوِهَادا، وَأنْتَجِعُها فَتُوحًا وَعِهَادا ؛ وَأحْتَلِبُها شَصَائِصَ وَشَكَارَى، وأعتنِقُها عُونًا وَأبْكَارًا، حتى التقطتُ مِنْ ثَمِينِ جَوْهَرِهَا، واقْتَطَفْتُ مِنْ يَنِيعِ زَهْرِها، ما يَشْفِي الْعَلِيل، ويَنْقَعُ الْغَلِيل، ويَمِيسُ مَيْسَ الْغُصْنِ الْمَرُوح، ويَسْرِي في الجسوم مَسْرَى الرُّوح. فلما امتلأ بحمد الله من ذلك الوِطَاب، وعاد الْبَلَحُ إلى الارْطَاب، هَمَمْتُ أنْ أجْمَعَ ما عَلِقَ في هذا الوقت بخاطِري، مما تَرَقَّى اليه نَظَرِي ونَاظِرِي، في كِنٍّ يُؤْوِيه، ومَجْمُوعٍ يَحْويه، حِذَارًا[3] من النّسْيَان، عند تطاوُل الزمّان. فألّفْتُ هذا المجموعَ في الأمْثَال، وأوْدَعْتُه كُلَّ دُمْيَةٍ وتِمْثَال. ثم رأيت أن أضُمَّ إليها من الحِكَم جملةً مما انْتَهَيْتُ إلَيْهِ،وَوَقَفْتُ عند تَطْوَافِي عَلَيْه، وتَتْميمًا للفائدة، وتكميلاً لِلْعَائِدة، مع قُرْبِ ما بَيْنِ النَّوْعَيْنِ جدا، كما ستقف عليه عند التعرُّض لهما فصلاً وحدا.

فجاء بحمد الله كتابًا مُمْتِعا، لِلْآذَانِ الصُّمِّ مُسْمِعا:

جَمَعْتُ بِهِ والْجَفْنُ مُغْضٍ عَلَى الْقَذَى
وبِالْخَلَدِ الْبَلْبَالُ أصْبَحَ ذَا خُلْدِ

مَحَاسِنَ تُزْرِي بالنَّسِيمِ إذا سَرَى
فَحَيَّى محيا السَّوْسَنِ الْغَضِّ وَالْوَرْدِ

وتُزْرِي بَهَاءً بِالْمَطِيرِ مِنْ الرُّبَى
وبِالْعَذْبِ للصَّادِي وبالْكَاعِبِ الرُّؤْدِ

لآلِيءُ ما غَوَّاصُهَا بِمُصَاذِفٍ
لها صَدَفًا في مُلْتَقَى أبْحُرِ الْهِنْدِ

ولا حُلِّيَتْ يومًا بها جِيدُ غَادَةٍ
ولا فُصِّلَتْ بِالْعَسْجَدِ الصِّرْدِ في عِقْدِ

فَرَائِدُ ما مِنْهُنَّ إلاّ خَرِيدَةٌ
أعَزُّ عَلَى الْمُرْتَادِ في الأبْلَقِ الْفَرْدِ[4][5]

---

3) في نسخة (أ) : تمين بتاء مثناة، وهو تصحيف.
4) في نسخة (ب) : طوفاني بدل تطوافي.
5) في نسخة (أ) : بالأبلق أو مالأبلق.

ومع هذا فإنّي أعتذرُ لذوي النفوس الوقّادة، والصيارفةِ النّقّادة، مِن تقصيرٍ فيه، وخَلَلٍ لم يَتّفِقْ تَلافيه. وكيف لا يُعْذَرُ ذو بَالٍ مُتَقَسّم، ووبَالٍ مُتَكَسّم، وشَخْص لا يَبِينُ لِمُتَوَسّم، مكْلُومٌ بِفَاغِرٍ من الخُطُوبِ مُتَبَسّمٍ، يَرْمُقُ الْعَيْشَ بَرْضًا، ويَقْطَعُ بَسِيطَ الْحَيْرَةِ طُولاً وعَرْضًا، لا يترجَّى مَد د٢، إلا كان كَمَد٣. ولا يَغْتَبِقُ إلاّ عَبْرَة، ولا يَعْتَنِقُ إلاّ زَفْرَة، ولاَ يَعُدُّ إلاّ ذُنُوبَ الدّهْرِ، ولا يُعِدُّ إلاّ ذَنُوبَ نَهْرٍ، في فِتَنٍ تَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وقَلْبِه، وتُذْهِل غَيْلاَنَ عن حبِّه، ودَهْرٍ حَالَ دُونَ الْقَرِيض، بِالْشّجَى والجريض، ورَدٌ الأوْجِ إلى الْحَضِيض ، ولم يَجْعَلْ بُد٤ من مُصَادَقَةِ الْبَغِيض، وأعَادَ الصُّدُورَ أعْقَابًا، والنّوَاصِيَ أذْنَابًا، وكَدَّرَ كُلَّ صَفْو، وأوْرَثَ كُلَّ شَجْو، وخَلَّفَ مِنْ بَنِيهِ كَجِلْدِ الأجْرَب، وَزُبَانَى[6] العقرب، لا يَتَجَرَّعُون إلاّ عَلاَقِم، ولا يَلْتَمِسُون إلاّ أرَاقِم ؛ أمّا أذْنَابُها فَرَعَاع، وشَرٌّ شَعَاع، وفِتْنَةٌ وِرْدُها قُعَاع، وظُلْمَةٌ ليس بها مِنْ شُعَاع ؛ وأمّا ذُرَاهَا فلا تَعْدُو رضيعًا تبكِي المَخَاضُ الجُرْبُ لِمُصَابِه[7]، وتَشْكُو الصُّفْرُ والبِيضُ يدَ الضَّيَاع لِصِفْرٍ وِطَابِه، وخليعًا يَذْهَبُ دَهْرُه ما بين الرُّخّ والرَّخَّة، والفَخّ والفَخَّة، وكِلاَ النوعَيْن قد أنزَلَهُما أسْوَدُ العَيْنِ طَرَفَه، وتَضَمَّنَهما القَمَران المُشْتَبِهَانِ في بيت طَرَفة.

وكان الأدبُ وسائر العلوم قديمًا انما يُحْيِي غِرَاسَها، ويُسْنِي مِرَاسَها، ويُطَيِّبُ أنْفَاسَها، ويُحبِّبُ نِفَاسَها الْفَضْل، الْهَام، والْعَدْلُ الحَام. فأما الْيَومَ فلا نَدى يَسْتَثْمِرُ الابْداع، ولا انتصاف يَتَلاَفَى الانْصِدَاع. فأيُّ عِلْمٍ يُرْتَجَى، مِمَنْ زَوَالُ الرّوْعِ عِنْدَه مُنْتَهَى الرّجا ؟ قَنُوعٌ مِنَ الْغَنِيمةِ بالاياب، ومِنَ الايرَاب، بِنُفَاضَةِ الْجِراب، ومِنَ الشّرَاب، بلَمْحَةِ السَّراب. وكيف يُمْكِنُ لمثلي أن يجْمَعَ بَيْنَ كلمتَيْنِ، فضلاً عن فَصْلَيْن ؟ لكن لَمّا لَمْ يَكُنِ التّجَزُّعُ عند حلولِ الأقْدار، من شِيَمِ الأحرار، قَبَضْتُ على أحَرَّ مِنْ جَمْر،

---

6) في نسخة (أ) : وزبانيق، وهو تصحيف.

7) الرضيع هنا : اللئيم. وقد فسر اليوسي عبارة بكاء المخاض الجرب في المحاضرات (ص. 55) لما اورد ضمن اشعار المعاني عند العرب :

سَتَبْكِي الْمَخَاضُ الْجُرْبُ إنْ مَاتَ هَيْثَمٌ وكلُّ الْبَوَاكِي غَيْرَهُنَّ جُمُود

أي أنه كان يستحييها بخلا ولا ينحرها للضيفان، فهي تبكي عليه ولا يبكي عليه أحد من الناس إذ لا خير فيه.

وتجلّدْ علَى مَابِي مِن ضُمْر، وثَنَيْتُ الضُّلُوعَ على أذَاهَا، وأغْضَيْتُ الجُفونَ على قَذَاها. فَجَمَعْتُ هذه الأحْرُفَ علَى حِينِ لَمْ يَبْقَ مِنَ العِلْمِ إلاّ رَسْمُه، ومن التّحقِيقِ إلاّ اسْمُه، مِنْ غَيْرِ كَبِيرِ عُدَّةٍ أعْتَمِدُ علَيْهَا، وآرْجِعُ عِنْدَ الْمُعْوِصَاتِ إلَيْهَا، ولا وجودِ مُصَنَّفٍ في هَذَا الفَنّ أهْتَدِي بِمَنَارِه، وأسْتَضِيءُ بِضَوْءِ نَهَارِه، وإنَّمَا اقْتَدَحْتُ الْفِكْرَ السَّادِر، فاقْتَرَحْتُ نوادِر، جمعتُها من كلّ أوْب، وحَدَرْتُها مِن كُلّ صَوْب. ولا أكادُ مع ذلك أجِدُ مَثَلاً مِنْها مُتَكَلَّمًا عَلَيْه، ومُنَبَّهًا فيه على ما يُحْتَاجُ إلَيْه ؛ وإنَّمَا يُذْكَرُ جُلُّهَا مُجَرَّدا، فَألْتَقِطُهُ مُفْرَدا. ثُمَّ أتَحَمَّلُ أعْبَاءَ شَرْحِ ألْفَاظِهِ ومَعَانِيه، وآتَكَلَّفُ مِنْ دَوَاوِينِ الْعَرَبِ وَمَنْ بَعْدَهُمْ إحْضَارَ شَوَاهِدِهِ ومَبَانِيه . فَكُنْتُ في ذَلِكَ شِبْهَ الْوَاضِعِ وإنْ سُبِقْتُ، وَالْمُخْتَرِعِ وَإنْ نَقَلْتُ. وأضَفْتُ إلى ذَلِك مِنْ نَفَائِسِ النَّوَادِرِ دُرَرًا، ومِنْ نكَتِ الْفَوَائِدِ غُرَرًا. وجَمَعْتُ فِيهِ مِنْ شِعْرِ الأقْدَمِينَ والمُحْدَثِينَ عُيُونا، وقَضَيْتُ مِنْ غَرِيبِهِ دُيُونا، وما ذَكَرْتُ شِعْرًا إلاّ اخْتَرْتُه، ولاَ ألْمَمْتُ بِمَنْزَعٍ إلاّ حَرَّرْتُه، ولا دَفَعْتُ إلَى مُبْهَمٍ إلاّ أوْضَحْتُه، ولاَ افْتَتَحْتُ بَابًا إلا أتْمَمْتُه ، مع جُمْلَةٍ وَافِرَةٍ مِن عِلْمِ اللُّغَة، تَكُونُ لِلْمُقْتَصِرِ عَلَيْهِ كِفَايَةً وبُلْغَة، لَوْلاَ أنّي رُمْتُ بَذْلاً عَلَى تَقْتِير، وإنْبَاضًا بِلاَ تَوْتِير. فَإنْ جَاءَ وفْقَ الْغَرَض، وقَضَى الْحَقَّ الْمُفْتَرَض، فَلِلَّهِ تَعَالَى الْمِنَّة، ومِنْهُ الْحَوْلُ والْمُنَّة ؛ وإنِ اتَّفَقَ خَلَل، وفَرَطَ زَلَل، فَمِنْ نَفْسِي الغيبة، وجهالتي الريبة، وفِطْنَتِي الْخَامِدَة، وقَرِيحَتِي الْجَامِدَة. فإنّ مِثْلِي لَيْسَ يَكُونُ أهْلاً لِلتَّعَلُّمِ فضلاً عنِ التَّعْلِيم :

وَلَكِنَّ البِلادَ إذَا اقْشَعَرَّتْ وصَوَّحَ نَبْتُهَا رُعِيَ الْهَشِيمُ

ولما تمَّ ما أرَدْتُه بِحَمْدِ ذِي الْمَنّ والْفَضْل، وَبَرَزَ مِنَ الْقُوَّةِ إلَى الْفِعْل، سَمَّيْتُه زَهْرَ الأكَم، في الأمْثَالِ والْحِكَم. وَجَعَلْتُهُ سِمْطَيْن :

السِّمْطُ الأوَّلُ فِي الأمْثَالِ ومَا يَلْتَحِقُ بِهَا، وفيه مقدّمة، وخاتمة، وأربعةٌ وثلاثون بابًا تسعةٌ وعشرون منها في الأمثال العربية وما يلتحق بها على حروف المعجم، الباب المُوفِي ثَلاثِينَ في الأمْثَالِ التَّرْكِيبِيَّة، الحادي والثلاثون في الأعْيَان، الثَّاني والثَّلاثون في الأمثال القرآنية، الثالث والثلاثون في الأمثال الحديثيَّة، الرابع والثلاثون في التَّشْبِيهات الشعرية .

السِّمْطُ الثَّانِي في الحِكَمِ وما يلتحقُ بها، وفيه اثنان وثلاثون بابًا : تسعة وعشرون في الحِكَم على حروف المعجم ؛ الباب المُوفِي ثلاثين في حِكَمٍ مجموعة، والحادي والثلاثون في النَّوَادِرِ، الثاني والثلاثون في الأوَّلِيَّات . فكان مجموعُ ذلك ستةً وستين بابًا . والَّلهَ أسْأَلُ أن يجعله عنده دخيرةً وحَسَنَة، وأنْ يَجْعَلَنا مِنَ الذِينَ يَسْتَمِعُونَ القَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أحْسَنَه، وأن لا يَجْعَلَنَا مِمَّنْ أدْلَى بِحَبْلِ الغُرُورِ حتّى حَان، وسَقَطَ العَشَاءُ بِهِ عَلَى سِرْحَان، وأعُوذُ بِوَجْهِهِ الكَرِيمِ مِمَّنْ إذا رَأى قَبِيحًا فَارَ بَطَرُه، فَشَمِتَ بالمَسَاوِي وأشْمَتَ؛ وإذا رَآى جَمِيلاً ثَارَ حَسَدُهُ، فَصَمَتَ عَنِ المَحَاسِنِ وأصْمَت . وأعوذُ بِهِ مِن إطْرَاءِ المُدَاجِن، ومَغْثِ المُشَاحِن، وأعُوذُ بِهِ ممَّنْ يَتَعَرَّفُ الحَقَّ بِالرِّجَالِ، أوْ يُحَدِّدُ فَضْلَ الَّلهِ بالآجَال، إنَّهُ ولِيُّ ذلِكَ والقَادِرُ عَلَيْه، وهُوَ حَسْبِي ونِعْمَ الوَكِيل .

السِّمْطُ الأوَّل

في الأمثال وما يلتحق بها

الكلام في المقدمات، وفيه أربعة فصول :

الفصل الأول : في معنى الـمَثَـلِ والـحِكْمَة. أما الأول وهو الـمَثَـلُ بفتحتين يَـرِدُ على ثلاثة أَضْرُبٍ :

الأوَّل : الشَّبَـهُ، يقال : « هذا مَثَـلُ ذلك » أي شَبَـهُهُ ؛ ويقال أيضا : « هو مِثْلُه بكسر فسكون، ومَثِيلُه، كما يقال شَبَـه وَشِبْـه وَشَبِيه.» فاذا قيل : « هو مُثَيْلُهُ، وهم أُمَيْثَالُهم بالتصغير » فقد أُريد أنَّ الـمُشَبَّه حقير، كما أن هذا حقير. ومن هذا قولهم : مُسْتَرَادٌ لِمِثْلِهِ، أي مِثْلُه يُطلَبُ ويُشَحُّ عليه. ومنه الأمثل من الناس وهو الأفضل ، لأن معناه الأشبه بالأفاضل والأقرب الى الخير، وأماثل القوم خِيَارُهُم. قال تعالى : **إذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً. ويَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الـمُثْلَى**، أي التي هي أشبه بالحق والفضيلة، وهي تأنيث أمثل ـ وتقول : مَثَّلْتُ الشيء بالشيء اذا شبّهته به تمثيلا وتَمْثَالا بفتح التاء، كالتَّسيار والتَّطواف. وأما التِّمثال بالكسر فالصورة المصوَّرة، جمعُها تماثيل. يقال : مَثَّلَهُ لَهُ أي صَوَّرَهُ له حتى كأنه ينظر إليه. وتَمَثَّل تصور. قال تعالى : **فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيّاً.** **وتَمَاثَلَ الشَّيْئَان : تَشَابها. ومَثَلُ الشَّيْءِ : مقداره. وقولهم : مَثَلْتُ بفلان مُثْلَةً، ومَثَّلْتُ به تَمْثِيلاً : أيْ نَكَّلْتُ به وأوقعت به عقوبة، من هذا، لأن معناه أنه جعله مِثَالاً يَرْتَدِعُ به الغيرُ.**

الضرب الثاني : الصِّفَة. قال تعالى : **مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ**، أي صفتها ونحو هذا، وهو كثير في القرآن. وقال تعالى : **لِلَّذِينَ لا يُومِنُونَ بِالآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ ولِلَّهِ الـمَثَلُ الأعْلَى**، أي لهم الصفات الذميمة وله الصفات العُلَى. ويقال في هذا المعنى أيضا : مثال.

الضرب الثالث : الـقَـوْلُ السَّائِرُ الـمُـشَـبَّهُ مَضْرِبـُهُ بِـمَـوْرِدِهِ، وعلى هذا الوجه ما ضَرَبَ اللّهُ تعالى من الأمثال في القرآن. قال تعالى : وَتِـلْـكَ الأمْـثَـالُ نَـضْـرِبُـهَـا لِـلنَّـاسِ الآية. وعلى هذا شاع إطلاق اسم المثل اذا أطلق.

وقال الراغب : المَـثَـل يقال على وجهين : أحدهما بمعنى المِـثْـل، نحو شَـبَـه وشِـبْـه، ونَـقَـض ونِـقْـض، قال بعضهم : وقد يعبَّر بهما عن وصف الشيء، نحو قوله تعالى مَـثَـلُ الـجَـنَّـةِ الآية. والثاني عبارة عن المشابهة لغيره في معنى من المعاني، أيّ معنى كان، وهو أعم الألفاظ الموضوعة للمشابهة. وذلك أن النِّـدَّ يقال فيما شاركه في الجوهرية ؛ والشَّـكْـل يقال فيما شاركه في المساحة ؛ والشِّـبْـه يقال فيما يشاركه في الكيفية فقط ؛ والمُسَاوِي يقال فيما يشاركه في الكميّة فقط. والمِـثْـل عامّ في جميع ذلك. ولهذا إنما أراد الله تعالى نفي التشبيه من كل وجه خصه بالذكر فقال : لَـيْـسَ كَـمِـثْـلِـهِ شَـيْءٌ انتهى.

وقد ذكر غيره أن المماثلة هي المساواة من كل وجه، والمشابهة في أكثر الوجوه. والمناظرة هي المساواة من كل في شيء من الوجوه ولو في واحد، فيكون كل واحد من هذه الألفاظ الثلاثة أعمّ مما قبله. وكل ذلك مخالف لما في متون اللغة من تفسير المثل بالشبه، والعكس كما أوردناه قبل، ومخالف لظاهر صنيع البلغاء في باب التشبيه، حيث قسموا أوجه الشبه الى ما يرجع الى الشكل، وما يرجع الى المقدار، وما يرجع الى الكيفية، وغير ذلك، وسموا كل ذلك تشبيها وهو من الشبه، والأمر في هذا قريب. اذا عرفت هذا فاعلم أن مقصودنا من المثل بالذات في هذا الكتاب هو ثالث الأقسام السابقة وهو المثل السائر.

وللناس في تعريفه عبارات. فقيل ما مرَّ من أنه القولُ السائرُ الـمُـشَـبَّـهُ مَـضْـرِبُـهُ بِـمَـوْرِدِهِ ؛ وقيل هو قول مركب مشهور شُبِّـهَ مَـضْـرِبُـهُ بِـمَـوْرِدِهِ، وهما بمعنى. فقَـيْـدُ السائر والمشهور يُـخرج ما لم يَـشْـتَـهِـرْ وَيَـسِـرْ من الأقوال كلها. وقيل تشبيهُ الـمَـضْـرِبِ أي المحلّ الذي ضُرِب فيه الآن بالـمَـوْرِد أي المحل الذي وَرَدَ فيه أوَّلاً يُـخْـرِجُ ما اشتهر ولم يَـقَـعْ فيه هذا التشبيهُ ككثير من الحِـكَـمِ والأوامر والنواهي الشرعية مثلا. وقيل الـمَـثَـلُ هو الحُجَّة، وهو صحيح لأنه يُـحْـتَـجُّ بِـهِ كما سيتبين في فائدته.

وقال المرزوقي : الـمَـثَـلُ جملةٌ من القول مُـقْـتَـضَـبَـةٌ من أصلِـها أو مُـرْسِـلِـها بذاتها، تَـتَّـسِـمُ بالقبول وتشتهر بالتداول، فتنتقل عما وردت فيه الى كل ما يصح

قصدُه بها من غير تَغَيُّرٍ يلحقها في لفظها، وعَمَّا يُوجبه الظاهر الى أشباهه من المعاني. ولذلك تضرب وإن جُهِلت أسبابُها التي خرجت عليها، واستجيز من الحذف ومُضَارِعِ ضرورات الشعر فيها ما يُسْتَجَازُ في سائر الكلام.

وقال الراغب : الـمَثَلُ عبارةٌ عن قول في شيءٍ يُشْبِهُ قولاً في شيء آخرَ بينهما مشابهةٌ لِيُبَيِّنَ أحدُهما الآخرَ ويُصَوِّرَه، نحو قولهم : « الصَّيْفَ ضَيَّعْتِ اللَّبَنَ » فَإنّ هذا القول يشبه قولك :« أهْمَلْتَ وقتَ الامْكَانِ أمْرَكَ.»

قلت : وتلخيص القول في هذا المقام أن المَثَلَ هو قولٌ يَرِدُ أوّلاً لسبب خاص، ثم يتعداه الى أشباهه فيُسْتَعْمَلُ فيها شائعا ذائعا على وجه تشبيهها بالـمَوْرِدِ الأول ؛ غير أن الاستعمال على وجهين :

أحدهما أن يكون على وجه التشبيه الصريح، سواء صُرِّحَ بالأداة كقولهم :« كَمُجِير أمّ عامر.» وقولهم :« كالحَادِي ولَيْسَ لَهُ بَعِير.» أوْ لَمْ يُصَرَّحْ كقولهم : « تَرَكْتُه تَرْكَ الصَّبِيِّ ظِلَّه.» وهو كثير.

الثاني ان لا يكون على وجه التشبيه الصريح كقولهم : « الصَّيْفَ ضَيَّعتِ اللَّبَنَ.» ؛ وقولهم :« هَانَ عَلَى الأمْلَسَ مَالاَقَى الدَّبِر » ونحو ذلك، وهو أكثر من الأول.

أما الوجه الأول فهو تشبيه من التشبيهات، إلا أنه سَارَ وذَاعَ في بابه فَعُدَّ مثلا سائراً لِمَا عَرَفْتَ من أن التشبيه كلّه تمثيل. ومِنْ ثَمَّ تجد قدماء اللغويين وأهل العربية يطلقون الـمَثَلَ على الـمَجَاز[1]، ويقيدون ما كان سائراً منه بالمثل السائر أو بأنه من أمثال العرب ليفهم ذلك.

وأما الوجه الثاني فهو في مَوْرِدِه لا تَشْبِيهَ فيه، ولكن يُستعمل في مَضَارِبِه على وجه تشبيهها بالـمَوْرِد من غير تصريح (بالتشبيه)[2]، بل على أن يستعار اللفظ المستعمل في المورد الأول للشيء الشبيه بذلك. فقول القائل أوّلاً للمرأة التي طلّقها : « الصيفَ ضيعتِ اللّبن » لا يريد تشبيها أصلاً ؛ وإنما أراد أنـّك فَرَّطْتِ في اللبن

1) في جـ المجاوزة وصحح في طرته : مجاز.
2) سقط من جـ

وتسببت في ضياعه عند زمن الصيف، إذ كنت تطلبين فراقي. ثم إنك أنت اليوم إذا رأيت أحداً فرط في حاجة زمن إمكانها، ثم جعل يطلبها وقد أدبرت، ساغ لك أن تشبه هيئته بهيئة مَن ترك اللبن أو محله في وقت، ثم جعل يطلبه في وقت آخر، فتقول له لأجل هذه المشابهة : « الصَّيْفَ ضَيَّعْتَ الَّلبَنَ.» أي حالتُك هذه حالةُ التي قيل لها : « الصَّيْفَ ضَيَّعْتِ الَّلبَنَ » ولأجل هذا المعنى وهذا التقدير، تَنْقُلُ لفظ الْمَثَلِ كما قيل أوّلاً من غير تغيير، حتى إنك في هذا المثل بعينه تكسر التاء في ضيعت وان كنت تخاطب ذكرا. وهكذا سائر الأمثال، وهذا يُسمى عند الأدباء استعارة تمثيليّة، ويُسمى التمثيل على سبيل الاستعارة، وهي أحد قسمي الاستعارة التصريحية التي هي أن تُشَبِّه شيئًا بشيء، ثم تنقلَ لفظَ المشبَّهِ بِهِ [3] وتطلقه على المشبه لأجل هذا التشبيه إطلاقًا كانه وضع له من غير تصريح بالتشبيه ولا بالمشبّه به على وجه يشعر بالتشبيه ؛ غير أن لفظ المشبه به قد يكون مفردا كلفظ الأسد الذي تنقله من السبع الموضوع هو له أوّلاً الى الرجل الشبيه به في الجرأة. وقد يكون مركبا كلفظ « الصيف ضيعت اللبن » الذي تنقله من هيئة من ضيّع اللبن الى هيئة من ضيّع حاجةً من الحوائج. وهي الاستعارة في التركيب والتمثيلُ على سبيل الاستعارة. والأمثال الداخلة في الوجه الثاني كلها من هذا النمط. وقد سمعت تقرير ذلك وعرفت وجه عدم تغييرها، اذ كما ان المفرد اذا نُقل على وجه الاستعارة لا سبيل الى تغييره، كذلك المركب.

فان قيل : فقد ظهر في الوجه الثاني ان للمثل مورداً ومضربًا، وان الثاني يُشَبَّهُ بالأول [4] ؛ وأما في الوجه الأول فأنما ذلك مجرد تشبيه سائر يشترك فيه الناس كلهم، فَأنَّى يكون به مورد خاص ؟ وفي معناه [نحو][5] قولهم :« أعَزُّ مِن مُخِّ الْبَعُوض »، و « أكْفَرُ مِنْ حِمَار »، ونحو ذلك وهو كثير، فكيف يُعْقَلُ في هذا كله ما ذكر في تعريف المثل من تشبيه المضرب بالمورد حتى يشمله التعريف ؟

قلنا :لا يلزم من كونه تشبيها أن لا يسبق إليه ناطق (ينطق به أولاً في شيء من

---

3) في جم زيادة ولا المشبه، وهو تحريف.
4) في جم سقطت الباء : يشبه الأول.
5) زيادة في جم

الأشياء، بل لا مرية في أنه لا بد أن يتقدم إليه أحد) [6] ينطق به بادىء بدء كما تقول : ان قولهم كَحَاطِبِ لَيْلٍ أولُ من قاله أكْثَمُ بْنُ صَيْفِي، وقولهم : أمْنَعُ مِنْ عُقَابِ الْجَوّ أول من قاله عَدِيٌّ بنُ نَصْرٍ اللَّخْمِيّ في الزَّبَّاء.» وهكذا غيرهما، سواء علمنا نحن ذلك أم لا، لأن هذا شأن الوجه الثاني أيضا. فاذا قاله الأول في شيء كان ذلك (مَوْرِدَه فتُشَبَّهُ به مَضاربُه، ولا فرق إلاّ في أن) [7] التشبيه في هذا صريح دون القسم الثاني. **وهاهنا نظر في أمرين :**

أحدهما أنا قد بينا في الوجه الثاني، وهو التمثيل على سبيل الاستعارة أن التشبيه فيه وقع بين هيئتين، وعلى ذلك قررها علماء البيان. ونحن ها هنا [8] اذا قلنا مثلا فيمن أحسن الى من لا يَشْكُر أو يَضُرُّ : هو كَمُجِير أمّ عَامِر، فظاهر اللفظ أنه تشبيه هذا الشخص بذلك الشخص، لا الصورة بالصورة، وإن كان يصحُّ أن يقال : المراد أن حالة هذا الشخص كحالة المجير على تقدير المضاف ؛ لكنا في غنى عن هذا التقدير.

الثاني : ان المُشَبَّه به هنا مثلاً أو بِحَالَتِه هو مُجِير أمّ عامر حقيقةً أعني الشخص الذي أجارها فَبَقَرَتْ بَطْنَه وهو عنصر المَثَلِ ومادّتُه. لكنّ لفظ المثل انما وقع بعد ذلك بأن رُئِيَ شخصٌ شبيهٌ به فقيل : هو كَمُجِيرِ أمّ عَامِرٍ، ثُمّ سَارَ وشَاع. فإن جَعَلْنا الذي صدَرَ فِيهِ هذا التشبيهُ أوّلَ صُدُورِه مَوْرِدًا، فليس هو الذي تُشبَّه سائرُ المَضَاربِ بهِ، بَلْ هَذا المَوْرِدُ بِعَيْنِهِ وكلُّ مَا بَعْدَه مُشَبَّهاتٌ بِالْمُجِيرِ الحَقِيقِي. وان جعلنا المورد هو العنصر الأول، فهو لم يقع عليه لفظ المثل حتى يُنْقَلَ منه الى شيء آخر ويقالَ إنه شُبّه بما ورد فيه أولاً، وانما وقع بعده. على أن لِقائل أن يقول أيضا : يصح أن يكون الناس في هذا مثلا سمعوا حديث مجير أم عامر، فجعلوا يُشَبّهُون كلّهم. فمن الجائز أن يرَى ذلك جماعةٌ أو يسمعوه، ثم يُشَبِّهَ كلٌّ واحد على حِدَةٍ من غير أن يكون لذلك سابقٌ مخصوصٌ يُتَّبَعُ ويُجْعَلُ مكانُ تَشْبِيهِه مَوْرِدًا. وهكذا كلّ ما يُشْبِهُ هذا المَثَلَ. فقد علِمْتَ بهذا أنّ هذا الوَجْهَ مُخَالِفٌ للوجه [الثاني][9]، وأنّ في التعاريف السابقة ما فيها إلا

---

6) ما بين قوسين سقط من ب.
7) ما بين قوسين سقط من ب
8) في ج زيادة : (لم يقع اللفظ) ولا معنى لها.
9) سقط من ج.

على تسامح أو على أنها دائرة على الوجه الثاني فقط دون الأول، وهو بَعِيد" إلا أن يَكُونَ ثَمَّ اصطلاح".

وأعلم ان المثل بهذا المعنى الثالث ما خوذ" من المعنى الأول وهو الشبه، لأنه تمثيل، إلا أنه سائر. وقيل من المثال وهو المقدار كما سبق، لأنه يجعل مقياسا لغيره. وهو راجع الى ذلك أيضا. وقيل انما سمي مثلا لانه مَاثِل" لخاطر الانسان أبدا يَتَأسَّى به ويعظ ويأمر ويزجر. والماثل : الشاخص المنتصب من قولهم : طَلَل" مَاثِل، أي شاخص. وقد يقال : رسْم" مَاثِل أي دارس، وهو من الأضداد. اذا عرفت هذا كله وعرفت معنى استعمال لفظ المَثَل في المَضْرِبِ تشبيهًا بِالمَوْرِد، فاعلم أن ذلك هو معنى ضَرْبِ المثل. يقال : ضرب الشيءَ مثلا، وضَرَبَ بِه، وتَمَثَّلَه، وتَمَثَّلَ بِه ؛ وهو معنى قول بعضهم : ضَرْبُ المَثَلِ اعْتِبارُ الشيءِ بغيره وتَمْثِيلُه به. وفسَّر المفسرون ضَرْبَ المَثَلِ الواقعَ في قوله تعالى : **إنَّ اللَّهَ لاَ يَسْتَحْيِى أنْ يَضْرِبَ مَثَلا** الآية، وقوله : **وتِلْكَ الأمْثَالُ نَضْرِبُهَا للنّاس** الآية، بالتَّبْيِين والجَعْل والوصف.

وفي **الكشَّاف** : ضَرْبُ المِثَالِ : اعتمادُه وصُنْعُه.

وقال الراغب : الضَّرْبُ : إيقاعُ شيءٍ على شيء. وبِتصَوُّرِ اختلافِ الضَّربِ خُولف بين تفاسيرها، كضَرْبِ الشيءِ باليد والعصا والسيف ونحوها، وضَرْبِ الأرضِ بِالمَطَر، وضربِ الدّرهمِ اعتبارا بضربِه بالمِطْرَقَة، وقيل له الطبعُ اعتبارا بتأثير السكة فيه. وبذلك شبه السَّجِيَّة فقيل لها الضريبةُ والطبيعةُ، والضَّرْبُ في الأرض الذهابُ فيها وهو ضربُها بالأرْجُل، وضَرَبَ الْفَحْلُ النّاقَةَ تشبيهًا بالضرب بالمطرقة، كقولك : طَرَقَها تشبيهًا بالطَّرْقِ بالمطرقة، وضَرَبَ الْخَيْمَةَ لِضَرْبِ أوْتَادِها بالمِطرقة. وتشبيهًا بضرب الخيمة قال تعالى : **ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ**، أي الْتَحَفَتْهُمُ الذِّلَّةُ التِحافَ الخَيْمَةِ بِمَنْ ضُرِبَتْ عليه. ومنه اسْتُعِير **فَضَرَبْنَا عَلَى آذانِهم في الْكَهْفِ**، وضَرْبُ اللّبَنِ بعضِه ببعض بالخَلْط، وضَرْبُ المَثَلِ مِنْ ضَرْبِ الدّراهم وهو ذِكْرُ شيءٍ أثَرُهُ يَظْهَرُ في غيره. قال الله تعالى : **ضَرَبَ اللّهُ مَثَلا عَبْدا مَمْلُوكًا** انتهى [10].

10) تصرف اليوسي بالحذف في هذا النص الذي نقله من كتاب المفردات في غريب القرآن للراغب الاصفهاني. انظر النص بتمامه في كتاب المفردات ، ص. 294 ـ 295.

وقيل : ضَرْبُ المَثَلِ ماخوذٌ من الضَّرِيب أي المثيل [له]. تقول : هو ضَرِيبُه، وهما من ضَرْبٍ واحد، لأنه يُجْعَلُ لِلْأوّل مَثَلٌ. وقيل : مِنْ ضَرْبِ الطين على الجدار، وقيل : من ضرب الخاتم ونحوه، لأن التطبيق واقع بين المَثَلِ وَمَضْرِبِهِ كما في الخاتم على الطابع.

وأما الأمر الثاني وهو الحِكْمَةُ، فللناس في معناها أقوالٌ عدة. واعلم أولاً أن الحكمة هي فِعْلَةَ من الحُكْم أو الاحْكَام. أما الحكم فيرد بمعنيين : أحدهما القضاء ؛ يقال : حَكَمَ الشَّارعُ أو القاضي بكذا حُكمًا بضم فسكون ؛ الثاني العِلْم ؛ يقال : حكم حكما وحكمة. وأما الاحكام فيكون أيضا بمعنيين : أحدُهما الاتقان ؛ يقال : أحكم فلانٌ كذا إحكامًا إذا أتْقَنَه ؛ الثاني المنع ؛ يقال : أحكمتُ السفيهَ وحَكَمْتُه أيضًا أي منعته وأخذت على يده. قال جرير :

أبَنِي حَنِيفَةَ أحْكِمُوا سُفَهَاءَكُم

إنِّي أخَافُ عَلَيْكُمُ أنْ أغْضَبَا

وأحْكَمْتُ الفَرَسَ وحَكَمْتُه جعلت له حَكَمَةً. والحَكمة بفتحتين ما أحاط بِحَنَكَي الفَرس وعلى أنفه من اللجام. وفيها العذاران. قال زهير :

القائد الخَيْلِ مَنْكوبًا دَوَابِرُها[11]

قَدْ أحْكِمَتْ حَكَمَاتِ القِدِّ والأبَقَا

والقَدُّ الجِلْدُ، والأبَقُ شِبْهُ الكَتَّانِ. ويقال : هو القَنَّبُ وكانت تُصْنَع منه الحَكَمَاتُ عند العرب، لأن غرضهم الشِّدَّةُ والشجاعة لا الزينة. إذاعرفت هذا فقيل : الحِكمة هي العمل، وقيل : الاتقان، وقيل : العدل، والحِلْم، والنبوءة، والقرآن، والانجيل. وقيل : كل ما منع من الجهل وزجر عن القبيح. قال عياض في قوله صلى الله عليه وسلم : الحِكْمَةُ يَمَانِيَةٌ، الحكمة عند العرب كل ما مَنَع من الجهل، وبذلك سُمِّي الحاكمُ لمنعهِ الظالمَ. ومنه في الحديث : إنَّ مِنَ الشِّعْرِ

[11]) في النسختين معا : دوائرها. والتصحيح من ديوان زهير بشرح ثعلب. والدوابر : مآخير الحوافر، يريد أن حوافرها تآكلت من كثرة السير.

لحكمة، أي ما يمنع من الجهل وينفع وينهى عنه. والحكم والحكمة بمعنى واحد. وقد قيله ذلك في قوله : وآتَيْنَاه الْحُكْمَ صَبِيًّا. وقيل : حِكْمَةً أي عدلا يدعو الى الخير والرشد ومحامد الأخلاق. وقيل الحكمة إصابة القول من غير نبوءة. وقيل ذلك في قوله : اللهُمَّ عَلِّمْهُ الْحِكْمَةَ. وقيل : الحكمة العلم بالدين. وقيل : العلم بالقرآن وقيل : الفقه. وقيل : الخشية. وقيل : الفهم عن الله في أمره ونهيه. وهذا كله يصح في معنى قوله : الحكْمَةُ يَمَانِيَةٌ" وقوله : عَلِّمْهُ الْحِكْمَةَ لا سيما مع قوله : الفقه يمان. وقد قيل : الحكمة النبوءة. وقيل هذا في قوله : يُوتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاء انتهى.

وقال ابن عطية : اختلف الناس في الحكمة في هذه الآية، فقال ابن عباس : المعرفة بالقرآن فقهه وناسخه ومنسوخه ومُحْكَمِه ومُتَشَابِهِه وغَرِيبِه. وقال قتادة : الحكمة الفقه في القرآن. وقال مجاهد : الحكمة الاصابة في القول والفعل. وقال ابن زيد، وأبوه زيد ابن أسلم : الحكمة العقل في الدين. وقال مالك : الحكمة المعرفة بالدين والفقه فيه والاتباع له. وروى عنه ابن القاسم أنه قال : الحكمة التفكر في أمرالله والاتباع له. وقال أيضا : الحكمة العقل في الدين والعمل. وقال الربيع : الحكمة الخشية. ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم : « رَأْسُ كُلِّ شَيْءٍ خَشْيَةُ اللهِ تَعَالَى » وقال ابراهيم : الحكمة الفهم. وقال الحسن : هي الورع. انتهى. وقال النووي : الحكمة فيها أقوال كثيرة مضطربة، اقتصر كل من قائليها على مقتضى صفة الحكمة. وقد صفا لنا منها أنها عبارة عن العمل المتصف بالإحكام، المشتمل على المعرفة بالله تعالى، المصحوب بنفاذ البصيرة، وتهذيب النفس، وتحقيق الحق والعمل به، [12] والصد عن اتباع الهوى والباطل ؛ والحكيمُ من له ذلك. وقد تطلق الحكمة على القرآن، وهو مشتمل على ذلك. وقد يطلق على العلم فقط، وعلى المعرفة فقط، ونحو ذلك. انتهى. وقال بعضهم : أصح ما قيل في الحكمة أنها وضع الشيء في محله، أو الفهم في كتاب الله. انتهى. وردَّ الغزالي الحكمة الى العقل. قال في كتاب تهذيب النفس من الاحياء أمهات الاخلاق وأصولها أربعة : الحكمة، والشجاعة، والعفة، والعدل قال : ونعني بالحكمة حالا للنفس بها تدرك الصواب من الخطإ في جميع الأفعال الاختيارية. وقال الراغب : الحكمة إصابة الحق بالقول والفعل. فالحكمة من الله تعالى

12) في ب : والعلم به.

معرفة الأشياء، وإيجادها على غاية الاحكام ؛ ومن الانسان معرفة الموجودات، وفعل الخيرات. وهذا هو الذي وصف به لقمان في قوله ولَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ، ونبه على جملتها بما وصفه بها. فإذا قيل في الله هو حكيم، فمعناه بخلاف معناه اذا وصف به. ومن هذا الوجه قال : أَلَيْسَ اللّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ. واذا وُصِف به القرآن، فَلِتضمنه معنى الحكمة، نحو : الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ. وقيل : الحكيم المُحْكَم، نحو أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ. وكلاهما صحيح، فانه مُحْكَمٌ ومفيد لِلْحكم، ففيه المعنيان.انتهى.

والعبارات عنها كثيرة، ولا حاجة الى التطويل بها، فان مرجعها شيء واحد ؛ وإنما سبب الاختلاف كثرة اللوازم والخواص، فعبّر كل عنها بما حضره من خواصها. نعم، ربما يظهر من بعض العبارات السوابق ان الاختلاف حقيقي كالقول بأنها إصابة القول من غير نبوءة، مع القول بأنها النبوءة، ونحوه. لكن جلّ ما تقدم حائم على الاصابة في الأقوال والأفعال والفهوم. وفعلها حَكُمَ بالضم ؛ يقال : حَكُمَ الرجل كشَرُفَ، فهو حكيم قال النَّمِرُ بْنُ تَوْلَب :

وأبْغِضْ بَغِيضَكَ بُغْضًا رُوَيْدًا   إذا أنْتَ حَاوَلْتَ أنْ تَحْكُما[13]

أي أن تكون حكيما. وقال النابغة :

أحكُمْ كحُكم فَتاةِ الحيِّ إذْ نَظَرَتْ   إلَى حَمَامٍ شِرَاعٍ وَارِدِ الثَّمَدِ

يقول : أصِبْ في أمري ولا تخطىء كإصابة الزرقاء في عَدّ الحمام، ولا تَقْبَلْ قَولَ مَنْ يسعى إليك فيَّ. وقيل : أراد الحكم بمعنى القضاء. وفعله بالفتح كما مرَّ. والحكم أعمّ من الحَكمة، كما قال الراغب : فكل حكمة حكم، وليس كل حكم حكمة. **قلت** : وهو صحيح في الحكمة الخبرية. وقد علمت أن الحكمة تكون في الأعمال والأخلاق أيضا كما سنبينه. فبهذا تكون أخص من وجه لا مطلقا. وتقدمت الاشارة الى الخلاف في اشتقاق الحكمة أيضا فقيل : من الاحْكَام وهو الاتقان ؛ وقيل : من المنع كمامر أخذًا من حَكَمَةَ اللجام. وتقدَّم اللفظان معا وهو فائدة تقديمنا لشرح المادة. والكل محتمل، والأقرب المنع.

13) النمر بن تولب صحابي مخضرم. وهذا البيت من قصيدة له مطلعها :

سَلاَ عَنْ تَذَكُّرِهِ تُكْتَمَا   وكَانَ رَهِينًا بها مُغْرَمَا

وتُكْتَم : اسم محبوبته. وقبل البيت الذي استشهد به اليوسي :

وأحْبِبْ حَبِيبَكَ حُبًّا رُوَيْدًا   فَلَيْسَ يَعُولُكَ أن تَصْرِمَا

ولا يبعد ان يكون الاحكام الذي هو الاتقان من المنع أيضا، كأن المُحْكَمَ قد مُنع من الاختلال والفساد، وأبْعِدَ عن مظانّ العيب والاعتراض. وتقدم أن الـحُكْم الذي هو القضاء هو أيضا منعٌ للظالم، فصارت المادة كلها من المنع، والله أعلم. فإذا تتبّعنا متفرقات المعاني المقولة في الحكمة على مامرَّ وجمعناها، تلخّص من ذلك أنها تتعلق بالقلوب وبالجوارح من الأيدي والألسنة. أما في القلوب، فعلى معنى الاصابة في اعتقاداتها وتصورها للأشياء وفي أخلاقها من الحلم، والعفو، والعفّة، والعدل، ونحو ذلك. وأما في الأيدي فعلى معنى الاصابة في أفعالها وإتقان صنائعها ؛ وكذا غيرها من الأعضاء بالجري على السنن في أفعالها، وكذا القصود. وأما في الألسنة فعلى معنى الاصابة في التعبير عن المعاني بإصابة المحز وتطبيق المفصل. غير أنا نقول : لابد في هذا كله عند إطلاق لفظ الحكمة ولفظ الحكيم عند أهل كل عرف من اعتبار دقة في ذلك، ولطافة، ونوع غرابة، وعظم فائدة، باعتبار أهل ذلك العرف، حتى يكون المعنى بالاصابة المذكورة إصابة خاصة لا مطلق الاصابة، للقطع بأنا لا نسمي اليوم من قال الله واحد ومحمد رسوله صلى الله عليه وسلم حكيما وان كان في غاية الاصابة ؛ ولا من بنى بناء معتادا، أوصاغ صياغة معتادة. وقد نبه على هذا المعنى بعضهم في قوله صلى الله عليه وسلم الكَلِمَةُ الحِكمَةُ ضالَّةُ المومِنِ. فقال : المراد بالكلمة الجملة المفيدة، والحكمة التي أحكمت مبانيها بالعلم والعقل، وتدل على معنى فيه دقة. انتهى. ولأجل هذا يقال : أنزلت الحكمة على ثلاثة أعضاء في الجسد : قلوب اليونان، وألسنة العرب، وأيدي أهل الصين. وما ذلك الا لاختصاص اليونان بمزية التبحر في علم الأشياء ومعرفة القوانين واتقان البراهين، واختصاص أهل الصين بمزية عمل الصنائع العجيبة وإتقان الأعمال الغريبة ؛ واختصاص العرب بمزية إبانة المعاني العجيبة، والأمثال والمواعظ المفيدة، في أشعارها وخطبها. ومن ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم : إنَّ مِنَ الشِّعْرِ لَحِكْمَةً. ودخل العجاج على عبد الملك بن مروان فقال : ياعجاج، بلغني أنك لا تقدر على الهجاء. فقال : يا أمير المؤمنين، من قدر على تشييد الأبنية أمكنه خراب الأخبية. قال : فما يمنعك من ذلك ؟ قال : إن لنا عِزّاً يمنعنا من أن نُظْلَم، وإن لنا حِلْمًا يمنعنا من أن نَظْلِم، فَعَلاَمَ الْهِجَاءُ ؟ فقال عبد الملك :

لـكـلـمـاتـك أشعرُ من شعرك ؛ فأنَّى لك عزّ يمنعك من أن تُـظْـلَـم ؟ قال : الأدب البارع، والفهم الناصع. قال : فما الحلم الذي يمنعك من أن تَـظْـلِـم ؟ قال : الأدب المستطرف، والطبع التالد. قال : ياعجاج، لقد أصبحت حكيما. قال : وما يمنعني وأنا نجيّ أمير المؤمنين ؟. انتهى.

وستسمع إن شاء الله من كلام حكماء العرب ما تقـضي منه الأرب. والكلام المذكور هو أيضا مصداق ما مرّ من تعلق الحكمة بالقلوب والألسنة وسائر الجوارح، والله الموفق.

وقد اتضح من هذا الفرق بين المَـثَـل والـحِـكْـمة، وذلك فيما يحضر فكري الآن من ثلاثة أمور : أحدها أن الحكمة عامة في الأقوال والأفعال، والمثل خاص بالأقوال. ثانيها أن المثل وقع فيه التشبيه كما مرّ، دون الحكمة. ثالثها أن المقصود من المثل الاحتجاج، ومن الحكمة التنبيه والاعلام والوعظ. ويرد على الأول أنه فرق بحسب أعمّيّة المورد، ولا مساس له بالحقيقة. فلم يفد الا أن الحكمة الفعلية تُباين المثل ولا نزاع فيه، وليس بمفيد في الأقوال اذا تنوزع فيها أن شيئا منها حكمة أو مثل. على أنه قد يكون التمثيل بالفعل أيضا كتصوير شكل المثلث لمن لا يعرفه. ومن ثم يعد من جملة الرسوم المعرفات للأشياء التعريف بالمثال. ويرد على الثاني أنه ان عُـنِـي تشبيه الـمَـضْـرِبِ بِـالْـمَـوْرِد حقيقة، فقد مرّ أن نوعا كبيرا من الأمثال لا يجري فيه ذلك على ما ينبغي ؛ وإن عُـنِـي مطلق التشبيه، فهو واقع في الحكم كثيرا، كقولهم : مَـنْ فَـسَـدَتْ بِـطَـانَـتُـهُ كان كَـمَـنْ غَـصَّ بِـالْـمَـاء. على أنه قد عدّ من الأمثال مالا تشبيه فيه أصلا بوجه كقولهم : مَـنْ قَـرَعَ الْـبَـابَ وَلَـجَّ وَلَـجَ. وقولهم : « الرِّبَاح مَـعَ السَّمَـاح » ونحو ذلك. ويرد على الثالث أن الاحتجاج صحيح في الحكم أيضا، بل جلّها قضايا كلّيات وقوانينُ تُـورَدُ بحيث تصلح في كل أمر أن تكون حجة فيه محذوفا إحدى مُقَـدّمَـتَـيْـها. فاذا قلنا : مَـنْ فَـسَـدَتْ بِـطَـانَـتُـهُ كَـانَ كَـمَـنْ غَـصَّ بِـالْـمَـاءِ. أمكن أن نقول : إن فلانا فسدت بطانته، وهو المقدمة الباقية، فيعلم أن فلانا هو كمن غص بالماء. وهذا الاستدلال هو الكاشف عن الصواب والخطأ في الأنظار والعلوم، وهو معنى الحكمة بالحقيقة ؛ وانما قلنا جل الحكم قضايا، لأن ذلك هو

الصريح، وقد يكون منها غير ذلك، كالأوامر والنواهي ؛ لكنها تتخذ قضايا بحسب اللزوم. فالحِكَم كلها تصلح للاحتجاج، وهي بصدده كالأمثال ؛ على أن الأمثال ليست كلها بصدد الاحتجاج، بل هي بالاصالة للتصوير ؛ وانما تصلح للاحتجاج عندما يراد بها التصديق من مدح، أو ذمّ، أو تزيين، أو تشويه، أو إظهار رغبة في شيء، أو عدم مبالاة، أو نحو ذلك على ما ستقف عليه قريبا إن شاء الله.

ويجاب عنها، أما أولا فبأن القصد الفرقُ بين المثل والحكمة مطلقا أعمّ من الموردي والحقيقي، وهذا كاف في الأول وليس مقتصرا عليه حتى يعدّ قاصرا. وأما ثانيا فبأنا نعني تشبيها خاصا لا مطلقا، أما في الوجه الثاني من الأمثال فهو تشبيه الـمَضْرِبِ بِالْمَوْرِدِ كما مرّ. وأما في الأول فلا يخفى ان لم يكن فيها ذلك على وجهه أن فيها تشبيها بعنصر خاص معين هو سبب جريان ذلك الكلام ووقوع ذلك التشبيه على ما تقدم توضيحه، وليس ذلك بمنظور في الحكم. وأما ثالثا فبأن الاحتجاج في المثل واقع بالفعل حيثما أطلق على سبيل الخصوص، والحكمة انما تراد عامّة على وجه الصلاح للاحتجاج بها في الخصوصيات لا على الفعل، فالاحتجاج خلاف الاحتجاج. نعم، يبقى من الامثال ما لم يقَع فيه تشبيه لا صريحا ولا مقدرا. والحق أن من الأمثال مالا يشتبه بالحكمة في وِرْدٍ ولاَ صَدَرٍ، نحو : الصَّيْفَ ضَيَّعْتِ اللَّبَنَ، ومن الحكم مالا يشتبه بالمثل ككثير من الحكم الانشائية، ويبقى وراء ذلك وسط يتجاول فيه الفريقان كالمثُل السابقة. فإن كثيرا منها قد يعدّ مثلا تارة، وحكمة تارة، ولا فرق فيما يظهر الا بالحيثية، وهي أنها إن سيقت مُلاَحَظًا فيها التشبيهُ فمثل ؛ وإن سيقت مُلاحَظًا فيه التنبيه أو الوعظ أو إثبات قانون أو فائدة ينتفع بها الناس في معاشهم أو معادهم فحكمة. وهذا معروف بالاستقراء، وشاهده الذوق بعد معرفة أن مرجع الحكمة الاصابة، ومرجع المثل التشبيه كما مرّ، حتى إن من يضرب للناس أمثالا غريبة ينتفعون بها يصح أن يقال إنه حكيم لأنه مصيب في ذلك المثل الذي ضربه، وهكذا يقال في التمثيل الفعلي السابق. فإن من صوّر صورة المسدس مثلا عدّ منه ذلك تمثيلا من حيث التشبيه، وحكمة من حيث الاصابة والاتقان، ولا تَنَافِي بين الغرضَيْن. ومن وسع نطاق هذا الاعتبار أمكنه في كل مثل وحكمة هذا المقدار، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الفصل الثاني : في فائدة المَثَلِ والحِكْمَةِ وفَضْلِهما

أما الأول وهو المثل، فلا يخفى على ذي مَيْزٍ ولا يشتبه على ذي لُبٍّ ما جعل الله تعالى فيه من الحكمة، وأودع فيه من الفائدة، وناط به من الحاجة ؛ فإن ضَرْبَ الْمَثَلِ يُوَضِّح الْمُنْبَهِم، ويفتح المُنْغَلِق، وبه يُصَوَّرُ المَعْنَى في الذهن، ويُكْشَفُ الْمُعَمَّى عند اللبس، وبه يقع الأمر في النفس حُسْنَ مَوْقِعٍ، وتَقْبَلُه فَضْلَ قَبُول، وتطمئنُّ به اطمئنانًا، وبه يقعُ إقْنَاعُ الخصم وقطعُ تَشَوُّفِ المُعْتَرِض. وهذا كله معروف بالضرورة، شائع في الخاص والعام، ومتداول في العلوم كلها منقولِها ومعقولِها، وفي المحاورات والمخاطبات، حتى شاع من كلام [عامة][1] المتعلمين والمعلمين قولُهم : بِأَمْثَالِهَا تُعْرَفُ أو تَتَبَيَّنُ الأشْيَاء[2]. وسرُّ ذلك ان المثل يُصَوِّرُ المعقولَ بصورة المحسوس، وقد يُصَوِّرُ المعدومَ بصورة الموجود، والغائبَ بصورة المشاهَدِ الحاضِر، فيستعين العقل على إدراك ذلك بالحواس، فيتقوّى الادراكُ ويَتَّضِحُ المُدْرَكُ. وتحقيق ذلك أن العقول، وإن كانت تدرك المعلومات، لكنها غير مستقلة بنفسها غالبا في إدراك جميعِها ولاجُلِّها استقلالا صرفا لا سيّما القاصرة. وذلك أن العقول إنما تستقلّ بإدراك أوائل الضروريّات التي توجد في غرائزها ولا تدري لها سببًا غير اختراع الفاعل المختار. وما سوى ذلك فالعقول فيها إما مفتقرةٌ الى الحواس، كالمعلومات التجريبية التي موادها محسوسة باحدى الحواس ؛ وإما مسيتعينة بها ضربًا من الاستعانة على طريق التمثيل والتقرير ونحوه. وذلك في غير ذلك. وقد ذهب قوم من الأوائل الى حصر العلوم في المحسوسات، وعَكَسَ آخرون، ونحن لا نقول شيئا من ذلك، وليس هذا محل تقرير المقالتَيْن ولا ردّهما، ولكننا نشير الى ما نحن بصدده نوع إشارة فنقول :

إن الادراك، سواء قلنا انه يكون بالعقل وبالحواس الخمس معا، أو قلنا انه بالعقل فقط

1) سقطت كلمة (عامة) من ب.
2) من الشائع أيضا قولهم : بالمثَال، يَتَّضِحُ المَقَال.

بواسطة الحواس، لا يخفى أنّ ما كان من قبل الحواس الخمس هو أظهر وأسهل، ولذا شاركت فيه الحيواناتُ العُجْمُ الانسان، وأنّ ما لم يكن من ذلك بنوع تعلق اصلا أخفى وأصعب وأسرف،وبمزية الاختصاص به كان الانسان أشرف. فكل ما يدركه بحسب العادة الجارية استقراءً، إما شيء وصل اليه من طرق الحواس، فيقع له فيه بعد تـأدّيهِ إليه منها نوعٌ من التصور ونوع من التصرف بالتحليل والتركيب ؛ وإما شيءٌ لم يـتـأدَّ اليه بالحواس، وهو إما شيء يجِده عند نفسه أوّلا كعلمه بأن الموجود لا يكون معدومًا، وأن الشيء الواحد لا يكون زمانا واحدا في مكانـَيـْن، ونحو ذلك ؛ وإما شيء يجد نظيره عنده بنوع من التشابه، أو يتأدى اليه نظيره من الحواس، كعلمنا بأن لله علمًا وقدرة وحلما وغضبا، لما علمنا في أنفسنا من علم وحلم وغضب، وان كان الحادث خلاف القديم، لكن بينهما ضرب من التشابه ؛ ولولا ما علمناه بالوجدان من ذلك ما قدرنا أن نثبت نظيره في جانب الباري، كما قال تعالى : وفِي أنـْفُسِكُمْ أفَلاَ تـُبْصِرُونَ. وقال صلى الله عليه وصلم : مَنْ عَرَفَ نـَفْسَهُ عَرَفَ رَبـَّه. الاّ أن يخرق الله تعالى العادة في العقل فانه مستعد لكل معلوم، وهكذا سائر الصفات. وكإدراكنا بـَحْرًا من زِئـْبـِقٍ، وجبلاً من ياقوت، فانه لم يتأدّ الى العقل قط من الحواس لعدم وجوده ولا وجود نظيره عنده كالأول ؛ ولكن تأدى اليه نظيره من الحواس، وذلك أنه تأدى إليه البحار من الماء والجبال من الأرض ؛ وهو يعلم أن بحر الماء مثلا متركب من القطرات المائية ؛ فإذا أدرك قطرات الزئبق بمشاهدة الحواس جَوَّزَ أن تتركب وتجتمع اجتماع قطرات الماء، وتَصَوَّر من ذلك بحرًا ؛ وكذا في أحجار الياقوت التي يراها، وما تـُصَوِّرُه القوة الوهمية من أشياء لا حقيقة لها إنما ذلك من هذا القبيل، فإنها تستند الى الحواس فَتـُصَوِّرُ أشياء على سبيل ما تـأدّى إليها منها، الا أنها تـُحِلُّ ذلك حيثُ لا مَحَلّ، كما تـُصَوِّرُ للغول أنيابا وأظفارا. فقد علم ان العقل غير واصل في العادة الى غائبٍ صِرْفٍ من الأمور النظرية ؛ وإنما مَرْجِعُ إدراكه المحسوسُ هو أو نظيرُه بالحس الظاهر أو الباطن أو ما مادّتـُه ذلك. وكثيراً ما يقع له الغلط في البابين لاشتباه الوهم أو لاشتباه الحس حتى فَرَّ الفَارُّونَ الى حصر العلوم في المحسوسات خذارا من الوهم والالتباس الواقع بسببه، وفرَّ الآخرون الى حصرها في المعقولات حِذَارًا من اشتباه الحس،

وهما النوعان المذكوران آنفا، وقد بيّن ذلك في محله. والحق حصول العلم من الجانبين، إلا أن الانسان في مبدإ فطرته ليس عنده غالبا إلا العقل الـهَـيُـولاَئِـيِ الغريزي، وهو في إدراكاته الفعلية شبيه بالبهيمة من حيث إنه إنما يدرك غالبا الأمور المحسوسة، فلا يزال يربو عقله وينمو إدراكه، وكلما ازداد العقل نموا ازدادت النفس من أُلْفة[3] المحسوسات والاستئناس بها والركون اليها أزيد من ذلك وأكثر، كأنها هي السابقة وهي أظهر. فاذا كمل إدراكه شيئًا مّا بحيث أدرك الضروريات واستعدّ للنظريات وصار له عقل بالملكة، كانت النفس إذ ذاك محيطة بمعظم المحسوسات، قوية الاستئناس بها، متمكنة من الألفة بها. فان كان صاحبها [مع] ذلك من العوام التاركين للعلوم والمعارف، وهم الأكثر، فقد اندفع في المحسوسات وأهمل عقله وخاض بنفسه في مألوفاتها، وصار شبيها بالبهائم في أنه لا يدرك [إلا][4] هذه المحسوسات التي تدركها ؛ وإنما يفوقها بضرب من التصرف ضعيف فيها. فمتى ذُكِر لهذا شيءٌ مِمَّا وراء ما يشاهِد ولم يكن من الضروريات الأوائل الحاصلة له وما أشبهها، احتاج غالبا الى أن يُضْرَبَ له مَثَلٌ بشيء مما يشاهد، ويُصَوَّر له بصورته إما فهمًا وإما اطمئنانا واستئناسًا. وان كان من الخواص الخائضين في العلوم وإدراك المعقولات، فقد علمت مما مرَّ أن العقل عادة إنما يدرك بنفسه الضروريات، وما سوى ذلك إنما يدركه بواسطة تأدّيهِ أو تَأدّي نَظِيره إليه من الحواس الظاهرة أو الباطنة. ومع ذلك، فالمُتأدّي إليه انما هو أمر جزئي بالضرورة، فمتى حاول جنسا من ذلك لم يكن الجنس بنفسه من حيث إنه جنس متأديًا بشيء منها، فاحتاج الى أن يُمَثَّلَ بصورة من ذلك الجنس فيدركها لأنها هي التي كانت تتأدى إليه ليقيس عليها غيرها، وبذلك يمكنه أن يدرك القاعدة والقانون، وهو الذي نعني بالجنس في هذا المحل حيث أدرك مادته الا أن يكون له من لطف الادراك وقوة الذكاء ما يستحضرُ به تلك الصُّوَرَ ويَنْتَزِعُ منها مراده من غير أن يُصَوَّرَ منها شيءٌ مخصوص، فهذا يستغني عن التمثيل، وقليل ماهم. ومع ذلك فالنفس قد قلنا إنها قوية الاستئناس بالمحسوسات لوضوحها وسبقها :

3) في أ : ألفات بدل ألفة
4) سقطت من ب.

أتَانِي هَواهَا قَبْلَ أنْ أعْرِفَ الْهَوى

فَصَادَفَ قَلْبًا خَاليًا فَتَمَكّنَا

فاذا خِيض بها في شيء من غير ذلك حنّت الى مألوفها حنين الثّكْلَى وقالت :

مَا الْحُبُّ إلاّ لِلْحَبِيبِ الأوّلِ[5]

واسْتَصْعَبَتْ ذَلِك وخَلأتْ[6] دُونَه، فاحْتِيجَ الى أن يُصَوَّرَ لها ذلك بصُور شيء مما كانت تَألَفُه لِتَسْتَأْنِسَ به وتَطْمَئِنّ. والاستئناس بالمألوف مركوز في جِبِلّة النفوس، حتى إنه ورد في حديث الاسراء أن النبي صلى الله عليه وسلم لما زُجّ به في النور وفارقه جبريل أسْمَعه الله تعالى كلام صاحبه أبي بكر الصديق رضي الله عنه تأنيسًا له به في ذلك المقام الهائل. وهذه حكمة ربانية تعجز العقول عن الاحاطة بها وحدها، فكيف بِمَلَكُوت السماوات والأرض ؟ فتبارك الله أحسن الخالقين ! ثم انه كلما عرف الانسان ضربا من العلوم ومارسه ألفته نفسه واستأنست به ؛ فإذا ارتحل عنه الى منزلة أخرى حنّت النفس الى الأولى المألوفة أيضا، فاحتيج الى أن يُضْرَبَ لهامَثَلٌ بشيء مما ألفته أو نَظِيرِه لتستأنس به وتطمئن إليه حتى لا يختص التمثيل بالمحسوسات الصرفة، وهكذا أبدا. فقد تبين بهذه الكلمات الاحتياجُ الى التمثيل ووجهُ الاحتياج، وأنّه لا غنى عنه لعامّ ولا خاصّ ؛ غير أن الاحتياج قد يكون ضروريا، وذلك عند العجز عن الوصول الى المطلوب بدونه، وقد[7] يكون تحسينيًا، وذلك عند الاحتياج الى الاستعانة به والاستئناس والاطمئنان. هذا الأصل، وقد يكون الاحتياج لأغراض أُخَرَ ستأتي.

هذا ما ألهمني الله تعالى في هذا المقام على سبيل الاجمال، وأما بسطُه كُلّ البَسْطِ فلا يسعه الوقت، وفيما ذكرناه كفاية، اذ ليس من الغرض الاكثار اذا فهم المقصود وأدرك المراد. فقد ظهر بهذا عِظم فائدة التمثيل، وبذلك تبين فضله. وقد ضرب الله تعالى الحكيم في القرآن ضروبا من الأمثال للخلق، وقال تعالى : **إنّ اللّهَ لاَ يَسْتَحْيِي أنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا** الآية. (وقال تعالى :

---

5) هذا عجز بيت لأبي تمام، وصدره :

نَقّلْ فُؤادَكَ حَيْثُ شِئْتَ مِنَ الْهَوى

6) الخَلأ للنوق كالالحاح للجمال والحران للدواب. يقال خَلَأت الناقة وألَحّ الجمل وحَرَن الفرس. وفي حديث الحُدَيْبِيّة أنه بركت به راحلته فقالوا : خَلَأتِ القَصْواء، فقال ما خلأت القصواء وما ذاك لها بخُلُق، ولكن حبسهاحابس الفيل.

7) جاء في أ : (وبدونه قد يكون) وهو تحريف.

وتِلكَ الأمْثالُ نَضْرِبُها للنَّاسِ الآية)[8] فعدَّها منَّة على الناس لما فيها من عظيم الفوائد. وقال تعالى : **وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الذِينَ ظَلَمُوا أنفُسَهُمْ وتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الأمْثَالَ** إشارة الى أنه لا التباس ولا إشكال بعد ضرب المثل ومع ذلك لم يعتبروا. وضرب النبي صلى الله عليه وسلم الأمثال الكثيرة للناس، وسيأتي من جميع ذلك ما فيه غُنْيَةٌ في محله إن شاء الله تعالى. ولم يزل الى الآن المدرسون وشيوخ التعليم والتربية يضربون الأمثال في كل أمْرٍ أمْرٍ، وكذا غيرُهم. وكتب عمر رضي الله عنه الى الأنصار : عَلِّمُوا أولادَكُم العَوْمَ والفُرُوسَةَ، ورَوُّوهُمْ ماسَارَ مِنَ المَثَلِ وما حَسُنَ من الشِّعر. فهذا حَضٌّ على تعلّم الأمثالِ خصوصا السائرة، فانها أقطعُ للنزاع والشَّغَب، وحَضٌّ على تعلم الشعر. ولما بعث سعدُ بنُ أبِي وَقَّاصٍ رضي الله عنه رُسُله الى رُسْتُم صاحب جيوش فارس أيام القَادِسِيَّة فرجعوا ، وبعث إليه آخرين يدعونه الى الاسلام أو الجزية، قال لهم رُسْتُم : إني قد كلَّمتُ منكم نفراً، ولو أنَّهم فَهِمُوا عنِّي لرجوتُ أن تفهموا، والأمثال أوضحُ من كثير من الكلام ؛ وسأضْرِبُ لكم مَثَلَكم : انكم كنتم في بلاء وجهد وجوع، فأتيتم بلادنا فلم نمنعكم، فلما أكلتم طعامنا وشربتم شرابنا وأظلكم ظلُّنا وصفتم ذلك لقومكم فأتيتم بهم. فَمَثَلُكُم في ذلك ومَثَلُنا كمثل رجلٍ له كَرْمٌ فرأى فيه ثعلبًا فقال : وما ثعلب ؟ فانطلق الثعلب فدعا الثعالب الى ذلك الكرم، فلما اجتمعت عليه سدَّ عليها صاحبُ الكرم مَدْخَلَها فَقَتَلَها. وقال لهم أيضا : مَثَلُكُم كَمَثَلِ جُرْذانٍ ألِفَتْ جَرَّةً فيها حَبٌّ وفي الجرة ثَقْبٌ، فدخل الأول فأقام فيها، وجعلت الأخَرُ تَنْقُلُ وتَخْرُجُ وتُكلّمه في الخروج فيأبى عليها، حتى اذا انْتَهَى سِمَنُ الذِي في الجَرَّة فاشتاق الى أهله ليُرِيَهم حُسْنَ حَالِه، ضاق عليه المَخْرَجُ فلم يقدر على الخروج منها، فَشَكَا الغَلَقَ الى أصحابه وسألهم المَخْرَجَ فقالوا : لست بخارج حتى تعود الى حالتك الأولى. فكَفَّ وجَوَّعَ نَفْسَهُ وبقي في الجَرَّةِ حتى أتاه صاحبها فقتله. وقال لهم أيضا : لم يَخْلُقِ اللهُ خلقًا أولَعَ من ذباب مَا خَلاكُمْ يا معشر

8) سقط ما بين قوسين من ب.

العرب ! ترون الهلاك ويُدلّيكُمْ فيه الطمع. ومَثَلُكُمْ في هذا مَثَلُ الذباب إذا رأى العسل طار وقال : مَنْ يُوَصِّلُنِي اليه وله درهمان ؟ حتى يَدْخُلَه لا يُنَهْنِهُهُ أحدٌ إلاّ عصاه. فلما دخله غرِقَ ونَشِبَ وقال : مَنْ يُخرجُني وله أربعة دراهم؟. وضرب لهم أمثالا أخرى على هذا النمط، فلما فرغ تكلم أصحابُ سعد رضي الله عنهم بما جاؤوا به من الاعْذار والانْذار. ثم قالوا : وأما ما ضَربتم لنا من الأمثال فإنكم ضربتم للرجال وللأمور الجسام وللجد الهزل. ولكنا سنضرب لكم مثلكم : إن مَثَلَكم مَثَلُ رجل غرس أرضا واختار لها الشّجر والحَبَّ، وأجرى لها الأنهار، وزينّها بالقصور، وأقام فيها فلاحين يسكنون قصورها، ويقيمون على جناتها. فَخَلَفَه الفلاّحون في القصور بما لا يُحِبّ، وفي الجِنان بمثل ذلك، فَأطَالَ نَظرَتَهُم. فلما لم يستجيبوا من تلقاء أنفسهم اسْتَعْتَبَهُم فَكَابَرُوه، فدعا إليهم غيرهم فأخْرَجَهم منها ؛ فان ذهبوا عنها تخطّفَهُمُ النّاس، وإن أقاموا صاروا خَولاً لهم يَمْلِكُونهم ويَسومُونَهم الخَسْفَ أبدا.

ولما عظم أمر المسلمين، ووَلِيَ يَزْدَجَرْدُ على فارس، وهاله أمر المسلمين، بعث الى رُسْتُمَ المتقدمِ ذِكْرُه فقال له : إنك أنت اليوم رجلُ أهل فارس، وقد رأيتَ ما نزل بهم ؛ وإني أريد أن أوجهك في هذا الوجه فأنت لها. فأظهر له رستم أن قد قبِل منه وأثنى عليه. فقال له الملك : قد أحببت ان أنظر فيما لديك لأعلم ما عندك ؛ فَصِفْ لي العرب وفِعْلَهم، وصِفْ لي العجم وما يَلْقَوْنَ منهم ، فقال له رُسْتُم : صفةُ ذبابٍ صادفتْ غِرّةً من رِعَاءٍ فَأفْسَدَتْ فقال : ليس كذلك، إنما سألتك رجاء أن تعرف صفتهم فأُقَوّيَك لتعمل على ذلك فلم تُصِبْ، فافهم عني انما مَثَلُهم ومَثَلُ أهل فارس كمثل عُقابٍ أوْفَتْ على مَرْقَبٍ عند جبل تأْوِي فِي ذُراه الطيورُ تبيت في أوكارها. فلما أصبحت الطير أبصرت العقابَ ترقبها فخافتها فلم تنهض وطمعت العقاب فلم تَرمْ، وجعلت كلما شَذّ منها طائرٌ انقضت عليه العقاب فاختطفته حتى أفْنَتْها. فلو نهضت بجميعها نهضةً واحدة لَنَجَتْ وأشَدُّ شيءٍ [يكون] في ذلك أن تَنْجُوَ كلّها إلا واحدا. فهذا مثلُهم ومثلُ الأعاجم، فاعمل على قدر ذلك.

وكان لبعض الملوك وزيران أحدهما كان يأمر بِبَذْلِ الأموال لاجتلاب قلوب الرجال،

ويقول إنَّهم أنفعُ وأعْوَدُ عليك من المال. فقام الآخر ونهاه عن ذلك وقال : أمْسِكْ مَالَك، فهو خير لك، ومتى كان عندك المال واحتجت الى الرجال وجدتهم. فقال له الملك لابد لهذا من آية ؛ فَمَثِّلْ لي مثلا يتضح به ما تذكره، فإن الأمثال بها تنكشف الأشياء . فقال الوزير : علي بإناء من عسل . فجيء به فقال : خمرّوه. ثم قال للملك : هل ترى هنا من نحل ؟ قال : لا فأتى بإناء العسل، فلم يلبث أن جاءت النحل من كل أوب. فقال : هكذا الرجال على المال ! فقام الوزير الآخر وقال : خَمِّروا الاناء الى الليل. فلما كان الظلام أخرج الاناء، فما تحركت نحلة أصلا ولا وقعت عليه. وهذه تشبه قصة الهِرَّةِ والشَّمْع، وستأتيك قريبًا في الأمثال، وتَتَبُّعُ الحكايات يُخْرِجُ عن الغرض ؛ وإنما ذكرنا ما تقدم تنبيهًا على شدة اعتناء الناس بالتمثيل وعِظَم فائدته. وكان الحكماء الأولون مَثَّلُوا الدنيا بطائر رأسُه المشرق وجناحاه اليمنوالشام وذنَبُه المغرب، فَبَيَّنُوا بهذا المثل دناءة المغرب وخِسَّتَه، لأن أخس ما في الطائر ذنبُه. فلما خرج اليونان الى الجزيرة واستخرجوا فيها المياه وغرسوا الأشجار وبَنَوا القصور حتى عادت الجزيرة أحسن ما يكونُ قالوا : رجع الطائر طاووسًا ! لشرف ذنب الطاووس. ومَنْ تأمل ما جعل الله تعالى فيما يراه النائم من أمْثِلَةِ الأشياء، قَضَى العَجَبَ من حكمة الله تعالى وما أودعه في عالم المثال، وهو بحر عميق ليس من غرضنا ولسنا من رجالِ الخَوْضِ فيه، وما ذكرناه في الأمثال من حيث هي وستاتيك زيادة في الأمثال الشعرية في الفصل الذي بعد هذا ان شاء الله. وما ذكرناه أيضا هو فائدة التمثيل الأصلية، لأن مَرْجِعَ الغرضِ من التمثيل تشبيهُ الخَفِيّ بالجَلِيّ، والغائب بالشاهد، وفائدتُه العظمى التبيينُ والتوضيح كما مرّ. وقد يَرِدُ لأغراض أخرى غير ذلك، كالمدح أو الذم أو التزيين أو التشويه أو غير ذلك مما قُرِّرَ في علم الأدب ؛ لكن مرجع الجميع الى الفائدة الأولى وهي التبيين والتوضيح. فإنَّا إذا مثّلنا أحدًا بالبحر قصدنا الى مدحه بالكرم، أو بالأسد قصدنا الى مدحه بالشجاعة. فالقصد الأصلي بيانُ هذه الخصوصيةِ التي يبلغ بها هذه الدرجة المخصوصة من الجود والجرأة لأنّها هي المُلْتَبِسَةُ علينا ؛ لكن قد يُتَنَاسى هذا المعنى الأصلي، ويُفْهَمُ أن التمثيل سِيقَ للمدح والذم حتى كأنه لا توضيح هنالك أصلا، ومثله في النعت. وأما سَوْقُ التمثيل لبيان الامكان أو بيان المقدار فلا إشكال أنه من المعنى الأصلي.

وهذا كله في التمثيل من حيث هو في الجملة. وأما الأمثال السائرة التي نحن بصددها فتكون هي أيضا في الجملة للبيان والتوضيح، لكن لمقاصد كثيرة وضروب من الأغراض لا تكاد تنحصر ؛ وسَتُتْلَى عليك في هذا الكتاب. وأمثال القرآن كذلك بعد دلالتها على توضيح المراد وتقريبه وتصويره للعقل تكون لمقاصد كثيرة من مدح وذم ودلالة على تفاوت في الثواب، وعلى إحباط عمل وتذكير ووعظ وحَثّ وزجْر واعتبار وغير ذلك مما يُسْرَدُ على سمعك فيها ان شاء الله تعالى. وكذا أمثال الحديث النبوي، وستأتي ان شاء الله تعالى، والله الموفق.

وأما الثاني وهو الحكمة، فلا يَخْفَى أيضا فائدتُها وفضلها. وقد أثْنِي عليها في الكتاب والسنة. قال الله تعالى : يُوتِي الْحَكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ، وَمَنْ يُوتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا. وقال : وآتَيْنَاهُ الحِكْمَةَ وفَصْلَ الخِطَابِ. وقال : وآتَيْنَاهُ الحُكْمَ صَبِيًّا. ونحو ذلك من الآي. وقال النبي صلى الله عليه وسلم : الكَلِمَةُ الحِكْمَةُ ضَالَّةُ المُومِنِ[9] ويروي : الكَلِمَةُ الحِكْمَةُ ضَالَّةُ كُلِّ حَكِيمٍ. فَإذا وَجَدَهَا فَهُو أحَقُّ بِهَا. وقال صلى الله عليه وسلم : كَلِمَةٌ مِنَ الحِكْمَةِ يَتَعَلَّمُهَا الرَّجُلُ خَيرٌ لَهُ مِنَ الدُّنْيَا ومَا فِيهَا. وغير ذلك من الأحاديث والآثار التي يطول ذكرها. وقد أطْبَقَ العقلاءُ على مدحها والاعتناء بها، وليس الغرضُ إلاّ بيانَ فضلِها وفائدتها فقط، وكيف يَحْسُن منا ذلك وهي عين الفائدة والفضل ؟ :

وكَيْفَ يَصِحُّ في الأذْهَانِ شَيءٌ ... إذَا احْتَاجَ النَّهَارُ الى دلِيلِ[10]

وإنما الغرض بيان ما هو الممدوح من مَصْدُوقِ اسم الحكمة، فإن الغلط قد وقع في هذا لكثير من العقلاء من جهة شمول لفظ الحكمة لأمور كثيرة بحسب كل عُرْفٍ واصطلاحٍ، بعضُ تلك الأمور ممدوحٌ دون بعض، فكان كل من يَحْصُلُ له شيء منها يجعله من مصدوقات الحكمة الممدوحة، فَيَتَمَدَّحُ بما انتحله ويُثني عليه ويُضيف ما ورد من

9) رواه بهذا اللفظ كل من الترمذي في باب العلم، وابن ماجه في باب الزهد.
10) هذا البيت مشهور لأبي الطيب المتنبي، لكن بلفظ : وليس يصح...ولعل اليوسي حوّره عمدا لينسجم مع سياق كلامه : وكيف يحسن منا ذلك... وكيف يصح في الأذهان....

الثناء عليها إلى نفسه . فرأينا أن نشير إلى هذا المَقَام بِضَرْبٍ من الاشارة قريبٍ يَتَمَيَّزُ به الطّيِبُ من الخبيث ويُعْرَفُ به الفائزُ من المغرور . وبسط ذلك يستدعي موضوعا على حِدَة، فَلْنَقْتَصِرْ منه على لَمْحَةٍ بَرْقٍ فنقول :

قد عرفت فيما مرّ من تعريف الحكمة أن فيها أقوالا كثيرة مَرْجِعُها فيما أوردناه من كلام السلف ضربان : خاصّ وعامّ . فالخاصُّ القولُ بأنها النبوءة والقرآن أو علمُ القرآن، أو الفهم أو الخشيةُ لله تعالى أو فهمُ القرآن أو العمل به والاتباع له، أو إصابةُ القول من غير نبوءةٍ ونحو هذا مما تقدم . والعَامُّ القولُ بأنها الاصابةُ في القول والفعل ونحوه . فأما إذا فسرناها بالوجه الخاصّ وقلنا هي النبوءة، أو القرآن، أو العلم به، أو فهمه والاتباع له، أو الخشية، فلا خفاء في مدحها والثناء عليها في هذا المعنى وما أشبهه من كل ما يُسْتَرْضَى به اللهُ تعالى ويُتَقَرَّبُ به إليه كالعقل والعدل والحلم ؛ إلا أنه لابد في ذلك من تحقيق الحقيقة وحفظ الحَيْثِيَّة وهو تحقّق الاصابة، إذ ذلك هو الحكمة ومَنَاطُ التَّقَرُّبِ المذكور . فاما ما يَنْتَحِلُه المُتَنَبِّىءُ الكاذب من النبوءة، وما يَنْتَحِلُه المُلْحِدُ من فهم كتاب الله تعالى والبِدْعِيُّ مِنَ الاتّباع، فكل ذلك قد يُسَمِّيه صاحبُه حكمةً ويسمّي نفسَه به حكيما، وليس من الممدوح بل ذلك مذموم غايةَ الذم، وليس ذلك بنبوءة ولا فهم لكتاب الله إلا في تسميته، فقط، وكذا ما أشبه هذا.

وإن قلنا هي إصابة القول من غير نبوءة ونحو ذلك، فحكمه بعد . وأما إذا فسرناها بالمعنى العامّ، فقد علمت أنها مُتَنَاوِلَةٌ لجميع الاصابات في الأقوال والأفعال والاعتقادات، ودخل في ذلك ما تقدم وغيرهُ . ومجموع ذلك ثلاثة أقسام :

القسم الأول : الحِكَمُ القَوْلِيَّةُ، وهي كلها محمودة من حَيْثُ ذَاتُها بِقَيْد أن تَكُون حكمةً في نفس الأمر، وإلا فقد يُظَنُّ ما ليس بحكمة حكمةً، إذ قد يعدّ من الحكمة ما دلّ على إيثار العاجلة على الآجِلَة أو اتباعِ الهوى، أو على العدوان والعُلُوِّ في الأرض وسفك الدماء، وعلى اكتساب النبوءة برياضة النفس وطول المجاهدة وبلوغ كمال المعرفة وكمال النفس بذلك من غير تقييد بقانون الشرع، وعلى إيثار انقطاع الناس إلى الله تعالى بالاعراض عن نبيهم وعدم الالتفات إليه أصلا، توهما أن ذلك هو اللائق بتوحيد الباري والتَّعَبُّدِ له ونحو ذلك ؛ فكل ذلك وما أشبهه هَوَسٌ باطلٌ ليس من الحكمة في

وِرْدٍ ولا صَدَرٍ، فان الحكمة مَرْجِعُها الاصابة كما ذكرنا قبل . ومن هذا النمط ما دوَّنه حكماءُ الفلاسفة في العلم الالهي من فنون الفلسفة من الهَوَسِ والأباطيل، والاعتقادات الزائغة والحجج الواهية، وكذا ما لنظرائهم من الطبيعيين وأشباههم من فِرَقِ المعتزلة وطوائف المُبْتَدِعَة الضالّين المُضِلّين . وقد كان للفلاسفة في غير الالَهيّات حِكَمٌ تُقْتَبَسُ سراجًا منيرًا،وتُورَدُ زُلالاً نَميرًا، فلما خاضوا في العلم الالهي لم يَهْتَدُوا غالبا الى الحق فيه، ولم يؤذن لهم في الدخول الى ذلك الجَنَابِ النَّزِية . ومَنْ يُضْلِلِ اللّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ .ثم ان هذه الحكم القولية، وإن قلنا إنها محمودة، فهي تختلف شرفًا وفضلا بحسب جلالتها وما دلَّتْ عليه درجاتٍ كثيرة لا تكاد تنحصر. هذا بحسب ذاتها، وأما قائلها الذي صدرت منه فغيرُ واجبٍ أن يكون محمودًا دائما ولا أن يُعدَّ حكيما، بل قد يكون محمودا، وذلك إذا علم ما يقول وعمل به وتخلق به ولم يُكذّب فعلُه وخُلُقه قولَه، وقد يكون مذموما، وذلك إذا كان بخلاف ذلك بحيث يكون من علماء اللسان الثَّرثَارينَ المُتَفَيْهِقِينَ، حتى إنَّ المتكلمين بالحِكَم الشرعية من علماء الظاهر الذين تُخالف أفعالُهم وأخلاقُهم أقوالَهم، ونحوهم من الوُعَّاظ والقُصَّاص في غاية الذم . ومِنْ ثَمَّ قيل فيما مرّ : الحكمة هي الفهم في القرآن والعمل به والاتباع له . وقد تصدر الحكمة ممن هو عن مقتضاها خَال وعن فضلها بمَعْزِل . ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم : **الحِكْمَةُ ضَالَّةُ المُؤْمِن** . كما مرّ . وقال أيضا صلى الله عليه وسلم : **العِلْمُ ضَالَّةُ المُؤمِنِ حَيْثُ وجَدَهُ أخَذَهُ**(11) وقال : **خُذُوا الحِكْمَةَ مِمَّنْ سَمِعْتُمُوهَا، فَإنَّهُ قَدْ يَقُولُ الحِكْمَةَ غَيْرُ الحَكِيمِ، وتَكُونُ الرَّمْيَةُ مِنْ غَيْرِ الرَّامِي** . فأشار صلى الله عليه وسلم بذلك الى أنه ينبغي للعاقل أن لا يَبْرح مُتَتَبِّعًا للحكمة طالبًا لها، كما يطلب الرجلُ ضَالَّتَهُ ويَنْشُدُها ؛ فان الحكمة هي ضالةُ العاقل لأنها غِذاء عقله، فهي أكبر الحاجات وأعظم المطلوبات . وفي

11) في أ زيادة (عن) قبل حيث، وهو تحريف.

الحديث تأديب الطالب المتعلم وتنبيهه على أنه لا يَأنَفُ من أخذ الحكمة حيثما وجدها، وأنه يقبلُها من كل مَنْ سمِعها منه شريفا كان أو مشروفا عالما أو جاهلا بَرّا أو فاجرا ؛ ولا يستكبرُ عن أحد أن يتعلم منه كان فوقه أو دونه . فإنّ طالب الضَّالَّةِ إذا وجدها فهو لا محالة يأخذها ولا يلتفت الى خِسّة الآتي بها ولا شرفه، ولو ترك ضَالَّتَه ومطلوبَه الذي كان يَنْشُدُه لخسة من جاء بها كان أحمق . وقد رُوي أن الحجاج خطب فقال : إنّ الله تعالى أمرنا بطلب الآخرة وكفانا مَؤُنَةَ الدنيا، فَلَيْتَهُ كفانا مؤونة الآخرة وأمرنا بطلب الدنيا ! فقال الحسن : ضَالَّةُ مُؤمِنٍ عند فاسقٍ فَلْنَأْخُذْها . وخطب خَازِمُ بْنُ خُزَيْمة فقال : إنّ يومًا أسْكَرَ الكبار، وشَيَّبَ الصغار، لَيومٌ عسير، شَرُّهُ مستطير . فقال سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ : حكمةٌ من جَوفِ خَرِبٍ، ثم أخرج ألواحًا فكتبها . ولهذا ورد : **أشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا يَومَ القِيَامَةِ عَالِمٌ لَمْ يَنْفَعْهُ اللّهُ بِعِلْمِهِ .** ورُوي أنّ رجلا في بني إسرائيل حكيمًا ألّفَ ثلاثمائة كتاب في الحكمة واشتهر فرأى ان له عند الله منزلة، فأوحى الله الى نبي ذلك الوقت أن قل لفلان : مَلَأْتَ الدُّنْيَا نِفَاقًا.

القسم الثاني في الحِكَمِ الفعليّة بناء على إطلاق الحكمة عليها كما مرّ، وهي على تفصيل : فما كان منها خدمةً لله تعالى وقياما بوظائف تكاليفه كلّها من فعل الواجبات وأنواع القُربَات، فهو كلّه محمود. وهذا النوع إنما يُعَدُّ حكمةً بحسب ما انضم إليه من الفهم في كتاب الله تعالى كما مرّ، فهو جزء منها . وما يرجع إلى إتقان الصنائع العجيبة والحرف المهمة، فهذا كله محمود عادة، وأما شرعًا فإنما يُحْمَدُ إذا كان مُقَرّبًا إلى الله تعالى مباشرةً أو بواسطة أو وسائط، على حكم التفصيل في سائر المباحات . ووراء هذين القسمين قسمان آخران :

أحدهما تدبير الذهب والفضة ومعالجة تبديل الأشياء وصناعة الاكْسِير، وهذا النوع هو المعروف عند كثير من الأوائل بالحِكْمَة، وهو محمود عندهم غاية ومن أجَلّ علومهم، وإطلاق الحكمة عليه من حيث الاصابةُ والاتقانُ مع الغرابة واللطافة . وللمتكلمين في ذلك كلام وبحث في أن ذلك ممكن أم لا، وفي أنه بعد إمكانه واقع أم لا . فهي أربعة مباحث قُرِّرَتْ في محلها وليس من غرضنا التعرض لها، غير أنا نقول جريا على ما نحن بصدده :

إن قلنا إن ذلك محال أو غير موجود، فالاشتغال به غير محمود لاعادة ولاشرعا، بل هو في غاية الذم لأنه تضييعٌ للعمر بلا طائل وهَوَسٌ وجنون. وإن قلنا إنه يوجد ويقع، فلا نشك بالاستقراء أنه في غاية القلة والندور، وأنه لا يقع عليه الا الفرد من الناس في الدهور. وقد اعترف أهل هذا العلم أنه أخطأ الناس طريقته ولم يعثروا على التحقيق فيه فضاع وبقي اسما بلا مسمى، فنقول : انه ينبغي أن يكون مذموما على هذا الوجه أيضا كأنه تضييع للعمر غالبا بلا طائل، وعدول عن الأسباب المنصوبة[1] للخلق في الاكتساب الى سبب نادر قليل الجدوى مع كثرة الايْنِ والتعب، مُنْبِتٍ في القلب من الحرص والطمع ما تُنْبِتُه الدِّيَمُ في الأرض الأريضَةِ، ولا داءَ على القلب شَرٌّ من الحرص والطمع ! نعم، لو عثر على شيء صحيح منه بلا تَعَمُّل حرام ولا انْجرارِ طمع واتُّخِذَ سببًا، كان من جملة المباحات والتَحَقَ بِحُكْمِ الصنائع السابقة.

ثانيهما خِفَّةُ اليَدِ والاحْتِيَالُ بِالشَّعْبَذَةِ وأنواع النَّيْرُوجات، فإن كثيرا من هذا النوع قد يُسمى حكمة أيضا لما فيه من الغرابة، وهو ليس بممدوح في الجملة لا شرعا ولا عادة عند العقول السليمة. نعم، فيه تفصيل من جهة الحرمة والاباحة يطول بنا التعرض له، وليس كلامنا بالقصد في الفقهيات.

الثّالث الحِكَمُ القَلْبِيَّة، وهي إذا عممنا فيها وتوسعنا ضربان : ما يرجع الى الأخلاق كالحلم والعدل والزهد والعفة والصمت ونحوها، وهذا النوع كله محمود شرعا وعادة، لأن من يطلق الحكمة في هذا الضرب أخذًا مما مرّ إنما يطلقها على المحمود من الأخلاق لا على مُطْلَقِ الخُلُقِ حتى يدخل المذموم. وفي الحديث : **الصَّمْتُ حُكْمٌ وقَلِيلٌ فَاعِلُه**. وقد يُذَمُّ بعضُ هذه الأخلاق المحمودة عند غَوْغَاءِ الناس العُمْيِ البَصَائِرِ، كالصَّمْتِ عند المُتَشَدِّقِين الثَّرْثَارين والعَفَافِ عند المَجَّانِينَ الفاسقين ونحو ذلك. ولا عبرة بهذا الذم، وهو في الحقيقة ذَمٌّ للمذموم لا للمحمود، إلا أنه يقع الخطأُ للذّامِّ والغلط. وذلك أن الصمت مثلا ليس بمحمود دائما، بل في محل يليق به، فقد يَرَى الجاهلُ محلَّ الصمت غَيْرَ مَحَلِّه، بل محلاً للكلام فيَذُمُّ الصمتَ وقَصْدُه ذَمُّ الصمت المذموم، ولو عرف أنّ ذلك مَحَلُّه ما ذَمَّهُ وما يرجع الى

1) في ب : المنسوبة

الاعتقادات وهو كلُّه أيضا محمود، لأن الحكمة هنا أيضا إنما تطلق فيما كان عِلْمًا إذ هو محلّ الاصابة، والعِلْمُ كلُّه في نفسه محمود، أعني وصول النفس الى شيء، لأن ذلك كمال النفس. وقد يَعْرِضُ للعِلْمِ الذَّمُّ من جهة المعلوم، ولِلْعَالِمِ الذَّمُّ من جهة مخالفة عَمَلِه لِعِلْمِهِ وعدم جَرْيِهِ على مُوجِبِه كما قلنا في اللسان، أو من عدم طائل يعود به عليه مع إضاعة العمر النفيس فيه، أو من الاشتغال به عَمَّا هو أوْلَى منه وجوبًا أو ندبا أو نحو ذلك. ثم العلم يتفاوت بعد ذلك في الشرف بحسب شَرَفِ مَعْلُومِه وثَمَرَتِهِ. وهذا النوع هو الحكمة حقيقة، وكل ما تقدم من الأفعال والأقوال إنما هو مظهرها وعنوانها عند التحقيق، **والّلهُ يَقُولُ الحَقَّ وهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ.**

الفصل الثالث : في فضل الشعر

ذكرنا في هذا الفصل شيئا مما ورد في فضل الشّعْر، لأنا قد أوردنا في هذا الكتاب جملة وافرة من الشعر ؛ فَرُبَّ جاهلٍ أو جافي الطَّبْعِ أو مُتَنَسّكٍ[1] نُسُكًا أعجميًّا يَذُمُّ الشّعْرَ فيسري ذمُّه الى ما في الكتاب ثم الى الكتاب، فرأينا أن نُنَبِّهَ على شيء من فضله، ونحن عند التحقيق في غِنىً عن ذلك، بعد ذكر فَضْلِ المَثَلِ والحِكْمَة، لأن جلّ ما أوردناه في الكتاب من هذين النوعين، وما سوى ذلك إمَّا توابعُ وتَتِمَّات، وإما شواهدُ من كلام العرب مما اشترك في جَلْبِها استشهادا كُلُّ ذي علم ؛ ولكنا نذكر ذلك تقوية.

اعلم أن الكلام العربي هو أشرف الكلام وأجلّه، كما وقع في الحديث : إنَّ سَيِّدَ الكلاَمِ الكلاَمُ العَرَبِيُّ، وسَيِّدَ الانبِياءِ مُحَمَّدٌ، وسَيدَ الكُتُبِ القُرآنُ. و [في] الحديث أيضا : القُرْآنُ عَرَبِيٌّ، وكَلاَمُ أهْلِ الجَنَّةِ عَرَبِيٌّ. واعلم أن كلام العرب نوعان : منثور ومنظوم، وكان كلّه في أصله نثرا. فلما احتاجت العرب الى ذكر أيامها وأعرافها، وتخليد مكارمها ومآثرها، توهموا أعاريض الشعر وأوزانه، وجعلوه آلةً لذلك وعونًا على حفظ ما ذكر وإبقائه، لسهولته على الطبع وميله إليه دون المنثور. ومن ثم يقال ان ما تكلمت به العرب من جيد المنثور أكثرُ مما تكلمت به من المنظوم، ومع ذلك لم يُحْفَظْ من المنثور عُشُرُه، ولم يَضِعْ من المنظوم عُشُرُه : فكان للشعر بهذا فضلٌ على النثر.

1) في أ (متنتسک)، وفي ب (متمسک).

ومما ورد في فضله قول النبي صلى الله عليه وسلم : إنَّ مِنَ الشِّعْرِ لَحِكْمَةً، وتقدم تفسير الحكمة. وروي عنه صلى الله عليه وسلم أيضا أنه قال : إنَّ مِنَ البَيَانِ لَسِحْراً، وإنَّ مِنَ الشِّعْرِ لَحُكْمًا، أي كلاما نافعا يَمْنَعُ من الجهل والسفه. قيل أراد به المواعظ والأمثال التي يُنتفع بها، وقد تقدَّم أن الحُكْمَ بِمَعْنَى الحِكْمة. وقيل الحُكْمُ هنا بمعنى القضاء، بمعنى أنه يُنَفِّذُ أمْرُهُ ويُتَّبعُ ما يَقْضِي به ويُسَلَّمُ له فيما حَكَمَ به كما يكون ذلك في حُكْمِ الحَاكِمِ ؛ ولذلك وضَعَ أقْوامًا ورفَعَ آخَرِين. ومِمَّنْ وضَعَهُم بَنُو نُمَيْر، إذ هجاهم جرير، وكانوا إحدى جَمَرَاتِ العرب قبل ذلك ؛ وبنو العَجْلاَن، إذ هجاهم النجاشي، وكانوا قبل ذلك يفتخرون بهذه التسمية، لأن أباهم سُمِّي بذلك لتعجيله القِرَى للضيف، والرَّبِيعُ بنُ زِيَاد العَبْسِي، إذ هجاه لبيد، وكان قبل ذلك أحد نُدَمَاءِ النُّعْمان بْنِ المُنْذِر، وكان لا يواكل غيره إذا حضر. ومِمَّنْ رَفَعَهُ بَنُو أنْفِ النَّاقَة، حيث مدحهم الحُطَيْئَةُ فَقَلَبَ هذا اللقب الذي كان يُخزَوْنَ بِه مدحًا وفخرا ؛ وعبد العزيز بْنُ حَنْتَم المعروفُ بالمُحَلَّق، حيث مدحه الأعشى وكان قبل ذلك خاملاً ؛ وهَرِمُ بْنُ سِنَان، حيث مدحه زهير فشَرُفَ بذلك على أخيه خَارِجَةَ بْنِ سِنَان، وكان خارجة قبل ذلك أنْبَهَ منه وان كانا معًا سيدَيْن ؛ وغير هؤلاء. وتفصيل هذه الوقائع يطول بنا في هذا المحل، وهي مشهورة وسياتي كثير منها. وقال النبي صلى الله عليه وسلم : الشِّعْرُ كَلاَمٌ مِنْ كَلاَمِ العَرَبِ جَزْلٌ تَتَكَلَّمُ بِهِ في بَوادِيهَا وتَسُلُّ بِهِ الضَّغَائِن[2] ورُوِي عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أن النبي صلى الله عليه وسلم بَنَى لحَسَّانَ بْنِ ثَابِتٍ في المسجد مِنْبَرًا يُنْشِدُ عليه الشعر. ورُوِي أن عمرَ رضي الله عنه ـ مرَّ بحسان وهو يُنْشِدُ الشعر في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أرُغَاءٌ كَرُغَاءِ البَكْرِ ؟ فقال حسان : دعني عنك ياعمر، فوالله إنك لَتَعْلَمُ لقد كنت أنْشِدُ في هذا المسجد مَنْ هُو خَيْرٌ منك، فما يُغَيِّرُ عليَّ ذلك. فقال عمر : صدقت !.

ويحكى أن النبي صلى الله عليه وسلم دخل في عمرة القضاء وعبد الله بْنُ رَوَاحَةَ

2) ورد هذا الحديث في عمدة ابن رشيق، ج1، ص. 28.

يمشي بين يديه وهو يقول :

خَلُّوا بَنِي الكُفَّارِ عَنْ سَبِيلِهِ | اليَوْمَ نَضْرِبْكُمْ عَلَى تَنْزِيلِهِ
ضَرْبًا يُزِيلُ الهَامَ عَنْ مَقِيلِهِ | ويُذْهِلُ الخَلِيلَ عَنْ خَلِيلِهِ.

فقال له عمر - رضي الله عنه - : يا ابْنَ رَوَاحَةَ ! بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ اللّهِ صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ وفِي حَرَمِ اللّهِ تَقُولُ الشِّعْرَ ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : خَلِّ عَنْهُ يَاعُمَرُ ! فَلَهِيَ أسْرَعُ فيهِمْ مِنْ وقْعِ النَّبْلِ. ولما هجت قريشٌ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لحسان رضي الله عنه : اهْجُهُمْ ومَعَكَ جِبْرِيلُ رُوحُ القُدُسِ فَلَهِجَاؤُكَ أشَدُّ عَلَيْهِمْ مِنْ وقْعِ السِّهَامِ، فِي غَبَشِ الظَّلاَمِ ! وقال عمر رضي الله عنه : مِنْ أفْضَلِ مَا أَعْطِيَتْهُ العَرَبُ الابْيَاتُ يُقَدِّمُهَا الرَّجُلُ أمَامَ حَاجَتِهِ فَيَسْتَعْطِفُ بِهَا الكَرِيمَ ويَسْتَنْزِلُ بِهَا اللَّئِيمَ. وقال أيضا : تَعَلَّمُوا الشِّعْرَ، فَإِنَّ فِيهِ مَحَاسِنَ تُبْتَغَى ومسَاوِىء تُتَّقَى. وكتب الى أبي موسى الأشعري : مُرْ مَنْ قِبَلَكَ يَتَعَلَّمِ الشِّعْرَ، فَإِنَّهُ يَدُلُّ عَلَى مَعَالِي الأخْلاَقِ وصَوابِ الرَّأْيِ ومَعْرِفَةِ الأنْسَابِ. وقال معاوية - رضي الله عنه - : يَجِبُ عَلَى الرَّجُلِ تَأْدِيبُ ولَدِهِ، والشِّعْرُ أعْلَى مَرَاتِبِ الأدَبِ وقال : رَوُّوا أولاَدَكُمُ الشِّعْرَ واجْعَلُوهُ أكبر هَمِّكُمُ وأكْثَر آدَابِكُمْ، فَلَقَدْ رَأَيْتُنِي لَيْلَةَ الهَرِيرِ بِصِفِّين، وقَدْ أُتِيتُ بِفَرَسٍ وَوَضَعْتُ رِجْلِي فِي رِكَابِهِ لِأفِرَّ مِنْ شِدَّةِ البَلاَءِ، فَمَا حَمَلَنِي عَلَى الثَّبَاتِ إلاَّ ذِكْرُ أبْيَاتِ عَمْرو بْنِ الاطْنَابَةِ :

أبَتْ لِي هِمَّتِي وأبَى بَلاَئِي | وأخْذِي الحَمْدَ بِالثَّمَنِ الرَّبِيحِ
وإقْحَامِي عَلَى المَكْرُوهِ نَفْسِي | وضَرْبِي هَامَةَ البَطَلِ المُشِيحِ
وقَوْلِي كُلَّمَا جَشَأَتْ وجَاشَتْ | مَكَانَكِ تُحْمَدِي أوْ تَسْتَرِيحِي
لِأدْفَعَ عَنْ مَآثِرَ صَالِحَاتٍ | وأحْمِيَ بعْدُ عَنْ عِرْضٍ صَحِيحِ

وقال بعضهم : كنا عند عمَّارٍ بِصِفِّين، وعنده شاعر يُنْشِدُه، فقال رجل : أيُقَالُ فيكم الشعرُ وأنتم أصحابُ محمدٍ وأصحاب بَدْرٍ ؟ فقال له عمَّار : إن شِئْتَ فَاسْمَعْ، وإنْ شِئْتَ فاذْهَبْ. إنَّا لَمَّا هَجَانَا المُشْرِكُونَ قال رسول الله صلى

الله عليه وسلم : قولوا لهم كما قالوا لكم،فكنا نعلمه الاماء بالمدينة. وكان ابن عباس يقول: إذا قرأتم شيئاً من كتاب الله فلم تعرفوه فاطلبوه في اشعار العرب، فإن الشعر ديوان العرب. وقال ايضا : إذا أعيتكم العربية في القرآن فالتمسوها في الشعر، فإنه ديوان العرب. وكان كلما سئل عن حرف من القرآن أو من حديث رسول‌الله صلى الله عليه وسلم أنشد عليه شعراً. وقيل لِسَعِيدِ بْنِ المُسَيَّبِ إن قومًا بالعراق يكرهون الشعر، فقال : نَسَكُوا نُسُكًا عجميًا ! وسئل ابنُ سِيرِينَ في المسجد عن رواية الشعر في شهر رمضان أنَّها تَنْقُضُ الوضوء فقال :

نُبِّئْتُ أنَّ فَتاةً كُنْتُ أخْطُبُها عُرْقوبُها مِثْلُ شَهرِ الصوْمِ في الطول

ثم قام فأمَّ الناس. وقيل بل أنشد :

لقَدْ أصبَحتْ عِرْسُ الفرَزْدَقِ ناشِزاً ولو رَضِيَتْ رُمْحَ اسْتِهِ لاَسْتَقَرَّتِ

وسُئِلَ ابن عباس هل الشّعْرُ مِنْ رَفَثِ القَوْل، فأنشد :

وهُنَّ يَمْشِينَ بِنَا هَمِيسَا إنْ تَصْدُقِ الطَّيْرُ نَنِكْ لَمِيسَا[3]

وقال إنَّما الرَّفَثُ عِنْدَ النِّسَاءِ، ثم أحْرَمَ للصلاة. وكان أبو السَّائِبِ المَخْزُومِيُّ يقول أمَا والَّلهِ لو كان الشعرُ مُحَرَّمًا لَوَرَدْنَا الرَّحْبَةَ كلَّ يوم مرارًا، يعني الرَّحْبَةَ التي تُقَام فيها الحدود. وقال عبد الملك لبنيه عَلَيْكُم بِالأدَبَ، فإنَّكم إن احْتَجْتُم إليه كان لكم مالاً، وإن اسْتَغْنَيْتُم عنه كان لكم جَمَالا. وكانت عائشة أمُّ المؤمنين، وابن عباس، وعمر، رَضي الله عنهم أجمعين مِنْ رواية الشعر بالمحلّ الذي لا يُدْرَك، حتى حُكِيَ عن عائشة أنها قالت : رَوَيْتُ لِلَبِيد اثني عشر ألف بيت خِلافَ ما رَوَيْتُ لغيره. وكذا غيرُ هؤلاء من الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ ومَا مِنْ أهل البيت النبوي إلاّ مَنْ قال الشعر، غيرَ النبي صلى الله عليه وسلم، وكذا الخلفاءُ الأربعة. وقد ذكر المعتنون بهذا الشأن ما ثبت عن كلّ منهم من الشعر ؛ والتَّعَرُّضُ لذلك يطول بنا. وليس من غرضنا نحن في هذا الكتاب إلا مُجَرَّدُ التنبيه ؛ وما تقدم كافٍ في مدح الشعر وإباحته والردّ على مُنْكِرِيه.

3) في كتاب **الفائق** للزمخشري، ج 3، ص. 215

« كان ـ ابن عباس ـ محرمًا فأخذ بذنب ناقة من الركاب وهو يقول :

وهُنَّ يَمْشِينَ بِنَا هَمِيسَا إنْ تَصْدُقِ الطَّيْرُ نَنِكْ لَمِيسَا

فقال له : يا أبن عباس أتقول الرفث وأنت محرم ؟ فقال انما الرفث ما روجع به النساء...أراد ان الرفث المنهي عنه ما خوطبت به المرأة، فأما إذا تكلم بشيء ولا امرأة ثَمَّ تسمع فلا رفث ».

وقد يحتج ذامُّهُ بقوله صلى الله عليه وسلم : لأن يَمْتَلِيء جَوْفُ أحَدِكُمْ قَيْحًا حَتَّى يَرِيَهُ خَيْرٌ مِنْ أنْ يَمْتَلِيء شِعْرًا. ومَحْمِلُ هذا الحديث عند العلماء أربعة أوجه :

أحدها أن المراد بهذا الشعر المذكور هنا الشعرُ الذي هُجِيَ به النبي صلى الله عليه وسلم. وقد وقع في رواية : شِعْرٌ هُجِيتُ [بِهِ]، بهذه الزيادة. وروي أن أبا هريرة، لما رَوَى الحَدِيثَ المذكور قالت عائشة - رضي الله عنها - لَمْ يَحْفَظْ، إنَّما قَالَ شِعْرًا هُجِيتُ بِهِ. ولاشك أن هذا النوع من الشعر لو كان شَطْرَ بَيْتٍ لكان كُفْرًا، فكيف إذا امتلأ الجوف به ؟!.

ثانيها أنه ورد لأقوام كانوا في غاية الاقبال على الشعر، فجاء على وجه المبالغة زجرا لهم لِيقْبِلُوا على القرآن والذكر والعبادة.

ثالثها أنه في حق من أُولِعَ به حتى شَغَلَهُ عن الذكر والقرآن والعبادة، لأن ذلك هو معنى الامتلاء. وأما إذا كان الغالب عليه القرآن والذكر. فليس جوفه ممتلئًا.

رابعها أنه في الشعر المذموم دون الممدوح، وسَنُبَيِّنُهُ.

وقوله صلى الله عليه وسلم : إنَّ مِنَ البَيَانِ لَسِحْرًا، للعلماء في هذا الحديث وجهان : أحدهما أنه وَرَدَ مَوْرِدَ الذَّمِّ فشبهه بعمل السحر لغَلَبَتِهِ على القلوب وجَلْبِهِ إياها، وتَزْيِينِهِ الباطلَ وتحسينِهِ القبيحَ وتقبيحِهِ الحَسَنَ. ويكتسب به صاحبُه من الاثم ما يكتسِبُ الساحرُ بعمله[4] كما قال صلى الله عليه وسلم : ولَعَلَّ بَعْضَكُمْ أنْ يَكُونَ ألْحَنَ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ ؛ فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بِشَيءٍ مِنْ حَقٍّ أخِيهِ فَإنَّمَا أقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنْ النَّارِ. ثانيهما أنه وَرَدَ مَوْرِدَ الْمَدْحِ بمعنى أنه تُمَالُ به القلوبُ، ويُسْتَرْضَى به الساخطُ، ويُسْتَنْزَلُ به الصَّعْبُ. ويَشْهَدُ لهذا قولهُ في نفس الحديث : إنَّ مِنَ الشِّعْرِ لَحِكْمَةً.

وهذا قولُ أكثر أهل العلم والأدب، لأن الله تعالى مدح البيان، وهو شاملٌ للشعر والنثر . وقال عمر بن عبد العزيز لرجل سأله حاجته فأحْسَنَ في سؤاله : هَذَا والله السِّحرُ الحلالُ ! وقضى حاجته . وأما قوله تعالى : والشُّعَراءُ يَتْبَعُهُمُ الغَاوُون الآية، فالمراد بها المشركون المشتغلون بالاذاية للنبي صلى الله عليه وسلم وهجائه . وأما الشعراء

4) في أ : بعلمه.

المؤمنون كحَسَّان وكَعْب وابْنِ رَوَاحَة وغيرهم فليسوا بداخلين . ولذلك استثناهم الله تعالى فقال : **إلاَّ الذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وذَكَرُوا الّلهَ كَثِيرا، أي لم يشغلهم الشعر عن الذكر، وانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا، أي بهجوهم الكفارَ الهاجين للنبي صلى الله عليه وسلم وللمسلمين ظلما، كما قال الله تعالى : لاَ يُحِبُّ الّلهُ الجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ القَوْلِ إلاَّ مَنْ ظُلِم** . والآية المذكورة هي فصلُ الخطابِ فيمامَرّ . نعم، قال ابن عطية : يَدْخُلُ في الآية كلُّ مُخَلِّطٍ يهجو أو يمدح شهوةً ويَقْذِفُ المُحْصَنَات ويَقُولُ الزُّور، كما يدخُل في الاستثناء كلُّ مَنْ كَانَ بِخَلاَفِهِ.

فقد بَانَ بهذا فضلُ الشعر وأنْ لا باس به أصلاً، غير أنه ليس على إطلاقه وأنَّ الشعر كلَّه مَحمود ومَرْضِيٌّ، فانَّ هذا خطأ وغلط، بل هو على تفصيل . فما كان متضمنًا للثناء على الله تعالى، أو لمدح النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، أو الانبياء والملائكة وكل من يجب تعظيمه وتوقيره والثناء عليه في الدنيا والترغيب في الآخرة، فهو مندوبٌ إليه مُرَغَّبٌ فيه ؛ وما كان متضمنا للتنبيه والوعظ والتزهيد في الدنيا والترغيب في الآخرة ونحو هذا فكذلك أيضا ؛ وما كان متضمنا للهجو وإيذاء كُلِّ مَنْ عِرْضُهُ مَعْصُومٌ فهو حرام . ويَتَفَاوَتُ في القبح والشدة بحسب المُؤْذَى، حتى يَنْتَهِيَ الى الكفر كما في حق الأنبياء، وما كان خاليا عن هذين الأمرين فهو من المباح في الجملة، إلا أنه إن اشتمل على وصف القَدّ والخدّ والمجون التي تحرك دواعي الشهوة والغواية، فهو قد يَحْرُمُ وقد يُكْرَهُ وقد يُبَاح بحسب حال القائل والمُخَاطَبِ . وتحقيق ذلك أن الشعر كلامٌ كالنثر، فكل ما يُسْتَقْبَحُ في النثر يستقبح في الشعر.

فقد رُوِي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : **إنَما الشِّعْرُ كَلاَمٌ مُؤَلَّفٌ، فَمَا وَافَقَ الحَقَّ مِنْهُ فَهُوَ حَسَنٌ، ومَالَمْ يُوَافِقِ الحَقَّ فَلاَ خَيْرَ فِيه** . وقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : **إنَّمَا الشِّعْرُ كَلاَمٌ، فَمِنَ الكَلاَمِ خَبِيثٌ وطَيِّبٌ** . وقالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ : **الشِّعْرُ كَلاَمٌ فِيهِ حَسَنٌ وقَبِيحٌ، فَخُذِ الحَسَنَ وَدَعِ القَبِيحَ** . وقال ابن سيرين : **الشِّعْرُ كَلاَمٌ عُقِدَ بِالقَوَافِي، فَمَا حَسُنَ فِي الكَلاَمِ حَسُنَ فِي الشِّعْرِ، وكذلك مَا قَبُحَ مِنْهُ**

هذا، مع أن الشعر قد حَسُنَتْ فيه أشياء لم تَحْسُنْ في النثر، وذلك مما يفضّلُه به الأدباء ؛ منها الكذب الذي وقع الاجماع على حِرْمَتِهِ فإنه جائز في الشعر، إلا أن في المبالغة والايغال تفصيلا مذكورا في علم الأدب . وأفضل الأمور الصدق وما قرب منه ؛ ومنها تزكيةُ الانسانِ نَفْسَهُ ومَدْحُهُ إياها، ومَدْحُ الانسانِ بحضرته، ومَدْحُ المحرَّمات من الخمر والنساء الأجانب ونحو ذلك ؛ ومنها خطاب الممدوح مثلا باسمه وبكاف الخطاب مما يكون في النثر استنقاصا، ونحو هذا . وقصيدة كَعْبِ بْنِ زُهَيْرٍ رضي الله عنه اللاَّمِيَّةُ مُتَكَفِّلَةٌ بأكثرها، وقد أنشدها بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم ولم ينكر عليه، بل أثابه بُرْدَتَه، فاشتراها منه معاوية بثلاثين أو عشرين ألف درهم، وبقيت يتوارثها الخلفاء ويلبسونها في الجُمَع والأعياد تبركًا بها . وقيل إنه أعطاه مع البردة مائة من الابل ويحكى أن الاحوص قال يخاطب عمر بن عبد العزيز - رضي الله عنه إذ توقف عن إعطاء الشعراء :

وقَبْلَكَ مَا أعْطَى هُنَيْدَةَ جِلَّةً
على الشِّعْرِ كَعْبًا مِنْ سَدِيسٍ وبَازِلِ
رَسُولُ الاله المُسْتَضَاءُ بِنُورِهِ
عَلَيْهِ السَّلاَمُ بالضُّحَى والاصَائِلِ

وبالجملة، ففي كل كلام ينطق به اللسانُ شعرا أو نثرا، إنشاء أو حكاية، فوائدُ وآفاتٌ فصلها علماء الشعر وحرَّروها، فمن ظفر بالفائدة وسَلِمَ عن الآفات فهو الذي ينبغي له أن يتكلم إما وجوبا أو ندبا بحسب الفائدة ؛ ومَنْ لم يظفر بالفائدة ووقع في الآفة أو تَوَقَّعَهَا فهو الذي لا ينبغي له أن يتكلم إما تحريما أو كراهة بحسب الآفة . ومَنْ تعارضتا عنده فهو الذي ينبغي له أن يُرَجِّحَ أحد الجانبَيْن وإلا كَفَّ، فإنَّ دَرْءَ المَفْسَدَةِ أهمُّ، ومَنْ عَدِمَهُمَا معًا فهُوَ الذي يباح له الكلام، ولَذِكْرُ اللّهِ أكْبَرُ، واللّهُ يقول الحَقَّ وهُوَ يَهْدِي السَّبِيل .

الفصل الرابع : في الأمثال الشِّعْرِيَّة

اعلم أنَّا لما ذكرنا حكم الشعر عمومًا كما مرّ، أردنا أن نُرْدِفَه بما كان منه مَثَلاً خصوصًا . وهذا النوع داخل فيما للذي قبله وداخلٌ أيضا فيما للمثل مطلقا، وقد فرغنا قبلُ مِنْ شرحه وفضله ؛ غير أن هذا النوع له خصوصية كلام وبيان تَعَلَّقَ الغرضُ بذكره، وجعلنا الكلام في هذا الفصل في أربعة أمور بها يتم الغرضُ إن شاء الله تعالى :

الأول في التَمثُّل بالشعر ومَا ورد فيه يقال : تَمَثَّلَ بِالبَيْتِ إذا أنْشَدَه وكان النبي صلى الله عليه وسلم يتَمَثَّلُ بقول طرفة : ويأتيكَ بِالأخْبارِ مَنْ لَمْ تُزَوِّدِ ؛ إلاّ أنه يقول ويأتيك من لم تزوده بالأخبار. ولذلك قال ابوبكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ : اشهد أنك رسول الله ، لقوله تعالى : **ومَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ** . وأما غير النبي صلى الله عليه وسلم من الصحابة والتابعين فَتَمَثُّلُهُم بالشعر شائع ذائع لا يُحْصَى، وهو دليلُ ما تقدَّمَ في الفصل قبل هذا . ومما تمثل به أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ وهو على المنبر قول الغنوي :

جَزَى اللّهُ عَنَّا جَعْفَرا حينَ أزْلِقَتْ ... بِنَا رِجْلُنَا في الوَاطِئِينَ وَزَلَّتِ
أبَوْا أن يَمَلُّونَا وَلَوْ أنَّ أمَّنَا ... تُلاقِي الذي يَلْقَوْنَ مِنَّا لَمَلَّتِ
هُمُ أنْزَلُونَا في ظِلاَلِ بُيُوتِهِمْ ... ظِلاَلَ بُيُوتٍ أدْفَأَتْ وأكَنَّتِ

وأراد بذلك ما فعل بهم الأنصار من الاحسان . وأما عمر ـ رضي الله عنه ـ فكان لا ينزل به أمر إلا تمثل فيه بشعر، وكذا عائشة ـ رضي الله عنها ـ . ومما تمثلت به قولُ لَبِيد :

ذَهَبَ الذينَ يُعاشُ في أكْنَافِهِمْ ... وبَقِيتُ في خَلْفٍ كَجِلْدِ الأجْرَبِ

ورأت النبي صلى الله عليه وسلم يومًا يَعْرَقُ جبينُه وهو في عمل، وجعل عَرَقُهُ يتلألأ نوراً، فقالت له : **لو رآكَ أبُو كَبِيرٍ الهُذَلِي لَعَلِمَ أنَّكَ أحَقُّ بِشِعْرِهِ فقال لها : ومَا يَقولُ يَاعَائِشَةُ أبُو كَبِير ؟ قالت : يقول :**

ومُبَرَّإٍ مِنْ كُلِّ غُبَّرِ حَيْضَةٍ ... وفَسادِ مُرْضِعَةٍ وداءٍ مُغْيِلِ[5]

---

5) هذه رواية ديوان الهذليين الذي أورد القصيدة كاملة (القسم الأول، ص . 88-100) وفي بعض نسخ حماسة أبي تمام : (معضل) بدل مغيل.

وإذا نَظَرْتَ الى أسِرَّةِ وجْهِهِ   بَرِقَتْ كَبَرْقِ العَارِضِ المُتَهَلِّلِ

فوضع صلى الله عليه وسلم ما كان في يده وقام إليها فقبَّل ما بين عينيها وقال : جَزَاكِ اللّهُ يا عائشة خَيْرًا . مَا سُرِرْتُ بِشَيْءٍ كَسُرُورِي بِكِ ! ومما تَمَثَّلَتْ به فاطمةُ - رضي الله عنها - يوم تُوُفِّيَ أبوها عليه الصلاة والسلام قول فاطمة(5م)

قَدْ كُنْتَ لِي جَبَلاً ألوذُ بِظِلِّهِ   فَتَرَكْتَنِي أضْحَى بِأجْرَدَ ضَاحِ
قَدْ كُنْتُ ذاتَ حَمِيَّةٍ ما عِشْتَ لي   أمْشِي البِرَازَ وكُنْتَ أنْتَ جَنَاحِي
فَاليَوْمَ أخْضَعُ لِلذَّلِيلَ وأتَّقِي   مِنْهُ وأدْفَعُ ظَالِمِي بِالرَّاحِ
وإذَا دعَتْ قُمْرِيَّةٌ شَجَنًا لَهَا   يَوْمًا على فَنَنٍ دَعَوْتُ صَبَاحِ
وأغُضُّ مِنْ بَصَرِي وأعْلَمُ أنَّهُ   قَدْ بَانَ حَدُّ فَوَارِسِي ورِمَاحِي

ومما تمثل به عليٌّ - كرم الله وجهه - وهو على المنبر، معنِّفًا للقوم في تقديمهم أبا موسى الأشعري في التحكيم بعدما حذَّرهم منه قولُ دُرَيْدبْنِ الصِّمَّة :

أمَرْتُهُمُ أمْرِي بِمُنْعَرَجِ اللِّوَى
فَلَمْ يَسْتَبِينوا الرُّشْدَ إلا ضُحى الغَدِ

ومما تمثل به معاوية - رضي اله عنه - قولُ قَيْسِ بن زُهير :

أظُنُّ الحِلْمَ دَلَّ عَلَيَّ قَوْمِي   وقَدْ يُسْتَجْهَلُ الرَّجُلُ الحَلِيمُ

وسياتي في هذا الكتاب إن شاء الله تعالى ما يكفي ويشفي في هذا النحو ؛ وإنما نبهنا

5م) هي فاطمة بنت الأحْجَم الخُزاعية. والشعر منسوب إليها في حماسة أبي تمام، 1 : 377، وأمالي القالي، 2 : 1 - 2.

على لَمْحَةٍ قليلة يزداد بها الناظر بصيرة على ما ذكرنا في المثل الأول. ولو تتبعنا ما تَمَثَّلَ به الصحابةُ في الوقائع، والتابعون وهَلُمَّ جَرًّا لكان وحده موضوعا.

الثاني في المثل الشعري وأقسامه . أعلم أن المثل معروف الحقيقة مما قدمنا فيه، وهو يكون نثرا تارة، وذلك أكْثَرُهُ، وقد يكون نظما. فان المثل، وإن كان سائرا، لكنه إذا نُظم كان أسْيَرَ(6) له وأسهل على اللسان وأحسن، ثم إنه قد يقع بيتا كاملا، وقد يقع نِصْفَ بيت أو رُبُعَه أو نحوَ ذلك من الأجزاء . وسئل حَمَّادٌ الرَّاوِيَةُ بِأي شيء فَضَّلَ النابغة، فقال : إن النابغة إن تَمَثَّلْتَ بِبَيْتٍ من شعره اكتفيت، مثل قوله :

حَلَفْتُ فَلَمْ أتْرُكْ لِنَفْسكَ رِيبَةً ... ولَيْسَ وراء اللّهِ لِلْمَرْءِ مَطْلَبُ

بل لو تَمَثَّلْتَ بنصف بيت من شعره اكتفيت به، وهو قوله : ولَيْسَ وَرَاءَ اللّهِ لِلْمَرْءِ مَطْلَبُ، بل لو تَمَثَّلْتَ بِرُبُعِ بيتٍ من شعره اكتفيت به، وهو قوله : أيُّ الرِّجَالِ المُهَذَّبُ . ومن ورود المثَلِ بيْتًا مستقلا قولُ طرفة مثلا :

لَعَمْرُكَ إنَّ المَوْتَ ما أخْطَا الفَتى ... لَكالطِّوَلِ المُرْخَى وثِنْياهُ بِاليَدِ

وقول أبي الطيب :

ومِنْ نَكَدِ الدُّنيا عَلى المَرءِ أنْ يَرى ... عَدُوًّا لَهُ ما مِنْ صَدَاقَتِهِ بُدُّ

وهو كثير . ومن وروده نصفَ بيت الشطرُ الثاني من قول الحَمَاسِيِّ مثلا :

عَلَيْكَ بِالقَصْدِ فِيما أنْتَ فاعِلُهُ ... إنَّ التَّخَلُّقَ يَأتِي دونَهُ الخُلُقُ

ومن وروده رُبُعًا الرُّبُعُ الأخيرُ من قوله :

ولاَ يُواتيكَ فِيما نابَ مِنْ حَدَثٍ ... إلاَّ أخو ثِقَةٍ فانْظُرْ بِمَنْ تَثِقُ

والتمثيل بهذا أحسن من التمثيل بقول النابغة السابق، لأن ذلك ليس بربع إلا على التقريب.

---

6) في ب : أيسر.

واعلم أنه قد لا يتم المثل الا على بيتَيْن، كقول الأول :

إذا المالُ لَمْ يوجِبْ عَلَيْكَ عَطاءَهُ
صَنيعةُ تَقْوى أو صَديقٌ تُوافِقُهُ[7]
بَخِلْتَ، وبَعْضُ البُخْلِ حَزْمٌ وقُوَّةٌ
ولَمْ يَبْتَذِلْكَ المالَ إلاّ حَقائِقُهُ،[8]

وقد لا يتم إلا على أكثر، كقول بعض الأدباء :

لَصَيْدُ الضَّخْمِ فِي البَحْرِ وصَيْدُ الأسْدِ فِي البَرّ
وقَضْمُ الثَّلْجِ فِي القَرّ ونَقْلُ الصَّخْرِ فِي الحَرّ
وإقْدامٌ عَلَى المَوْتِ وتَحْويلٌ الَى القَبْرِ
لأشْهَى فِي طِلابِ العِزّ مِمَّنْ عَاشَ فِي الفَقْرِ

وقد يكون في البيت الواحد مثلان أو ثلاثة أو أربعة و أكثر . فمن الأول قول امرىء القيس :

اللّهُ أنْجَحُ مَا طَلَبْتَ بِهِ
وَ[البِرُّ] خَيْرُ حَقِيبَةِ الرَّحْلِ

ومن الثاني قول ضابىء بن الحارث :

وفي الشَّكِّ تفريطٌ وفي الحَزمِ قُوَّةٌ ويُخطيءُ في الحَرسِ الفتى ويُصيبُ،[9]

---

7) (توافقه) هي رواية الحصري وحده في زهر الآداب (2 : 832) وفي الروايات الأخرى كلها : توامقه.
8) البيتان لكثير عزة من قصيدة تشتمل على أربعة عشر بيتا . وهي في ديوانه الذي جمعه الدكتور احسان عباس . اتفقت جميع الروايات : الجاحظ في الحيوان (3 : 465)، والشريف المرتضى في الأمالي (ج2، ص . 261)، وابن عبد ربه في العقد الفريد (6: 175 ـ 176)، والحصري في زهر الآداب وكذلك صحاح الجوهري، وأساس البلاغة للزمخشري في مادة فلذ، على رواية صدر هذا البيت هكذا : منعت وبعض المنع حزم....
(ولم يبتذلك) التي وردت في الشطر الثاني عند اليوسي في النسختين معالم ترد عند غيره ممن ذكر قبل، وإنما ورد عند البعض (ولم يفتلتك) وعند البعض الآخر (ولم يفتلذك). ومعناهما : انتزعه وأخذه منك .
9) الحَرْس : الدهر . وقد تكون هذه الكلمة حرّفت عن الحدس الذي هو أظهر .

ومن الثالث قول الأول :

فالْهَمُّ فَضْلٌ وطولُ العَيش منقطعٌ والرِّزقُ مُنْقَسِمٌ ورَوحُ الله مُنْتَظَر

ومما فيه خمسة قول بعض الأدباء :

خَاطِرْ تُفِدْ وَارْتَدْ تَجِدْ واكْرُمْ تَسُدْ

وانْقُدْ تَقُدْ واصْغُرْ تُعَدَّ الأكْبَرَا

ومما فيه ستة قول ابن رشيق :

خُذِ العَفْوَ وأْبَ الضَّيْمَ واجْتَنِبِ الأذَى

وأغْضِ تسُدْ وارْفُقْ تنَلْ واسْخُ تُحْمَدِ

الثالث فيما ينبغي له ويستحسن، وهو ثلاثة أشياء :

أحدها أن يكون مُتَّزِنًا قائمًا بنفسه غير محتاج الى غيره، وذلك إما أن يكون بيتًا مستقلا، كقول طرفة السابق، وكقول السموأل :

إذَا المَرْءُ لَمْ يَدْنَسْ مِنَ اللُّؤْمِ عِرْضُهُ

فَكُلُّ رِدَاءٍ يَرْتَدِيهِ جَمِيلُ

ونحوه وهو كثير. وإمَّا أن يكون جزءا من البيت مستقلا كقول الحَمَاسيِّ السابق، وكقول جميل بن عبد الله :

أرَى كُلَّ عُودٍ نَابِتًا فِي أرُومَةٍ أبَى مَنْبَتُ العِيدَانِ أنْ يَتَغَيَّرَا

فان الشطر الثاني مَثَلٌ مستقل بالوزن والمعنى، وكذا الأول، أمَّا إن كان جزءًا محتاجًا غير مستقل، كقول النابغة المذكور :

ولَسْتَ بِمُسْتَبْقٍ أخًا لاَ تَلُمُّهُ عَلَى شَعَثٍ أيُّ الرِّجَالِ المُهَذَّبُ

فإن قوله : أيُّ الرِّجَالِ المُهَذَّبُ مَثَلٌ، إلا أنه محتاج في الوزن الى ما قبله. وكذا قول الحماسي :

وإنْ أبَيْتُمْ فَإنَّا مَعْشَرٌ أنُفٌ لا نُطْعَمُ الخَسْفَ إن السُّمَّ مشْروبُ

فإن قوله : إنَّ السُّمَّ مَشْرُوبُ مَثَلٌ، وليس بمستقل، فهو كله غير مستحسن. ووجهه فيما يظهرلي ما تقدم من أن المَثَلَ إنما نظم ليكون أيْسَرَ وأشْهَر . فإذا كان بيتا مستقلا حسن إنشادُه من غير حشو هنالك ولا التباس ؛ وإن كان شطرا تامّ الوزن، حسن أيضا إنشادُه (وحده)[10] من غير حشو ولا فساد في النظم ولا خروج عن حكم الشعر ؛ وإن كان جزءاً غير تام الوزن فهو إن أنشد البيتُ المُحْتَوِي عليه كُلُّه كان ما زاد على المثل حشواً مع وقوع الالتباس تارة فيما أريد من البيت اذا لم يتعين المقصود، كما في قول النابغة : أيُّ الرِّجَالِ المُهَذَّبُ، فإنه (مَثَلٌ)[11] وباقي البيت أيضا مَثَلٌ، وقد لا يُدْرَى أيُّهما المرادُ بعينه، وإن كانا يرجعان الى مقصود واحد. وأكثر الأبيات يصح التمثيل بها فيقع الالتباس . وإن لم يُنْشَد البيتُ كلُّه، بل اقتُصر على المثل وحده صار نثراً وبطلت فائدة نظمه . أما ما لا يتمّ من الأمثال في بيتين أو أكثر كما مر، فهو من التام الوزن دون المعنى، وهو عيب التضمين . ويتقوى العيبُ بكون التضمين بين مبتدأ وخبر، وفعل وفاعل، ونحو ذلك . ويَسْهُلُ بكونه بين الشرط والجزاء، أو القسم والجواب ونحوه . وتفصيله مذكور في علم القوافي.

ثانيها أن يكون سالما عن التكلف سلسا، تستلذّه الأسماع ليكون أوقَعَ له في النفس وأعْوَنَ على الشيوع : فإن الشعر إذا كان مُتَكَلَّفًا كان المنثور أحسن منه . وقد يكون التكلف بالاكثار من الأمثال في البيت الواحد أو في القصيدة، فان تعاطي الجمع بين أربعة أمثال في البيت لا يخلو عن تكلف، فضلا عن الخمسة والستة، وكذا في القصيدة . ولذلك قال ابن رشيق في عمدته : وهذه الأشياء في الشعر إنما هي نبذةٌ تُستحسن، ونُكَتٌ تُسْتَطْرف، مع القلة وفي الندرة ؛ فأمَّا إذا كَثُرتْ فهي دالَّةٌ على الكُلْفة . فلا يجب للشعر أن يكون مثلا كله وحكمة، كشعر صالح بن عبد القدُّوس : فقد قعد به عن أصحابه وهو يَقْدُمُهم في الصناعة، لإكثاره من ذلك . وكذا لا يجب أن يكون استعارة وبديعا كشعر أبي تمام ثم قال : وإنما هرب الحُذّاق عن هذه الأشياء لما تدعو إليه من

10) سقط من أ .
11) سقط أيضًا من أ .

التكلف [12] لا سيما إن كان في الطبع أيْسَرُ شيءٍ من الضَّعْفِ والتَّخلف . وأشدّ ما تكلّفه الشاعر صعوبةُ التشبيه، لما يحتاج إليه من شاهد العقل، واقتضاء العيان . ولا ينبغي للشعر أن يكون أيضا خاليا مغسولا من هذه الحلى فارغا ككثير من شعر أشجع وأشباهه.

ثالثها أن يكون مُتَحَرّىً فيه الصدقُ وحسن الاصابة . وهذا لا يختص بالمثل الشعري، فإن المثلَ كلّه أفضلُه أصدقُه وأحكمه وأوجزه ؛ وإنما اشْتُرِطَتِ الوجَازةُ احتزازاً عن التكلف والاملال : فإن قوة البشر غالبا قاصرة عن إيراد الأمثال الطوال من غير تكلف ولا موجب إملال ؛ ومِنْ ثَمَّ وردت في القرآن الذي هو درجة الاعجاز قصاراً وطوالا، وحَسُنَتْ كلُّها لانتفاء المانع . فمن القصار قوله تعالى : كَمَثَلِ الحَمَارِ يَحْمِلُ أسْفَاراً ونحوه، ومن الطوال قوله تعالى : إنَّمَا مَثَلُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ الآية ؛ وقوله تعالى : مَثَلُ الذِينَ كَفَرُوا بِرِبِّهِمْ (أعْمَالُهُمْ كَرمَادٍ اشتَدَّتْ بِهِ الرِّيَاحُ الآية، والذِينَ كَفَرُوا)[13] أعْمَالُهُمْ كَسَرابٍ بِقِيعَةٍ الآية، ونحو ذلك وهو كثير . وكذا في كلام النبي صلى الله عليه وسلم وقَعَتْ قصاراً وطوالاً وحسنت لصدورها عن المصطفى الذي هو أفصح مَنْ نَطَقَ بالضاد صلى الله عليه وسلم . فمن قصارها قوله صلى الله عليه وسلم : النَّاسُ كَأسْنَانِ المُشْطِ، وقوله : المُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا، ونحو ذلك . ومن طوالها قوله : مَثَلُ البَخِيلِ والمُنَافِقِ كَمَثَلِ رجُلَيْنِ عَلَيْهِمَا جُبَّتَانِ مِنْ حَدِيدٍ الحديث ؛ وقوله : وإنَّ مِمَّا يُنْبِتُ الرَّبِيعُ لَمَا يَقْتُلُ حَبَطًا أوْ يُلِمُّ إلا آكِلَةَ الخَضِرِ أكَلَتْ حَتَّى إذا امْتَدَّتْ خَاصِرَتَاهَا الحديث[14] وسياتي الجميع في موضعه مستوفىً مشروحًا إن شاء الله تعالى .

الرابع في معنى السائر . اعلم أنه يقال : مثل سائر، سواء كان شعراً أو غيره، وهو من السَّيْرِ في الأرض استعمل في ذهاب المثل وشيوعه في أسماع الناس . ويقال أيضا : مثلٌ شارد وشَرُود، وهو من شُرُود البعير وهو نُفُوره، واستعمل في شيوع المثل لأن المثل إذا شاع لا يستطاع ردّه ولا يمكن إخماده كما لا يستطاع ردُّ الصعب الشَّرُود من الابل . ولذلك قال زهير يخاطب بَنِي الصَّيْداء، حيث ذهب الحارث بن ورقاء بإبله وغلامه يسار :

12) في ب : التكاليف.
13) ما بين قوسين سقط من نسخة ب.
14) أورد ابن الأثير هذا الحديث في أكثر من موضع من النهاية، بحذف لام (لما يقتل)، وزيادة (فإنها) بين الخضر وأكلت،

فَأَبْلِغْ إنْ عَرَضْتَ بِهِمْ رَسولاً بَنِي الصَّيْداءِ إنْ نَفَعَ الجِوارُ
بأنَّ الشّعْرَ لَيْسَ لَهُ مَرَدٌّ إذَا وَرَدَ المِيَاهَ بِهِ التّجَارُ

وقال أيضـا :

أولَى لَهُمْ ثُمَّ أولَى أن تُصيبَهُمُ منّي فَواقِرُ لا تُبْقي ولا تَذَرُ
وأن يُعَلّل رُكْبَانُ الحجيجِ بِهِم بكُلِّ قافيةٍ شَنْعَاءَ تَشْتَهِرُ

قال ابن رشيق : وزعم قوم أن الشَّرود ما لم يكن له نظير كالشّاذّ والنادر.فأمَّا قولُ أبي تمام، وكان إمام الصنعة ورئيسها :

لا تُنْكِروا ضَربي له مَن دونَه مثلاً شَروداً في النَّدى والبَاسِ

حين عِيبَ عليه قولُه في ابن المعتصم :

إقْدامُ عمْرٍ في سَماحَةِ حاتمٍ في حِلْم أحْنَفَ في ذكَاءِ إياسِ

فإنه يشهد للقول الأول، لأن المَثَلَ بعمرو وحاتم مضروبٌ قديما، وليس بِمَثَلٍ لا نظير له كما زعم الآخر .

خاتـمـة[1]

في اصطلاح الكتاب

اعلم أني رتّبت ما ذكرته من الأمثال على حروف المعجم، جاعلا الباب الأوّل حروف الكلمة، فإن اشتمل المثل على كلمات اعتبرت [أوّلـها] كلِمةً، ثم أول هذه الكلمة حرفًا، ثم عند سرد أمثال كل باب أعتبر هذا الترتيب أيضا في جمعها وتقديم بعضها على بعض، والمعتبر من جميع ذلك أولُ الحروف الأصليـّة دون الزائدة، إلا أن يكون لها مُسَوِّغٌ يَخْرِطُها في سِلْكِ الأصْلِيـّة . فإن كان الحرفُ مما ينبني عليه التركيب كَلاَ وَمَا النّافِيـَتَيْن، وفي والباء الجارّتَيْن، اعتبر أيضا . فإذا فرغت من الأمثال ذكرت شيئا مما يجري مجرى المثل وجعلته ملتحقًا به، ثم ذكرت بعض ما يحضر فكري من الأمثال الوقتية من غير تكلف ولا كبير تأمل ولا مراجعة، ثم شرعت في الشعر فذكرت ماهو من الشعر مَثَلٌ أو يَحْسُنُ التّمَثُّلُ به في أمر من الأمور من شعر المتقدمين والمتأخرين، وليس في وسْعِ أحد اليومَ استقصاؤه ولا بلوغ جلّه، لكن أذكر من ذلك مقدارا يكون كفاية لمبتغيه، مع التجافي عن جانبي الاخلال والاملال، فإن كِلاَ طَرَفَيْ قَصْدِ الأمور ذميم . واعلم أني ربما أذكر شيئا من أمثال المولّدين ومن بعدهم، أو شيئا مما يُتَمَثّلُ به في وقتنا من ألفاظ الحديث وغيره . ولا أقتصر على أمثال العرب ولا على ماعُدَّ مثلا بالصراحة . وإذا عثرتُ على ما يحسن إيراده أوردتُه غيرَ مبال بقائله ولا بتصحيح السند والرواية، فإن الكتاب ليس موضوعًا لِلْعَزْوِ الصِّرْفِ والحكايات المجردة، بل موضوعٌ لينتفع به الأديب ويستعين به المتصرف ويتضلّع منه الكاتب والشاعر وغيرهما إن شاء الله تعالى . ولاَ حَرَجَ عَلَى مَنْ لَعِقَ العَسَلَ، انْ لا يسل . وهذا حين أشرع في المقصود، مستعينا بالفتاح الخبير الودود .

1) سقط هذا العنوان من أ.
وفي نسخة ب : (الفصل الخامس) بدل خاتمة . وفي ج : (الفصل الرابع في أحكام الكتاب)

أبـَى الحـَقـِينُ العِذْرَة .

الاباية : الامتناع . يقال : أبـَى الشيء يـَأْبـَاه ويأبـِيه إباءً وإباءة بكسر أولهما، إذا كرهه . والحـَقـِين : اللبن المحقون في السّقاء . تقول : حـَقـَنـْتُ الّلبنَ في السّقـَاء إذا صَبَبـْتـَه فيه وجعلت حليبه على رائبه . واسم السّقاء : المِحـْقـَنُ على مثال مِـنـْبـَر[1] . واسم اللبن : الحـَقين . قال زهير يصف الخيل :

ويـُرجـْعـُهَا إذا نـَحنُ انـْقـَلـَبـْنـَا نـَسيفُ البـَقـْلِ والّلبـَنُ الحـَقـِينُ

يقول إنه يرجعها إلى ما كانت عليه من السّمـَنِ ما تـَنـْسـُفـُه من البـَقـْل وتـَأكـُلـُه، وما نسقيها من اللبن المحقون . والعِـذْرَة : العـُذْر . قال النابغة يخاطب النعمان :

ها إنّ ذي عِـذْرَةٌ إلاّ تـَكـُن نـَفـَعتْ فإنّ صاحبـَهـا مُشاركُ النـّكـَـدِ

ومعنى المثل أن العـُذْرَ باطل مع وجود اللبن . وسيأتي شيء من هذا في قولهم : أهـْونُ مـَظْلـُوم سقاء مروب، إن شاء الله تعالى .

أتـَى الأبـَد،عـَلـَى لـُبـَد .

الاتيان : المجيء . يقال : أتاه أتـْيـًا وإتـْيانـَةً وإتـْيـَانـًا وأُتِيّاً ،كما يقال مـَأْتـَى ومـَأتـَاة، إذا جاءه ؛ وأتـَى فلانٌ هذا الامر إذا فعله ؛ وأتى الدهرُ على فلان إذا أهلكهُ،وهو المقصود هنا . والأبـَد بفتحتـَيـْن : الدهر . يقال : أبـَدٌ أبِـيـدٌ، كما يقال : دهـْرٌ داهِرٌ . ولـُبـَد : بضم ففتح آخر نسور لقمان بن عاد [وبهلاكه هلك لقمان][2]، وقصـّته مشهورة، وتلخيصها : أن عاداً لما بعث الله إليهم نبيـّهم هوداً، على نبينا وعليه الصلاة والسلام فدعاهم، كذّبوه وعـَتـَواْ واستكبروا ولم يؤمنوا، فاحـْتـَبـَسَ عنهم القـَطـْرُ ثلاثَ سنين حتى جهدوا فأوفدوا وفداً إلى البيت الحرام يستسقون لهم، فيهم لقمان بن عاد، ورأسهم رجل يقال له قـَيـْل . فانطلق الوفد حتى أتوا على معاوية بن بكر فنزلوا عليه وهو خارج الحرم، وهم أخواله وأصهاره . فمكثوا عنده شهراً يكرمهم، يشربون الخمر وتغنيهم قـَيـْنـَتـَان له يقال لهما الجرادتان . فلما طالَ مُقامـُهم عنده تـَذكـّرَ ما نزل بقومهم من البلاء، فشق عليه مُقـَامـُهم وتركهـُم ما بعثهم فيه قومهم وقال : هـَلـَكَ أصـْهاري وأخوالي، والله ما أدري ما أصنع ! إن أمرتهم بالخروج ظنـّوا بي أني ضَـاقَ بِـي مُقامـُهم عندي فقال شعرا وأعطاه الجرادتين وأمرهما أن تغنياهم به، وهو :

1) حرف منبر في النسختين (قنبر) والتصحيح من القاموس.
2) زيادة في جم.

ألا يا قَيْلُ ويْحَكَ قُمْ فَهَيْنِمْ   لَعَلَّ اللّهَ يُصْبِحنا غَمَاما
فَيَسْقِي أرْضَ عَادٍ إنَّ عَاداً   قَدْ أمْسَوا لا يُبِينُون الكَلاَما
وإنَّ الوَحْشَ تَأْتِيهمْ جِهَارا   فَلا تَخْشَى لِعَادِيٍّ سِهَاما
وأنْتُمْ هاهُنا فيما اشْتَهَيْتُمْ   نهارَكُمُ وليلَكُم التماما
فَقُبِّحَ وفْدُكُم مِنْ وفْدِ قَوْمٍ   ولاَ لُقُّوا التَّحِيَّةَ والسَّلاَما

فلما غنتاهم بالشعر قال بعضهم لبعض : إنما بعثكم قومُكم لما نزل بهم، فادخلوا هذا الحرم فاستسقوا لهم. وفيهم رجل يقال له يزيد بن سعد أو مرثَد بن سعد ممَّن آمن بهود. فقال لهم : والله لا تُسْقَوْنَ حتى تطيعوا نبيكم ! وأظهر حينئذ إيمانه وقال في ذلك شعرا، فلم يجيبوه الى ما قال، وقالوا لمعاوية بن بكر : احبس عنا يزيد لا يدخل معنا مكة وهو على دين هود . فانطلقوا حتى دخلوا مكة، وخرج يزيد وراءهم، فأدركهم قبل أن يدعوا بشيء، فقال : اللهم لا تدخلني في شيء مما يدعوك به وفدُ عاد، فقام قَيْل وقال : اللهم إن كان هود صادقا فاسقنا فقد هلكنا ! فأنشأ الله تعالى سحائب ثلاثا : بيضاء وحمراء وسوداء، ونودي من السحاب : يا قيل، اختر لنفسك ولقومك ! قال : قد اخترت السوداء لأنها أكثر السحاب ماء . فنودي : اخترت رِمَادا رِمْدِداً، لا يُبْقي من آل عاد أحدا . فساق الله السحابة السوداء بما فيها من النقمة الى عاد، وأرسلها عليهم سَبْعَ لَيالٍ وثَمَانِيَةَ أيام، فلم تَدَعْ منهم أحدا إلا هلك . واعتزل هود عليه السلام ومَن معه الى حديقة، فكانوا لا يصيبهم منها الا نسيم يلين الجلود وتَلَذُّه الانْفُسُ . وكان الوفد لما دعوا بمكة خُيِّروا فاختار قَيْلٌ أن يصيبه ما أصاب قومه فاقتلعتْه الريح فأهلكته . وسأل لقمانُ أن يُعَمَّرَ فخُيِّر بين عُمُرِ سبعِ بعراتٍ سُمْرٍ، من أظْب عُفْرٍ، في جَبَلٍ وَعْرٍ، لا يَمَسُّهَا القَطْرُ، وبين سبعة أنْسُرٍ كُلَّما هَلَكَ نَسْرٌ خَلَفَ بعده نسر. فاختار النسور، فكان يأخذ فرخ النسر حين يخرج من البيضة، فيُغَذِّيه حتى إذا هلك أخذ آخر، حتى بقي السابع وهو لُبَد . فكان يُغَذِّيه حتى هرم ولم يستطع النهوض، فأيقن حينئذ لقمان بالموت، فهلكا جميعا. وذكرت الشعراء هذا النسر في أشعارها كثيرا، قال النابغة :

أمْسَتْ خَلاءً وأمْسى أهْلُها احْتَمَلوا   أخْنى عَلَيها الذي أخْنى على لُبَدِ [3]

---

3) في أ : (أجنى) بدل أخنى، وهو تصحيف.

وسيأتي تتمة الكلام عليه في حرف الهاء، إن شاء الله تعالى .

يضرب هذا المثل عند التأسي والاعتبار، والتعزي والاستبصار . وهو من الأمثال الحكمية.

أَتَتْكَ بِحَائِنٍ رِجْلاَهُ .

الاتيان : تقدّم . والحَائِنُ : الهالك . يقال حَانَ الرجلُ يَحِينُ حَيْنًا كباع بيعًا إذا هلك، فهو حائن . وأحانه الله : أهلكه .

يضرب هذا المثل فيمن سعى إلى مضرته وطلب هلاكه وجرى إلى حتفه . قاله عَبِيد بن الأبرص . وسببه أن المُنْذِرَ بنَ مَاءِ السَّمَاءِ، أو النعمان على خلاف بينهم، كان قسم دهره يومَيْن : يوم نعيم، ويوم بؤس . فكان كلّ من لقيه في يوم النعيم أجزل صلته، ومن لقيه يوم البؤس قتله . فبينما هو في يوم من أيام بؤسه إذ طلع عليه عَبِيدُ بْنُ الأبْرَصِ . فقال له الملك : ألاَ كَانَ الذّبْحُ لغيرك ؟ فقال عَبِيد : أتَتْكَ بِحَائِنٍ رِجْلاهُ : قال الملك : أو أجلٌ بَلَغَ أنَاه، ثم قال له : أنْشِدْني يا عَبِيد، فقد كان يعجبنا شعرك . فقال عَبِيد : حَالَ الجَرِيض، دُونَ القَرِيض، وبَلَغَ الحِزَامُ الطّبْيَيْن . قال : أنشدني :

أقْفَرَ مِنْ أهْلِهِ مَلْحُوبُ فَالقُطَبِيَّاتُ فَالذّنُوبُ

وهو من شعر عَبِيد . فقال عَبِيد :

أقْفَرَ مِنْ أهْلِهِ عَبِيدُ فَاليَوْمَ لاَ يُبْدِي ولاَ يُعِيدُ

فقال : أنشدني هَبِلَتْك أمّك ! قال : المَنَايَا عَلَى الحَوَايا . فقال بعض القوم : أنْشِدِ المَلِكَ هَبِلَتْك أمُّك ! فقال : لاَ يُرَحِّلُ رَحْلَكَ مَنْ لَيْسَ مَعَك[4].

وقال له آخر : ما أشدّ جَزَعَك على الموت ! فقال :

لا غَرْوَ مِنْ عِيشَةٍ نَافِدَهْ وَهَلْ غَيْرُ مَامِيتَةٍ وَاحِدَهْ

فَأبْلِغْ بَنِيَّ وأعْمَامَهُم بِأنَّ المَنَايَا هِيَ الرّاصِدَهْ

---

4) أورده الميداني في **مجمع الأمثال** بصيغة : لا يُرَحِّلَنَّ رَحْلَكَ مَن لَيْسَ مَعَك، وقال إنه يروى أيضا بصيغة النفي : لا يُرَحِّلُ.....

فَلاَ تَجْزَعُوا لِحِمَامٍ دَنَا
فَلِلْمَوْتِ مَاتَلِدُ الوَالِدَه
فقال له الملك : لا بدّ من الموت، ولو لقيني أبي في هذا اليوم لم أجد بدا من أن أذبحه . فأمّا إذ كنت لها وكانت لك فاختر مني ثلاث خصال : من الاكْحَل، وإنْ شِئْت من الأبْجَل، وإن شئت من الوريد . فقال عَبِيد : ثلاثُ خصال مَقَادُها شَرُّ مَقَاد، وحاديها شرُّ ماحادٍ، ولا خَير فيها لمُرتاد، فإن كنتَ لا محالةَ فاعلاً فاسْقِني الخمَر حتّى إذا ذَهِلَتْ لها ذَواهِلي، ومَاتَتْ لها مَفَاصِلِي، فشَأْنُك ومَا تُرِيد ! فسقاه، فلما أخذت فيه الحُمَيّا وقُرِّبَ للذَّبْح أنشد يقول :
وخَيَّرَني ذو البُؤْسِ في يَومِ بُؤْسِهِ
ثَلاَثًا أرَى فِي كُلّهَا المَوْتَ قَدْ بَرَقْ
كَمَا خُيِّرَتْ عَادٌ مِنْ الدَّهْرِ مَرَةً
سَحَائِبَ مَا فِيهَا لِذِي خِيَرَةٍ أنَقْ
سَحَائِبَ ريحٍ لَمْ تُوكَّلْ بِبَلْدَةٍ
فَتَتْرُكَهَا إلاَّ كَمَا لَيْلَةِ الطَّلَقْ
فأمَر به فَذُبِح . وفي هذه القصة أمثالٌ يأتي شرحُ كل منها في محله إن شاء الله تعالى . ولما دخل عبد الله بن زياد الكوفة، وسمع به مسلم بن عقيل بن أبي طالب، تحوَّل الى هانىء بن عُرْوَة المُرَادِي، فوضع ابنُ زياد الرَّصَدَ على مسلم حتى علم بموضعه، فبعث محمد بْنَ الأشْعَثِ الى هانىء فجاءه به من هنالك . فلما نظر إليه ابن زياد قال : أتَتْكَ بِحَائِنٍ رِجْلاَهُ ! ثم قال :
أرِيدُ حَيَاتَهُ ويُرِيدُ قَتْلِي
عَذِيرَكَ مِنْ خَلِيلِكَ مِنْ مُرَادِ
والقصة مشهورة في قتل الحسين رضي الله عنه، وسنُلِمُّ بباقيها بعد إن شاء الله تعالى .

أتَيْتُهُ صَكَّةَ عُمَيٍّ

الاتيان مرٌّ والصَّكُّ : الضرب الشديد . والصَّكَك : اضطراب الركبتين والعرقوبين .

يقال : صَكَّ، يَصَكُّ، صَكَكًا، كما يقال ملّ، مَلَلاً . فهو أصَكُّ ومِصَكّ . واصْطَكّ أيضا اصْطِكَاكًا[5] وعُمَيّ : بتشديد الياء على مثال سُمَيّ، اسم رجل من العمالقة كان أغار على قوم ظهرا فصكّهم واستأصلهم، فبقي مثلا لكلِ من جاء ذلك الوقت، وهو وقت الهاجرة وشدة الحرّ. وقيل هو رجل كان يفتي في الحج، فجاء في ركب، ونزلوا منزلا في يوم حارّ . فقال لهم : من جاءت عليه الساعة من غد وهو حرام، بقي حراما الى قابل فوثبوا حتى وافوا البيت من مسيرة ليلتين جادين . وقيل عُمَيّ اسم للحرّ بعينه . وقيل المراد به الظبي، لأنه يصدر في الهواجر فيصطك بما يستقبله كاصطكاك الأعمى، فصُغّر الأعمى تصغير الترخيم، فقيل فيه عُميّ، كما قالوا في تصغير أدْرَد، وأسْوَد، وأزْهَر : دُرَيد، وسُوَيد، وزُهَير.

أتَتْهُمْ فَالِيَةُ الأفَاعِي.

الاتيان مرّ . وفَالِيَة الافاعِي : خنفساء رقطاء . قال العبدي في شاعر من بني حميس:

ألاَ يَنْهَى سَرَاةُ بَنِي حُمَيْسٍ
شُوَيْعِرَهَا فُوَيْلِيَةَ الافَاعِي

فَصَغَّرها كما صَغَّر الشاعر تحقيراً له . وهذه الخنفساء تألف العقارب والحيات في جُحرها ؛ فإذا خرجت أو رؤيت في موضع عُلِم أن هناك العقارب والحيات، فيضرب المثل لأول شرّ ينتظر بعده شرّ منه .

يَأتِيكِ كُلُّ غَدٍ بِمَا فِيهِ.

الغد معروف، وأصله غدو، ثم خُفّف بحذف لامه، وقد يؤتى به على أصله قال لبيد .

ومَا النَّاسُ إلاّ كالدِّيَارِ وأهْلِهَا
بِهَا يَوْمَ حَلُّوهَا وغَدْواً بَلاَقِعُ

وهذا المثل من أمثالهم المشهورة، يعنون به : « المقادير كلها في علم الله تعالى قد قدرت،

---

5) في لسان العرب : الصَّكَّةُ : شدة الهاجرة، يقال لَقِيتُهُ صَكَّةَ عُمَيّ وصَكَّةَ أعمى، وهو أشد الهاجرة حرّاً. وفي الحديث :

كان يُسْتَظَلُّ بِظِلِّ جَفْنَةَ عبدِ اللهِ بنِ جُدْعَانَ صَكَّةَ عُمَيّ، يريد في الهاجرة.

والأحداث بأصنافها قد فصّلت وقسّطت، وكلّ ما هو واقع منها فهو لا محالة كائن، وما قُضِيَ أن يبرز منها فهو بارز حتى يُعايَنَ ، فكل غد فهو يأتيك بما فيه من خير وشر، ويسر وعسر، وفرح وترح.

إحْدى حُظَيَّاتِ لُقْمَانَ

الاحْدَى : تأنيث الاحَد بمعنى الواحد . والحُظَيَّة تصغير حَظْوة، بفتح الحاء المهملة وسكون الظاء المشالة، وهي سهم صغير قدر ذراع . وفي الصحاح انه إذا لم يكن فيه نصل فهو حُظَيَّة بالتصغير . وتطلق الحَظْوة أيضا على كل قضيب ثابت في أصل شجرة . ولُقْمَان : هو ابن عاد . وحُظَيَّاتُه : سهامُه ومراميه . يضرب لمن عُرِف بِالشَّرارَة ثم جاءت منه هَنَةٌ صالحة . وذكروا في أصل ذلك أن لقمان تزوج امرأة كانت طلقها رجل يقال له عمرو، فكانت تكثر أن تقول : لا فتى إلاّ عمرو ! فإذا سمع منها لقمانُ ذلك اغتاظ فقال : والّلهِ لَأقْتُلَنَّ عَمْراً ! فنهته المرأة عن ذلك وقالت له : والله لئن تَعَرَّضْتَ له لَيَقْتُلَنَّك ! فذهب لقمان حتى صعد سَمُرَةً عند مُسْتَقَى عمرو لابله، واتخذ فيها عشا، وترصد عمراً لِيُصِيبَ منه غِرَّةً . فإذا بعمرو أورد إبله، [فتجرد وأكب على البئر يسقي إبله][6] فرماه لقمان من فوقه بسهم وأصاب ظهره. فقال عمرو: حَسّ[6م] إحدى حُظَيَّاتِ لقمان، فانتزعه ورفع رأسه الى السَّمُرَةِ فإذا لقمان، فقال له : انزل فنزل . فأراد قتله فتبسم لقمان فقال : أضاحكٌ أنت ؟ قال : والله ما أضحك إلا من نفسي، أمَا أني قد نُهِيتُ عمَّا ترى قال : ومن نهاك ؟ قال : فلانة . قال : فإن وهبتُك لها لَتُعْلِمَنَّها بذلك، قال : نعم ! فخلّى سبيله . فأتاها لقمان فقال : لا فتى إلا عمرو، فقالت : لقد لقيته، قال نعم، لقد كان كذا وكذا وأراد قتلي ثم وهبني لك، فقالت لا فتى إلا عمرو، قال : صدقت .

الأخْذُ سَلَجَان، والقَضَاءُ لِيَّان

الأخْذُ : التناول . تقول : أخذت الشيء أخْذاً، وتقول خُذْ يافلان بحذف فاء الكلمة . وأصله أأْخُذ، فلما استُثْقِل الجمع بين همزتين حذفتا، ولم تبدل الثانية حرف مدّ ولو

6) سقط ما بين قوسين من ب .
6م) في صحاح الجوهري : حَسٌ : كلمة يقولها الانسان إذا أصابه غفلةٌ ما مَضَّهُ أو أحرقه كالجمرة . ويقال أيضا : حَسٌ بَسٌ ! ومن أمثال العامة في المغرب : « فعل الشيء حَسٌ مَسٌ » أي على حين غفلة من الناس.

أدخل على الفعل الواو أو الفاء . وكذا الأمْرُ مِن أكَلَ وأمَرَ ؛ إلا أن الآخر إذا دخل عليه العاطف جاز ردّ فائه . والسَّلَجَان : الابتلاع يقال : سَلِجَ اللقمة بالكسر يَسْلَجُهَا سَلْجانًا وسَلَجانًا إذا ابتلعها . والسُّلَّجَان بكسرتَيْن مشدّد اللاّم : الحلقوم . وطعام سَلِيجٌ وسَلَجْلَج وسُلَجْلِج : طيب، يُتَسَلَّج[7]، أي يُبْتَلَعُ . واستعمل حسان رضي الله عنه السلجم في السيف الماضي الذي يَقْطَعُ الضريبة بسهولة، حيث قال يوم بدر :

زين الندى معاود يوم الوغى

ضرب الكماة بكل أبيض سلجم

ولَوَيْتُ أمري عنه لَيّا ولَيَّانًا : طويتُه، ولَوَيْتُه بدَيْنِه لِيّا ولِيَّانًا بكسرهما : مَطَلْتُه . وفي الخبر : لَيُّ الواجِدِ يُحِلُّ عِرْضَه . وقال ذو الرمّة :

تُريدِينَ لِيَّانِي وأنْتِ مَلِيَّةٌ

وأُحْسِنُ يَاذَاتَ الوشَاحِ التَّقَاضِيَا[8]

وقضاء الدين والحق معروف . **ومعنى المثل** أن الأخذ سهل ينساغ في الحلق بسهولة، والقضاء بخلاف ذلك . فإذا أخذ الرجل الدَّيْنَ أكله غير مبال ؛ فإذا حان القضاء تصعَّب الأمر وتلوّى . وقد يقال في هذا المثل أيضا : **الأكلُ سَلَجَان، والقضاء لِيَّان**، ولا فرق بين الأكل والأخذ في المقصد، فالمعنى واحد.

الأخْذُ سُرَّيْط، والقَضَاءُ ضُرَّيْط

الأخذ مَرّ . والسُّرَّيط الاسترَاط . يقال : سَرَطَ اللقمة يَسْرُطُها، كدخَل يَدْخُل، وسَرِطَها يَسْرَطُها، كفَهِم يَفْهَم، سَرْطًا إذا ابتلعها . والمِسْرط بكسر الميم وفتحها الحلقوم . والضراط معروف . يقال : ضرط بالكسر يضرط ضَرْطًا، وضَرِطًا كَكَتِف، وضَرِيطًا وضُراطًا بالضم اذا فعل ذلك . وأضْرَطَهُ وضَرَّطَهُ تضريطًا : عمل به ما يضرط منه ؛ وأضرط به : عمل بفيه كالضارط وهزىء به

ومعنى المثل أنه يأخذ الديْن فيسترطه ويبتلعه سهلا ؛ فإذا طالبه صاحبه بالقضاء

---

7) في النسختين معا : يَنْسَلم
8) ورد البيت في لسان العرب هكذا : تُطِيلِينَ لَيَّانِي

أضرط به كما في الذي قبله . ويقال هنا سُرَّيْط و ضُرَّيْط، بضم أولهما وتشديد الراء ؛ وسُرَّيْطَى وضُرَّيْطَى كذلك مع الألف المقصورة ؛ وسِرِّيط وضِرِّيط وسِرِّيطَى وضِرِّيطَى على مثال خلّيفى ؛ وسُرَيْطَاء وضُرَيْطَاء، مضمومتَيْن مخفّفتَيْن، والكل واحد . وقد يقال : **الأخذُ سُرَّيْط، والعَطَاء ضُرَّيْطٌ ولا فرق بين القضاء والعطاء فالمعنى واحد .**

اتَّخَذَ فُلانٌ حِمَارًا لِلْحَاجَات

الاتخاذ التصيير . والحاجات : جمع حاجة ؛ وتجمع أيضا على حَاج وحِوَج وحوائج، وهذا الأخير على خلاف القياس، كأنه جمع حائجة . وكان بعض اللغويين ينكره ويقول انه مولّد . وقال آخرون هو عربي وإن كان خلاف القياس، وأنشدوا :

نَهَارُ المَرْءِ أمثَل حِينَ يَقْضِي   حَوَائِجَهُ مِنَ اللَّيْلِ الطَّويلِ

يضرب هذا المثل فيمن يُمْتَهَنُ في الأمور كالحمار.

اتَّخَذَ اللَّيْلَ جَمَلاً

الاتخاذ مرَّ، والليل معروف، وكذا الجمل من الابل . يضرب هذا المثل لمن سرى الليل أجمع، إما لأنه بات ساريا مستيقظا عارفا بجميع ما مرَّ عليه من أجزاء الليل كان مصاحبا لليل حقيقة، غير تارك له ولا غافل عنه بالنوم، ولا مفارق له كمصاحبة الراكب لراحلته، وإما لأنه صار الليل له سببًا في وصوله الى (مآربه وبلوغه الى مرغوبه حين سَرَاه، كما أن الجمل يكون سببا في وصوله)[9] الى مطلوبه حين يركبه ؛ وإما لأن الدُّلْجَةَ تُعين على السير وتقطع المسافة البعيدة كما في الحديث فأشبهت الجمل لأنه أقوى على السير، وأبقى على الأيْر، وأقطع للفلوات، وأنجح في بلوغ الحاجات . قال حبيب :

جَعَلَ الدُّجى جَمَلاً وَوَدَّعَ راضِيًا   بِالهَوْنِ يَتَّخِذُ القعُودَ قعُودا

ويحكى أن عبد الله بنَ سَعْد لما افتتح افريقية وقتل ملكها جَرْجِير، بعث بالفتح الى عثمان رضي الله عنه مع عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما . فلما بلغ ابنُ الزبير قام في الناس خطيبا فقال : الحمدُ لله الذي ألّفَ بَيْنَنَا بَعْدَ الفُرْقَة، وجعلنا مُتَحَابِّين بعد البِغْضَة، الحمد لله الذي لا تُجْحَدُ نَعْمَاؤُه، ولا يَزُولُ مُلْكُه ؛ لَهُ الحمدُ

---

9) ما بين قوسين سقط من ب.

كما حَمِدَ نفْسَه وكَمَا هُوَ أهْلُه ؛ ابْتَعَثَ مُحَمَّداً صلّى الله عليه وسلَّم فاخْتَارَه بِعِلْمِهِ وائْتَمَنَهُ عَلَى وحْيِهِ ؛ فاختار له من الناس أعوانًا قَذَفَ في قلوبهم تَصْدِيقَه فَآمَنُوا بِه وعَزَّرُوه وَوَقَّرُوه ونَصَرُوه وجَاهَدُوا في اللّهِ حَقَّ جِهَادِهِ، فَاسْتَشْهَدَ اللّهُ منهم مَنِ اسْتَشْهَدَ على المِنْهَاجِ الوَاضِحِ، والبَيْعِ الرَّابِحِ، وبَقِيَ منهم مَنْ بَقِيَ لاَ تَأخُذُهُم في الله لَوْمَةُ لائِم . أيُّها الناس ـ رحمكم الله ـ إنا خرجنا لِلْوجْهِ الذي قد عَلِمْتُم، فَكُنَّا مَعَ خَيْرِ وال وُلِّي فَحَمِدَ، وقَسَم فَعَدَل، لَم نَفْقِدْ مِنْ بِرِّ أمِيرِ المُؤمِنين شَيْئًا . كان يَسِيرُبنا البَرِيدَيْن يُخَفِّضُ بِنَا في الظَّهَائر، ويَتَّخِذُ اللَّيْلَ جَمَلاً . يُعَجِّلُ الرَّحْلَ مِنَ المَنْزِلِ القَفْر، ويُطِيلُ اللَّبَاثَ في المَنْزِلِ المُخْصِبِ الرَّحْب . فَلَمْ نَزَلْ عَلَى أحْسَنِ حَالَةٍ يَتَعَرَّفُها قَوْمٌ مِنْ رَبِّهِم حتى انتهى الى افريقيَّة فنزل منها بحيثُ يُسْمَعُ صَهِيلُ الخَيْل، ورُغَاءُ الابل، وقَعْقَعَةُ السلاح . فأقام أيامًا يُجِمُّ كُرَاعَه ويُصْلِحُ سِلاَحَه، ثم دعاهم الى الاسلام والدخول فيه، فَبَعُدوا منه، وسألهم الجِزْيَةَ عن صَغَارٍ والصُّلْحَ، فكانت هذه أبعد، فأقام فيهم ثَلاَثَ عَشْرَةَ ليلةً يتأنَّى بهم وتَخْتَلِفُ رُسُلُه إليهم. فلمَّا يَئِسَ منهم قام خطيبًا، فحمِد اللهَ وأثْنَى عليه، ثم ذكَرَ النبيَّ صلى اللهُ عليه وسلَّم فأكثر الصَّلاَةَ عليه، ثم ذَكَر فَضْلَ الجهاد وما لِصَاحِبِه إذا صَبَر واحْتَسَب . ثُمَّ نَاهَدَ لِعَدُوِّه فَقَاتَلَهُم أشَدَّ القِتال يَوْمَهُ ذلك، وصَبَر الفريقان جميعًا وكانت بيننا وبينهم قَتْلَى كثيرةٌ، واستشهد الله رجالاً من المسلمين، فبِتْنَا وبَاتُوا، للمسلمين بالقرآن دَوِيٌّ كَدَوِيِّ النَّحل، وباتَ المشركون في مَلاَهِيهِم وخُمُورهم. فلما أصْبَحْنَا أخَذْنَا مَصَافَّنَا التي كنا عليها بالأمس، وزَحَفَ بعضُنا الى بعض، فَأفْرَغَ اللهُ علينا الصَّبْر، ثم أنزلَ علينا النَّصْر. ففتحناها من آخر النهار، فأصَبْنا غنائمَ كثيرة، فبلغ فيها الخُمُسُ خمسين مائة ألف دينار . وتركتُ المسلمين قد قَرّت اعْيُنُهُم وقد أغناهم النَّفْلُ ووسِعَهُم الحَقّ وأنا رسولُهم الى أمير المؤمنين والى المسلمين، أُبَشِّرُهُ وإياهم بما فتح اللهُ من البلاد وأذَلَّ من الشِّرْك، فَاحْمَدُوا اللهَ على آلائِه، وما أحَلَّ بِأعْدَائِه، من بأسه الذي لا يُرَدُّ

عن القَـوْمِ المجرمين . وزعموا أنه لما فرغ من الخطبة نهض إليه أبوه الزبير فقبَّل بين عينيه وقال [له] : يابني، إذا نـكَحْتَ امرأةً فانْكِحْها على شبهِ أبيها أو أخيها تـأْتِـكَ بِأحَدِهما، والله ما زلْتَ تنطِقُ بلسان أبي بكر الصِّدّيقِ حتى صَمَتَّ.

أخَذَهُمْ مَا قَدُمَ ومَا حَدُثَ :

الأخذ مرَّ . وقَدُمَ الشيء بالضم فهو قديم : ضدّ الحادث؛ وحَدَثَ بالفتح يَحْدُثُ، كنصَرَ ينصُر، فهو حادث . فإذا قُرِنَ حدث بقدم كما في هذا [المثل][10] ضُمَّت دال حَدُثَ للمزاوجة كما قيل : **لا دَرَيْتَ ولا تَلَيْتَ**، وارْجِعْنَ مَا زُورَات غَيْرَ مَا جُورَات والقياس في الأول تَلَوْت، وفي الثاني مَوْزورات[11] ؛ وكما قيل : هَنَانِـي الطعامُ ومَرَانِـي، والقياس أمْرَاني ؛ وكذا يقال في غير المزاوجة بالهمز ؛ وكما قال صلى الله عليه وسلم في دعائه : **اللَّهُمَّ ربَّ السَّمَاواتِ ومَا أظْلَلْن، وربَّ الأرضين ومَا أقْلَلْن، ورَبَّ الشَّيَاطِينِ ومَا أضْلَلْن**، والقياس : ومَنْ أضلّوا، فعبَّر بما وبالنون للمزاوجة.

يُضرب **هذا المثل** لمن يستولي عليه الهمّ، وكأنهم يريدون أنه اجتمع عليه قديمُه وحديثُه، والله أعلم.

خُذْ مِنْ جِذْعٍ مَا أعْطَاكَ :

الأخذ مرَّ وجِذْع بكسر الجيم وسكون الذال المعجمة: اسم رجل، وهو جِذْعُ بْنُ عَمْرو الغَسَّاني . وكانت غسَّان تؤدّي الى ملك سَلِيح، وهي قبيلة باليمن، دينارَيْن من كل رجل . وكان قابض ذلك سَبْطَةُ بنُ المنذر السَّلِيحِي . فجاء مرة يسأل الدينارَيْن، فدخل جِذْعٌ منزلَه واشتمل بسيفه وخرج فضرب به سبطةَ حتى برد وقال له : خُذْ مِنْ جِذْعٍ مَا أعْطَاكَ ! وقيل أنه أعطى بعض الملوك سيفَه رهنا فلم يأخذ، فضربه حتى قتله، وقال ذلك، فذهب مثلا يضرب في اغتنام ما يجود به البخيل.

خُذْ مِنَ الرَّضْفَةِ مَا عَلَيْهَا :

الرَّضْفَة، بفتح الراء وسكون الضاد المعجمة : واحدة الرَّضْف، وهي حجارة محماة يُوغَرُ عليها اللبن ويُشوى عليها . وهذا المثل من معنى الذي قبله، والله أعلم.

---

10) سقط من ب

11) في النسختين : مزارات، وهو تحريف.

خُذْهُ وَلَوْ بِقُرْطَيْ مَارِيَةَ

القُرْط، بضم فسكون : ما يُعلق في شحمة الأذن من الحلي، والجمع قِرطَة، كما يقال دُرْج ودِرَجَة ؛ وقِراط كما يقال رُمْح ورِماح . وقرّطْتُ الجارية تقريطًا : ألبستُها إياه، فتقرّطت هي . قال اعرابي يخاطبُ امرأته :

قرَّطَكِ اللّهُ عَلَى العَيْنَيْنِ
عَقَارِبًا سُودًا وَأَرْقَمَيْنِ

ومَارِيَة، بالراء والياء المخفّفة على وزن صَاحِبَة : امرأة من غسّان، وهي مَارِيَةُ بنتُ أرْقَمَ بنِ ثَعْلَبَةَ بنِ عمرو بن جَفْنَة بن عَوْف بن عمرو بن ربيعة بن حارثة بن عمرو المعروف بمزيقياء بن عامر[12] . وكان لها قرطان كان فيهما مائتا دينار . وقيل جوهر قُوِّم بأربعين ألف دينار . وقيل كان فيهما دُرّتان كبيضتَي الحمامة لم يَرَ الناس مثلهما . فأهدتهما الى الكعبة، فَضُرِبَ بهما المثل . وقيل : خُذْهُ ولَوْ بِقُرْطَيْ مَارِيَةَ، أي على كل حال . ومارية هذه هي الواقعة في قول حسان رضي الله عنه :

لِلّهِ دَرُّ عِصَابَةٍ نَادَمْتُهُمْ
يَوْمًا بِجِلّقَ فِي الزَّمَانِ الأوَّلِ
أوْلاَدُ جَفْنَةَ حَوْلَ قَبْرِ أبِيهِمُ
قَبْرِ ابْنِ مَارِيَةَ الكَرِيمِ المُفْضِلِ

وابنها المذكور هو الحارث الأعرج ابن الحارث الأكبر بن أبي شمر . وأولادُه يزيد بن الحارث وابنُه عمرو، وهو الذي مدحه النابغة الذبياني بقوله في قصيدته البائية المعروفة :

عَلَيَّ لِعَمْرٍو نِعْمَةٌ بَعْدَ نِعْمَةٍ
لِوالِدِهِ لَيْسَتْ بِذَاتِ عَقَارِبِ
حَلَفْتُ يَمِينًا غَيْرَ ذِي مَثْنَوِيَّةٍ
ولاَ عِلْمَ إلاّ حُسْنُ ظَنٍّ بِصَاحِبِ
لَئِنْ كَانَ لِلْقَبْرَيْنِ قَبْرٍ بِجِلّقٍ
وقَبْرٍ بِصَيْدَاءَ الذي عِنْدَ حَارِبِ

12) في أعلام الزركلي نقلا عن نهاية الأرب للقلقشندي : حارثة بن عمرو بن مزيقياء الأسدي من قحطان : جدّ جاهليّ يماني

وَلِلْحارِثِ الجَفْنِيّ سَيِّدِ قَوْمِهِ
لَيَلْتَمِسَنْ بِالجَيْشِ دارَ المُحارِب

وثِقْتُ لَهُ بِالنَّصْرِ إذْ قِيلَ قَدْ غَزَا
كَتَائِبُ مِنْ غَسَّانَ غَيرُ أشَائِبِ

بَنُو عَمِّهِ دُنْيَا وعَمْرُو بْنُ عامِرٍ
أولَئِكَ قَوْمٌ بَأْسُهُمْ غَيْرُ كاذِبِ

ولشعر حسَّان قصَّة ظريفة مع جبلةَ بن الايهم ستذكر بعدُ في باب الأعيان إن شاء الله تعالى . وقيل هي مارية بنت ظالم، وقيل هي أم ولد جفنة، والله أعلم . وقد عرف مضرب المثل مما مرّ.

آخِرُ البَزِّ عَلَى القَلُوص.

الآخر بالمدّ و كسر الخاء : ضدّ الأول ؛ والبَزُّ : أمتعة البزّاز من الثياب، والبَزّ أيضا : السلاح ؛ والقَلُوص من النوق : الفَتِيَّةُ بمنزلة الشابة من النساء . **وهذا المثل** قاله الزَّبَّان الذُهْلِي، وكان ابنه عمرو بن الزَّبَّان بينه وبين قوم تِرَةٌ، فذهب عمرو يومًا هو وإخوته لأمر فرآهم خَوْتَعَةُ الغُفَيْلِيّ، فدلّ عليهم أصحابهم، فأتوهم وهم قعودٌ يتغذون . فقال لهم عمرو : لا تشبو الحرب بيننا وبينكم ! فقالوا : كلا ! بل نقتلك ونقتل إخوتك قال : فإن كنتم فاعلين، فأطلقوا هؤلاء الذين لم يلتبسوا بالحروب، فإن وراءهم طالبا أطْلَبَ مني، يعني أباهم، فقتلوهم وجعلوا رؤوسهم في مخلاة وعلقوها في عنق ناقة لهم يقال لها الدُهَيْم . فجاءت الناقة والزَّبَّانُ جالس أمام بيته فبركت، فقامت الجارية فجسَّت المخلاة فقالت : أصاب بنوك بَيْضَ النعام فأدخلت يدها فأخرجت رأس عمرو ثم رؤوس إخوته . فأخذها الزَّبَّان وغسلها ووضعها على تُرْس فقال : **آخِرُ البَزّ عَلَى القَلُوصِ**، فذهبت مثلا، أي هذا آخر عهدي بهم فلا ألقاهم بعدها . ثم شب الحرب بينه وبين بني عقلية حتى أبارهم، فقالت العرب : **أشْأَمُ مِنْ خَوْتَعَة، وأشْأَمُ مِنَ الدُهَيْم، وأثْقَلُ مِنْ حِمْلِ الدُهَيْم** . وستاتي هذه الأمثال كلها في مواضعها إن شاء الله تعالى . وكان هذا المثل هو الذي أشار إليه حبيب بقوله :

وهرجامـًا بَـطِشْتَ به فقُلنـا خِيـَارُ البـَزّ جَاءَ عَلى القـَعُودِ

آخِرُهَـا أقَـلُّهَـا شِرْبًـا.

الآخر تقدّم . والأقلّ : ضدّ الأكثر . والشِّرْب، بكسر الشين المعجمة : الحظ من الماء . **وأصل هذا المثل في الابل، فإن أواخرها وروداً تَـرِدُ وقد نـَزَفَ الحـَوْضُ ولم يبق فيه إلا قليل من الماء، فيكون ما تناله من الماء شيئا قليلا، فيُضرب المثل لمن كان كذلك في الأمور والحظوظ كلها.**

أخُـوكَ أمِ الذِّئـْبُ ؟

الأخ معروف، وكذلك الذئب . والأخ والذئب على طرفَـيْ نقيض، فإن الأخ شأنه الوفاق والايناس والاعانة والاحسان، والذئب شأنه الاذاية والمعاداة . **فيضرب المثل** عند سؤالك أحداً أهو صديق أم عدوّ، وهو مثل مشهور.

أخُـوكَ البـَكْرِيُّ ولا تـَأمَـنـْهُ !

هذا المثل مشهور وقديم، يُضرب في استعمال الحذر وسوء الظن، ورد في الخبر عن عبد الله بن عمرو بن الفوعاء الخزاعي عن أبيه قال : دعاني رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد أراد أن يبعثني بمال الى أبي سفيان يقسمه في قريش بعد الفتح، فقال : التمس صاحبا . قال : فجاءني عَـمْرُو بنُ أُمَـيَّةَ الضَّـمْرِيّ، وهو أحد بني ضَـمْرَةَ بن بكر بن عبد مناف، فقال : بلغني أنك تريد الخروج وتلتمس صاحبا . فقال : قلتُ أجل ! قال : فأنا لك صاحب . قال : فجئت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت : قد وجدت صاحبا . قال . فقال : من ؟ قلت : عمرو بن أُمَـيَّة الضَّـمْرِي . قال : إذا هبطت بلاد قومه فاحذره فإنه قد قال القائل : أخُـوكَ البـَكْرِيُّ ولاَ تـَأْمَـنـْهُ ! فخرجنا حتى إذا كنت بالأبْـواءِ قال : إني أريد حاجة الى قومي بِـوَدَّانَ فالبث لي، قلت راشدا . فلما ولّـى ذكرت قول النبي صلى الله عليه وسلم، فشددت على بعيري وأوضَـعتـُهُ حتى كنت بالأصافر إذا هو يعارضني في رهط . قال : وأوضَـعْـتُ فسبقته . فلما رآني فُـتـُّه انصرفوا، وجاءني فقال : كانت لي الى قومي حاجة . قال . قلت : أجل ! ومضينا حتى قدمنا مكة، فدفعت المال الى أبي سفيان . انتهى. والبكري صفة أخوك، والخبر محذوف تقديره محذورٌ أو مخوفٌ أو نحو ذلك

والمعنى انه اخوكَ شقيقك وأنت تحذره ولا تأمنه، فكيف بغيره ؟ والبكري، إن كان نسبته الى القبيلة، فهو بفتح الباء الموحدة . واستظهر بعضهم أن يكون بكسرها، وكأنه يرى أنه من بكر الأولاد . يقال : امرأة بكر للتي ولدت بطنا واحدا، وبكرها ولدها الأول . والذكر والانثى فيه سواء قال :

يابِكْرَ بِكْرَيْنِ ويا خِلْبَ الكَبِدْ أصْبَحْتَ مِنّي كَذِرَاعٍ مِنْ عَضُدْ

وهو بكسر الباء، إلا أنه يوصف به، ولا يحتاج الى ياء النسبة . وعلى الاحتمال الأول يصح أن يكون البكري هو الخبر، ولا تقدير .

إذَا دَخَلْتَ أرْضَ الحُصَيْبِ فَهَرْوِلْ !

الدخول معروف، وكذلك الأرض . والحُصَيْب، بالحاء والصاد المهملتَيْن مصغّرا : موضع باليمن . والهرولة : الاسراع، أو بَيْن المشي والجري . والحصيب فاقت نساؤه حسنا وجمالا، وأحسب لذلك أمر بالهرولة عند دخوله حِذَاراً من فتنتهن . فإن كان الأمر كذلك، حسن أن يضرب المثل فيما يشبه ذلك من الحذر وطلب السلامة، والله أعلم.

إذَا رَغِبَ المَلِكُ عَنِ العَدْلِ، رَغِبَتِ الرَّعِيَّةُ عَنِ الطَّاعَةِ.

هذا المثل مصنوع فيما يظهر، وهو ظاهر المعنى، وسياتي في الحكم بسط هذا المعنى واستيفاؤه من كلام الحكماء، إن شاء الله تعالى.

إذَا آرْجَحَنَ شَاصِيًا فَارْفَعْ يَدًا :

يقال ارْجَحَنَ ازْجِحْنَانًا إذا مال . وشَصَا بَصَرُ الرجل يَشْصُو شَصْواً : ارتفع، وأشْصَاه صاحبُه : رفعه . أي : إذا مال ساقطا، ورفع رجليْه، فارفع يدك عنه ولا تضربه والمعنى : إذا خضع لك فاكفف عنه وارفق به، لأن القدرة تذهب الحفيظة.

إذَا سَمِعْتَ بِسُرى القَيْنِ فَاعْلَمْ أنَّهُ مُصْبِحٌ.

السماع معروف والسُّرى على وزن هُدى . يقال : سَرَى يَسْرِي سُرى، ومَسْرى، وسَرِيَّة، وأسْرى إذا مشى عامة الليل . والقَيْن : الحَدّاد، وجمعه اقيان . والقين أيضا : العبد، وجمعه قِيَان والاصباح : الدخول في الصباح

يضرب هذا المثل في الكذب والاخْتِلافِ حيث يُعرف كذِبُ الرجل فَيُرَدُّ صِدْقُه .

وأصله أن قينـًا كان باليمن، فكان اذا كسد في موضع أخبرهم أنه سيخرج غدا ليستعملوه ثم لا يخرج، فضربوا به المثل . وسياتي تمام القصة في حرف الدال، إن شاء الله تعالى.

إذَا اشْتَـرَيْتَ فَـاذْكُـرِ السُّوقَ.

ألفاظه ظاهرة . وهو من أمثال العرب المشهورة . يريدون به أنك إذا اشتريت سلعة فاذكر الصحَّة واطلبها، وتبصر العيوب وتجنبها، فإنك ستحتاج فيما اشتريته الى أن تقيمه في السوق يوما لتبيعه إن احتجت الى ثمنه . فتذكر ذلك اليوم فإنك إن اشتريت جيدا بعت جيدا . وفي معناه قول العامة اليوم : كَمَا تَشْتَرِي تَبِيع.

إذَا طَلَبْتَ البَاطِلَ أنْجَحَ بِكَ.

الباطل معروف : والنجاح والنُّجْحُ : الظَّفَرُ بالحاجة . يقال : نجحت حاجته وأنجح هو : صار ذَا نُجْح . ويقال : أنْجَحَ بك إذا غلبك ؛ فإذا غلبتَه فقد أنْجحْتَ به . وكانت فتاة من العرب تزوجت شيخا، فكان يقعد لينتعل فتقول : يا حبذا المنتعلون قياما، فسمعها يوما فحاول أن ينتعل قائما فضرط، فقالت : **إذَا طَلَبْتَ البَاطِلَ أنْجَحَ بك**، أي ظفر بك ولم تظفر أنت بشيء، فسار مثلا يضرب عند الظلم في أداء الباطل.

إذَا عَزَّ أخُوكَ فَهُنْ.

العِزّ خلاف الذلّ ؛ يقال : عزّ الرجل يعِزّ إذا قوي وامتنع بعد ذِلّة ؛ وعزَّ عليَّ أن تفعل كذا، وعزّ عليَّ هذا الأمر : أي اشتدّ . وهُنْ يُروى بضمّ الهاء وكسرها : فالضم من هان يَهُون هَوانا إذا ذلّ وخضع . ومعنى المثل عليه إذا عزَّ أخوك، أي عظم وتقوى، فاخضع له أنت تسلم من شره . والكسر من هان يهين إذا لان . والمعنى : إذا اشتد أخوك وتصعَّب، فَلِنْ أنت . هكذا ذكر بعض الناس، وهو صحيح من جهة المعنى ؛ لكن ما ذكر من كسر الهاء، إنما يصح إن وجدت مادة ه يـ ن . والمعروف في اللغة إنما هو مادة ه و ن ؛ إلا أنه إذا أريد الذلّة والخضوع، قيل الهُون بضم الهاء، والهَوان والمهانة ؛ وإذا أريد اللين والسكينة، قيل : الهَوْن بفتح الهاء . قال تعالى : والذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنا . ويقال رجل هيّن وهَيْن كميّت وميْت، وليس يائيا بل واويا، فوقع القلب: ويقال : هوّن الله الأمر، إذا سهَّله . ومما يوافق المعنى الأول قول ابن أحمر :

وقـــارعة من الأيـــام لولا سبيلهـــم لراحت عنك حينـــا
دببت لها الضراء وقلت أبغي إذا عزّ ابْن عمّك أن تهونا

وهو محتمل للمعنى الثاني أيضا . ومن الصريح في الثاني قول الآخر:

بُنيّ إذا ما سامك الذُّلَّ قادرٌ عَزيزٌ فَلِنْ فَالّلينُ أوْلَى وأحْرَزُ
ولاَ تَسْمُ فِي كُلّ الأمُورِ تَعزُّزاً فَقَد يورِثُ الذُّلَّ الطَّوِيلَ التَّعَزُّزُ

والمثل للهذيل بن هبيرة . وسببه أنه أغار على ضَبَّة فغنم وأقبل بالغنائم . فقال أصحابه: اقسمها بيننا . فقال : أخاف أن يدرككم الطلب، فأبوا . فعند ذلك قال : إذَا عَزَّ أخُوكَ فَهُنْ، ونزل فقسمها.

إذَا لَمْ تَسْتَحْيِ فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ.

الاستحياء الانقباض والحِشْمة ؛ يقال : حَيِيَ منه بالكسر يَحْيَى حَياءً بالمدّ، واستَحْيَى، وهو حَيِيٌّ كَغَنِيٍّ : ذو حياء ؛ وقد يقال : اسْتَحَى يَسْتَحِي . قال الشاعر :

تَقُولُ ياشَيْخُ أمَا تَسْتَحِي في شُربِكَ الخَمْرَ على المَكْبَرِ؟!

وهذا الكلام يُتمثل به، وليس من الأمثال . وفي الخبر : مِمَّا أدْرَكَ النَّاسُ مِنْ كَلاَمِ النُّبُوَّةِ الأولَى إذا لَمْ تَسْتَحْيِ فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ . وفُسّر بمعنيين :

أحدهما ظاهر، وهو المشهور : إذا لم تستحي من العيب ولم تخش عاراً ولا لوماً مما تفعل، فافعل ما تحدثك به نفسك، حسنا أم لا . ولفظه أمرٌ، ومعناه الخبر على وجه التوبيخ والتهديد، كأنه قيل : إذا لم يكن فيك حياء، فأنت صانع ما شئت من خير وشر . وفيه إشعار بأن الرادع للانسان عن السوء هو الحياء ؛ فإذا انخلع عنه كان كالمأمور بارتكاب كل محذور، وتعاطي كل قبيح وسيّئة، كما قال الحماسي :

إذَا لَم تَخْشَ عَاقِبَةَ الّليَالِي ولَمْ تَسْتَحْيِ فَاصْنَعْ مَا تَشَاءُ
فَلاَ وَالّلهِ ما في الْعَيْشِ خَيْرٌ ولاَ الدُّنْيَا إذَا ذَهَبَ الحَيَاءُ

وقال أبو دلف العجلي :

إذَا لَمْ تَصُنْ عِرْضًا ولمْ تَخْشَ خَالِقًا
وَتَسْتَحْيِ مَخْلُوقًا فَمَا شِئْتَ فَاصْنَعِ

وقد أكثر الشعراء من هذا النحو .

ثانيهما أن يحمل الأمر على بابه، أي إذا كنت في فعلك آمنا أن تستحي لجريك على السنن وليس من الأفعال التي يُسْتَحْيَ منها، فافعل ؛ وإلا فلا . وهذا قانون كلّيّ، وهو مثل ما في الحكمة : إيَّاكَ وَمَا يُعْتَذَرُ مِنْهُ.

إذَا نَزَلَ بِكَ الشَّرُّ فَاقْعُدْ.

هذا مثل مشهور معناه : إذا رأيت شرا مقبلا، وهولاً حاصلا، وفتنة ثائرة، فتربَّص وتأنّ، واحْلُم ولا تسارع، ولا تستهدف ولا تستشرف. وفي الحديث في ذكر الفتنة : من يَسْتَشْرِفْ لَهَا تَسْتَشْرِفْه .

إذَا نَزَلَ القَضَاءُ عَمِيَ البَصَرُ :

هذا يُتمثل به أيضا . والمعنى أن ما قضى الله تعالى فهو كائن، وما قدره فهو واقع، لا يُنجِي منه حذَر الحذِر، ولا نظر البصير . يحكى أن نافعا سأل ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ فقال له : سليمان عليه السلام، مع ما خوله الله تعالى من الملك، كيف عُنِي بالهدهد مع صغره ؟ يعني حيث تفقد الطير فسأل عن الهدهد وقال : لَأُعَذِّبَنَّهُ أوْ لَيَاتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ . فقال ابن عباس : إنّه احتاج الى الماء والهدهد كانت له الأرض كالزجاج فقال نافع : قف يا وقاف ! كيف يبصر الماء من تحت الأرض، ولا يرى الفخّ إذا غطي له بقدر أصبع من التراب ؟ فقال ابن عباس : إذَا نَزَلَ القَضَاءُ عَمِيَ البَصَرُ . وقال أبو عمر الزاهد في هذا المعنى :

إذِا أرَادَ اللّهُ امْرًا بِامْرِءٍ وكَانَ ذَا عَقْلٍ وَرَأيٍ وبَصَرْ
وحِيلَةٍ يَفْعَلُهَا فِي دفْعِ مَا يَأتِي بهِ مَحْتُومُ أسْبَابِ القَدَرْ
غَطَّى عَلَيْهِ سَمْعَهُ وعَقْلَهُ وسَلَّهُ مِنْ ذِهْنِهِ سَلَّ الشَّعَرْ
حتَّى إذا نَفَّذَ فيهِ حُكْمَهُ رَدَّ عليهِ عَقْلَهُ ليَعْتَبِرْ

وهو معنى ما في الحديث : إذَا أرَادَ الّلهُ إنْـفَـاذَ قَـضَـائِـهِ وقَـدَرِهِ سَـلَـبَ عُـقُـولَ الرِّجَـال الحديث .

إذَا لِـمْ تَـغْـلِـبْ فَـاخْـلُـبْ.

الخِلاَبَـة : الخِدَاع، والمثل ظاهر المعنى .

مَـأرَبٌ لاَ حَـفَـاوَةٌ :

المَأرَبُ : الحاجة، والجمع مآرب وفي التنزيل : ولِـيَ فِـيهَـا مَـآرِبُ أخْـرَى . وكذا المأربة مثلث الراء . والحفاوة : الاهتمام والاهتبال بالشيء، يقال . حفِـيتُ بالرجل بالكسر، فأنا به حَـفِـيٌّ، أي اهتممت به وبالغت في الالطاف به والسؤال عن حاله . قال تعالى : سَأَسْـتَـغْـفِـرُ لَـكَ رَبِّـيَ إنَّـهُ كَـانَ بِـي حَـفِـيّاً .وقال الحَـمَـاسِيُّ :

فَـلَـمَّا أتَـيْـنا السَّـفْـحَ منْ بَـطنِ حائلٍ
بِـحَـيْـثُ تَـنَـاصَـى طَـلْـحُـهَـا وسَـيَـالُـها
دَعَـوْا لِـنِـزَارٍ وانْـتَـمَـيْـنَـا لِـطَـيِّـىءٍ
كَأُسْـدِ الشَّـرَى إقْـدَامُـهَـا ونِـزَالُـها
فَـلَـمَّا الـتَـقَـيْـنَـا بَـيَّـنَ السَّـيْـفُ بَـيْـنَـنَـا
لِـسَـائِـلَةٍ عَـنَّـا حَـفِـيٍّ سُـؤَالُـهَـا

يضرب هذا المثل للرجل يتملقك لا رغبة فيك ولا اهتماما بأمرك، ولكن لغرض يطلبه منك وحاجة ينالها عندك . ومأرب يصح أن يكون مبتدأ يقدّر خبره، أي بك مأرب لا حفاوة، وأن يكون خبراً يقدّم مبتدؤه، أي باعثك وحاملك على الدنوّ مني والتملق لي مأرب لا حفاوة.

فإن قلت :هل يصح أن ينصب أو يقال إنه يقال إنه مرفوع عن منصوب في الأصل، كما قيل في : سلام وحنان، وصبر جميل ؟

قلت : لو كان منصوبا لكان معناه تقصد أو ترتاد مأربا، وحينئذ لا يحسن العطف بهذا التقدير في حفاوة كما لا يخفى، ويحتاج الى تقدير آخر كأنه قيل ترتاد مأربا ولا تحفي حفاوة، وفيه بعض التكلف، وإن كان يمكن تقدير فعل أعمّ كالملابسة.

آكَلُ مِنْ أرَضَةَ.

الأكل معروف . والأرَضَة بفتحتَيْن والضاد المعجمة : دُوَيْبَّةٌ صغيرة تأكل الخشب . وفي قصة الصحيفة التي كتبتها قريش على بني هاشم أن الله بعث عليها الأرَضَةَ فأكلت كل ما فيها من جور وظلم وقطيعة رحم، وبقي ما كان فيها من ذكر . ويضربون المثل بالأرضة في كثرة الأكل وقوته . وينسب الى القاضي عبد الوهاب :

يَا أهْلَ مِصْرِ رَأيْتُ أيْدِيَكُمْ
عَنْ بَسْطِهَا بِالنَّوالِ مُنْقَبِضَة
لَمَّا عَدِمْتُ النَّوَالَ عِنْدكُمُ
أكَلْتُ كُتْبِي كَأنَّنِي أرَضَة

آكَلُ مِنْ سُوسٍ.

الأكل مرّ. والسوس : الدود المعروف يقع في الصوف والطعام. قال امرؤ القيس[12م]

آلَيْتَ حَبَّ العِرَاقِ الدَّهْرَ أطْعَمُهُ
والحَبُّ يَاكُلُهُ فِي القَرْيَةِ السُّوسُ

يضرب به المثل أيضا في كثرة الأكل . قيل لخالد بن صفوان : كيف ابنك ؟ فقال : سيد فتيان قومه ظرفا وأدبا . فقيل له : كم رزقه ؟ قال : درهم . فقيل : أيرتفع منه ثلاثون درهما في شهر وأنت تستغل ثلاثين ألفا ؟ قال : الثلاثون أسرع في هلاك المال من السوس . ولهذا قالوا : العِيَالُ سُوسُ المَالِ كما سياتي

يَأكُلُكَ الأسَدُ ولاَ يَأكُلُكَ الكَلْبُ.

هذا فيما يظهر مثل مولّد يضرب عند اختيار المرء صولة العزيز وعقوبة الكبير على صولة الذليل وعقوبة الحقير، فإن صولة الذليل أشدّ على النفس كما قيل : لَوْ ذَاتُ سِوَارٍ لَطَمَتْنِي والمثل قد وقع في كلام الأمير شمس الدين قراسنقر، وذلك أن شمس الدين [بن] السلعوس كان يكرهه. فلما حضر الملك الأشرف الى دمشق، وبلّغ قراسنقر كراهية الوزير وعمله عليه، بادر بهدية عظيمة وتقدمة حسنة الى الملك، وأحضر ذلك بنفسه، فقال

12م) الصواب : المُتَلَمِّس، والبيت من قصيدة له واردة في جمهرة أشعار العرب، ومختارات ابن الشجري، والشعر والشعراء وغيرها.

له السلطان : لأي شيء هذا ؟ قال : بلغني أن ابن السلعوس يعمل عليّ ويغير خاطر مولانا السلطان . وقد جئت أنا بنفسي يأكلني السبع ولا يأكلني الكلب . وفي هذا قال الصابىء في أبي الورد البغدادي :

ومِنْ عَجَبِ الأيَّامِ أنَّ صرُوفَهَا
تُسَوِّي امْرءاً مِثْلِي بِمِثْلِ أبِي الوَرْدِ
فَيا لَيْتَهَا اخْتَارَتْ نَظِيراً وأنَّهُ
رَمَانِي بِشَنْعَاءِ الدَّوَاهِي عَلَى عَمْدِ
فَكَمْ بَيْنَ مَعْقُورِ الكِلاَبِ وإنْ نَجَا
ذَلِيلاً ومَقْتُولِ الضَّرَاغِمَةِ الأسْدِ

ونحو قول المُثَقَّب العَبْدي :

فَإنْ أكُ مَأكُولاً فَكُنْ خَيْرَ آكِلٍ
وإلاَّ فَـــدَارِكْنِي ولَمَّـــا أُمــزَّقِ

ويحكى أن العُجَيْرَ السلُولِيّ هجا قوما من بني حنيفة، فأقاموا عليه البينة عند نافع بن عَلْقَمة الكناني، فأمر به أن يقام عليه الحدّ في ملإ من الناس . فهرب العُجَيْرُ ليلا حتى أتى نافعًا فقعد له متنكراً حتى خرج من المسجد، ثم تعلق به فقال :

إلَيْكَ سَبَقْنَا السَّوْطَ والسِّجْنَ تَحْتَنَا
حُبَــالى يسامِيــن الــظلام ولُقَّحُ
الى نَافِعٍ لاَنرتَجِي مَا أصَابَنَا
تَحُومُ عَلَيْنَا السَّانِحَاتُ وتَبْرَحُ
فَإنْ أكَ مَجْلُوداً فَكُنْ أنْتَ جَالِدِي
وإنْ أكُ مَذْبُوحًا فَكُنْ أنْتَ تَذْبَحُ

فقال له : انْجُ لنفسك، فإنّي سَأرْضِي خُصومَك، فبعث إليهم وأرضاهم . وهذا المثل باق اليوم في ألسنة العوامّ يقولون : مَنْ أكَلَهُ السَّبُعُ خَيْرٌ مِمَّنْ أكَلَهُ الذِّئبُ.

آلَـفُ مِنْ حَـمَامِ مَـكَّـةَ.

يقال ألِـفَ فلانٌ كذا، بكسر اللام، يأْلَـفُـه إلْـفا بكسر الهمزة وفتحها فهو آلف، وهي آلفة، وهم أُلاَّفٌ، وهنَّ آلِـفَـاتٌ وأوَالِـف . والأُلْـفة بضمّ الهمزة : اسمٌ من الائتلاف . إلْـفُـك بكسر الهمزة : الذي تألفه كما يقال : حِـبٌّ وخِـدْنٌ . والحمام على مثال سحاب : اسم جنس، واحده حمامة للذكر والأنثى . وقد يقال للواحد حمام، قاله في الصحاح وأنشد عليه قوله الشاعر :

حَـمَامًا أيْـكَـةٍ وقَـعَـا فَـطَـارَا[13]

وقول الآخر :

وذَكَّـرَنِـي الصِّبَـا بَـعْـدَ التَّـنَـائِـي حَـمَامَـةُ أيْـكَـةٍ تَـدْعُـو حَـمَاما

قلت : والأول محتمل لأن يكون تثنية جماعتين كما قال الآخر :

هُـمَا سَـيِّـدَانَـا يَـزْعُـمَانِ وإنَّـمَا يَـسُودَانِـنَـا إنْ أيْـسَـرَتْ غَـنَـمَـاهَـا

فثَـنَّـى الغنم وهو اسم جمع، وهذه التثنية لا تختص بالمفرد، بل هي جارية في أسماء الجموع، وجموع التكسير أيضا، كما علم في محله، فلا دليل فيها على المفرد . والثاني يحتمل أن يكون الحمام فيه اسم جنس، لا يقال مقابلته بالحمامة عاضد للإفراد، فهو ظاهر في المراد، لأنا نقول ذلك لو سلم أن الحمامة أريد بها الانثى ليكون المقابل ذكرا . لكنا نقول إنها للفرد من الجنس كما مرّ، ومقابل الفرد من حيث هو الجنس . والحَـمَامُ قال في الصحاح : ذوات الأطواق من نحو الفَـوَاخِـتِ والقمَارى وسَاقُ حُرّ والقَـطَـا وأشباه ذلك . قال : وهي عند العامّة الدواجن فقط، وأنشد على الأول لحميد بن ثور :

ومَا هَـاجَ هَـذَا الشَّوْقَ إلاَّ حَـمَامَـةٌ
دَعَـتْ سَاقَ حُرٍّ تَـرْحَـةً وتَـرَنُّـمَا

قال : والحمامة هاهنا قمرية [قال] وقال الأصمعي في قول النابغة:

احْكُمْ كَـحُـكْـمِ فَـتَـاةِ الحَـيِّ إذْ نَـظَـرَتْ
الَـى حَـمَامِ شِـرَاعٍ وَارِدِ الثَّـمَـدِ

هذه زرقاء اليمامة نظرت الى قطا . قلت : وبه جزم شارح ديوان النابغة عن أبي حاتم، وَأَنَّ

13) ورد هذا الشطر في لسان العرب هكذا : حَـمَامَـيْ قَـفْـرَةٍ وقَـعَـا فَـطَارَا.

هذه المرأة كانت لها قطاة . فمر بها سرب من القطا فقالت ذلك . وأراد النابغة بالحمامِ ذلك القطا . ومكة البلدة الحرام ووصف حمامها بالألفة لأنه محترم لا يتعرض له أحد بمكروه ولا أذى، كما قال العجاج :

وربِّ هَـذَا البَلَـدِ المُحَـرَّمِ ، قَـوَاطِنـًا مَـكَّـةَ مِنْ وُرْقِ الحَـمِ[14]

أي الحمام، فرخم للضرورة فلما كان آمنا كان ثابت الجأش غير نفور من الناس نفور الصيد، كما قال النابغة :

والمؤمِنِ العائـذاتِ الطَّـيْرَ يَـمْسَـحُـها رُكْبانُ مَـكَّـةَ بَـيْـنَ الغَـيْـلَ وَالسَّعْدِ

وأراد بالعائذات هذه الطير، ولذا أتى بالطير بدلا منها . والمؤمن هو الله تعالى، وهو لفظ اسم الفاعل متعدٍّ الى مفعولَـيْـن بهمزة النقل، والواو للقسم، والمفعول الثاني محذوف أي : أقسم بالله تعالى الذي أمَّنَ الطيرَ العائذاتِ أن تُـصَـادَ أو أن تُـؤْخَـذَ . وقوله : يمسحها ركبانُ مكة، أي يمسحون عليها ولا يهيجونها لألفتها لهم واستئناسها بهم . والغَـيل بفتح المعجمة وقيل بكسرها، والسعد أجَـمَـتان بين مكة ومِنىً . وقيل : الغَـيل بفتح الغين الماء الجاري على وجه الأرض . وهو هنا ماء يخرج من أصل أبي قُـبَـيْـس .

وأعلم أن هذه الصيغة وهي قولنا أفْـعَـلُ من كذا، مستعملة في باب المثل عند إرادة منتهى التشبيه وأقصاه، كما يقال : **أعزُّ مِـنَ الأبْـلَـقِ العقوق، وأجْـوَدُ مِـنْ حَـاتِـم، وأعْـيَـى مِـنْ بَـاقِـل**، ونحو ذلك . وإنما يتم ذلك ببلوغ المضروب به غاية ذلك المعنى . لكن هذا أمر إضافي موكول الى نظر القائل واعتباره وحكم خياله . فأيُّما شيء اسْـتَـعْـظَـمَ درجتَـه ساغ له أن يَـضْـرِبَ به المثل . ولذا يصحّ له أن يضرب المثل بالحمام في الألفة، وإن كان غير الحمام أبلغ فيها وأحقّ، لكنه لم يلتفت الى الغير فاستعظمها في الحمام إذ ليست الألفة من شأن الطير، فهي مستغربة، والاستغراب زائد الاستعظام كما قالوا : **أجْـرَأ مِـنْ خَـاصِـيِ الأسد** . وافهم مثل هذا في كل ما يرد في هذا الكتاب، والله الموفق للصواب.

14) في لسان العرب :
وربِّ هَـذَا البَلَـدِ المُحَـرَّمِ والقَاطِنَاتِ البَـيْـتِ غَـيْـرِ الرُّيَّـمِ
قواطنـًا مَكَّةَ مِنْ وُرْق الحَمِي

آلَفُ مِنْ غُرَابِ عُقْدَةَ.

الأَلْفَةُ مرّت، والغُرَاب معروف، جمعه غِرْبَان وأغْرِبَة . وعُقْدَة، بضم العين المهملة، وسكون القاف : موضع . وهي أيضا المكان المخصب الكثير الشجر أو النخل . وإنما وصف غراب عقدة بالألفة لأنه لا يطير لكثرة الشجر . إلا أن عقدة، إن جعلت مكانا بعينه، لم تُصْرَف ؛ وإن جعلت اسمًا للمكان المُخْصِب مطلقًا صُرِفْتَ . وهما جاريان هنا معا كما يقتضيه كلام القاموس، وسياتي في قولهم : عَيْشٌ لاَ يَطِيرُ غُرَابُه زيادة بيان **لهذا المحل إن شاء الله تعالى .**

إلَيْكَ يُسَاقُ الحَدِيثُ.

السَّوْقُ معروف . يقال : ساق الماشية يَسُوقُهَا سَوْقا وسِيَاقا وسِيَاقَةً، واسْتَاقَهَا . ثم يُستعمل السَّوْقُ في الكلام والحديث، لأنه يُؤتى به كما يُؤتى بالماشية . **وهذا المثل** يضرب عند الاساءة في السؤال والاستعجال به قبل أوانه . وله قصة مذكورة عندهم، وقد نظمه بَشَّارٌ وبيَّن معناه فقال :

وَمَرَّتْ فَقُلْتُ مَتَى نَلْتَقِي   فَهَشَّ اشْتِيَاقًا إلَيْهَا الخَبِيث
وكَادَ يُمَزِّقُ سِرْبَالَهُ   فَقُلْتُ إلَيْكَ يُسَاقُ الحَدِيث

وقال الآخر :

لا تَعجَبُوا لسُؤَال رُكْبَان الحِمَى   فَإلَيْكُمُ هَذا الحَديثُ يُسَاقُ

أمْرَ مُبْكِيَاتِكَ لاَ أمْرَ مُضْحِكَاتِكَ.

الأمر معروف . والمبكيات والمضحكيات : المُورِثَاتُ بكاءً أوْ ضَحِكًا . وكانت فتاة من العرب لها خالات وعمات . فكانت إذا زارت عماتها ألهيْنَهَا، وإذا زارت خالاتها أبكيْنَهَا . فقالت لأبيها : إنَّ عماتِي يُلْهِيْنَنِي، وخالاتِي يُبْكِينَنِي إذ زُرْتُهُنَّ، فقال لها أبوها : أمْرَ مُبْكِيَاتِكِ لاَ أمْرَ مُضْحِكَاتِكِ، فذهبت مثلا يُضرب عند الحذر والتحذير من الهوى والأمر باجتنابه.

والمعنى : أطع من يدلّك على رشادك، ويبصرك بصلاح معاشك ومعادك، وينبّهك من رقدة الغفلة والغرّة، ويفطمك عن مراضع الهوى المضرة، وإن كان ذلك يبكيك، ويثقل على نفسك ويؤذيك ؛ ولا تطع من يأمرك بما تهوى، ويحسن لك ما يشينك في العاجلة والعقبى، وان كان ذلك يضحكك ويلهيك، ويؤنسك ويسليك .

الأمُورُ مَخْلُوجَةٌ ولَيْسَتْ بِسُلْكَى.

الأمور جمع أمر، وهو الشأن والحال والشيء الواقع : والخلج : الجذب والنزع ؛ والمَخْلُوجَة : المجذوبة ؛ والمَخْلُوجَة أيضا : الطَّعْنَةُ المُعْوَجَّةُ عن يمين وشمال ؛ والسُّلْكَى، بضمّ الأول وألف مقصورة : الطَّعْنَةُ المستقيمة تِلْقَاءَ الوجه . قال امرؤ القيس :

نَطْعَنُهُم سُلْكَى ومَخْلُوجَةً   كَرِّكَ لأمَيْنِ عَلَى نَابِلِ

ثم إنهم جعلوهما في الأمور، وجعلوا المخْلُوجَةَ والسُّلْكَى مثلاً في الأمور باعتبار اعوجاجها واستقامتها فقالوا : الأمور مخلوجةٌ وليست بسلكى، أي هي معوجة وليست بمستقيمة، وأصله في الطعن . قيل : وأول من نطق بهذا المثل الحارث بن عُباد، وذلك أن جَساسَ بْنَ مُرّةَ، لما قتل كُلَيْبًا على ما سيأتي خبره، قام مُهَلْهِل بنُ ربيعة بثأر أخيه كُلَيْب، وكان ممَّن قتل بُجَيْرُ بْنُ الحارث المذكور أو ابن أخته في قصَّة ستأتي . وفيه يقول مهلهل :

وإنّي قَدْ تَرَكْتُ بِوَارِدَاتٍ   بُجَيْرًا في دَمٍ مِثْلِ العَبِيرِ
هَتَكْتُ بِهِ بُيُوتَ بَنِي عُبَادٍ   وبَعْضُ الشَّرِّ أشْفَى لِلصُّدورِ[15]

فلما بلغ الحارثَ بنَ عُباد مقتلُ بُجَيْر قال : نِعْمَ القَتِيلُ قَتِيلٌ أصْلَحَ اللهُ بِهِ بين بني وائل وبَاءَ بِكُلَيْبٍ ! فقيل له : إن مهلهلا لما قتله قال له : بُؤْ بِشِسْعِ نَعْلِ كليب ! فعند ذلك غضب الحارث وقال : **الأمُورُ مَخْلُوجَةٌ ولَيْسَتْ بِسُلْكَى**، وقال :

قَرِّبَا مَرْبَطَ النَّعَامَةِ مِنِّي   لَقِحَتْ حَرْبُ وائِلٍ عَن حِيَالِ
قَرِّبَا مَرْبَطَ النَّعامَةِ مِنِّي   إنَّ بَيْعَ الكِرامِ بِالشِّسْعِ غَالِ[16]

15) رواية الاغاني : وبَعْضُ الغَشْمِ أشْفَى لِلصُّدُور . والغشم : الظلم
16) في الأغاني بدل هذا البيت :
لا بُجَيْرٌ أغْنَى قَتِيلاً ولاَ رَهْطُ   كُلَيْبٍ تَزَاجَرُوا عَنْ ضَلاَلِ

لَمْ أكُنْ مِنْ جُنَاتِهَا عَلِم اللّهُ   وإنّي بِجَمْرِهَا اليَوْمَ صَالِ

وهي قصيدة . ونهض لحرب تَغْلِب حتى أبارهم . وفرّ مُهَلْهِل حتى هلك غريب الدار كما سيأتي . وقلب أبو عبيد هذا المثل فأورده هكذا : الأمُورُ سُلْكَى ولَيْسَتْ بِمَخْلُوجَة، والصواب العكس، كما أورده غيره وهو الذي قدّمنا، لأن الأمور في قضية الحارث ليست بسُلْكَى، وهلم جرا . وقول امرىء القيس كَرّكَّ لأمَيْن عَلَى نَابِل، فيه كلام يُبين (بَعْدُ) في تشبيهات امرىء القيس إن شاء الله تعالى.

تَأمِيرُ الأرَاذِل، تَدْمِيرُ الأفَاضِل.

التّأمِير : تولية الامارة : وأرَاذِلُ الناس : سُفَّلُهم، والتّدْمِيرُ، بالدال المهملة : الاهلاك . وأفَاضِلُ الناس : خيارهم.

ومعنى المثل ظاهر، وهو فيما أظن مصنوع موجود في بعض تآليف البلغاء المصنوعة .

الأمْرُ أشَدُّ مِنْ ذَلِكَ.

قد يُتَمَثَّلُ به، وهو من كلام النبي صلى الله عليه وسلم حيث ذكر المحشر وأن الناس يحشرون حفاة عراة، فقيل له : وكيف ينظر بعضهم الى بعض ؟ فقال ذلك . والحديث معروف مشهور .

آمَنُ مِنْ حَمَامِ مَكَّةَ.

الأمن ضدّ الخوف ؛ والحمام ومكة تقدما . وأمن الحمام في مكة أنه لا يتعرض له ولا يصاد ولا يقتل . ولذلك قال النابغة :

والمُؤمِنِ العائِذاتِ الطَّيْرَ يَمْسَحُها   رُكْبانُ مَكَّةَ بَيْنَ الغَيلِ والسَّعَد

وقال عمرو بن الحارث بن مُضَاض الجُرْهُمِي من قصيدة :

فَسَحَّتْ دموعُ العَينِ تَبكي لِبَلدَةٍ   بِهَا حَرَمٌ أمْنٌ وفِيهَا المَشَاعِرُ

وتَبكي لِبَيتٍ لَيسَ يُؤذَى حَمامُهُ   تَظَلُّ بِهِ أمْنًا وفِيهِ العَصَافِرُ

وفِيهِ وُحُوشٌ لا تُرَامُ أنِيسَةً   إذَا خَرَجَتْ مِنْهُ فَلَيْسَتْ تُغَادِرُ

وهذا الشعر قاله عندما نَفَتْهُم خُزَاعَةُ وأخرجوهم الى اليمن من مكة، فجعل يتذكر مكة ويحزن ويبكي لفراقها . وتقدم شيء من معنى هذا المثل.

أمَّا الدِّينُ فَلاَ دِين.

يُتَمَثَّلُ به كثيرا، وهو من كلام مُسَيْلِمة الحنفي الكذَّاب لعنه الله تعالى . وذلك أنه، لما غزاهم سَيفُ الله خالدُ بن الوليد رضي الله عنه في خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه، التقوا فاقتتلوا قتالا شديدا . فلما اشتدّ القتال آخراً على مُسَيْلِمَة وأصحابه بني حنيفة وعظُم عليهم الأمر وأيقنوا بالهلاك والدمار، قال له بعض أصحابه : أيْنَ مَا كنت تَعِدنا يا أبا ثُمَامَةَ من النصر ؟ فقال عند ذلك : **أمَّا الدِّينُ فَلاَ دِينَ، ولَكِنْ قَاتِلُوا عَلَى أحْسَابِكُم.** فجعلوا يتندَّمون ويسبُّونه، وقتل في ذلك اليوم، لعنه الله . والقصَّة مشهورة ومعروفة في السِّيرَ لا حاجة الى سردها .

أنَا بِالقُوسِ، وأنْتَ بِالقَرَقُوسِ، مَتَى نَجْتَمِعُ ؟

القُوس بضمّ القاف : صومعة الراهب . قال الشاعر يذكر امرأة : لاَسْتَفْتَنَتْنِي وذَا المِسْحَيْنِ في القُوسِ[17] . والقَرَقُوس، على مثال قَرَبُوس : القاع الصلب من الأرض، وبين المكانَيْن بَوْنٌ بعيد . فيضرب عند التباعد في الأمكنة أو الخلال أو الشيم، كما قيل :

هِيَ الشَّمْسُ مَسْكَنُهَا فِي السَّمَاءِ
فَعَزِّ الفُؤَادَ عَزَاءً جَمِيلاَ
فَلَنْ تَسْتَطِيعَ إلَيْهَا الصُّعُودَ
ولَنْ تَسْتَطِيعَ إلَيْكَ النُّزُولاَ

أنَا ابْنُ بَجْدَتِهَا.

يقال بَجَدَ بالمكان يَبْجُد بُجُوداً إذا أقام به . والبجْدَةُ بفتح الباء الموحدة وضمّها مع سكون الجيم، وبضمّهما معا : أصل الشيء ودخلة الأمر وباطنه، فيقال عند فلان بَجْدَةُ هذا الأمر أي عِلْمُه، وهو ابنُ بَجْدَتِها أي العالم .

17) هذا عجز بيت لجرير، وصدرُه : لاَ وَصْلَ إذْ صَرَفَتْ هِنْدٌ ولَوْ وَقَفَتْ.

قال أبو العلاء المعري :

إذَا أسْكَتَ المُحتَجُّ كُلُّ مُنَاظِرٍ
فَعِنْدَ ابْنِ نَصْرٍ بَجْدَةٌ بِجَوَابِ

وقال صَفِيُّ الدِّين الحِلِّيُّ رحمه الله تعالى :

لاَ لَقَّبَتْنِي المَعَالِي بِابْنِ بَجْدَتِهَا
يَوْمَ الفَخَارِ ولاَ بَرَّ التُّقَى قَسَمِي

ويقال أيضا للدليل الهادي . ويقال أيضا : هو عالم بِبَجْدَةِ أمرك وبَجْدِ أمْرِك، أي بداخلته . وقيل إنما قيل : أنَا ابْنُ بَجْدَتِهَا، وهُوَ ابْنُ بَجْدَتِها من البُجُود وهو الاقامة، لأن المقيم بالمكان عالم به . يقال : هُوَ ابْنُ بَجْدَةِ هَذَا البَلَد أي العالم بأمره لإقامته به . وقيل أصله من قولهم : فُلاَنٌ مِنْ أهْلِ البَجْدِ أي من أهل البادية وهم العلماء باللسان على ما وضع به.

أنَا تَئِقٌ وأنْتَ مَئِقٌ فَكَيْفَ نَتَّفِقُ ؟

التَّئِقُ : المُمْتَلِيء غضبا . وأصله في الإناء يقال : تَئِقَ الاناءُ يَتْأقُ إذا امتلأ وأتْأقْتُهُ أنَا مَلأتُهُ . ويقال : التَّئِقُ السريع الى الشرّ . ويقال : هو الحديد قال الشاعر[18] يصف كلبا :

أصْمَعُ الكَعْبَيْنِ مَهْضُومُ الحَشَا
سَرْطَمُ اللَّحْيَيْنِ مَعَّاجٌ تَئِقْ

وقال الآخر يصف فرسًا :

صَافِي السَّبِيبِ أسِيلُ الخَدِّ مُشْتَرِفٌ
حَابِي الضُّلُوعِ شَدِيدٌ أسْرُهُ تَئِقُ

والمَئِقُ : الباكي يأخذه شبه الفواق عند البكاء والنشيج . يقال : مَئِقَ الرجل والصبيُّ يَمْأَقُ مَأقًا ومَأقَةً بالتحريك وامْتَأق . قال رؤبة.

كَأنَّمَا عَوْلَتُهَا بَعْدَ التَّأقْ
عَوْلَةُ ثَكْلَى وَلْوَلَتْ بَعْدَ المَأقْ

18) هو عدي بن زيد.

وشأن التَّئِـق النزوعُ الى الشرّ لغضبه، وشأن المئِـق ضِيقُ الصدر عن الاحتمال، فلا يجتمعان . فيضرب للمتخالفين خلقا.

أنـا جُـذَيـْلُـهَـا المُـحَـكَّـكُ وعُـذَيـْقُـهَـا المُـرَجَّـبُ.

لما قُـبض النبي صلى الله عليه وسلم اجتمعت الأنصار الى سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ في سَقِيفَةِ بَنِـي سَاعِدَةَ، فأتاهم أبو بكر وعُمَرُ وغيرُهما من المهاجرينَ - رضي الله تعالى عن الجميع - فتكلم أبو بكر، والقصَّة مشهورة . وتكلم رجل من الأنصار، وفي رواية وهو الحُبَابُ بْنُ المُنْذِرِ فقال : أنـا جُـذَيـْلُـهَـا المُـحَـكَّـكُ وعُـذَيـْقُـهَـا المُـرَجَّـبُ، منا أميرٌ ومنكم أمير . والجُـذَيْل تصغير جِذْل بكسر الجيم وتُـفتح، وبالذال المعجمة الساكنة . والجِـذْل : ما عَـظُـم من أصول الشجر أو أصلُ الشجرِ وغيرها بعد ذهاب الفرع . والجمع أجذال وجذول وجذولة . قال امرؤ القيس :

كَـأَنَّ عَـلَـى لَـبَّـاتِـهَـا جَـمْـرَ مُـصْـطَـلِـي
أصَـابَ غَـضًـا جَـزْلاً وكُـفَّ بـأَجْـذَالِ[19]

والجِـذْلُ أيْـضًـا : عودٌ يُـنصَبُ لِـلْـجَرْبَـى لِـتَـحْـتَـكَّ به، وهو المقصود هنا . ويقال : هو عود ينصب في مَبْرَكِ الابل تَـحْـتَـكُّ به لتزيل ما عليها من قراد وكل ما لزق بها فتستشفى بذلك، ويكون كالتمرغ للدابة . قال الراجز :

لاَقَـتْ عَـلَـى المَـاءِ جُـذَيْـلاً واتِـدا

ويُـضرب مثلا للرجُل فيقال : هو جِـذْلُ مُـحَـاكَّـةٍ وجِـذْلُ حِـكَـاكٍ . قال الأصمعي : قلت لأعرابي : أَلَـكَ بَـنون ؟ قال : نعم، وخالِـقِـهم لم تَـقُـمْ على مِـثْـلِـهم مُـنْـجِـبَـةٌ . قلت : صِـفْـهُـم لي . قال : جَـهْـمٌ وما جَـهْـم ! يُـنْـضِي الوهْـم، ويَـصُـدُّ الدَّهْـم، ويَـفْـرِي الصُّـفوف، ويُـعِـلُّ السيوف . قلت : ثم من ؟ قال : غَـشَـمْـشَـم وما غَـشَـمْـشَـمَ ! ماله مَـقْـسَـم، وقِـرْنُـه مُـجَـرْجَـم، جِـذْلُ حِـكَاك، ومِـدْرَهُ لِـكَاك . قلت : ثم مَـنْ ؟ قال : عَـشْـرَب ومَـا عَـشْـرَب ! لَـيْـثٌ مُـحَـرَّب، وسَـمَامٌ مُـقَـشَّـب ؛ ذِكْـرُه باهِـر، وخَـصْـمُـه عاثِـر ؛ وفِـنَـاؤُه رِحَـاب، ودَاعِـيهِ مُـجَـاب . قلت : فصِـفْ لِـي نَـفْـسَـك . قال : ليث أبو رَيَابِـل، ركَّـابُ مَـعَـاضِـل، عَـسَّـافُ مَـجَاهل ؛ حَـمَّـالُ أعْـبَاء، نَـهَّـاض بِـبَـزْلاَء.

---

19) في ديوان امرىء القيس (مصطل) بدل مصطلي

قوله : يُنضِي الوَهْم أي يُهْزِلُ الوهم، وهو الجمل الضخم من قوّته ؛ ويَصُدُّ الدّهْم أي يَكُفّ الدّهْم، وهو العدد الكثير من العدوّ . ويَفْري الصفوف أي يشقُّها في القتال مُقْدِمًا . ويُعِلّ السيوف أي يُوردها دِمَاءَ الأقران مرةً ثانية من العَلَل في الشرب.

وقوله : قِرْنُه مُجرْجَم أي مُبَارزُه مُجرْجَم أي مَصرُوع ؛ وجِذْل حِكَاك أي يُسْتَشْفَى به في الأمور كالجِذْلِ المنصوب الذي تَسْتَشْفِي به الابِلُ الجَرْبَى والمِدْرَهُ : لسانُ القوم . واللّكَاك : الزّحَام . والليثُ المُحَرَّب : المُغْضَب، وهو أشد ما يكون ؛ والمُقَشَّب : المخلوط . والباهر : الغالب . والرّيَابِل جمع رِيبَال يُهْمَزُ ولا يُهْمَز، وهو الأسد . والمعاضل : الدواهي ؛ والعسّاف : الركّاب الطريق على غير هداية . والمجاهل : الفلوات ؛ والأعباء : الاثقال ؛ والبَزْلاءُ : الرأي الجيّد، وهو مثل سيأتي . وأما العُذَيْق فهو تصغير عَذْق، وهو بالفتح : النخلةُ بِحِمْلها، وبالكسر القِنْوُ منها . والمقصود هنا الأول . والمرجَّب : المعظّم . يقال : رجَّبته ترجيبا : عظّمته . ومنه رَجَب لتعظيمهم إياه . ويقال : إن فلانا لَمُرجَّب أي عظيم . وحدّث الأصمعي قال : مررت في بلاد بني عامر بحلة في غائط يطؤهم الطريق، فسمعت رجلا يُنشِد في ظل خيمته له ويقول :

أحقًا عِبَادَ اللّهِ أنْ لَسْتُ نَاظِرًا
إلَى قرقرى يومًا وأعْلاَمِهَا الغُبْرِ

كَأنّ فُؤادِي كُلّمَا مَرّ رَاكِبٌ
جَنَاحُ غُرَابٍ رَام نَهْضًا الَى وكْرِ

إذَا رَحَلَتْ نَحْوَ اليَمَامَةِ رِفْقَةٌ
دَعَاكَ الهَوَى واهْتَاجَ قَلْبُكَ لِلذّكْرِ

فَيا رَاكِبَ الوَجْنَاءِ أبْتَ مُسَلّمًا
ولاَزِلْتَ مِنْ رَيْبِ الحَوادِثِ في سِتْرِ

إذَا مَا أتَيْتَ العُرْضَ فَاهْتِفْ بِجَوّهِ
سُقِيتَ عَلَى شَحْطِ النّوَى سَبَلَ القَطْرِ

فَإنَّكَ مِنْ وَادِ الَيَّ مُرَجَّبِ وإن كُنْتَ لاَ تَزدَارُ إلاَّ عَلى عُفْرِ

قال فلما رآني مُصغيًا إليه أشار اليَّ فاستأنسني وأنزلني ووضع طعاما فقلت : أنا الى غير هذا احْوَجُ، قال : ماذا ؟ قلتُ : تُنْشِدُنِي، قال : أفْعَل . فلما أصبت من الطعام قلت : الوَعْد، فأنشدني :

لَقَدَ طَرَقَتْ أمُّ الخَشِيفِ وإنَّهَا إذا صَرعَ القَومَ الكَرَى لَطَرُوقُ
فَيَا كَبِداً يَحمَى عَلَيهَا وإنَّهَا مَخافَةَ هَيضَاتِ النَّوى لَخَفوقُ
أقَامَ فريقٌ مِن أنَاسٍ يَوَدُّهُم بِذاتِ الغَضَا قَلْبِي وبَانَ فَرِيقُ
لحاجة محزون يَظل وقلبه رهين ببيضات الحجال صديقُ
تَحَمَّلْنَ ان هَبَّتْ لَهُنَّ عَشِيَّةٌ جَنُوبٌ وان لاحَتْ لَهُنَّ بُرُوقُ
كأنَّ فَضولَ الرَّقْمِ حين جَعَلْنَهَا غديا عَلَى أدْمِ الجِمَالِ عُذُوقُ
وفِيهِنَّ منْ بُختِ النِّساءِ رِبَحْلَةٌ تَكادُ بِهَا غُرُّ السَّحَابِ تَرُوقُ
هِجانٌ فأمَّا الدِّعْصُ مِن أخْرياتِهَا فَوَعْثٌ وأمَّا خَصرُها فَدَقِيقُ

فقوله : فإنَّكَ مِنْ وادِ اليَّ مُرَجَّبِ أي معظَّم . وقوله في القطعة الثانية :

كأنَّ فُضولَ الرَّقمِ حِين جَعَلْنَهَا غديا عَلى أدْمِ الجِمَالِ عُذُوقُ

أي نخلات، جمع عَذْق وهو النخلة كما ذكرنا قبل، أو قِنْوَانُها، وهو تشبيه مشهور عند القدماء، يشبهون الحمول والبرود المرقومة فيها بالنخيل إذا أينع ثمرُها فاحمرَّ واصفرَّ . قال امرؤ القيس :

أو المُكرعَات مِن نَخِيلِ ابْن يامِنٍ دُوينَ الصَّفا اللاَّئِي يَلين المُشَقَّرا
سَوامِقَ جَبَّارٍ أثِيثٍ فُرُوعُهُ وعَالَيْن قِنْواناً مِن البُسْرِ أحمَرا

وقال أيضا :

عَلَونَ بأنطَاكِيَّةٍ فَوقَ عِقْمَةٍ كَجِرمَةِ نَخْلٍ أو كَجَنَّةِ يَثْربِ

والترجيب في النخل أن يجعل للنخلة دكان تعتمد عليه أو تدعَّم بشيء إذا كثر حملها لئلا تنكسر. ويُسمى ذلك الدكان الرُّجْبَة بضمِّ الراء . وقيل أن يغرز الشوك حولها حتى لا يوصل إليها . وقيل أن تُضَمَّ قِنْوانُها الى سَعَفَاتها وتُشَدَّ بِالخُوص حتى لا

ينفضها الريح فيقال : نَخْلَةٌ مُرَجَّبَة، وعِذْقٌ مَرَجَّب . ويقال : نخلة رجِيبَة بتخفيف الجيم وتشديدها.

وينشد بهما قول الشاعر : [20]

لَيْسَت بِسَنْهاءِ ولا رُجَّبِيَّةٍ ولكِنْ عَرايا في السِّنِ الجَوائح

ولا يرجَّب من النخل إلا الكريمة . واعلم أن التصغير في كل من الجُذيْل والعُذَيْق للتعظيم على ما أثبت الكوفيون من ورود التصغير للتعظيم كقول لبيد :

فُوَيْق جُبَيْل شَامِخٍ لَن تَنالَهُ بِهِمَّتِهِ حَتَّى تكلّ وتَعْمَلا

وقيل للتقريب كما في بُنَيٌّ وأُخَيٌّ . وقد تحصل في معنى الكلام بجملته أنه يقول : أنا الذي يُرجع إليه في النائبات، ويُتمسَّك بذيله في المُلِمّات، ويُستند الى عقله في الحوادث المُدْلَهِمَّات، ويُستشفى بفضل رأيه في المُعضلات المعوصات، كالجُذيل الذي تَسْتَشْفِي بالاحتكاك به الابل ؛ وأنالي أيضا عشيرةٌ يحفظوني ويؤووني، وعصبة ينصروني ويمنعوني، كالنخلة الممتنعة برجبتها، الكريمة على أهلها إذ لا يُرَجَّب من النخل إلا الكرام كما مرّ . وقد علم اشتمال الكلام على مثلَيْن وليس مثلا واحدا ؛ إلا أنهما يقرن بينهما كثير . وفي مقامات البديع قوله : حَتَّى إذا مال الكلامُ بنا مَيْلَه، وجرَّ الجدالُ بيننا ذَيْلَه، قال : أصَبْتُم عُذَيْقَهُ، ووافَيْتُم جُذَيْلة الخ . وقيل معنى أنا جُذَيْلُها المحكَّك : أنا صاحب رهان . والمحكَّك المعاود لها، كما قال الراجز :

جِذْلُ رِهَانٍ في ذِرَاعَيْهِ حَدَب[21]

أي السير ويقال أيضا. رجل مُحَكَّك : أي مُجَرَّبٌ للأمور بصير بخيرها وسرّها . وهو مدح في الرجال، ذمّ في النساء قال الحماسي :

لا تنْكِحَنَّ الدَّهْر مَا عِشْتَ أيِّمًا مُجَرَّبَةً قَدْ مُلَّ مِنْها ومَلَّتِ

ويقال أيضا : أنا جُحَيْرُها المُأرَّبُ، وعُذَيْقُها المُجَرَّب . والجحير تصغير جحر وهو الغار ؛ والمُأرّب المقور الململم، ومعناه واضح من الذي قبله.

---

20) هو سويد بن صامت.

21) في لسان العرب : وإنه لجِذلُ رهان أي صاحب رهان ؛ عن ابن الاعرابي، وأنشد :

هَلْ لَكَ في أجْودِما قادَ العَرب هَل لَكَ في الخَالصِ غَيْرِ المُؤْتَشَب

جِذْلُ رِهَانٍ في ذراعَيْه حَدَب أزَلَّ إن قِيدَ، وإنْ قَامَ نَصَب

يقول : إذا قام رأيته مُشْرِفَ العنق والرأس.

أنـا كَـلِـف، وأنْـتَ صَـلِـف، فَـكَـيْـفَ نَـأْتَـلِـف ؟

الكَـلَـفُ بفتحتَـين العشق والولوع بالشيء . يقال : كلِـف الرجل بكذا يكلَـف به بالكسر في الماضي، فهو كَـلِـف كَـكَـتِـف . والصَّـلَـفُ بفتحتَـيْـن : عدم الحظوة . يقال : صلِـفت المرأة بالكسر إذا لم تكن لها مكانة عند زوجها ولا قدروأبغضها، فهي صلِـفَـة وهنّ صلائف . قال القطامي يذكر امرأة :

لَـهَـا رَوْضَـةٌ في القَـلْـبِ لَـمْ تَـرْعَ مِـثْـلَـهَـا
فَـرُوكٌ ولا المُـسْـتَـعْـبِـراتُ الصَّـلاَئِـفُ

ويقال للمرأة : أصْـلَـفَ الّـلهُ رُفْـغَـكِ أي بغَّضكِ الى زوجك . والصَّـلَـفُ أيضا التكلمُ بما يكرهه صاحبُـك، والتمدُّحُ بما ليس عندك، ومجاوزة قدر الظرف والادعاء فوق ذلك تكبرا.

وهذا المثل يضرب أيضا للمتباينين في الأخلاق كالذي تقدَّم.

أنـا أتـلَـوَّصُ قَـبْـلَ أنْ أُرْمَـى.

التَّـلَـوّص بالصاد المهملة : التلوي والتقلب، وألاصَـه : أداره . والرمي معروف . وأعلم أن العقلاء من حكماء الفلاسفة والعرب وضعوا حكما كثيرة وأمثالا جمَّة على ألسنة الجمادات والحيوانات العجماوات باعتبار حالها تعليمًا للناس وارشاداً لهم الى مصالحهم معاشًا ومعاداً، وذلك من قبيل التمثيل الذي ذكرناه من قبل . وسيأتي في هذا الكتاب إن شاء الله كثير من هذا النوع، فكان من ذلك أن قالوا : إن الغراب وصَّى ابنَـه فقال له : يابُـنَـيَّ، إذا رُمِيتَ فَـتَـلَـوَّصْ، أي انحرف لئلا تُـصاب فقال : يا أبَـتِ، أنـا أتَـلَـوَّصُ قبل أنْ أُرْمَـى يضرب في التحرز من الشيء وأخذ الحذر منه قبل كَـيْـنُـونَـتِـه.

أنـا مِـنْ هَـذَا الأَمْـرِ فَـالِـجُ بْـنُ خَـلاَوَة.

فَـالِـج بالفاء والجيم، على صيغة فاعل : اسم رجل من أشجع، وهو فالج بن خلاوة بفتح الخاء المعجمة بن سُـبَـيْـع بنِ بَـكْـر بنِ أشْـجَـع . وكان فالج هذا قيل له يومَ الرَّقَـمِ إذْ قَـتَـلَ أُنَـيْـسٌ الاسْرَى : أتَـنْـصُـرُ أُنَـيْـسًا ؟ فقال : إنِّي منه بريء . ويَـوْمُ الرَّقَـم يومٌ من أيامهم، فُـقِـدَ فيه فرسُ عامِرِ بن الطُّـفَـيْـل، فبقي لكل خَـلِـيٍّ من أمر مُـتَـبَـرِّىءٍ منه أن يقول : أنا منه فَـالِـجُ بْـنُ خَـلاَوة أي أنا منه خلاءٌ بريء بمنزلة ذلك الرجل.

أنَـا مِنْ هَذَا الأمْرِ كَحَاقِنِ الإهَالَةِ.

الحقن : الحبس . يقال : حقَنَ اللبنَ في السِّقاء إذا جمعه وخلط حليبه برائبه كما مرَّ، وحقَنَ البول : أمسكه، وحقَنَ دَمَه : منعه من القتل . وكلُّ شيء أمسكتَه وحبستَه فقد حقَنْتَه . والاهالة : الوَدَكُ، وهو الشحم أو ما أذيب منه، أو الزيت وما يُؤْتَدَمُ به، فيقال : أنَا مِنْ هَذَا الأمْرِ كَحَاقِنِ الاهَالَةِ، أي عالمٌ به خبير بحاله، لأنه لا يحقن الاهالة في السِّقاء إلا مَنْ يعلمُ أنها بردتْ لئلا يحترق السقاء بها.

أنَـا النَّذِيرُ العُرْيَانُ.

الانذار : الابلاغ مع تخويف، والاسم النُّذُر. قال تعالى : **فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي ونُذُرِ** . والنذير فعيل بمعنى مُفْعِل أي مُنْذِر . ويكون النذير أيضا بمعنى الانذار، والقصد هنا الأول . والعريان معروف . يقال : عرِيَ الرجل بالكسر يَعْرَى عَرَاءً فهو عُرْيان بضمّ العين وعارٍ ؛ وجمع العريان عُرْيَانُونَ، وجمع العاري عُراة . وهذا المثل ورد بهذا اللفظ في الحديث من كلام النبي صلى الله عليه وسلم، وهو مثل قديم للعرب يقال عند الانذار بقرب العدوّ مع المبالغة في الانذار . وأصله أن النَّذِير الجادّ المُغَوِّث يَتَعَرَّى من ثوبه فيمسكه بيده ويشير به ويَلْمَعُ لتسبقَ رؤيةُ الثوبِ سماعَ صوتِه، وإنما ذلك عند قرب العدوّ وهجومهم، فكان مثلا عند الجدّ والتشمير في الانذار بكل أمر هائل، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم لقومه : **أرَأيْتُمْ لَوْ أخْبَرْتُكُمْ أنَّ بِالوَادِي خَيْلاً تُصَبِّحُكُم أكُنْتُم مُصَدِّقِيَّ ؟** فقالوا : **ما جَرَّبْنَا عَلَيْكَ مِنْ كَذِبٍ** . فقال : **فإنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ**، أو كما قال صلى الله عليه وسلم.

وقال صاحب الروض(22) في قوله تعالى : **يَا أيُّها المُدَّثِّرُ** إن وجه ارتباطه مع قوله تعالى : **قُمْ فَأنْذِرْ** أن الانذار من أوصافه صلى الله عليه وسلم التي وصف بها نفسه بقوله : **أنَا النَّذِيرُ العُرْيَانُ** . ومعلوم أن الانذار على هذا الشعار مخالفٌ للتَّدَثُّرِ بالثياب، فكان فيه من التطابق والالتئام مالا يخفى . وهو حسن ظاهر . ويقال أصلُ المثل في رجل من خَثْعَم أخذه العدوُّ وسلبوه ثيابه وقطعوا يده . فجاء قومَه منذراً على تلك

22) يقصد الروض الأنُف للامام السهيلي.

الحال . ويقال إنه في يوم ذي الخَلَصَة حمل عليه عَوْفُ بنُ عامر فقطع يده ويد امرأته والله أعلم .

أنْتَ شَوْلَةُ النَّاصِحَةُ

شَوْلَة بفتح الشين المعجمة فسكون : أمةٌ كانت لِعَدْوَانَ، وكانت رَعْنَاءَ حمقاء، فكانت تَنْصَحُ لمواليها فتعودُ نصيحتُها شراً عليهم ووبالا لحمقها . فضُرِبَ بها المثلُ لكل ناصح أحمق يقال له : أنْتَ شَوْلَةُ النَّاصِحَةُ، أي بمنزلة تلك الأمة.

أنْتَ صاحِبَةُ النَّعامَةِ.

النعامة واحدة النَّعَامِ المعروف . وصاحبة النعامة امرأة من العرب وجَدَتْ ذات يوم نعامةً غَصَّتْ بِصُعْرُور، وهو صَمْغَة، فأخذتها وربطتها بخمارها الى شجرة، وقد منعتها الغُصَّةُ أن تهرب . فذهبت المرأة الى الحي فهتفت بهم وجعلت تقول : من كان يحفّنا ويرفّنا فليترك، أي مَنْ كان يُحسن إلينا ويلطف بنا فليقطع ذلك عنا . ثم قَوَّضَتْ خيمتَها لتحمل على النعامة . فجاءت إليها فوجدتها قد أساغت غُصَّتَها وفرَّت فبقيت المرأة لا هي بالنعامة ظَفِرت، ولا بنصيبها من الناس تَمسَّكت، فيُضرَب بها المثلُ ويقال : أنت صاحبةُ النعامة، أو كصاحبة النعامة عند التشنيع على من وَثِقَ بغير ثِقَةٍ واغترّ بغير طائل . وفي معنى هذه القصَّة ما تحكي العامة اليوم في الخرافات أن رجلاً وجد أرنبًا في فلاة قد نامت فجاء يشتدّ حتى انتهى الى الحيّ فصاح بهم : ألا إنَّا قد قطعنا التَّذْوِيقَ فيما بيننا، وهو ما يتهاداه الجيران فيما بينهم من نحو الفاكهة واللحم واللبن، وجعل يقول : قد قطعناه، حتى أسمع الناسَ ذلك وأسمعوه مثله . فرجع فوجد الأرنب قد هبَّت من نومها وذهبت .

أنْتِ غَيْرَى نَغِرَةٌ

يقال : غار الرجل على امرأته يغار غَيْراً وغَيْرة بالفتح وغاراً، فهو غَيُور وهم غُيُرٌ، وهُو غَيْران وهم غَيارى وغُيارى، ورجلٌ مِغْيار، وقوم مَغَايِير ؛ وغارت المرأة تغار، فهي غَيُورٌ وغَيْرَى، وهنَّ غَيَارى : والنَّغِرَةُ : التي تَغْلِي من الغَيْرة كما تَنْغَرُ القِدْرُ أي تَغْلِي . يقال : نغِر الرجلُ بالكسرة إذا اغتاظ وغلِي جوفُه من

الغيظ، فهو نَغِر وهي نَغِرَة . فيقال هذا عند اشتداد الغيرة . ويحكى أن امرأة جاءت عليا كرم الله وجهه فذكرت أن زوجها يطأ جاريتها، فقال : إن كُنْتِ صادقة رجمناه، وإن كنت كاذبة جلدناك، فقالت : رُدُّوني الى أهلي غَيْرَى نَغِرَةً !

قيل : وأول من نطق بهذا المثل عمرو بن المنذر الذي يقال له عمرو بن أمامة، وهو الذي قتلته مرادٌ في قضيب، وذلك أن أباه المنذر بن امرىء القيس كان تزوج هند بنت الحارث ابن آكِلِ المُرَار الكندي، فولدت له عمراً، وهو الذي يقال له عمرو بن هند، والمنذر بن المنذر، وملك بن المنذر، وقابوس بن المنذر، وكان ملك أصغرهم . فلما كبرت هند عند أبيهم المنذر أعجبته بنت أخيها أُمَامة بنتُ سَلَمَةَ بنِ الحارث، فطلّق هنداً وتزوج أمامة فولدت له أمامة عمرو بن المنذر الذي يقال له عمرو بن أمامة . ثم إن المنذر جعل الأمر من بعده لابنه عمرو بن هند، ثم لقابوس، ثم للمنذر، ولم يجعل لعمرو بن أمامة شيئا . فكان ذلك سبب وقوع الشرّ بينه وبين إخوته لأبيه . فتملك عمرو بن هند الخَوَرْنَقَ والسَّدِير، وجعل لأخيه قابوس البدو، فغضب عمرو بن أمامة وذهب نحو اليمن يطلب النصرة على إخوته، وقال في ذلك يخاطب عمرو بن هند :

ألا يَـا بْـنَ أُمِّـكَ مَـابَـدَا   ولكَ الخَـوَرْنَـقُ وَالسَّدِير
فلأمْـنَـعَـنَّ مَـنَـابِـتَ الضَّمْرَانِ إذْ مَـنَـعَ الـقُـصُـور
بِـكَـتَـائِبٍ تَـرْدِي كَـمَا تَرْ   دِي إلَـى الجِـيَـفِ النُّسُور
إنّـا بَـنِـي العَـلاّتِ تقضى   دُونَ شَـاهِـدِنَـا الأمُـور

والضَّمْرَان بفتح الضاد : نبت من نبات البادية ؛ والرَّدَيَان : الجري يقال : رَدتِ الخيلُ تَرْدِي إذا جَرَت ؛ وأبناء العَلاّت : أبناء أمهات شتّى ؛ وأبناء الأعيان : أبناء أمٍّ واحدة . ثم إن عمرو بن أمامة لحق باليمن وتبعه ناس من قَيْسِ عَيْلاَن وغيرهم، فأتى ملكها يطلب منه جنداً ليقاتل أخاه على نصيبه من الملك . فقال له الملك : من أحببت، فاختار مراداً، فسيَّرهم الملك معه . فلما انتهوا معه الى وادٍ يقال له قَضِيب تَلاَومَتْ مرادٌ فيما بينها وقالوا : كيف تتركون أموالكم وعشائركم وبلادكم وتتبعون هذا الأنكر ؟ فقام

هُبَيْرَةُ بنُ عَبْدِ يَغُوثَ، وهو سيد مراد إذ ذاك، فتمارض وشرب مَاءَ الرُّفَةِ وهي شجرة هناك، فاصفرَّ لونه. فبلغ عمراً أن هُبَيْرة مريض، فبعث إليه طبيبا، فجاءه الطبيب وقد شرب المَغْرة وجعل يَمُجُّها لما دخل عليه الطبيب. فأحمى الطبيب مَكَاوِيَه وجعلها على بطنه، فقال له : أصبت موضع الداء ! وجعل يكويه حتى كَشَحَ بَطْنَه بالنار، وهو يريه أنه لا يَجِدُ مَسَّها، وبذلك سمي صُبَيْرة المَكْشُوح. فرجع الطبيب الى عمرو وقال : وجدته مريضًا ورأيته لاَ يُحِسّ بالنار. فلما اطمأن عمرو بن أمامة صار إليه المكشوح (في قومه) من تلك الليلة وثار به. فلم يشعر حتى أحاطوا به، وكان عمرو تلك الليلة مع بعض حظاياه . فلما سمعتْ أمُّ ولده الغَسَّانِيَّةُ جَلَبَةَ الخيل قالت : أيْ عمرو، أُتِيتَ ! وقالت : سَالَ قَضِيبٌ حَديدا، أو جاءتك مرادٌ وفُودا، فذهبت مثلا . فقال لها عمرو : أنْتِ غَيْرَى نَغِرَة، أي إنك إنّما قلت ذلك غيرةً منكِ عليَّ، فذهبت مثلا . ومرّ به قطيع من القطا فقالت : يا عمرو أُتِيت ! لَوْ تُرِكَ القَطَا لَنَامَ، فذهبت مثلا . فلما انتهوا إليه وثاروا إليه، ثار إلى سيفه فخرج عليهم وهو يقول :

لقد عَرِفْتُ الموتَ قبلَ ذوْقِهِ ... إنَّ الجبانَ حَتْفُهُ من فوْقِهِ
كلُّ امرىءٍ مُقاتلٌ عن طَوقِهِ ... كالثَّورِ يحْمِي، جِلْدهُ برَوقِهِ

فزعموا أنه لقيه غلام من مراد يقال له الجُعَيْد أو تَمِيم بنُ الجُعَيد، وقد كان عمرو قال فيه : نِعْمَ وَصِيفُ المَلِكِ هذا ! فقال الغلام :

أيُّ وصِيفَ مَلِكٍ تَرانِي؟ ... أمَا تَرَانِي رَابِطَ الجَنَانِ؟
أفْلِيهِ بِالسَّيْفِ إذا اسْتَفْلانِي ... أُجِيبُهُ لَبَّيْكَ إذْ دَعَانِي
رَوَّيْتُ مِنْهُ عَلَقًا سِنَانِي

ثم ضربه فقتله، فتفرق عنه الناس، ورجعت مرادٌ الى اليمن فأقبل الغلام الذي قتله بالغسَّانية وبابنيه وهما غلامان، فبلغ الى عمرو بن هند، فقال له : أيها الملك، إني سترت عورتك، وقتلت عدوّك . فقال له عمرو : إن لك لخباء[23] أنت له أهل . اضرموا له نارا واقذفوه فيها ! فقال الغلام : أيها الملك إني كريم، فلْيَطْرَحْني فيها كريم فإن لي حسبا

23) في أ : (لحباء) بالحاء المهملة

فأمر عمرو بن هند ابنه وابن أخيه أن يتوليا ذلك، فانطلقا به . فلما دَنَوْا من النار، مَسَحَ شِراكَ نَعْلَيه فقالا : ما دعاك الى مسح نعلك، وأنت مطروح في النار ؟ فقال : أحببت ألا أدخل النار إلا وأنا نظيف . ثم قال :

الخيـــرُ لا يأتي بِهِ حُـــبُّهُ
والشّـرُّ لا يَنْفَـعُ مِنهُ الجَـزَعُ

ثم قذف بنفسه وبهما معًا، فاحترقوا جميعا. وفي ذلك يقول طرفة ينعى عمرو بن أمامة الى أخيه :

أعَمْرَو بْنَ هِنْدٍ ما تَرَى رَأْيَ مَعْشَرٍ
أفَاتُوا أبَا حَسَّانَ جَارًا مُجَاوِرًا
فإنَّ مُرادًا قَدْ أصَابُوا جَرِيمَةً
جِهَارًا وأضْحَى جَمْعُهُمْ لَكَ وَاتِرًا
دعَا دَعْوَةً إذْ شَكَّتِ النَّبْلُ صَدْرَهُ
أُمَامَةَ واسْتَعْدَى هُنَاكَ مَعَاشِرًا
فَلَوْ أنَّهُ نَادَى مِنْ الحِصْنِ عُصْبَةً
لالْقَوْا عَلَيْهِ بِالصَّعِيدِ الشَّرَاشِرًا
ولَوْ خَطَرَتْ أبْنَاءُ قُرَّانَ حَوْلَهُ
لَأضْحَى عَلَى مَا كَانَ يَطْلُبُ قَادِرًا
ولَوْ شَهِدَتْهُ تَغْلِبٌ بِنْتُ وائِلٍ
لَكَانُوا لَهُ عِزًّا عَزِيزًا ونَاصِرًا
ولَكِنْ دَعَامِنْ قَيْسِ عَيْلَانَ عُصْبَةً
يَسُوقُونَ فِي أعْلَى الحِجَازِ البَرَائِرا
ألاَ إنَّ خَيْرَ النَّاسِ حَيًّا ومَيِّتًا
بِبَطْنِ قَضِيبٍ عَارِفًا ومُنَاكِرا
يُقَسَّمُ فِيهِمْ مَالَهُ وقَطِينَهُ
فِيَامًا عَلَيْهِ بالمَآلِي حَوَاسِرًا

أنِـفْـتُ لَـهُ عَـلَـى عَـدَاوَةٍ بَـيْـنَـنا   وقلتُ قتيلٌ ما قتيل بحائـرا

قوله : أفاتوا أبا حسان، أي أهلكوه، وهو عمرو بن أمامة . وقوله : اسْـتَـعْـدَى أي اسْـتَـنْـصَـرَ ؛ والحِـصْـن : ثَـعْـلَـبَـةُ بن عُـكَـابَـةَ : والشَّرَاشر : المحبة . يقال : ألْـقَـى عليه شَرَاشِرَه إذَا أحبَّه ؛ وأبناءُ قُـرَّان من بني حنيفة، أي أهلُ قُـرَّان، وهي قريةٌ باليمامة والبَـرائر جمع بَـريرة، وهي ثَـمَـر الأرَاكِ ؛ ويَـسُوفُـون : يَـشَـمُّـون، ومنه المَـسَافة، لأن الدليل ربما تحيَّر فشمَّ التراب ليعلم أعَـلَـى قَـصْـدٍ هو أم على جور . يقول إنهم قوم ضعاف ليس لهم طعامٌ إلا الأراك . ويُـروى : يسوفون، أي يبتلعون ؛ والمآلي جمع مِـئْـلاَة، وهي خرقة تكون مع النائحة ؛ وبحائر : اسم لمراد.

إنْ جَـرْجَـرَ العَـوْدُ فَـزِدْهُ وقْـراً.

الجَرْجَـرَةُ : صوتٌ يردّده البعير في حنجرته، وذلك عند تشكّيه من الحمل وضجره وتضرره . قال الراجز :

جَرْجَرَ لمَّا عَضَّهُ الكَـلُّوبُ

وقال الآخر : جَـرْجَـرَ في حَـنْـجَـرَةٍ كَالجُـبِّ.

والعَـوْد : المُسِنُّ من الابل . قال امرؤ القيس :

وإنّـي زَعِـيمٌ إنْ رَجَـعْـتُ مُـمَـلَّـكًا   بِـسَـيْـرٍ تَـرى مِـنْـهُ الفُـرانِـقَ أزْوَرَا

عَـلَـى لاَحِـبٍ لاَ يُـهْـتَـدَى بِـمَـنَـاره   إذَا سافَـهُ العَـودُ النُّـبَاطِـيُّ جَرجَـرَا

يقول إن هذا الطريق إذا اشمَّه العَـودُ من الابل ضجَّ منه، فكيف بغيره . والزيادة معروفة . والوقْـر بالكسر : الحمل . ويُـروى : إنْ جَـرْجَـرَ فَـزِدْهُ ثِـقَـلاً، والثّـقَـل معروف . والمعنى : إن ضجَّ بعيرك وتشكى من ثِـقَـل حمله، فزده ثقلا آخر ولا تلتفت الى ضجره.

يضرب عند الأمر بالالحاح في سؤال البخيل، وهو ظاهر.

إنْ ذَهَـبَ عَـيْـرٌ فَـعَـيْـرٌ في الرَّهْـطِ.

الذهاب معروف . والعَـيْـرُ بفتح العين المهملة : الحمار ؛ وعَـيْـرُ القوم : سيدُهم، وهو المقصود هنا . والمعنى ظاهر.

الايـنَـاسُ قَـبْـلَ الابْـسَـاس.

الأنْـسُ ضدّ الوحْشَةَ ؛ وأنَّسْتُ الرجل تَـأنِيسًا، وآنَـسْتُـه إينَـاسًا .

والابْسَاسُ عند الحَلْبِ أن يقال للناقة : بس، [بس][24] وهو صُوَيْتٌ للراعي يقول لها ذلك لِتَدُرَّ للحالب، فيقال : أبَسَّ بِالنَّاقة يُبِسُّ إبْساسًا فهو مُبِسّ . قال الشاعر :

فَلَحَى اللّهُ طَالِبَ الصُّلْحِ مِنَّا مَا أصَاب المُبِسّ بِالدَّهْمَاء

وناقةٌ بَسُوس : لا تَدُرُّ إلا على الابْسَاس

والمعنى أن الناقة لا ينبغي أن يُبَسَّ بها حتى تُؤَنَّس قبل ذلك ويُتَلَطَّفَ لها، فيضرب في أن الانسان ينبغي ألاّ يكلّف امرأً أو يسأل حاجة حتى يتقدم إليه بتأنيسٍ ماليّ أو فعليّ أو قولي . قال الشاعر :

ولَقدْ رفَقْتُ فما حَظِيتُ بِطَائلٍ لاَ يَنْفَعُ الابْسَاسُ بِالاينَاسِ !

ودخل العَتَّابِيّ على الرَّشَيد فقال له : تَكَلَّمْ يا عَتَّابِيّ ! فقال : الاينَاسُ قَبْلَ الابْسَاسِ ! لا يُمدحُ المرء بأولِ صوابه، ولا يُذَمُّ بأول خَطَئِه[25] لأنَّه بين كلامٍ زَوَّرَه، وعَيٍّ حَصَرَه . انتهى.

إنْ أعْيَى فَزَوِّدْهُ نَوْطًا.

الاعْيَاءُ : الكَلاَلُ في المَشْيِ . يقال : أعْيَى المَاشِي إعياءً إذا كلَّ، وعَيِيَ الرجلُ بأمره على مثال رَضِيَ، ويُدْغَم : إذا لم يَهْتَدِ لوجهه أو عجز عنه ولم يُطِقْ إحكامه . وعَيِيَ أيضًا في منطقه إذا حَصِرَ . والنَّوْطُ بفتح النون وسكون الواو : جُلَّةٌ صَغِيرةٌ يُجعل فيها التَّمرُ وتُعَلَّقُ على البَعير . قال النابغة الذّبياني يصف قطاة :

حذّاءُ مُدبِرَةً سَكَّاءُ مُقْبِلَةً لِلْماءِ في النَّحْرِ مِنها نَوْطَةٌ عَجَبُ

وأصل النَّوْطَة من النَّوْط، وهو التعليق . يقال : نُطْتُ الشيءَ بالشيء، أي علّقته به.

والمعنى أن بعيرك إذا أعيى، فزد عليه تعليقًا آخر . وهذا المثل هو كالذي تقدم : إنْ جَرْجَرَ فَرِدْه ثِقَلاً معنىً ومَضْرِبًا.

---

24) لم يكرر في ب.
25) في ب : (خطابه) بدل خطئه

أنْفُكَ مِنْكَ وإنْ كَانَ أجْدَعَ.

الأنف معروف ؛ والجَدْعُ بالدال المهملة : القَطْع في الأنف . تقول : جدعت الرجل فهو أجدع، وهو ذو جَدَع بفتحتين.

والمعنى أن أنفك منك، فلا يمكنك مفارقته ومباعدته وإن كان به عيب وشين . فيضرب في استعطافك صاحبك على ذوي قرابتك، وحثّك إياه على وصلهم وتحمل ما بهم وأن يلمهم على شعثهم، ولا يصارمهم كما لا يصارم أنفَه المتصل به.

قيل : وأول من نطق بهذا المثل قُنْفُذ بن جَعْوَنَة المَازِنِي، وذلك أن الرَّبِيع بن كعب المازني دفع الى أخيه كُمَيْش فرسًا من عِتَاق الخيل ليأتي به أهله . وكان كميش أحمق وأنْوَك . وكان عندهم رجل من بني مالك يقال له قُرَادُ بْنُ جَرْم قدِم عليهم لِيُصيب منهم غِرّةً، وكان داهية [فمكث] فيهم لا يعرفون نسبه . فلما رأى كميشًا ركب الفرس، ركب هو ناقته ثم عارضه فقال له : يا كميش، هل لك في عَانَةٍ لَمْ تَرَ مِثْلَهَا ومعها عَيْرٌ من ذهب، أمَّا الأتان فتروح بها على أهلك، فتفرح بها صدورُهم، وتمتلئ قدورُهم، وتشبع خصورهم، وأمَّا العَيْرُ فلا افْتِقَارَ بعده . فقال كُمَيْش : فكيف لنا به ؟ فقال له قُرَادٌ : أنا لك به، ليس يُدْرَكُ إلا على فرسك . قال : فَدُونَكَهُ ! قال : نعم ! وأمْسِكْ أنتَ على راحلتي وانتظرني في هذا المكان . وركب قرادٌ الفرس . فلما توارى عنه أنشأ يقول :

ضَيَّعْتَ في العَيْرِ ضَلالاً مُهْرَكا فَسَوْفَ تَأتِي بِالهَوَانِ أهْلَكَا
وقَبْلَ هَذَا مَا خَدَعْتُ الانْوَكَا

وبقي كميش هناك ينتظره حتى أمسى، فانصرف الى أهله وقال في نفسه : إن سألني أخي عن الفرس قلت له تَحَوَّل ناقة فلما قدم على أخيه قال له : أين الفرس ؟ فقال : تَحَوَّل ناقة. فعلم أخوه أنه قد خُدِع وجعل يضربه . فقال عند ذلك قُنْفُذ بنُ جَعْوَنَة له : الله عَمَّا فاتك، فَإنَّ أنفكَ مِنْكَ وإنْ كَانَ أجْدَعَ ! وأتى قرادٌ أهلَه بالفرس وقال في ذلك :

رأيْتُ كُميشًا نوكُهُ لِيَ نافعُ ولَمْ أرَ نَوكًا قَبْلَ ذلِك يَنْفَعُ
وقُلْتُ لَه أمْسِك قَلوصي ولا تَرِمْ خِداعًا لَه منّي وذو الكَيد يخْدَعُ

---

26) في أ : ضليلا

فأَصْبحَ يـَرْمي الخافِقَين بِطَرْفِهِ وأصْبحَ تَحتي ذو أفانينَ جُرْشُعُ[27]

ومثلُ هذا المثل قولهم : مِنْكَ رَبَضُكَ وإنْ كَانَ سَمَاراً[28]، وسيأتي بيانه في محله إن شاء الله تعالى .

إنْ كُنْتَ رِيحًا فَقَدْ لاَقَيْتَ إعْصَاراً.

الريح معروفة حمعه رياح وأرواح . قال :

إذا هَبَّتِ الأرْواحُ مِنْ نَحْوِ جانبٍ بِهِ أهْلُ مَيٍّ هاجَ قَلْبِي هُبُوبُها

ويقال أيضا أرياح . والاعْصَار بكسر الهمزة : ريحٌ تُثير غباراً يرتفع الى السماء عموداً، أو ريح تهبّ بشدة فيما بين السماء والأرض . قال تعالى : **فَأَصَابَهَا إعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ**، وجمعه أعاصير . قال الشاعر :

وبيْنَما المَرءُ في الاحياءِ مُغتَبطٌ إذَا هُوَ الرَّمْسُ تَعْفوهُ الأعَاصِيرُ

وقال حَارِثَةُ بْنُ بَدْرٍ يَرْثِي زِيَاداً، وقد مات بالكوفة ودفن بالثَّوِيَّة :

صَلَّى الالَهُ عَلى قَبْرٍ وطَهَّرهُ عِنْدَ الثَّويَّةِ يَسْفي فَوْقَهُ المُورُ

زَفَّتْ إلَيهِ قُرَيْشٌ نَعْشَ سَيِّدِها فَثَمَّ كُلُّ التُّقى والبِرِّ مَقْبورُ[29]

أبا المُغِيرَةِ والدُّنْيا مُفَجِّعَةٌ وإنَّ مَنْ غَرَّتِ الدُّنْيا لَمَغْرُورُ

قَدْ كانَ عِندكَ بِالمَعروفِ مَعرِفةٌ[30]

وكَانَ عِنْدكَ لِلنَّكْرَاءِ تَنْكِيرُ

وكُنْتَ تُغْشَى وتُعْطِي المَالَ مِنْ سَعَةٍ

إنْ كَانَ بَيْتُكَ أضْحَى وهْوَ مَهْجُورُ[31]

---

27) حرفت جرشع فكتبت بالخاء في ب

28) المعروف هو تقديم ربضك على منك.

29) أورد الحصري في زهر الآداب هذا البيت هكذا :

تُهْدِي إلَيْهِ قُرَيْشٌ نَعْشَ سَيِّدهَا فَثَمَّ حَلَّ النَّدَى والعِزُّ والخِيرُ

30) في زهر الآداب : قَدْ كَان عِنْدَكَ لِلْمَعْرُوفِ عَارِفَةٌ

31) رواية زهر الاداب :

وكُنْتَ تُغْشَى فَتُعْطِي المَالَ مِنْ سَعَةٍ فَالآنَ بَابُكَ أمْسَى وهْوَ مَهْجُورُ

وبعده :

ولاَ تَلِينُ إذا عُوسِرْتَ مُعْتَسِراً وكَانَ أمْرُكَ مَايُوسِرْتَ مَيْسُورُ

لَمْ يَعْرِفِ النَّاسُ مُذْ غَيَّبْتَ فِتْنَتَهُم ولَمْ يُجَلِّ ظَلاَمًا عَنْهُمُ نُورُ

انظر زهر الاداب، 2 : 914 وما بعدها.

النـّاسُ بـَعـْدكَ قـَدْ خـَفـَّتْ حـُلـُومـُهـُم

كـَأنـَّمـَـا نـَفـَـخـَتْ فـِيهـَـا الأعـَاصِيـرُ

والمعنى إن كـُنتَ مثل الريح في الشدة والقـُوّة، فقد لا قـَيـْتَ من هو مثلُ الاعصار الذي هو أشدُّ الريح وأقواها .

يـُضرَب للرجل يكون صَلـْبـًا جَلـْداً فيصادف من هو أقوى منه وأشدّ، وهو ظاهر.

إن كـُنـْتَ ذَا طِبٍّ فَطِبَّ لِعَيـْنـَيـْكَ

الطـّبُّ مثلثة الطاء : علاجُ الجسم . والطـّبُّ أيضا : الرّفـْق والسحر . ولفظ طبّ في المثل كذلك مثلـّث الطاء في الموضعين، والمعنى ظاهر . وفي نحوه قيل :

يـَا أيـُّهـَا الـرَّجـُلُ المـُعـَلـّمُ غـَيـْرَهُ

هـَلاَّ لـِنـَفـْسِـكَ كـَانَ ذَا التـَّعـْلِيـمُ

إنْ يـَكـُنْ هـَذَا مِنْ الـّلهِ يـُمْضِـهِ.

يـُتـَمـَثـّلُ به كثيرا، وهو من كلام المصطفى صلى الله عليه وسلم . قال لعائشة : **أريتـُكِ أوْ رَأيـْتـُكِ فِـي المَـنامِ فِـي سَرَقـَةٍ مِـنْ حَرِيرٍ فـَقِـيلَ لي هذه زَوجـُكِ، فقـُلـْتُ إنْ يـَكـُنْ هـَذَا مِنْ عِـنـْد الـّلهِ يـُمـْضِـهِ**[32]، أو كما قال صلـّى الله عليه وسلـّم.

إنْ لاَ حَـظِيـَّة فـَلاَ ألِـيـَّة[33]

الحـُظـْوةُ : المـَكـَانـَةُ كما [مرّ] يقال : حـَظِيـَتِ المرأة عند زوجها بالكسر تـَحـْظـَى حـُظـْوَة وحِظـَةً فهي حـَظِيـَّة وهنّ حـَظـَايا ضدّ صَـلِـفـَتْ . والألـْوُ : التـَّقـْصِيرُ . يقال : ألاَ في هذا الأمر يألـُو ألـْواً وأُلـُواً وألِـيـًا، وائـْتـَلـَى إذَا قـَصـَّر فيه وأبـْطـَأ، فهو آلٍ ومُـؤْتـَلٍ . قال امرؤ القيس :

ومـَا المـَرْءُ مـَادَامـَتْ حـُشـَاشـَةُ نـَفـْسِهِ

بِمـُـدْرِكِ أطـْرَافِ الخـُطـُـوبِ ولا آلِ

يـُضـْرب هذا المثل في مداراة الناس والتودّد اليهم ، والمعنى أنك إن أخـْطـَأتـْكَ

32) ورد هذا الحديث في نهاية ابن الأثير بلفظ : قـَالَ لـَهـَا رَأيـْتـُكِ يـَحـْمِلـُكِ المـَلـَكُ فِـي سَرَقـَةٍ مِـنْ حـَرِيرٍ.

33) ورد هذا المثل في لسان العرب بادغام النون في اللام : إلاَّ

الحُظوة فيما تريد، فلا تَأْلُ جُهْدًا ولا تزلْ مجتهدا متوددا للناس حتى تستدرك ما فاتك مما تطلب . وأصله في المرأة أنها إن لم تحظ عند زوجها فلا ينبغي لها أن تقصرّ في طلب الحظوة حتى تنالها.

قيل : وأصله أن رجلا كانت لا تحظى عنده امرأة، فتزوج امرأة فلم تأل جهداً في أن تحظى عنده، فلم يقنعه ذلك وطلقها، فقالت ذلك أي : إنْ لَمْ أحْظَ عِنْدَه فإنّي لَمْ أقَصرّ، فصار مثلا في كل من اجتهد في أمر لينالَه وتعذر وهو لم يقصرّ في طلبه والسعي فيه.

وأعلم أنه يقال في المثل بالنصب والرفع بحسب تقدير المحذوف، فَمَنْ نصب فمعناه باعتبار الأصل إنْ لا أكنْ عندك أيها البعلُ حظيةً فلا أكون ألِيَّةً في الحظوة بتحسين خَلْقِي وخُلُقِي حتى أدركَها . ومنْ رَفَعَ فَلَهُ وجهان : أحدهما أن تكون الحظيَّةُ مصدراً لا وصفًا . والمعنى إنْ أخْطأتني الحظوةُ عندك فلا أكون ألِيَّةً في طلبها أو فلا يقعُ مني ألْوٌ وتقصير . الثاني أن تكون الحظِيَّةُ وصفا على بابها الا أنها راجعة الى غير القائلة، والمعنى : إن لا تكن لك في الناس حَظِيَّةٌ تحظى عندك فأ نا لا أكون ألِيَّة في طلبها حتى أنالَها منك، أو نحو هذا من التقادير التي يصح بها المعنى، كما يجري في نحو : إنْ خَيْراً فَخَيْر، وإنْ سَيْفًا فَسَيْف . وقد قُرِّرَ في النحو ما فيه من التقادير وما هو الأرجح منها وهو معروف.

إنْ لاَ أكُنْ صَنَعًا فَإنّي أعْتَثِمُ.

الصَّنَع : الحاذق الماهر . يقال : رجل صَنِيع وصِنْع بكسر فسكون، وصَنَع بفتحتَيْن، ويُروى بهما قول أبي ذُؤَيْب :

وعَلَيْهِما مَسْرودَتانِ قَضاهُما داوُدُ أوْ صَنَعُ السَّوابِغِ تُبَّعُ

وقال حسَّان رضي الله عنه في الأخير :

أهْدى لهُمْ مِدْحَتي[34] قَلْبٌ يوازِرُهُ فيمَا أحَبَّ لِسَانٌ حَائِكٌ صَنَعُ

ويقال : امرأة صَنَاعٌ، على مثال رَزَان، ضدُّ الخرقاء . قال امرؤ القيس :

وعَيْنٌ كَمِرْآةِ الصَّنَاعِ تُديرُهَا بِمَحْجِرِهَا مِن النَّصِيفِ المُنَقَّبِ

34) في ديوان حسان ولسان العرب : مِدَحِي

والعَثْمُ : الانْجِبَارُ الفَاسِدُ . يقال : عَثَمَ العَظْمُ المكسورُ، بالتاء المثلثة المفتوحة، أي انجبر على غير استواء ؛ وعَثَمْتُهُ أنا لازمٌ ومُتَعَدٍّ ؛ وعَثَمَتِ المرأة المَزَادَةَ : خَرَزَتْها خَرْزاً غيرَ مُحْكَم ؛ وأعْثَمَتْها أيضا . فمعنى المثل : إنْ لم أكنْ حاذقًا ماهرا في هذا الأمر فإني أعملُ بقدر طاقتي ومعرفتي.

لأَنْ يَهْدِيَ اللّهُ بِكَ رَجُلاً خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ.

يُتمثل به وهو من كلام النبي صلى الله عليه وسلم .

إنَّ البُغَاثَ بِأَرْضِنَا يَسْتَنْسِرُ.

البُغَاثُ، مثلث الباء الموحَّدة في أوله بعدها غين معجمة فثاء مثلثة : طيرٌ أغبر ؛ ويطلق على شِرار الطير كلها، ومالا يصيد منها . قال الشاعر :

إذا كَرَّ فِيهِم كَرَّةً أفْرَجوا لَهُ ... فِرارَ بُغَاثِ الطَّيْرِ صادَفْنَ أجدلا

وقال دُرَيْدُ بنُ الصِّمَّة :

وتَرى الفَوارِسَ مِنْ مَخافَة رُمْحه ... مِثْلَ البُغاثِ خَشينَ وقعَ الأجدلِ

وقال الحماسي :

بُغاثُ الطَّيْرِ أكْثَرهَا فِراخًا ... وأمُّ الصَّقْرِ مِقْلاتٌ نَزُورُ

وسيأتي تمام هذا الشعر في محله . واسْتَنْسَرَ : صار نسرا، والنسر : الطائر المعروف . وسُمي نسراً لأنه يَنْسُرُ اللحم .

ومعنى المَثَلِ أن الضعيف من الناس إذا حلَّ بأرضنا ووقع في جوارنا عزَّ بنا وتقوَّى، كما أن البُغَاثَ الذي هو ضِعاف الطير إذا عاد نسراً فقد تقوَّى . وقيل معناه : ان الضعيف يَسْتضعِفُنا وتظهر قوتُه علينا، وعلى هذا إذا أريد الافتخار قيل : إنَّ البُغاثَ بِأرْضِنَا لاَ يَسْتَنْسِرِ .

ولشعر دُرَيْدٍ المذكور قصَّةٌ عجيبة رأيت أن أذكرها، وهي أن دريدا خرج في فوارس من قومه بني جُشَم بن بكر حتى إذا كانوا بوادٍ لبني كنانة رُفع لهم رجل في ناحية الوادي معه ظعينة . فلما رآه دريد قال لفارس من أصحابه : دونَكَه فَصِحْ به : خلِّ الظعينة وانج بنفسك ! فَلَحِقه الفارسُ فصاح به وألحَّ عليه، فلما أبى أن ينكفَّ عنه

ألقى زمام الراحلة وقال للظعينة :

سِيري عَلى رِسْلِكِ سَيْرَ الآمِنِ   سَيْرَ رَدَاحٍ ذَاتِ جَأشٍ سَاكِنِ
إنَّ انْثِنائِي دُونَ قِرْنِي شائني   أبْلى بلائي واخْبري وعَايِنِي

ثم حمل على الفارس فطعنه طعنة جعلته كأمْسِ الدَّابِرِ، وأخذ فرسه وأعطاه الظعينة . فبعث دريدٌ فارسا آخر لينظر ما فعل صاحبه، فلما انتهى إليه فرآه صريعا صاح على الرجل فتصامم عنه فظن أن لم يسمع فغشيه . فألقى الرجلُ زمام الراحلة الى الظعينة ورجع إليه وهو يقول :

خَلِّ سَبيلَ الحُرَّةِ المَنِيعَهْ   إنَّكَ لاَقٍ دُونَهَا رَبِيعَهْ
فِي كَفِّهِ خطية مُطِيعَهْ   أوْلاَ فَخُذْهَا طَعْنَةً سَرِيعَهْ
والطَّعْنُ مِنِّي في الوَغَى شَرِيعَهْ

ثم حمل عليه فصرعه . فلما أبطأ الأمر على دريد بعث فارسا ثالثا لينظر ما صنعا، فلما انتهى إليهما رآهما صريعَيْن، ونظر إليه يقود ظعينته ويجرّ رُمْحَه فقال له : خلّ سبيل الظعينة ! فقال الرجل للظعينة : اقصدي قصد البيوت ! ثم أقبل على الفارس فقال :

مَاذَا تُرِيدُ مِنْ شَتِيمٍ عابِسْ،   ألَمْ تَرَ الفارِسَ بَعْدَ الفارِسْ
أرْدَاهُمَا عَامِلُ رُمْحٍ يَابِسْ

ثم حمل عليه فصرعه وانكسر رمحه . ثم إن دريداً ارتاب وظن أن الفوارس قتلوا الرجل وذهبوا بالظعينة، فجاء حتى لحق بالرجل وقد دنا من الحي، ووجد أصحابه صرعى فقال له : أيها الرجل، إن مثلك لا يُقتل، ولا أرى معك رمحا، والخيل ثائرة بأصحابها . فخذ رمحي هذا، فإني منصرفٌ الى أصحابي فَمُثَبِّطُهم عنك . فرجع دريدٌ الى أصحابه وقال لهم : إن صاحب الظعينة قد حماها وقد قتل أصحابكم وانتزع رمحي ولا مطمع لكم فيه، فانصرفوا، فقال دريد بنُ الصمَّة :

ما إنْ رَأيْتُ ولا سَمِعتُ بِمِثْلِهِ   حامِي الظَّعِينَةِ فَارِسًا لمْ يُقتَلِ
أرْدَى فَوارِسَ لَمْ يَكُونُوا نُهْزَةً   ثُمَّ اسْتَمَرَّ كَأنَّهُ لِم يَفْعَلِ
مُتَهَلِّلاً تَبدو أسِرَّةُ وجهِهِ   مِثْلَ الحُسامِ جَلَتْهُ كَفُّ الصَّيْقلِ

يُزْجي ظَعِينَتَهُ ويَسحبُ ذيْلَهُ — مُتَوجِّهًا يُمْنَاهُ نحوَ المَنْزِلِ
وتَرَى الفَوارِسَ منْ مَخَافَةِ رمحِهِ — مِثلَ البُغاثِ خَشِينَ وقعَ الأجدَلِ
يَا لَيتَ شِعرِي مَن أبوهُ وأمُّهُ — ياصاحِ مَن يَكُ مِثْلُهُ لا يُجْهَلِ

وقال صاحب الظعينة في ذلك، وهو ربيعةُ بنُ مُكَدَّمٍ، أحد بني فراس بن كنانة :

إن كانَ يَنْفَعُك اليَقينُ فَسائِلِي — عَنِّي الظَّعِينَةَ يوم وادي الأخْرَم
إذ هي لأول من أتاها نهبة — لولاَ طِعَانُ ربِيعَةَ بْنِ مُكَدَّمِ
إذْ قَالَ لِي أدْنَى الفَوارِسِ ميتَةً — خَلِّ الظَّعينَةَ طائِعًا لا تَنْدَمِ
فصرفْتُ راحِلَةَ الظَّعينَةِ نَحْوَهُ — عَمدًا لِيَعْلَمَ بَعْضَ ما لمْ يَعلَمِ
وهَتَكْتُ بِالرُّمحِ الطَّويلِ إهَابَهُ — فَهَوى صَرِيعًا لِلْيَدينْ ولِلْفَمِ
ومَنَحْتُ آخَر بَعْدهُ جَيَّاشَةً — نَجْلاَءَ فَارِغَةً كَشِدقِ الأضْجَمِ
ولَقَد شَفَعْتُهُمَا بِآخرِ ثَالِثًا — وأبى الفِرارَ لي الغَداةَ تَكَرُّمِي

ثم لم تلبث كِنانة أن أغارت على بني جُشَم، فقتلوا وأسروا دريد بن الصمَّة، فأخفى نفسه. فبينما هو عندهم محبوس إذ جاءته نسوة يتهادين نحوه، فصاحت احداهن وقالت : هَلَكْتُم وأهْلَكْتُم . ماذا جرَّ علينا قومُنا ؟ هذا والله الذي أعطى ربيعةَ رمحَه يوم الظعينة ! فألقت عليه رداءها وقالت : يال فِراس ! أنا له جارة . فسألوه من هو فقال : أنا دريدُ بنُ الصِّمَّة، فمن صاحبي ؟ قالوا : ربيعةُ بنُ مُكَدَّم . قال : فما فَعَلَ ؟ قالوا : قتلته سليم، قال : فما فَعَلَتِ الظعينة ؟ قالت المرأة أنا هي، وأنا امرأته . فحبسه القوم ووامروا أنفسهم . فقال بعضهم : لا ينبغي أن تُكْفَرَ نعمةُ دريدٍ على صاحبنا . وقال آخرون : والله لا يخرج من أيدينا إلا برضى المُخَارِقِ الذي أسَره . فلما أمست المرأة، وهي رَيْطَةَ بنت جذل الطعان، رفعت عقيرتها وقالت :

سَنَجزِي دُرَيدا عَن رَبِيعةَ نِعمة — وكُلُّ امرىءٍ يُجْزَى بِمَا كَان قَدَّما
فَإن كَان خَيْراً كانَ خَيرا جَزاؤُهُ — وإن كانَ شَرًّا كان شَرًّا مُذمَّما
سَنَجزيهِ نُعمى لم تَكن بصغيرة — بإعطائِهِ الرُّمحَ الطَّويلَ المُقوَّما
فَقَد أدركَتْ كَفَّاهُ فينَا جَزاءَهُ — وأهلٌ بأن يُجْزَى الذي كانَ أنعَمَا
فَلاَ تُكْفِرُوهُ حَقَّ نُعماهُ فيكُمُ — ولا تَركَبوا تِلكَ التّي تَملأُ الفَما

فَلَـو كان حَـيًّا لم يَـضِـق بِـثَـوابِـهِ ذِراعًا غَـنِـيًّا كان أو كان مُـعْـدِمًا

فَـفُـكُّـوا دُرَيْـدًا من إسار مُـخارقٍ ولا تَـجْـعَـلوا البُـؤْسَـى الى الشَّر سلما

فلما أصبحوا أطلقوه، فكَـسَـتْـهُ وجهَّزته ولحق بقومه . ولم يزل كافًّا عن غَـزو بني فراسٍ حتى هلك . قلت : وفي بني فراس هؤلاء يقول علي كرم الله وجهه مخاطبا لأهل العراق إذ تخاذلوا عنه : ياليت لي من بني فراس واحدا بعشرة منكم صرف الدينار بالدرهم ! .

ولربيعة المذكور قصةٌ أخرى في حماية الظُّعُـنِ تأتي في هذا الكتاب إن شاء الله تعالى.

إنَّ البَـكْـرِيَّ لَـيَـحَـسُّ السَّـعْـدِيَّ.

البَـكْـرِيُّ منسوب الى بَـكْـر، وفي العرب بَـكْـرُ بنُ وائِـل، وبَـنُـو بَـكْـر بنِ عَـبْـد مَـنَـاة، والنسبة إليهما بكريّ، وكذا النسبة الى أبي بكر . وفي العرب أيضا بنو أبي بكر بن كلاب، والنسبة إليهم بَـكْـراوِيّ . والسَّـعْـديُّ منسوب الى سَـعْـد، وفي العرب سعود كثيرة : سَـعْـدُ تَـمِـيم، وسعدُ هُـذَيْـم، وسَـعْـدُ قَـيْـس، وسَـعْـدُ بكر، كما قال طرفة :

رأيتُ سُـعودًا من شُـعوبٍ كَـثِـيرةٍ فَـلَـم تَـرعَـيْـنِـي مثلَ سَـعد بن مالِـك

أبَـرَّ وأوفَـى ذِمَّـةً يَـعْـقِـدونَـها وخيرا إذا سَاوى الذُّرى بالحَـوارِكِ

يريد سعدَ بنَ مَـالِـكِ بن ضُـبَـيْـعَـةَ . والحِـسّ : الرِّقَّـة ؛ تقول : حَـسَـسْـتُ لفلان، بفتح السين وكسرها، حَـسًّا وحِـسًّا، إذا رقَـقْـتَ له . قال القُـطَـامِـي :

أخوكَ الذِّي لا تَـملكُ الحِـسَّ نَـفسهُ وتَـرفَـضُّ عندَ المُـحفِـظاتِ الكتائِـف

والكَـتائِـفُ : الاحْـقَـاد . قال الكميت :

هَـلْ مَـن بَـكَـى الدَّارَ رَاجٍ أن تَـحِـسَّ لَـهُ

أوْ يُـبْـكِـيَ الدَّارَ مَـاءُ العَـبْـرَةِ الخَـضِـلُ ؟

وفي الصحاح : قال أبُـوا الجَـرَّاح العُـقَـيْـلِـي : ما رأيت عُـقَـيْـلِـيًّا إلا حَـسَـسْـتُ له، أي رقَـقْـت .

إنَّ تَـحْـتَ طِـرِّيقَـتِـهِ لَـعِـنْـداوَةً.

الطِّـرِّيقَـةُ، بالتشديد على مثال سكين : الرّخاوة واللين ؛ ورجُـلٌ مَـطْـروقٌ : فيه رخاوة .

قال ابن أحمر :

ولا تَحْلَيْ بِمَطْروقٍ إذا ما سرى في القَومِ أصْبَحَ مُسْتَكينا

والعِنْداوَةُ : الصُّعوبَةُ، من العنود، وهو رد الحق و الحَيْدودَةُ عن الطريق، وبعير عاندٌ : يحيدُ عن الطريق .

والمعنى أن سكونه ورخاوَتَه قد يكون معه أحيانًا عُسرٌ وشراسَة.

إنَّ الجَوَادَ عَيْنُهُ فُرَارُهُ.

الجواد : العتيق من الخيل الكثير الجري، سُمِّي به لأنه يَجُودُ بِنَفْسِهِ . والعَيْنُ تُطْلَقُ على الباصرة، وعلى شخص الشيء وهو المراد هنا ؛ والفُرَارُ : أن تفتح فَا الدَّابَّةِ لِتَعْلَمَ سِنَّهَا . يقال : فرَّها فرًّا وفِراراً، مُثلَّث الفاء، إذا فَتَحَ فاها لذلك . ومن قول الحجاج : ولَقَدْ فُرِرْتُ عَنْ ذَكَاء، وفُتِّشْتُ عَنْ تَجْرِبَة، أي فُرِرْتُ فوُجِدْتُ تامَّ السنّ . فإن الذَّكَاءُ يُطْلَقُ على السِّنّ، وهو أحد ما يفسَّر به قولُ زهير :

يُفَضِّلُهُ إذا اجْتَهَدَا عَلَيْها[35] تَمَامُ السِّنِّ مِنْهُ والذَّكَاءُ

ومنه المثل الآتي : جَرْيِ المُذَكّيَاتِ غِلاَبٌ . والى هذا المعنى أشار أبو بكر بنُ دُرَيْدٍ رحمه الله بقوله :

وفَرَّ عَنْ تَجْرِبَةٍ نابِي فَقُلْ في بازِلٍ راضَ الخُطوبَ فَامْتَطى

وكتب الحَسَنُ بنُ سَهْلٍ الى القاضي محمد بن سَمَاعَة : أمَّا بَعْد، فَأنِّي احْتَجْتُ لِبَعْضِ أمُورِي الى رجُلٍ جَامِعٍ لِخِصَالِ الخَيْرِ، ذِي عِفَّةٍ ونَزَاهَةِ طُعْمَةٍ، قَدْ هَذَّبَتْهُ الآدَابُ وأحْكَمَتهُ التَّجارِبُ، لَيْسَ بِظَنِيتٍ في رأيِهِ ولا بِمَطْعُونٍ في حَسَبِهِ ؛ إن أؤْتُمِنَ على الأسْرارِ قام بها، وإن قُلِّدَ مُهِمًّا من الأمور أجْزأ فيه ؛ لَهُ سِنٌّ[36] مع أدبَ ولِسان، تُقْعِدُهُ الرَّزَانَةُ ويُسَكِّنُهُ الحِلْم، قَدْ فُرَّ عَنْ ذَكَاءٍ وفِطْنَة، وعَضَّ على قَارِحَةٍ من الكَمَال، تَكْفِيهِ اللَّحْظَةُ، وتُرْشِدُهُ السَّكْتَة ؛ قد أبْصَرَ خِدمَةَ المُلوكِ وأحْكَمَها، وقام بأمورهم فَحُمِد فيها ؛ لَهُ أنَاةُ الوُزَرَاء، وصَوْلَةُ الأمراء، وتَواضُعُ العلماء، وفَهْمُ الفُقَهاء، وجوابُ الحُكماء، لاَ يَبِيعُ نَصِيبَ يَوْمِهِ بِحِرْمَانِ غَدِهِ، يكادُ يَسْتَرِقُ قلوبَ الرجالِ بحلاوةِ لسانه، وحُسْنِ بيانِهِ . دلائِلُ الفضلِ عليه لائحة، وأمَارَاتُ العِلم لَهُ شاهِدَة ؛ مُضْطَلِعًا بما اسْتُنْهِضَ، مُسْتَقِلاً بِمَا حُمِّلَ.

35) في لسان العرب : يُفَضِّلُهُ إذا اجْتَهَدُوا عَلَيْهِ
36) في أ : ليس له سن...، وهو تحريف.

وقد آثَـرْتُـك بِطَلَـبِـه، وحَبَـوْتُـك بارْتِـيَـادِه، ثِقةً بِـفَـضْـلِ اخْـتِـيارِك، ومعرفةً بِـحُـسْـنِ تَـأتـِّيك . فكتب إليه القاضي : إنـّي عازمٌ أن أرغَبَ الى الله عزَّ وجلَّ حَـوْلاً كاملا في ارتياد مثلِ هذه الصفة وأُفرِس الرُسُـلَ الثـّقات في الآفاق لالتماسه . وأرجو أن يَـمُـنَّ اللهُ بالاجابة فأفوزَ لديْـك بقضاء حاجتك، والسلام . ويصحّ أن يراد بالذكاء أيضا في كل ما مرَّ معناه الذي هو الفطنة وحدّة الفؤاد . وعلى كل حال فذلك مَـثَـلٌ للكشف والاختبار، وأصله في الدوابّ.

ومعنى المثل المذكور أن الجواد إذا نَـظَـرَ إليه العارفُ المعرب عرفه من غير احتياج إلى فَـرّهِ واختباره، وكان نظره الى عينه، أي شخصه، فُـراراً له، أي قائمًا مقام الفُـرَار، فيقال : فلانٌ عينُـه فرارُه لهذا المعنى .

ويُـضْـرَبُ لكل من يَـدُلُّ ظاهرُه على باطنه لكل معانيه . قال الشاعر :

تَـعْـرَفُ من عَـيْـنِـهِ نَـجَابَـتُـهُ ... كَـأنَّـهُ بِـالذّكَـاءِ مُـكْـتَـحِـلُ

وقال الراجز في صفة الذئب :

أطْـلَـسُ يُـخْـفِـي شَـخْـصَـهُ غُـبَـارُهُ ... في فَـمِـهِ شَـفْـرَتُـهُ ونَـارُهُ

هُـوَ الخَـبِـيثُ عَـيْـنُـهُ فُـرَارُهُ

إنَّ الحَـذَرَ لاَ يُـغْـنِـي مِـنَ القَـدَرِ.

الحَـذَرَ : التحرُّزُ من الشيء، وهو ظاهر . والقَـدَرَ : ما كتبه الله تعالى وقدّره من الكائنات . ومعلوم أن ما قضى الله بوقوعه فلا دافع له، وهذا من الأمثال الحكميَّة . قال هَانِـيءُ بْـنُ قَـبِـيصَـةَ الشَّـيْـبَـانيّ لقومه يحرّضهم يومَ ذي قَـار وهو يوم مشهور من أيامهم : يا معشر بكر ! هالكٌ معذور، خيرٌ من ناجٍ فَـرور . إنَّ الحَـذَرَ، لا يُـغني من القَـدَرِ، وإنَّ الصَّـبْـرَ مِـنْ أسْـبَـاب الظّفَـرَ . المَـنِـيَّة، ولا الدَّنِـيَّة . اسْـتِـقْـبَـالُ المَـوْتِ خيرٌ من اسْـتِـدْباره . الطّعْـنُ في ثُـغَـرِ النُّحُـور، أكْـرَمُ منه في الأعْـجَـازِ والظُّهُـور . يالَـبكر ! قاتِـلوا، فلما لِـلْـمَـنَـايا مِـن بُـدّ ! ويُـحكَـى أنّ أمير المؤمنِـين عليـًّا كرّم الله وجهه كان إذا حمِـي وطِـيسُ الحرب أنشد :

أيَّ يَـومَـيَّ من المَـوتِ أفِـرْ ... يَـومَ لا يُـقْـدرُ أمْ يَـومَ قُـدِرْ

يومَ لاَ يُـقْـدَرُ لاَ أرْهَـبُـهُ ... ومِـنْ المَـقْـدُور لايَـنْـجُـو الحَـذِرْ

ثم يَحْمِلُ ويَغْشَى لَظَاهَا.

إن دُون الظُّلْمَةِ خَرْطَ قَتَادٍ هو بر (كذا)[37] - بياض بالاصل -

إنَّ الرَّثِيئَةَ تَفْثَأُ الغَضَبَ.

الرَّثِيئَةُ : لَبَنٌ مَخْلُوطٌ . يقال : ارْتَثَأَ اللبنُ بالثاء المثلثة والهمز إذا خَثَر ؛ ورثأتُ اللبنَ إذا حَلَبْتَه على حامِضٍ فَخَثَر ؛ والاسم : الرَّثيئة .والفَثْءُ : التَّسْكِين ؛ يقال : فَثَأْتُ القِدْرَ بالثاء المثلثة إذا أسْكَنْتَ غَلَيَانَها : قال :

تَفورُ عَلَيْنا قِدرُهم فَنُدِيمُها ونَفثَؤُها عَنَّا إذا حَمْؤُها غَلاَ[38]

وقال الحماسي :

فَنَفلُّ شَوكَتَها ونَفْثَأُ حَمْيها حَتَّى يَبوخَ وحَمْيُنا لمْ يَبْرُدِ

وتقول : فَثَأْتُ الرَّجُلَ إذا كَسَرْتَه عنك بقولٍ أو غيره وسكَّنْتَ غَضَبَه . وفَثَأْتُ الخبز، ويقال أيضا بالتاء المُثَنَّاةِ، وهي فعل تامٌ في هذا المعنى غير مخصوص بالنفي، كما أثبته ابن مالك وغيره . والغَضَب معروف، وهو حركة للنفس، مبدأها إرادة الانتقام . غضِب : بالكسر، يغضَب، فهو غَضْبَان . والمعنى أنَّ شُرْبَ الرَّثِيئَةِ كاسِرٌ للغضب مُسَكِّنٌ له نافع .

يُضْرَبُ في اصطناع المعروف مطلقًا وفِعْلِ اليسيرِ من البِرِّ فإنه نافع.

وأصله أن رجلا كان غَضِبَ على قوم، وكان مع غَضَبه جائعًا، فَسَقَوْهُ رَثِيئَةً، فسَكَنَ غضبُه وكفَّ عنهم . وفي الرَّثِيئَةِ يُحكَى أن عمرو بن مَعْد يكَرِب قال لعمر بن الخطاب رضي الله عنه : يا أمير المؤمنين، أ افرام بنو مخزوم ؟ قال . وما ذاك ؟ قال : تَضَيَّفْتُ حالدَ بنَ الوليد فَأَتَى بقَوْسٍ وكَعْبٍ وثَوْرٍ . قال : إن في ذلك لَشُبْعَة . قال : لِي أوْلَك ؟ قال : لي ولك . فقال عمرو : حِلاً يَاأمِيرَ المُؤمِنين فِيمَا تَقُول . إني لَآكل الجَذَعَ من الابل أنْتَقِيهِ عَظْمًا عَظْمًا، وأشْرَبُ التِّبْنَ من اللَّبَنِ رَثِيئَةً وصَرِيفًا . أراد بالقَوْس البقيَّةَ من التَّمْر تبقى،

37) المثل المشهور هو : دُونَ ذَلِكَ خَرْطُ القَتَاد . ولعل المؤلف كان يريد أن يربط هذا المثل بالبيت الذي أورده لسان العرب :

إنَّ دُونَ الذي هَمَمْتَ بِهِ مِثْلَ خَرطِ القَتَادِ فِي الظُّلْمَة

38) هذا البيت ينسب الى الجعدي والى الكميت . وورد آخره في **لسان العرب** هكذا : إذَا حَمْيُهَا غَلاَ.

وبالكَعْبِ القطعةَ من السَّمْن، وبالثَّوْرِ القِطْعَةَ من الأقِطِ، وبالتِّبْنِ القَدَحَ العَظِيمَ، وبالرَّثِيئَةَ ما صُبَّ كما مرَّ، وبالصَّرِيفِ ما انْصُرِفَ به عن الضَّرْعِ حَارّاً . وقولُه حِلاّ هي كلمة تقولُها العرب في الأمر تكرهه بمعنى : كَلاّ . ومنه قول الأحْنَفِ بْنِ قَيْسٍ حين دخل على المُصْعَبِ بنِ الزُّبَيْرِ يُكلِّمه في رجل وجَدَ عليه، فقال مُصْعَبٌ : بَلَّغَنِي عنه الثّقة، فقال الأحنف : حِلاّ أيُّها الأمير، إن الثّقة لا يُبَلِّغُ ! ويروى هذا المثل : إنَّ الرَّثِيئَةَ مِمَّا يَفْتَأُ الغَضَبَ، على أنه موزون كشطر بيت من البسيط . وقد جعل الشَّنْتَمَرِيُّ في شرح الحَمَاسة هذا المثلَ حديثًا، وهو غريب والله أعلم .

إنَّ الرِّقِينَ تُغَطِّي أفْنَ الأفِينِ[39]

الرِّقُون : جَمْعُ رِقَةٍ، وهي الفِضَّة ؛ يقال : وُرْق، مسكَّن الراء، مثلَّث الواو ؛ ووَرِق، بفتح فكسر، وبفتحتَيْن، وجمع الكلّ أوْرَاق . ويقال : رِقَة، بحذف الفاء، كعِدَة . ومنه الحديث : في الرِّقَةِ رُبُعُ العُشُرِ . وجمع الرِّقَة : رِقُون، وهو شاذٌ، لأن هذا الجمعَ إنما يَشِيعُ وراءَ بَابِهِ في المحذوف اللاّم، كسِنِينَ وعِضِينَ وعِزِين . أمَّا المحذوف الفاء كعِدَة وجِدَة ودِيَة فلا، غير أنه ورد فيه ألفاظٌ على وجه النُّدُور، كرِقِينَ في جمع الرِّقَة، على ما مرَّ ؛ وإزِينَ، في جمع الإزَة، وهي حفرةٌ تحفر ويُسْتَوْقَدُ فيها ؛ ولِدِينَ، في جمع اللِّدَة، وهو مَساويكُ في السّنّ ؛ وحِشِينَ، في جمع الحِشَة، وهي الأرضُ الموحشة . والتَّغْطِيَةُ : السِّتْرُ . والأفْنُ : ضَعْفُ الرأي ؛ يقال : أفِنَ الرَّجُلُ، بالكسر، أفَنًا محرَّكا ومسكَّنا . قال قيسُ بنُ عاصم المِنْقَرِي [رحمه الله تعالى] :[40]

إنِّي امْرُؤٌ لا يَعْتَرِي حَسَبِي ... دَنَسٌ يُفَنِّدُهُ ولاَ أفْنُ
مِن مِنْقَرٍ في بَيْتِ مَكْرُمَة ... والفَرْعُ يَنْبُتُ حَوْلَه الغُصْنُ

وقد أفَنَهُ اللّهُ يَأْفِنُه، فهو مَأْفُون وأفِين . وقال الشاعر :

---

39) ورد هذا المثل في **لسان العرب** هكذا : إنّ الرِّقِين تُعَفِّي عَلَى أفْنِ الأفِين . وقال ثعلب : وجْدَانُ الرِّقِين يُغَطِّي أفْنَ الأفِين .

40) سقطت من أ .ومعلوم أن هذا الشاعر صحابي .

وقد تزْدَرِي العَينُ الفَتى وهْوَ عاقلٌ ويُؤْفنُ بَعْضُ القَوْمِ وهوَ جَرِيمُ

ومعنى المثل أنَّ وجْدَانَ المالِ يُحَلّي المرءَ بِحلْيَة الكمال، ويستُر ما فيه من ذميم الخصال، ويُحبّبُه الى قلوب الرجال، حتى يَرَوْهُ بعين التوقير والاجلال، وإن كان من أحْمَقِ الحَمْقَى وأجهل الجُهَّال، كما قال حسَّان بنُ ثابت رضي الله عنه وأحْسَنَ :

رُبَّ حِلْمٍ أضاعَهُ عَدَمُ المالِ وجَهْلٍ غَطَّى عَلَيْهِ النَّعِيمُ

وقال الآخر :

والناسُ اعيُنُهمْ الى سلَفِ الفَتى لا يَسْألُونَ عَنِ الحِجَى والأولَقِ

وقال أعرابيٌّ مرَّ بأهله :

سَأَعْمِلُ نَصَّ العِيسِ حَتَّى يَكُفَّنِي
غِنَى المَالِ يَوْمًا أوْ غِنَى الحَدَثَانِ
فَلَلْمَوتُ خَيرٌ مِنْ حَياةٍ يُرَى بِهَا
عَلَى المَرْءِ ذي العَلْيَاءِ مَسُّ هَوَانِ
مَتَى يَتَكَلَّمْ يُلْغَ حُكْمُ مَقالِهِ[41]
وإنْ لمْ يَقُلْ قَالُوا عَدِيمُ بَيانِ
كأنَّ الغِنَى في أهْلِهِ بُورِكَ الغِنَى[42]
بِغَيْرِ لِسَانٍ ناطِقٌ بِلِسَانِ

وقال أبو الطيب :

فَلاَ مَجْدَ في الدُّنْيَا لِمَنْ قَلَّ مَالُهُ
ولاَ مَالَ في الدُّنْيَا لِمَنْ قَلَّ مَجْدُهُ

ويقالِ : المَرْءُ بِنَشَبِهِ وسيأتي في أثناء الكتاب جملةٌ نافعة من هذا المعنى ومن ثناء الشعراء على الثروة والغنى .

إنَّ السَّقْطَ يُحْرِقُ الحَرَجَةَ .

السَّقْطُ ما يَسْقُطُ بَيْنَ الزَّنْدَيْنِ قَبْلَ اسْتِحْكَامِ الوَرْيِ، وتُثَلَّثُ سينه والاحراق والتَّحريق معروف . والحَرَجَةُ بفتحتَيْن : الشَّجرُ الكثير المُلْتَفُّ، جمعه حَرَج وحِرَاج وأحْراج . قال العَجَّاج :

41) في زهر الآداب : حُكْمُ كَلاَمِهِ

42) رواية زهر الآداب : كَأنَّ الفَتَى في أهْلِهِ بُورِكَ الفَتَى.

عَايَــنَ حَيَّــا كَالحِــرَاجِ نَعَــمُهُ
يَكُــونُ أقْصَى شَلِّهِ مُحْرَنْجِمُهُ

وهذا المثل وقع في حكاية للأصمعي قال : بينما [أنا] بحمى ضَرِيَّةَ إذْ وقَفَ عَلَيَّ غلامٌ من بني أسد في أطمار ما ظننته يجمع بين كلمتين . فقلت : ما اسمك ؟ قال : حُرَيْقِيص . فقلت : أما كفى أهْلَكَ أن يُسَمُّوك حُرْقُوصًا حتى صَغَّرُوا اسمك ؟ فقال : إن السَّقْطَ يُحْرِقُ الحَرَجَةَ . فعجبت من جوابه فقلت : أتُنْشِدُنا شيئًا من أشعار قومك ؟ قال : نعم، أنْشِدُكَ لِمَرَّارِنَا

قلت : افعل . قال :

سَكَنُوا شُبَيْثًا والاحَصَّ وأصْبَحُوا
نَزَلَتْ مَنَازِلَهُم بَنُو ذُبْيَانِ
وإذا يُقَالُ أتيتُمُ لَمْ يَبْرَحُوا
حَتَّى تُقِيمَ الخَيْلُ سُوقَ طِعَانِ
وإذا فُلاَنٌ ماتَ عَنْ أكْرُومَةٍ
رَقَعُوا مَعَاوزَ فَقْدِهِ بِفُلاَنِ

قال . فكادت الأرض تَسُوخ بي لحسن إنشادِه وجَوْدَةِ الشعر . فأنْشدتُ الرشيد هذه الأبيات فقال : يا أصْمَعِيُّ، وَدِدْتُ لو رأيتُ هذا الغلامَ فكنت أبلِغُه أعلى المراتب !

ومعنى المثل أن الأمر الصغير قد يصير الى أعظم، والرجل المُسْتَحْقَر قد يُغْنِي غَنَاء المُسْتَعْظَم، بل الواحد قد يقومُ مَقَامَ الجَمّ . ومن هذا قول القائل :

لاَ تَحْقِرَنَّ صَغِيراً في تَقَلُّبِهِ
إنَّ البَعُوضَةَ تُدْمِي مُقْلَةَ الأسَدِ
ولِلشَّرَارَةِ نَارٌ حِينَ تُضْرِمُهَا
ورُبَّما أضْرَمَتْ نَاراً عَلَى بَلَدِ

وقول الآخر :

أرَى خَلَلَ الرَّمَادِ ومِيضَ نَارٍ
ويُوشِكُ أنْ يَكُونَ لَهَا ضِرَامُ

فَإِنَّ النَّارَ بِالزَّنْدَيْنِ تُورَى   وإِنَّ الحَرْبَ أَوَّلُهَا الكَلَامُ

وقول المسكين : ولَقَدْ رَأَيْتُ الشَّرَّ بَيْنَ الحَيِّ يَبْدَؤُهُ صِغارُه.

وقول أبي العلاء :

وقَدْ يَنْمى كبيرٌ مِن صَغِيرٍ   ويَنْبُتُ مِن نَوَى القَسْبِ الثُّلبانُ

وقد بيَّن هذا المعنى من قديم عَدِيُّ بنُ زَيْد حيث يقول :

شَطَّ وصْلُ الذي تُريدينَ مِنِّي   وصَغِيرُ الأمُورِ يُجْنِي الكَبِيرَا

وبعد هذا البيت :

إن لِلدَّهْرِ غِرَّةً فاحْذَرَنْها   لا تَبِيتَنَّ قَدْ أَمِنْتَ الدُّهورَا

قَد يَنامُ الفَتى صَحِيحًا فيردَى   ولَقَدْ باتَ آمِنًا مَسْرُورَا

أيُّهَا المُبْتَغِي سَبِيلَ غِنَاهُ   الزَمِ البِرَّ في الفُؤَادِ ضَمِيرَا

لا أرَى المَوْتَ يَسبِقُ المَوتَ شَيء   نَغَّصَ المَوتُ ذَا الغِنَى والفقِيرَا

ووقع في شعر مَرَّارٍ السابقِ شُبَيْثٌ والاحَصُّ وهما موضعان، والمَعَاوِزُ وهي الخُلْقَانُ، يريد أنَّهم كلَّما مات منهم كريمٌ خَلَفَهُ كريم يَسُدُّ مَسَدَّه . ومثلُه قول الحماسيِّ السَّمَوْءَلِ بْنِ عَادِيا :

إذا سَيِّدٌ مِنَّا خَلاَ قَامَ سَيِّدٌ   قَؤُولٌ لَما قالَ الكِرامُ فَعُولُ

وقول الحماسيِّ الآخر :

ولَيْسَ يَهْلِكُ مِنَّا سَيِّدٌ أبَداً   إلاَّ اجْتَلَيْنا غُلامًا سَيِّداً فِينا

وقول أبي الطَّمَحَان :

إذا ماتَ مِنَّا سَيِّدٌ قامَ صاحِبُه

ونحوه كثير في أشعارهم . والمقصود من ذلك كله أنَّ السؤدد في القوم شائع، والكرم كثير ذائع، فكلمَّا فُقِدَ من السادات مفقود، فغيرُه موجود .

إنَّ الشَّفِيقَ بِسُوءِ الظَّنِّ مُولَعٌ .

الشَّفَقُ بفتحتَيْن : الخوفُ وحرصُ النَّاصح على صلاح المَنْصُوح . يقال : أشفقت عليه شَفَقًا وإشفاقا، فأنا شَفِيق ومُشْفِق . قال خَلَفُ بن خليفة :[43]

43) نسبه في لسان العرب الى إسحاق بن خلف، وقيل هو لابن المُعَلَّى (مادة شفق).

تَهوى حَياتِي وأهوَى مَوتَها شَفقا والمَوْتُ أكرَمُ نَزّالٍ علَى الحُرَمِ

ولا يقال : شَفَقْت عليه . وجوّزه بعض اللغويّين . والظّنُّ الراجحُ من طَرَفَي التَرَدُّدِ في الشيء . وقد يطلق على الاعتقاد مطلقا . والمُولَع بالشيء : المُغْرَى به ؛ يقال : ولِع به بالكسر، ولَعًا بفتحتَيْن، ووَلُوعًا مفتوح الأول ؛ وأوْلَعْتُه أنا وأُولِع به، فهو مُولَع . ومعنى المثل أنّ كلّ من تُشْفِقُ عليه فأنت تَتَخوّفُ عليه الأحداث، حتى إن كلّ شيء ذُكر أو سُمع أو رُئي تَخْشَى أن يكون قد وقع به، كما قال الحماسي دُرَيْد بن الصِّمَّة :

تَنادَوْا فَقالوا ارْدَتِ الخَيلُ فارسًا فَقُلْتُ أعبْدُ اللّه ذَلِكُمُ الردِي

وعبد الله هو ابنُ الصمَّة أخُو دريد . فكان دريد لما سمع قولَ الفوارس قد صُرِع فارس ظنَّه دريدٌ أخاه من شفقته عليه . وقد قيل إنه ظنه أخاه لما علم من إقدامه وجرأته . وسوء الظّنّ عند الشّفَقِ أمرٌ معروف مشاهد في الناس، لا سيما الضعفاء كالنساء، حتى إنه متى ذُكر هلاك في جيش غائب أو مسافرين، كان كل من له هنالك من يُشفق عليه يتصوَّر ذلك الهلاك فيه شفقة، وهو أول ما يسبق الى وهمه .

وممَّا يشبه هذا ما وقع لإياس بن معاوية رحمه الله : نظر الى نسوة ثلاث، وقد فَزِعْنَ من شيء، فقال : هذه بِكْرٌ، وهذه ظِئْرٌ، وهذه حُبْلَى . فسُئلن عن ذلك فوُجِدَ الأمر كما قال . فقيل له : بِمَ عرفت ذلك ؟ قال : إنهنّ لما فزعن وضعت كلُّ واحدةٍ يدها على أهمّ المواضع عندها . فوضعت البكر على فرجها، والظئر على ثدييها، والحُبْلَى على بطنها . فانظر في هذه القصّة كيف جعلت كل واحدة تظنّ الشرَّ نازلاً بالمحلّ الذي لها مزيد إشفاق عليه !

إنّ الشَّقْرَاءَ لَمْ يَعْدُ شَرُّهَا رِجْلَيْهَا .

الشَّقْرَاءُ : فرسٌ جَمَحَتْ بصاحبها فأتت على وادٍ وهمَّت أن تَثِبَه، فقصرت ووقعت، فانْدَقَّت عنقُها وسَلِمَ صَاحِبُها . فسُئل عنها فقال : إنّ الشَّقْرَاءَ لَمْ يَعْدُ شرُّهَا رِجْلَيْهَا، أي لم يتجاوزها الى غيرها . ويقال فرس رمحت ابنَها فقتلته .

والمعنى أن الشرّ لم يتجاوز ما كان برجلها، فيضرب في نحو هذا من الشيء النازل

ولم يتعدّ . وكان عُتْبَةُ بنُ جعفر بنِ كلاب أجار رجلا من بني أسَد فقتله رجلٌ من بني كلاب، فقال بِشْرُ بنُ أبي حازم الأسَدِيّ يهجو عُتْبَة :

فأصبحتَ كالشّقراءِ لم يَعْدُ شرُّها
سَنَابِكَ رِجْلَيْهَا وعِرْضُكَ أوفَرُ

وفي الشّقْرَاءِ كلام آخر يأتي إن شاء الله تعالى .

إنّ الشّقِيّ وافِدُ البَراجِمِ .

الشّقَاءُ : العُسْرُ والشّدّةُ، يُمَدُّ ويُقْصَر . يقال : شَقِيَ الرجلُ بالكسر، يَشْقَى، شَقَاوَةً بفتح الشين وكسرها، وشَقًا، وشَقاءً، وشَقْوَةً بالفتح والكسر أيضا، فهو شَقِيٌّ . والوافِدُ : القادم ؛ يقال وفَدَ عَلَيّ يَفِدُ، أي قَدِمَ، فهو وافِدٌ، وهم وفْدٌ، وأوْفَادٌ، ووُفُود . ومن الأول قوله تعالى : **يَوْمَ نَحْشُرُ المُتّقِينَ الى الرّحْمَانِ وفْداً** . والمفسرون يقولون : وفْداً، أي رُكْباناً، لأن الوُفُود سَرَاةُ النّاس . والبَراجِم : قومٌ من أولاد حَنْظَلَةَ بنِ مَالِك بنِ عَمرو بنِ تَمِيم .

المَثَلُ لعمرو بن هِنْدٍ، وهو عَمْرو بنُ المُنْذِرِ بنِ امْرِىءِ القيس بن عمرو بن عَدِيٍّ اللّخْمِيّ بنِ أختِ جَذِيمَةِ الأبْرَشِ، ملكِ الحِيرَةِ . وكان سبب ذلك أن أخاه أسْعَدَ بنَ المُنْذر كان في بني دَارِمٍ مسترضعًا في حجر زُرَارَةَ بْنِ عُدُس الدّارِمِي، ويقال في حجر حاجِبِ بنِ زُرَارَةَ . فلما شبّ، خرج يوما يتصيّد، فعَبِثَ كما تَعْبَثُ الملوكُ لما انصرف من صيده وبه نبيذ، فرماه رجلٌ من بني دارِمٍ بسهم فقتله . وقيل مرّت به ناقةٌ كَوْمَاءُ فَعَبِثَ بها ورَمَى ضَرْعَها، فشد عليه ربُّها سُوَيْد، أحَدُ بني عبد الله بن دارم فقتله، ثم هرب فلحق بمكة وحالف قريشًا . وكان زُرَارَةُ بنُ عُدُس (من خواصّ عمرو بن هند . وكان عمرو قبل ذلك قد غزا قومًا من العرب ومعه زُرارة)(44) فأخفق . فلما انتهى عند رجوعه الى جبل طَيّءٍ، قال له زُرَارة : أيها الملك ! إنّ رجوعَ مِثْلِك إذا [غزا] بغير شيء لَعَظِيمٌ، وها هي طَيّءٌ بِجَنْبِك . فمال عليهم ابن هند فقتل وأسَر . فَاضْطَغَنَتْ طيّءٌ من ذلك على زُرَارة وجعلوا يتربصون به فرصة، فلمّا بلغهم أن دَارِمًا قتلت أسْعَدَ، وكَتَمَ عمرو بن هند ذلك في نفسه،

44) ما بين قوسين سقط من أ.

قال عَمْرو بنُ مِلْقَطٍ الطَّائيّ يُنبِّه عمراً للنهوض [إلى ثأره]، ويُغْريه بقتل زُرَارة :

مَنْ مُبْلِغٌ عَمْراً بأنَّ … المَرْءَ لَمْ يُخْلَقْ صُبَارَهْ ؟
هَا إنَّ عِجْزَةَ أمِّهِ … بِالسَّفْحِ أسْفَلَ مِنْ أُوَارَهْ
تَسْفِي الرِّيَاحُ خِلاَلَ … كَشْحَيْهِ وقَدْ سَلَبُوا إزارَهْ
فَاقْتُلْ زُرَارَةَ لاَ أرَى … في القَوْمِ أوْفَى مِنْ زُرَارَهْ !

فوافي هذا الشعرُ عمراً وزُرَارةُ عنده . فقال له عمرو : ما يقول هذا ؟ فقال : كَذَبَ، قد علمت عداوتهم لي فيك . قال : صدقت ! فلما أمسى زُرارة، هرب ولَحِق بقومه . فغزاهم عمرو بن هند وحلف لَيَحْرِقَنَّ منهم مائةً بِأخِيه . فلما نَزَلَ بِأُوَارَةَ، وقد نُذِرُوا به، تفرقوا عنه هربا . فتتبَّعَهم حتى قبض تسعة وتسعين منهم وحرقهم بالنار . فأراد أن يكمل العِدَّة بعجوز منهم . فلما أمر بها قالت : ألا فَتى يَفْدِي هذه العجوزَ بنفسه ؟ ثم قالت : هيهات ! صار الفتيانُ حُمَمًا . ومرَّ وافدُ البَراجِم، فاشْتَمَّ رائحة الشِّواء ولم يشعر بالأمر، فظنَّ أن الملك قد اتخذ طعاما . فأقبل نحوه تَخُبُّ به راحلتُه لينال منه، حتى وقف على عمرو فقال له : من أنت ؟ قال : أبَيْتَ الَّلعْن ! أنا وافِدُ البَراجِمِ . فقال عمرو : إنَّ الشَّقِيَّ وافِدُ البَراجِمِ . فذهبتْ مثلاً . ثم أمَرَ به فقُذِفَ في النار .

يُضْرَبُ هذا المثلُ في الانسان يَجْلُبُ الحَيْنَ على نفسه، وهو من باب قولهم : بَحَثَ عَنْ حَتْفِهِ بِظِلْفِه، وسيأتي . وبهذه الواقعة سُمِّيَ عمرو بن هند مُحَرِّقًا لتحريقه بني تميم . وقيل إنما سمي مُحَرِّقًا لعُتُوِّه وفساده في الأرض، فكأنه حرقها . وقيل لتحريقه نَخْلَ مَلْهَمٍ، وهو موضعٌ بِالبَحْرَيْن، ويُسمَّى أيضا مضرط الحجارة، لشدة وطأته . وكان جدّه امرؤ القيس أيضا، فيما يزعمون، يسمى مُحَرِّقًا، وإياه يعني الأسود بن يَعْفُر بقوله :

ماذَا أؤَمِّلُ بَعدَ آلِ مُحَرِّقٍ … تَركوا مَنازِلَهمْ وبَعدَ إيَادِ
أرضَ الخَوَرنَقِ والسَّدِيرِ وبارقٍ … والقَصرِ ذِي الشُّرُفَاتِ مِن سِنْدادِ
جَرَتِ الرِّياحُ على مَحَلِّ ديارِهِم … فكأنَّهُم كانوا على ميعادِ

وفي هذه القصَّة يقول الأعشى :

ويَكونُ في الشَّرَفِ المُوَازِي … مِنْقَراً وبَنِي زُرَارَهْ

أبْنَـــاءُ قَـــوْمٍ قُـتّـلُـــوا يَــوْمَ القُصَيْــبَـةِ والأوَارَهْ
(فَجَـــرَوْا عَلَـى مَاعُـــوّدُوا ولِــكُـلِّ عَــادَاتٍ أمَـــارَهْ)[45]
والعُـــودُ يُعْصَـــرُ مَـــاؤُهُ ولِــكُـلِّ عِيـدَانٍ عُصَـــارَهْ

وقال جرير يُعَيِّرُ الفرزدق :

اينَ الذينَ بِنارِ عَمْرٍو حُرِّقوا؟ أم أينَ أسعَدُ فيكمُ المُستَرضَعِ؟

وقال أيضـــا :

وأخْزاكُمُ رَبِّي كَما قَد خَزيتُم وأدْرَكَ عَمَّاراً شَقِيُّ البَرَاجِمِ

وبها عُيِّرَتْ بنو تميم بِحُبِّ الطعام . قال أحدُ بَنِي كِلاب :

ألاَ أبلِغ لَدَيكَ بَنِي تَمِيمٍ بِآيَةِ مَا يُحِبُّونَ الطَّعَامَا

وقال الآخـــر :

إذَا مَا ماتَ مَيْتٌ مِن تَمِيمٍ فَسَرَّكَ أنْ يَعِيشَ فَجِيءْ بِزادِ
بِخُبزٍ أو بِلَحمٍ أو بِتَمْرٍ أوِ الشَّيءِ المُلفَّفِ فِي البِجادِ
تَراهُ يُنَقِّبُ البَطحاءَ طُراً لِيأكُلَ رَأسَ لُقمَانَ بْنِ عَادِ !

ودخل بعض أذكياء بني تميم، ويقال هو الأحْنَف، على بعض ملوك قريش، ويقال هو معاوية رضي الله عنه، فقال له الملك : ما الشيءُ المُلَفَّفُ في البِجَاد ؟ قال السَّخِينَةُ، يا أمير المؤمنين . أراد الملكُ أن يُعَيِّره بالطعام، وأشار الى الشِّعْر السابق، وأراد التميميُّ تعييرَه بالسَّخِينَة، وهي طعام، وكانت قريش تُعَيَّرُ بها . ويُشْبِهُ هذه القصَّةَ في تميمَ أيضا ما يُحْكَى أنَّ اعرابيا وقف على الفرزدق (فقال له الفرزدق)[46]: ممَّن أنت ؟ فقال : من فقعس . قال : كيف تركت القَنَان ؟ قال : تركته يساير لَصَافِ .

أراد الفرزدق قول الشاعر :

ضَمِنَ القَنانُ لِفَقعَسٍ سَوْءاتِها إنَّ القَنانَ بِفَقْعَسٍ لَمُعَمَّرُ

وأراد الفَقْعَسِيُّ بقوله يُسَايِرِ لَصافِ قول الآخر :

---

45) سقط هذا البيت من أ.
46) سقط من ب.

وإذا تَسرُّكَ مِن تَميمٍ خَصلَةٌ فلَما يَسُوءُكَ مِن تَميمٍ أكثَرُ
قَد كُنتُ أحسِبُهم أُسودَ خَفِيَّةٍ فإذا لَصَافِ تَبِيضُ فِيها الحُمَّرُ
أكَلَت أُسَيدٌ والهُجَيمُ ودَارِمٌ أيرَ الحمارِ وخُصيتَيهِ العَنبَرُ[47]
ذَهَبَت فَشَيشَةُ بالاباعِرِ حَولَنا سَرقًا فَصَبَّ عَلى فَشيشَةَ أبجَرُ

والقَنَانُ، بفتح القاف، جبلٌ لبني أسد، وهو الواقع في قول زهير :

جَعَلنَ القَنانَ عن يَمينٍ وحَزنَهُ ومَن بِالقَنانِ من مُحِلٍّ ومُحرِمِ

ولِصاف، بكسر اللام وبفتحتها، مُعرَبًا ومَبنِيًّا على الكسر، جبلٌ لتميم، وهو الواقع في قول النابغة :

بِمُصطَحِباتٍ من لَصافِ وثَبرَةٍ يَزُرنَ إلالاً سَيرُهُنَّ التَّدافُعُ

ونحوه ما حكى الجاحظ قال : دخل رجل من مُحَارِبٍ على عبد الله بن يزيد الهلالي، وهو عامل على أرمِينِيَّة، وقد بات بقرب غدير فيه ضفادع . فقال عبد الله : ما تَرَكَتنَا أشياخُ مُحَارِبٍ ننامُ في هذه الليلة لشدة أصواتها . فقال المحاربيّ : أصلح الله الأمير ! إنها أضَلَّت برقعًا لها، فهي في بغائه . أراد الهلالي قولَ الأخطل :

تَنِقُّ بلا شيءٍ شيوخُ مُحَارِبٍ وما خِلتُها كانَت تَرِيشُ ولا تَبري
ضَفادِعُ في ظَلماءِ لَيلٍ تَجاوبَت فَدلَّ عَلَيها صَوتُها حَيَّةَ البَحرِ

وأراد المحاربي قول الشاعر :

لِكُلٍّ هَلاَلِيٍّ مِن اللُّؤمِ بُرقُعٌ ولابنِ هِلالٍ بُرقُعٌ وقَميصُ

وممَّا يشبه هذا في الذكاء والفِطنَة ما حُكي عن بعض الناس أنه قال : قعدت على جِسرِ بغداد، فمرَّت امرأة بارعة الجمال، فائقة الكمال، من الرُّصَافةِ الى الجانب الغربي . فاستقبلها شابٌ ذهب نحو الرصافة، فقال الشاب : رحم الله عليَّ بن الجَهْم . فقالت المرأة : رحم الله أبا العلاء المعري . ولم يَقِفْ واحدٌ منهما، بل [مرَّ] كلٌّ لحاجته،

47) أورد في لسان العرب (مادة خصي) هذين البيتين منسوبين الى أبي المهوّس الأسدي هكذا :
قَد كُنتُ أحسِبُكم أسود خَفِيَّةٍ فإذا لَصاف تَبِيضُ فيها الحُمَّرُ
عَضَّت أُسَيدُ جَذلَ أيرِ أبيهمُ يومَ النِّسار وخُصيَتيهِ العَنبَرُ

مُشَرّقًا ومُغَرّبًا قال : فتبعت المرأة، فقلت لها : إن لم تقولي ما قلتما . فضحكت فقالت: أراد الشاب قول علي بن الجهم :

عُيُونُ المَهَا بَيْنَ الرُّصَافَةِ والجِسْرِ
جَلَبْنَ الهَوَى مِنْ حَيْثُ أدرِي ولاَ أدْرِي

وأردت أنا قول أبي العلاء المعرّي :

فَيَا دَارَهَا بالحَزْنِ إنّ مَزَارَهَا
قَرِيبٌ ولَكِنْ دُونَ ذَلِكَ أهْوَالُ

فانصرفت وتركتها . وبعضهم ينكر في قصّة عمرو بن هند التّحريق، ويقول إنه قَتَل تسعة وتسعين وكمّل العدة بِوافِدِ البَراجِم، ويُنشد قول جرير : أين الذين بنار عَمْرٍو قُتّلُوا ؟ وفي القصّة اختلافٌ وطُرُق، وسنعيدها في الباء إن شاء الله تعالى على وجه آخر للحاجة إليها هناك .

إنّ العَصَا قُرِعَتْ لِذِي الحِلْمِ .

العَصَا معروفة . والقَرْعُ : الضّرْب . والحِلْمُ : العقل .

ومعنى المثل أنّ الحليم إذا نُبّهَ انْتَبَه . واختُلف في أول من قُرِعَتْ له العصا : فقيل عامر بن حُمَمَةَ(48)، وقيل عَمْرُو بْنُ مَالِك، وقيل قَيْسُ بْنُ خَالِد، وقيل عَامِرُ بْنُ الظّرِبِ العَدوَانِي وهو الأشهر، وكان حَكَمًا من حكّام العرب . فلما كبِر، قيل وأتَى عليه ثلاثمائة سنة أنكر من عقله شيئا، وكانت له بنت حكيمة، فكان إذا قعد للناس وصّاها أن تَقْرَعَ له المِجَنّ بالعصا إذا زلّ في كلامه ليرجع . قال المُتَلَمّس :

لِذِي الحِلْمِ قَبْلَ اليَوْمِ مَاتُقْرَعُ العَصَا
ومَا عُلّمَ الانْسَانُ إلاّ لِيَعْلَمَا

وأراد بذي الحلم عامراً، وهو كنيته فيما يزعمون . وقال الحماسيّ الحَرِثُ بْنُ وعلة الجرميّ :

---

48) حُرّف في أ الى صمصمة .

قَـوْمِي هُـمُ قَتَلُـوا أمَيْـمَ أخِي
فَـإذَا رَمَـيْتُ يُصِيـبُنِي سَهْمِي
فَلَئِـــنْ عَفَـــوْتُ لأعْفُـــوَنْ جَلَلاً
ولَئِـنْ سَطَـوْتُ لأوهِنَـــنْ عَظْـمِي
لاَ تَأمَنَـــنْ قَوْمًـــا ظَلَمْتَهُـــمُ
وبَدَأتَهُـــمْ بِالشَّتْـــمِ والرَّغْـــم
إنْ يَأبِـــرُوا نَـــخْلاً لِغَيْرِهِـــم
والشَّيْءُ تَحْقِـــرُهُ وقَـــدْ يَنْـــمِي
وزَعَمْتُـــمُ أنْ لاَحُلُـــومَ لَنَـــا
إنَّ العَصَـا قُـرِعَتْ لِـذِي الحِلْـمِ
وَوطِئْتَنَـــا وطْئًـــا عَلَى حَنَـــقٍ
وطْءَ المُقَيَّـــدِ نَـــابِتَ الهَـــرْمِ
وتَرَكْتَنَـــا لَحْمًـــا عَلَى وضَـــمٍ
لَوْ كُنْتَ تَسْتَبْقِي مِـنْ اللَّحْـمِ

قيل : وعامرٌ هذا أولُ من جَلَس على المنبر وتكلّم . وفيه يقول الأسْودُ بن يَعْفُر :

ولَقَدْ عَلِمْتُ لَوَ انَّ عِلْمِي نَافِعٌ
أنَّ السَّبِيلَ سَبِيلُ ذِي الأعْـدَادِ

وإليه أشار ذُوالاصْبَع العَدْوانِيّ بقوله :

عَذِيرَ الحَيِّ مِـنْ عَـدْوانَ كَانُـــوا حَـــيَّةَ الأرْضِ
بَغَى بَعْضُهُمْ ظُلْمًا فَلَمْ يَـــرْعَ عَلَى بَـــعْضٍ[49]
ومِنْهُـمْ كَـانَتِ السَّـادَاتُ والمُوفُـــونَ بِالقَـــرْضِ
ومنهُـم مَـن يُجيزُ النَّـاسَ بالسُّنَّـة والفَـــــرْضِ
ومِنْهُـــم حَكَـــمٌ يَقْضِي فَلاَ يُنْقَضُ مَـا يَقْضِي

يعني عامر بنَ الظَّرِبِ، وسيأتي له مزيدُ خبر .

---

49) رواه في لسان العرب هكذا :
بَغَى بَعْضٌ عَلَى بَعْضٍ فَلَمْ يَرْعَوا عَلَى بَـعْضِ

إنَّ فُلاَنًا بَاقِعَةٌ .

البَاقِعَةُ : الرجل الداهية ؛ وأصْلُه البقع في الأرض، وهو الذهاب فيها وحُلولُ بِقَاعِها . يقال : ما أدري أين بَقَع، اي ذهب . فالبَاقِعَة هو الذي جال بقاع الأرض وعرف خيرها وشرّها، فاستُعمل في الداهية الذكيّ الذي لا يفوته شيء . ويقال البَاقِعَة هو الطائرُ يَرِدُ البِقَاع وهي الأمكنة يَسْتَنْقِع فيها الماءُ، ويحيد عن المشارع والمياه المحصورة خوف أن يُحتال عليه فيُصاد . فضُرب مثلا للرجل الحِذر المحتال .

إنَّهُ لَحِبْلٌ مِن أحْبالِهَا .

الحِبْلُ بكسر الحاء، وتُفْتَح، الداهيةُ من الدواهي، جمعه حبول . قال كثير :

فَلاَ تَعْجَلِي يَاعَزَّ أنْ تَتَبَيَّنِي
بِنُصْحٍ أتَى الواشُونَ أم بِحُبُولِ

ويقال للرجل هو حِبْلٌ مِنْ أحْبَالها، إذا كان داهيةً كالمثل الذي قبله، أو كان قائما على المال رفيقا بسياسته .

إنَّهُ لَذُو بَزْلاَء .

البَزْلاَءُ : الرأي الجيّد ؛ وهو إمّا مأخوذٌ من البُزُول، يقال بَزَلَ نَابُ البعير إذا انشقّ وطلَع ؛ وبَزَلْتُ الشَّيْءَ : شَقَقْتُه فَتَبَزَّل . فالبَزْلاَءُ : الرأي الذي يَنْشَقّ عن الصواب . ويقال : رجل بازلٌ إذا احتنك، تشبيهًا بِالبَازِل من الابل . وقال الراعي :

مِنْ أمْرِ ذِي بَدَوَاتٍ لا يَزَالُ لَهُ
بَزْلاَءُ يَعْيَى بِهَا الجَثَّامَةُ الُلبَدُ

وإمّا من البَزْلاَءِ وهي الداهِيَة العظيمة . ومنه قولهم : **فُلاَنٌ نَهَّاضٌ بِبزْلاَء** إذا كان مطيقًا للشدائد .

إنَّهُ لَيُسِرُّ حَسْوًا في ارْتِغَاءٍ .

الاسْرَارُ ضدُّ الاعلان ؛ والحَسْوُ : الشُرْبُ ؛ يقال : حسا اللبن والماء والمرق وغير ذلك إذا شَربه ؛ واسم ما يُحسى : الحَسْو، والحَسَى، مقصورًا وممدودًا ، والحَسُوُّ على

مِثال عَدُوّ، والحَسِيَّة . ورَغْوَةُ الّلبن، مثلثة الراء، ورُغَاوته، ورُغَايُته، بضمّ الراءيْن، ويُكسران : زَبَدُهُ الطَّافِي فَوقَه . قال نَضْلَةُ السُّلَمِي في يوم غَوْل، وكان حقيراً دميما، وكان ذا بأس ونجدة :

أَلَمْ تَسَلِ الفَوَارِسَ يَوْمَ غَوْلٍ
بِنَضْلَةَ وهْوَ مَوْتُورٌ مُشِيحُ ؟
رَأَوْهُ فَازْدَرَوْهُ وهْوَ حُرٌّ
ويَنْفَعُ أَهْلَهُ الرَّجُلُ القَبِيحُ
فَشَدَّ عَلَيْهِمُ بِالسَّيْفِ صَلْتًا
كَمَا عَضَّ الشَّبَا الفَرسُ الجَمُوحُ
فَأَطْلَقَ غُلَّ صَاحِبِه وأَرْدَى
قَتِيلاً مِنْهُمُ ونَجَا جَرِيحُ
ولَمْ يَخْشَوا مصالته عَلَيْهِم
وتَحْتَ الرَّغْوَةِ الّلبَنُ الصَّرِيحُ

والصريح : الخالص، ويسمَّى المَحْض، كما قال طرفة :

ويَشْرَبُ حَتَّى يَغْمُرَ المَحْضُ قَلْبَهُ
وإنْ أُعْطَهُ أَتْرُكْ لِقَلْبِيَ مَجْثَمَا

وكما قال الآخر : فقل جعل يستق في لبن محض (كذا) . ويقال : ارتَغَى الرَّغْوَةَ إذا أخذها بفِيه واحْتَسَاها .

ومعنى المثل أنه يَحْسُو الّلبَنَ، وهو يُظْهِرُ أنه يُزِيل الرَّغْوَةَ بفيه لِيُصْلِحَهُ لَك .

يُضْرَبُ لمن يُرِيكَ أنَّهُ يُعِينُك وهو يجرّ النفع لنفسه . وكذا كلُّ من يريد امراً وهو يظهر غيره . وقيل للشَّعْبي : إنَّ رجلا قَبَّل أُمَّ امْرَأتهِ . فقال : يُسِرُّ حَسْواً في ارتِغَاء، وقَدْ حَرُمَتْ عَلَيْهِ امرأتُهُ.

إنَّهُ لَسَاكِنُ الرِّيحِ .

مثلٌ للرَّجُلِ الوادِع، وهو في الأصل إمَّا مُشَبَّهٌ بِزَمَنٍ قد سَكَنَتْ ريحُه

وهَدأتْ زَعازعُه، فوَرَدَ مَوْرِدَ التَّمثيل ؛ وإمَّا مشبَّهٌ بالريح الساكنة عن الاضطراب، وهو ضَرْبٌ من التَّجْريد.

إنَّهُ لَشَرَّابٌ بِأنْقُعٍ .

الشَّرَّابُ : الشَّارِبُ بكثرة ؛ والانْقُع : جمع نَقْع، بفتح فسكون، وهو يطلق على الغبار، ويطلق على محْبِس الماء المستنقع، وعلى الارض الحرة الطين، يُسْتَنْقَعُ فيها الماءُ . فيُضرب هذا لمَنْ جرَّب الأمورَ وعَاوَدَ خَيْرَها وشرَّها، أو للداهي المُنْكَر .

قيل : وأصلُه في الدليل، وهو أنه إذا كان بصيراً بالفَلَوات حَذَقَ في الطريق وعلم أينَ يسلُك الى الأنْقُعِ حتى يَرِدَها . والانْقُعُ هنا : المياه المُسْتَنْقَعَةُ، أو مَحَالُّها بحسب ما فيها من الماء . فصار مثلِا لكل بصير بالأمور يصل منها الى مراده .

وقيل أصلُه أن الطائر إذا كان حذراً مُنْكَراً، لم يَرِدِ المياهَ التي يَرِدُها الناس، مخافة الأشْرَاك التي تنصب بحضرتها، وإنما يَرِدُ الأنْقَاعَ التي في الفَلَوَات، أي المياهَ المُسْتَنْقَعة . وحكى البكريّ بسنده عن رياح بن زيد قال : سألت ابْنَ جَرير عن آية، وقلتُ إن مَعْمَراً أخبرني بكذا، فقال : إنَّ مَعْمَراً شَرِبَ العِلْمَ بِأنْقُعٍ (قال) . قال عبد الرزاق : الأنْقُع : الصَّفَا الذي يُصِيبُهُ الغَيْثُ، فيكون ههنا ماءٌ وههنا ماء .

إنَّهُ لَصِلٌّ أصْلاَلٍ .

الصِّلُّ، بكسر الصاد المهملة : الحَيَّة الخبيثة، لا تَنْفَع فيها الرُّقَى ولا يبل سليمها . قال الشاعر :

والحَيَّةُ الصِّلُّ لا تَغْرُرْكَ هَدْأتُهُ
فكَمْ سَلِيمٍ ومَوْقوذٍ لِنُكْرته !

وقال صاحب تأبّط شرًّا يرثيه :

مُطْرِقٌ يَرْشَحُ مَوْتًا كمَا أطْرَقَ
أفْعَى يَنْفُثُ السُّمَّ صِلُّ(50)

[وجمعه أصلال] فضرب للرجل الداهي المنكر في الخصومات وغيرها، كأنه قيل إنه لحيَّة الحيَّات . قال الشاعر :

50) هذا البيت من قصيدة نسبها أبو تمام في الحماسة (ا: 342) الى تأبط شرا نفسه، وجعل (سُمًّا) بدل (مَوتًا)

مَا ذَا رُزِئْنَا بِهِ مِن حَيَّةٍ ذَكَرٍ
نَضْنَاضَةٍ بِالرَّزَايَا صِلٌّ أَصْلاَلِ ؟

إنَّهُ لَضَعِيفُ العَصَا .

مثل للقليل الضرب لِلابِل . قال الراعي :

ضَعِيفُ العَصَا بَادِي العُرُوقِ تَرَى لَه
عَلَيْهَا إذا مَا أَجْدَبَ النَّاسُ أُصْبُعَا

إنَّهُ لَضِلُّ أَضْلاَلٍ .

مثل للداهِي على نحو ما مرَّ آنفًا في الصاد، إلا أنه يقال هنالك : صِلُّ أصلاَلٍ، بالصاد المهملة وبكسرها لا غير ؛ ويقال هنا : ضِلُّ أَضْلاَلٍ، بالضَّاد المعجمة مكسورة ومضمومة .

ومعناه أنه يُضِلّ خَصْمَه وقِرْنَه فلا يهتدي ولا يعرف من حيثُ يأتيه ولا يتجه معه الى وجه يخلّصه منه . والضَّلاَلُ ضدّ الرَّشَاد . قيل : وأصله قولهم : أرْضٌ ضِلٌّ، إذا كانت تُضَلِّلُ صاحبَها . وأمَّا قولهم : إنه ضِلُّ بْنُ ضِلّ . بكسر الضادَيْن وضمّهما، فمعناه أنه مُنْهَمِكٌ في الضلال، أو أنه لا يُعْرَفُ له أصل، أو أنه لا خَيْرَ فيه . ويقال للباطل : ضُلٌّ بِتَضْلاَلٍ . قال عَمْرُو بْنُ شَاسٍ الاسَدي :

تَذَكَّرْتُ لَيْلَى لاَتَ حِينَ اذكَارِهَا
وقد حُنِيَ الأَصْلاَبُ ضُلٌّ بِتَضْلاَلِ(51)

وقيل في قول امرىء القيس :

نَواعِمَ يُتْبِعْنَ الهَوَى سُبُلَ الرَّدَى
يَقُلْنَ لأَهْلِ الحِلْمِ ضُلاً بِتَضْلاَلِ

إنه دعاءٌ بالضلال، أي أي إذا رأين أهل الحِلْم قلن لهم : أضلّكم الله، ودعون عليهم إذ لا يَتْبَعُون التّلهو، وهو البَيِّنُ . قيل : وأنكر أبو عبيدةَ ضمَّ الضاد في قولهم : ضُلاً بتَضْلاَل، وقال : لم أسمع الضَّمَّ الا في ضُلّ بن ضُلّ.

51) ورد في لسان العرب : وقَدْ حُنِيَ الأَصْلاَعُ....

إنـّهُ لـَعِـضٌّ

العِضُّ بكسر العين المهملة وبضاد معجمة، يضرب للرجل الداهي المنـْكـَرُ البـَليغ . قال القـَطـَامِي :

أحَاديثُ مِنْ أنـْبَـاء عَـادٍ وجـُرْهُـمٍ
يُـثـَوِّرُهَـا العِضـَّـانِ زَيْـدٌ ودَغـْفـَلُ

ويروي : أحَاديثُ من عادٍ وجـُرْهـُمٍ ضـِلـَّةٍ . ومعنى ضِـلـَّة : لا يـُهتدى إليها، كما قالت السُّلـَكـَةُ أمُّ السُّلـَيْك :

لـَيتَ شِعري ضِلـَّةً أيُّ شَيْءٍ قـَتـَلـَك

ومعنى يُـثـَوِّرُها : يُحـَرِّكها من مكانها، ويـُثيرها من مظانـّها . ويروي : يُـنـَوِّرها بالنون، أي يكشفها ويـُبيـّن ما استتر منها من النـّور الكاشف للظلمة . وزيدٌ المذكورُ أحد بني هلال ابن ربيعة، وكان من أعلم الناس . ودغـْفـَلٌ مِنْ بَـنـي ذُهـْلِ بْنِ ثـَعـْلـَبـَةَ نـَسـَّابـَةٌ .

قيل : وأصلُ المثل من العـَضِّ على النـَّواجِذ . يقال : عضَّ الرجلُ على نواجذه إذا صَبـَر على الأمر . قال عليّ كرم الله وجهه يُحرِّض الناس يوم صِفـّين : عَضُّوا على النـَّواجِذِ من الأضراس ! فإنه أنـْبَـى لِلسّيوف على الهام . وقال الحَارِثُ بْنُ وعْلـَة :

الآنَ لـَمَّا ابيَضَّ مَسرُبَـتِي وعَضَضتُ مِن نابِي عَلـَى جِذمِ

والنواجذ بالذال المعجمة : أواخرُ الأضراس، واحدها نـَاجِـذ . والعرب تسمي النـّاجذ ضِرْسَ الحِلـْمِ، لأنه يَـنـْبُـتُ بعد البلوغ وكمال العقل . قال النـَّمرُ بن تـَوْلـَب :

عَلـَى أنـَّها قالـَتْ عَشِيَّةَ زُرتـُها أَلـَم يَـنبُت لِذا حِلـْمُه بَعدي (؟)

ورجلٌ مُنـَجَّذ، أي مُجَرَّبٌ أحْكـَمته الأمور . قال سُحَيْمُ بْنُ وثـِيلٍ :

أخُو خَمسينَ مُجتمِعٌ أشُدِّي ونجـَّذَنِي مُـداورَةُ الشـُّؤُونِ

ويقال : إنه لـَعِضُّ مَال، أي شديدُ القيام عليه، وعِضُّ سَفـَر، أي قويٌّ عليه، وعِضـَاضُ عَـيْشٍ، أي صبورٌ على الشـّدّة، وغـَلـَقٌ عِضٌّ : لاَ يـَكـَادُ يـَنـْنفـَتِحُ . والعِضُّ أيضا : ما صغـُر من شَجـَر الشـَّوك، كالشبرق والقتاد الأصغر ؛ يقال : بلد ذو عضّ، وإبلٌ عَاضـَّةٌ : تـَرْعَاه ؛ وأهلـُها مُعِضـُّون . فيصحّ أن يكون أصل المثل من هذا [أيضا].

إنـَّهُ لـَلـَيـِّنُ العـَصـَا .

مـَثـَلٌ للرَّفـِيق الحـَسـَنِ السـِّيـَاسة لِـمـَا وُلِـي . قال الشاعر : [52]

عـَلـَيهِ شـَريبٌ وادِعٌ لـَيـِّنُ العـَصا   يـُساجِلـُها جـُمـَّاتـِه وتـُساجِلـُه

إنـَّهُ لـَنـِقـَابٌ .

مـَثـَلٌ للرجل العالم الفـِهم الخبير بغوامض الأمور . قال أوسُ بنُ حـَجر :

كـَريمٌ، جـَوادٌ، أخـُو مـَأقـِطٍ،   نـِقـَابٌ يـُحـَدِّثُ بـِالغـَائـِبِ

قيل : وأصله من التنقيب في البلاد وتجريب الأمور . ونحوه قولهم في مـَثـَلٍ آخر لمجرب الأمور : فلان قد رَكِـبَ ظـَهـْرَ البـَرِّ والبـَحـْر، وعـَرَفَ حـَالـَتـَيِ الخـَيـْرِ والشـَّرّ، وذَاقَ طـَعـْمـَي الحـُلـْوِ والمـُرّ . وقال الحكماء : لا ينال أحدٌ الحكمة حتى ينسى الشهوات، ويـُجـَرِّبَ الفـَلـَوَات، ويـُحالف الأسفار، وينتاب القفار، ويـَصِـلَ الليلةَ باليوم، ويعتاضَ السـَّهـَرَ من النوم . وقالوا : النـَّظـَرُ كالسـَّيف، والتـَّجـَارِبُ كـَالمِـسـَنّ . وقالوا : مـِرْآةُ العـَوَاقـِب، في يـَد ذِي التـَّجـَارِب . وقال أبو تمـَّام يصف بالتـَّنقـِيب والتجريب :

سـَلِي هـَل عـَمـَرْتُ القـَفر وهي سـَبَاسب   وغـَادَرْتُ رِبـْعِـي مِـن رِكـَابِـي سـَبَاسِبا

وغـَرَّبْتُ حـَتـَّى لـَمْ أجِـدْ ذِكـْرَ مـَشْرِقٍ   وشـَرَّقـْتُ حـَتى قـَدْ نـَسِيتُ المـَغـَارِبـَا

وقـال أيضا :

خـَلِيفـَةُ الخِضْرِ مـَنْ يـَرْبـَعْ عـَلـَى وطـَنٍ   فـِي بـَلـْدَةٍ فـَظـُهـُورُ العـِيسِ أوطـَانـِي

بـِالشـَّامِ قـَوْمِـي وبـَغـْدَادُ المـُنـَى وأنا   بـِالرَّقـْمـَتـَيـْـنِ وبـِالفـُسْطـَاطِ إخـْـواني

أحِـبـَّةٌ جـَـاوَرَتْ آدَابـُهـُـمْ أدَبـِي   فـَهـُمْ وإنْ فـُرِّقـُوا فـِي الأرْضِ جِـيرَانـِي

وقول أوس المذكور يـُحـَدِّثُ بـِالغـَائـِب هو من شأن النـِّقاب . والمعنى أنه ذو ذكاء قويّ وفراسة وظنّ مصيب، كما قالوا : فـُلانٌ الـمـَعِـيُّ وقال الشاعر :

---

52) هو مـَعـْن بن أوْس المـُزَنـِي

الألْمَعِيُّ الذِي يَظُنُّ بِكَ الظَّنَّ   كَأَنْ قَدْ رَأى وقَدْ سَمِعَا

وقال الآخر :

بَصِيرٌ بِأعْقابِ الأمُورِ إذا التَوتْ   كَأنَّ لَهُ في اليَومِ عَيناً على غَد

وقال ابن الرومي :

كَمَالٌ وإفْضالٌ وبَأسٌ ونَجدةٌ   وظَنٌّ يُريهِ الغَيبَ لارجمُ راجِمِ

وقال آخر :

تَجاوزْتَ مِقدارَ الشَّجاعَةِ والنُّهى   الى (قَولِ) قومٍ أنتَ بِالغيبِ عالِم

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول : من لم ينتفع بِظَنّه، لم ينتفع بِيَقينه . وقال عبد الملك بن مروان : ما فرّق بين عمر وعثمان إلا اختلافُ الظنّ : ظَنَّ عمرُ فأصاب فتحفّظ، وظنّ عثمانُ فأخطأ فأهمل .

إنّهُ لَنَكِدُ الحَظِيرَةِ .

النّكَدُ : الشدّةُ والقِلّة ؛ يقال : نَكِدَ عَيْشُ القوم إذا اشتدّ، ونَكِدَ ماءُ البئر إذا قلّ، وناقةٌ نَكُود : قليلة الدرّ، ورَجُلٌ نَكِدٌ : عَسِير ؛ والحَظِيرَة، والحِظَار، بالظاء المشالة : ما يُجْعَل للماشية ويحاط بالشجر ونحوه لِتَأوِيَ إليه ويمنعَها من الحرّ والبرد، لأنها من الحَظْر وهو المنع .

يُضرب هذا المثل للرجل القليل الخير وللبخيل مع السعة، فكأنّ ضِيقَ حظيرته كنايةٌ عن ضيق خيره وقلّة فضله، كما يقال في المثل الآخر من هذا المعنى : فُلانٌ ضَيِّقُ العَطَنِ، وإنما العَطَنُ مَبْرَكُ الابل (عند الماء) ؛ لكن جعل كناية عمّا مرّ . ويقال في ضدّه : فلانٌ رَحْبُ الفِناء، وسَابِغُ الذّيْل، وغَمْرُ الرّداء، ونحو ذلك . وقال أبو عُبَيْد القاسم بنُ سَلاّم : أراه سمّى أمواله حظيرة لأنه حَظَرَهَا عنده ومَنَعَها، وهي فعِيلةٌ بمعنى مفعولة . وهو بعيد عن صَنِيعِ الكلام وأسلوب العرب في هذا النحو كما قرّرناه.

إنّهُ لَهِتْرُ أهْتَارٍ .

الهِتْرُ بكسر الهاء وسكون المثناة الفوقية : العجب والداهية، فيقال : فلان هِتْرُ أهْتَار

ويضرب مثلاً للرجل الداهي، كما تقدم في قولهم : صِلُّ أصلالٍ . قال أوس بْنُ حَجَر في الهِتْر بمعنى العجب :

أَلَمَّ خَيَالٌ مَوهِنًا مِن تُمَاضِرَا
هُدُوًّا ولَم يَطْرُقْ مِنَ اللَّيْلِ بَاكِرا
وكَانَ إذَا مَا التَمَّ مِنْهَا بِحَاجَةٍ
يُراجِعُ هِتْراً مِنْ تُمَاضِرَ هَاتِرَا

وعن ابن الأعرابي : الهُتْرُ والهِتْرُ، (بالضمّ والكسر : ذهابُ العقل . وفي الصَّحَاح : الهِتْر : العجب والداهية، والهِتْرُ) :[53] السَّقَطُ مِنَ الكَلام، يقال : هِتْرٌ هَاتِرٌ، وهو توكيد . ومنه بيت أوس المذكور عنده .

إنَّهُ لَواقِعُ الطَّائِرِ .

مثلٌ للرجل الساكن الأمر . وهو في الأصل إمَّا مُشَبَّهٌ بالبعير يقع عليه الطائر وينزع ما عليه من القُرَاد، فيسكن البعير استلذاذاً لذلك ولا يتحرك لئلا يَنْفِر الطائر فيطير عنه، كما يقال في المثل الآتي : كأنَّ عَلَى رَأسِهِ الطَّيْر ؛ وإمَّا مشبَّهٌ بالطائر الواقع في سكونه على ضَرْبٍ من التَّجْريدِ، كما مرَّ في سَاكِنِ الرِّيح .

إنَّكَ لاَ تَجْنِي مِنَ الشَّوْكِ العِنَبَ .

يقال : جَنَى الثَّمَرَةَ، واجْتَنَاها، وتَجَنَّاها . وكُلُّ ما يُجْنَى من الثَّمَرِ فهو جَنَى بالفتح والقصر وجَنَاة ؛ والشَّوْكُ، بفتح الشين المعجمة، معروف ؛ الواحدة : شَوْكَة ؛ وشَجَرَةٌ شَاكَةٌ وشَوكَةٌ وشَائِكَةٌ : ذاتُ شَوْك : والعِنَبُ معروف .

ومعنى المثل أن الشَّرَّ لا تَسْتَحْصِلُ منه خيراً، والفسادَ لا تكتسِبُ به صلاحًا، كما أن العِنَبَ ليس بخارج من الشَّوك . فإذا أو قَعْتَ شَرًّا أو ظلمت أحداً فقد غرست شوكًا، ولا تحصده إلا شوكًا . وفي الحكمة : مَنْ يَزْرَعْ خَيْرًا يَحْصُدْ غِبْطَةً، ومَن يَزْرَعِ الشَّرَّ يَحْصُدْ نَدَامة . وما أحسن قَولَ صالِح بن عبد القدُّوس ناظمًا لهذا المثل بعينه :

إذَا وتَرتَ امرءاً فاحْذَر عَداوتَه ... مَن يَزرعِ الشَّوكَ لا يَحصُدْ به عنَبا

53) ما بين قوسين سقط من أ

إنَّ العَدُوَّ وإنْ أبْدَى مُجَامَلةً إذا رَأى مِنْكَ يَوماً فُرصَةً وثَبا

والمَثَلُ لأكْثَمَ بنِ صَيْفِي حكيم العرب .

إنَّكُم لَتَكْثُرونَ عِندَ الفَزَعِ، وتَقِلُّونَ عِندَ الطَّمَعِ .

هو كلام النبي صلى الله عليه وسلم، قاله للأنصار يَصِفُهُم بذلك . والفَزَعُ يكون على وجهَيْن : أحدهما الذُعْرُ والجَزَع، وهو الكثير الاستعمال، والآخر الاستنجادُ والاستصراخ، ومنه قول سَلاَمَةَ بْنِ جَنْدَل :

كُنَّا إذا ما أتانا صارخٌ فَزِعٌ كانَ الصُرَاخُ لَه قَرعَ الظَّنابِيبِ

أي : إذا أتانا مستغيث كانت إغاثتُه الجِدَّ في نصرته . يقال : قَرَعَ ظُنْبُوبه في هذا الأمر إذا جدَّ فيه . والظُنْبُوب : مُقَدَّم عظم الساق . ويشتق من هذا المعنى أن يكون فَزِعَ بمعنى أغَاث . قال هُبَيْرَةُ اليَربُوعِيُّ، الملقَّب بالكَلْحَبَة :

فَقُلْتُ لِكَاسٍ ألْجِمِيهَا فإنَّما حَلَلْتُ الكَثِيبَ من زَرودٍ لأفْزَعا

أي لأغِيثَ . وكَاسٌ اسمُ جاريته . والطَّمَعُ معروف.

ومعنى الكلام المذكور وصفُ الانْصَارِ رضي الله عنهم بالشجاعة والاقدام، وبذل النفوس في نصرة الاسلام، وتجشم المضائق في ذلك والعظائم، والتسارع الى المكارم مع الزهد التام، ورفع الهِمَّةِ عن الحطام . وهو معنى قوله : وتَقِلُّونَ عِنْدَ الطَّمَعِ، أي عند وجود الطمع في الناس لسبب من أسبابه . ويصحّ أن يراد بالطمع المالُ المطموع فيه، أي : تقلّون عند حضور الأموال واقتسامها وانتهابها، والقلّة على بابها، أو للنَّفْيِ وهو أبلغ . وناهيك بهذا الكلام مدحًا وثناء، وبالأنصار رفعةً وسناءً ! ومثلُ هذا المعنى قول عنترة :

يُخبِرك مَن شَهِد الوقِيعَة أنَّني أغشى الوغى وأعِفُّ عند المَطعم[54]

ومن هذا المعنى قول المهاجرين في الأنصار : إنهم يَكْفُونَنَا المَؤُونة، ويشاركوننا في المهنا . ومن باب المشاركة في الشدّة قول أبي بكر الخُوَارِزْمِي :

أرَاكَ إذا أيسَرتَ خَيَّمتَ عِندنا لِزامًا وإن أعسَرتَ زُرتَ لِماما

فَما أنتَ إلاّ البَدرُ إن قَلَّ ضَوءُهُ أغَبَّ وإن زَادَ الضّياءُ أقَاما

54) المشهور : عِنْدَ المَغْنَمِ، وهو الانسب لما قيل في الأنصار.

وأصله قول الأول :

فَتى كانَ يُدنيه الغِنى من صَديقه
إذا مَا هو اسْتَغْنَى، ويُبْعِدُه الفَقْرُ

وتَمَثَّل بهذا البيت عليٌّ كرم الله وجهه في طلحة حين رآه مقتولاً يوم الجَمَل . وورد في ضدّ هذه الصفة، وهو المشاركة في الرفاهية والخذلان في الشدائد أمثالٌ كثيرة من الشعر، كقول الشاعر :

إذَا ما عَلُوا قَالُوا : أبُونَا وأمُّنَا
ولَيْسَ لَهُمْ عَالِينَ أمٌّ ولا أبُ

وقول الآخـــر :

مَوالِينَـــا إذَا افْتَقَـــرُوا إلَيْنَـــا
وإنْ أثْرَوْا فَلَـيْسَ لَنَـا مَـوالِي

وقول الآخـــر :

أبُـو رَاشِـدٍ مَـولاَيَ مَـاطُلَّ حَقُّهُ
فَإنْ كَانَتِ الأخْرَى فَمَولَى بَنِي سَهْمِ.

إنَّ لِلَّهِ جُنُوداً مِنْهَا العَسَلُ .

الجُنُود جمع جُنْد، بضمّ فسكون، وهو العسكر . ويطلق على الأعوان وعلى المدينة، يقال : الشام خمسة أجْنَاد، ويراد مدُنُها الخَمْس ؛ وعلى الصِّنف من الخَلْقِ على حِدَة . والعسل معروف . وهذا الكلام وقع لمعاوية، رحمه الله، لما بعث عمرو بن العاصى أميرا على مصر، وفيها محمد بن أبى بكر أميرا عن عليّ، كرم الله وجهه . فاقتتلا، فقُتل محمد بن أبي بكر واستولى عمرو على مصر . فبلغ ذلك أمير المؤمنين عليًا، كرم الله وجهه، فأنفذ الى مصر الأشْتَر النخعيّ في جيش، فزعموا أنه لما سمعه معاوية دسّ الى دِهْقَانٍ كان بالعريش أن يقتل الأشتر، وجعل للدِّهْقَانِ أن يُتْرَكَ له خراجُ عشرين سنة . فسأل الدِّهقانُ أيُّ الشراب أحبُّ الى الأشتر، فقيل له العسل، فأتاه بعسل مسموم . فما استقرَّ في جوفه إلاّ وقد تَلِف . فبلغ معاوية ذلك فقال : إنَّ لِلَّهِ جُنُوداً مِنْهَا

العَسَلُ . (ولا أدري أهو أبُو عُذْرِه أم كان مسبوقًا . وظاهر كلام صاحب **القاموس** أن الجند في هذا المثل أريد به المعنى الأخير من معانيه السابقة، وليس بظاهر، إذ لا معنى لأن يقال في هذا أريد به المعنى الأخير من معانيه السابقة، والقصة أن لله أصنافا من الخلق منها العسل،)[55] وإنما القصد أنه أعوانٌ، لا سيما وكلامه يُحْكَى تارة بلفظ : إن لِلّهِ جُنْداً في العَسَل، وبهذه العبارة رأيته في **تأريخ المسعودي**، والله أعلم .

إنَّ فِي المَرْتَعَةِ لِكُلٍّ قَوْمٍ مَقْنَعَة .

يقال : رَتَعَ لَوْنُ الرَّجُلِ رُتُوعًا إذا تَغَيَّرَ وذَبُلَ ؛ ورتَعَتِ الدابَّةُ الذُّبَابَ : طَرَدَتْه ؛ ورتِع بالكسر يرتَع : إذا لعِب . والمَرتَعَة على وزن مَرْحَلَة : السَّعَةُ والدَّعَةُ، وتُطلَق أيضا على الرَّوْضة، وعلى الأصوات في اللعب، وعلى القطعة من الطعام ومن الشراب ومن الصيد . ويقال للحمقاء إذا أثْرَت : وقَعْتِ في مَرْتَعَةٍ فَعِيشِي، أي : وقعتِ في خِصْب . والمَقْنَعَة : الغِنَى، وهي من القَنَاعة، أي : في المرتعة لكلِ أحد ما يَقْنَعُ به ويستكفي . والمعنى ظاهر . [56]

إنَّ فِي مِضٍّ لَمَطْمَعًا .

مِضٍّ بكسر الميم وكسر الضاد المعجمة المثقلة : كلمةٌ تستعمل بمعنى لا . قال : سألت هل وصل، فقالت : مِضٍّ، وهي حكاية صوت الشفتين يكون معه نوع استهزاء، وهي مع ذلك مُطمِعَةٌ في الاجابة . ومن ثمَّ قالوا : **إنَّ في مِضٍّ لَمَطْمَعًا . ويشبه أن يُضرب عند التحريض على طلب الشيء وتَرجِّيه ما دامت مَخَائِلُ بُلُوغِه وإن ضَعُفَت .**

إنَّ اللّهَ لَيُؤَيِّدُ هَذَا الدِّينَ بِالرَّجُلِ الفَاجِرِ .

هو كلام النبي صلَّى الله عليه وسلم قاله في شأن قُزْمَانَ بْنِ الحَارث لما أعْجَبَ المسلمين قتالُه وغَنَاؤُه، ثم جُرِحَ وآلمته الجراحة، فاستعجل وقتل نفسه . وقد كان صلَّى الله عليه وسلم أخبرهم قبل ذلك أنه من أهل النار، وهو معنى ما في خبر آخر : **إنَّ اللّهَ يُؤَيِّدُ هَذا الدِّينَ بأقْوامٍ لا خَلاقَ لَهُم** . وإنما ذلك لأن كلّ من دخل في

55) ما بين قوسين سقط من ب.
56) ورد في **لسان العرب** : إنَّ فِي مِضٍّ وبِضٍّ لَمَطْمَعًا

سواد المسلمين فهو قد يجاهد العدوّ ويدافع عن المسلمين ويَقْصِمُ ظهور الكافرين، حتى يتأيد الدين بتعزز المؤمنين، ويضعف الكُفْرُ بذلّ الكافرين، طلبًا لإعلاء كلمة الله تعالى، وابتغاءً لمرضاته، فنفع (وانتفع . وقد يفعل ذلك لغير إعلاء كلمة الله أو يُحْبِطُ العملَ بوجه من الوجوه، فَنَفَع)[57] ولم ينتفع، عياذاً بالله تعالى ! وما ذكره الشارع، صلوات الله وسلامه عليه، غيرُ مُخْتَصّ بالجهاد، بل في كلّ وجه من وجوه التأييد كسياسة الأمَّة، والحكم بين الناس، وتعليم العلم، وقبض الأموال وتفريقها، وبناء المساجد والأسوار والقناطر، ونحو ذلك ممَّا لا ينحصر . وذلك واقع لا محالة، كما أخبر به صلَّى الله عليه وسلَّم . وسيأتي تشبيهُ العَالِم غيرِ العامِل بالمصباح يضيء للناس وهو يحترق، نسأل اله الكريم، ربَّ العرش العظيم، أن يَقِيَنا شرَّ هذه الورطة، ويَقِينَا شرَّ أنفُسِنا وشرَّ كلِّ ذِي شرّ !

إنَّ اللَّهَ لَنْ يَرفَعَ شيئًا مِنَ الدُّنْيَا إلاَّ وضَعَهُ .

هو كلام النبي صلَّى الله عليه وسلَّم أيضا قاله في شأن ناقته، وكانت لا تُسْبَق . فجاء أعرابيٌّ على قَعود فسبقها . فشقَّ ذلك على المسلمين، فقال النبي صلَّى الله عليه وسلَّم ما ذُكِر . وكلّ ذلك في الصحيح .

إنَّ اللُّهَى تَفْتَحُ اللَّهَى .

اللُّهَى الأولُ بضمّ اللام جمع لُهْوَة بضمّ اللام، وتفتح أيضا، وهي العَطِيَّةُ أو أفضلُ العطايا ؛ وكذا اللُّهْيَة، وتطلقُ على الألف من الدنانير والدراهم . قال النابغة :

عِظَامُ اللُّهَى أولاَدُ عُذرَةَ إنَّهُم لَهَا مِيمُ يَسْتَلْهُونَهَا بِالحَناجر[58]

وقال الحماسِّي :

لَعمري لَئِنْ أعْمَرتُمُ السِّجْنَ خَالِداً وأوْطَأتُمُوهُ وِطْأَةَ المُتَثَاقِلِ
لَقَد كَانَ يُروِي المَشْرَفِيَّ بِكَفِّهِ ويُعْطِي اللُّهَى في كُلِّ حَقٍّ وبَاطِلِ

واللُّهْوَةُ أيضا ما يرميه الطاحن بيده في فم الرَّحَى، وكان هذا هو الأصل . واللَّهَى الثاني بفتح اللام جمع لَهَاة، على مثال قَنَاة، وهي اللُّحْمَةُ المُشْرِفة على الحَلْق، والجمع بإسقاط الهاء، وقد مدّه الشاعر ضرورة في قوله :

57) ما بين قوسين سقط من أ.
58) ورد هذا البيت في لسان العرب (مادة لها) هكذا :
عِظَامُ اللُّهَا أبنَاءُ ابْنَاءِ عُذرَةٍ لَهَا مِيمُ يَسْتَلْهُونَهَا بِالجَراجِرِ

يَـالَـكَ مِـنْ تَـمْرٍ ومِـنْ شِيشَـاءٍ يَـنْشَـبُ فِي المَـسْعَـلِ والّـلهَـاءِ !

ومعنى المثل أن الاحسان، وتَـوارُدَ العطايا الحِـسَـان، يُـطْـلِـقُ اللسان، بالثناء والشُّكْـران . وهذا المثل وقع في كلام الكُـميت، قيل له : لِـمَ صارت أشعارك في بني أميـّة أطْـيَـبَ منها في بني هاشم ؟ فقال : إنّ الّـلهَـى تفْـتَـحُ الّـلهَـى ! ومن أظرف ما اتفق في هذا ما حكى شمس الدين بنُ خَـلـّكان أن المعتمـدَ بن عبـّاد الأندلسيّ ذكر يوما قولَ أبي الطيب :

إذَا ظَـفِـرَتْ مِـنْـكَ الـعُـيُـونُ بِـنَـظْـرَةٍ أثَـابَ بِـهَـا مُـعْـيِـي المَـطِـيِّ وَرَازِمُـهْ

فجعل يردّده استحسانـًا له، وفي الحضرة عبدُ الجليل بنُ وهْـبُـون، فقال ارتجالا : -

لَـئِـنْ جادَ شِـعرُ ابْـنِ الحُـسَـيْنِ فإنـّما تُـجيدُ العَـطايا والـّلهى تَـفتَـحُ الـّلهى

تَـنَـبـّأَ عُـجبًا بِـالقَـريضِ ولَـو دَرَى بِـأنـّكَ تَـرْوِي شِـعْـرَهُ لَـتَـألـّهَـا

إنـّمَـا يَـجْـزِي الفَـتَـى لَـيْـسَ الجَـمَـلُ .

يضرب هذا المثل في المكافأة . وهو للبيد بن ربيعة في شعر له يقول فيه :

فَـإذَا أقْـرِضْـتَ قَـرضًـا فَـاجْـزِهِ إنـّما يَـجْـزِي الفَـتَـى لَـيْـسَ الجَـمَـلْ

وإذا رُمتَ رَحِـيـلاً فَـارْتَـحِـلْ واعْـصِ مايَـأْمُـرُ تَـوخيمُ الكَـسَـلْ

واكْـذِبِ النـّفْـسَ إذَا حَـدّثْـتَـهَـا إنّ صِـدْقَ النـّفْـسِ يُـزْرِي بِـالأمَـلْ

وهذه كلـّها أمثال .

إنـّمَـا سُـمّـيتَ هَـانِـئـًا لِـتَـهْـنَـأَ .

التسمية معروفة . وهَـانِـيء اسم رجل، والهَـنْـأُ : الاعطاء ؛ يقال : هَـنَـأْتُـه هَـنْـئـًا إذا أعْـطَـيْـتَـه وَرَفَـدْتَـه، والاسم الهِـنْءُ بالكسر ، قيل : وبالفتح أيضا، وهو العطاء ويقال : هَـنَـأَهُ شهراً أو شهرين إذا عاله، هَـنْـئـًا وهَـنَـاءَةً . قال الشاعر :

هَـنَـأْتُـهُـم حَـتّى أعَـانَ عَـلَـيْـهِـمُ سَـوامي السِّـماكِ ذِي السلاح السَّـواجِـمِ

يضرب هذا المثل في الحضّ على البذل والافضال . وعن الكسائي : وسمعت أعرابيا يقول : إنـّما سُـمّـيتَ هَـانِـئـًا لِـتَـهْـنَـأَ، أي لِـتَـعُـولَ وتَـكْـفِـي .

قلت : وينبغي أن يضرب عند تحريض كلّ ذي وصف، أو لقب أو حرفة على فعل ما

يوجبه ذلك الوصف، إمّا حقيقةً كالقاضي للقضاء بين الناس، والمحتسب للاحتساب، والمعلم للتعليم، والصائغ للصياغة ونحو ذلك ؛ وإمّا على الاشتقاق فقط، كالافضال لمن اسمه فَضْل، والحَرْث لمن اسمه حارث، والهِنْءُ لمن اسمه هانىء، فإن ذلك هو أصل المثل . فيقال للذي تسمَّى بالقاضي وتأبى عن الحكم : إنّما سميّت هانئا لتهنأ، أي قيل لك قاض لتقضي بين الناس، ونحو هذا .

إنَّمَا اشْتَرَيْتُ الغَنَمَ حِذَارَ العَازِبَةِ .

الاشتراء والغنم معروفان ؛ والعَازِبَةُ : الابل، والعُزُوب بالزاي في الأصل : الذَّهَابُ والبُعْد . وعَزَبَت الماشيةُ، وعَزَبَ بها ربُّها : بَعُدَ بها في المرْعَى ولَمْ تَرُحْ . ورجل عزيب : بعُد عن أهله وماله . والعَزِيب من الابل والشاء : ما يبعُد عن أهله في المَرْعَى . وكان لرجل إبلٌ فباعها واشترى غنمًا لئلا تَعْزُب ثم عَزَبَتْ غَنَمُه فقال : إنّما اشْتَرَيْتُ الغَنَمَ حِذَارَ العَازِبَة، فذهبت مثلا . ومَضْرِبُه واضحٌ من هذا .

إنَّمَا القَرْمُ مِنَ الأفِيلِ .

القَرْمُ بِالفَتْح : الفَحْلُ من الابل، وكذا الأقْرَمُ : والأفِيلُ، على مثال أمِير : الفَصِيلُ وابْنُ المَخَاضِ فما فوقه ؛ والجمع إفَال، على مثال جِبَال . قال زهير :

فَأصْبَحَ يُجْرِي فيهِمُ مِن تِلادِكُم مَغَانِمَ شَتَّى مِن إفَالٍ مُزَنَّمِ

وقــال الآخر :

فَإني لاَ تَبْكِي عَلَيَّ إفَالُها إذا شَبِعَتْ مِن رِوضِ أوطَانِها بَقْلاَ

والمعنى أن الجمل إنما يكون قَرْمًا بعد ما يكونُ صغيراً أفِيلاً . فيضرب في أن الأمر الكبير يَنْشَأُ عن الأمر الصغير، على نحوما مرَّ في **أنَّ السَّقَطَ يُحْرِقُ الحَرَجَةَ**، وما يأتي في قولهم : **العَصَا مِنَ العُصَيَّةِ، ونحوه كثير** .

إنَّمَا هُوَ كَبَارِحِ الأرْوَى .

البَارِحُ من الظِّباء والطير وغيرها : ما ولاَّك مَيَاسِرَه، وهو أن يمرّ من مَيْمَنَتِكَ الى مَيْسَرَتِك . يقال : بَرَح الظبي ونحوه، بفتح الراء، بُروحًا، فهو بارح ؛ وعكسه : السَّانح. والعرب تَتيمّنُ بالسانح، وتَتشاءمُ بِالبارح. وسنذكر ما في ذلك بعده إن

شاء الله تعالى . والأرْوَى، بفتح الهمزة والواو مقصوراً، جمع أرْوِيَّة، بضمّ الهمزة وكسرها مع تشديد الياء، أو اسمُ جمعٍ لها، والأرْوِيَّةُ : أنْثَى الأوْعَال . ويضرب هذا المثل للأمر النادر القليل، لأن الأرْوَى مَسَاكِنُها قُنَنُ الجِبال . فلا يُوجَدُ منها بارحٌ في الدهر إلا نادراً، ولا سانحٌ.

إنَّ مَعَ اليَوْمِ غَداً.

يضرب في تَنَقُّل الحالات، وتَبَدُّل الساعات . وذلك لأن الخير والشرَّ لما كانا متقابلين، وكان زَمَانَاهُما في علم الله تعالى مقسَّطَيْن مقدَّرين، عُلِمَ أن الشرَّ متى حدث في زمنٍ فللخير زمانٌ يقابله يَحْدُثُ فيه، فعبَّر عن هذين الزمنين باليوم والغد، لما بين اليوم والغد من التقابل، بل كالذي بين الزمنين . فإذا وقع بك شرٌّ فذلك يوم الشرّ، وللخير زمانٌ يُتَرَقَّبُ هو عند ذلك اليوم، فتقول تَسَلِّيًا : إنَّ مَعَ اليَوْمِ غَداً . وكذا في العكس، كما قيل :

يامَن يَخافُ أنْ يَكونَ ما يَكـــون سَرمَـــدا
أمـا سمِـعْتَ قولَهُـم إنَّ مَعَ اليومِ غدا ؟

وقال عليُّ بنُ الجَهْمْ لما حبسه المُتَوَكِّلُ :

صَبْراً فَإنَّ اليَومَ يَتْبَعُهُ غَد ويَدُ الخَلِيفَةِ لا تُطاولُها يَدُ
ولِكلّ خيـر معقب ولربَّمـا أجلى لك المكروه عما يُحمد
لا يُؤيِسَنَّكَ مِن تَفَرُّجِ كُربَةٍ خَطْبٌ رَماكَ به الزَّمانُ الأنكَدُ
كَم [مِن] عَلِيلٍ قَد تَخَطَّاهُ الرَّدَى فَنَجا، وماتَ طَبِيبُهُ والعُوَّدُ !

وقال مَعْنُ بْنُ أوْسٍ المُزَنِيّ :

وإنِّي أخوكَ الدَّائِمُ العَهْدِ لم أخن وإنْ زَالَ خَصْمٌ أو نَبابِكَ مَنزِلُ(59)
وإنْ سُؤتَنِي يَومًا صَبَرْتُ الى غَدٍ لِيُعْقِبَ يومًا آخَرٌ مِنْكَ أوَّلُ(60)

ولما خرج المتوكِّلُ العبَّاسيّ الى دمشق، ركب يوما الى رُصَافَةِ هشام بن عبد الملك بن مروان، فنظر الى قصورها . ثم خرج فرأى ديْرا هنالك قديما حسن البناء بين مزارع وأشجار

---

59) ورد عجز هذا البيت في **الحماسة** (2 : 8) هكذا : إن أبْزَاكَ خَصْمٌ أو نَبا بِكَ مَنْزِلُ وأبزاه : قهره وبطش به.
وورد في **زهر الآداب** (2 : 816) هكذا : إذا نَابَ خَطْبٌ أو نَبَابِكَ مَنْزِلُ

60) في **الحماسة وزهر الآداب** معا : لِيُعْقِبَ يومًا آخَرٌ مِنْكَ مُقْبِلُ

ورياض وأنهار، فدخله . فبينما هو يطوف به إذ رأى رقعة بصدره . فأمر بها فأزيلت وأوتي بها، فإذا فيها :

يَا مَنْزِلاً بِالدَّيْرِ أصْبَحَ خَالِيًا ... تَلاَعَبَ فِيهِ شَمْأَلٌ ودَبُورُ
كَأنَّكَ لَمْ يَسْكُنْكَ بِيضٌ نَواعم ... ولَم يتَبَخْتَرْ في فِنَائِكَ حُورُ
وأبْنَاءُ أمْلاكٍ غَواشِم سَادَةٌ ... صَغِيرُهُمُ عِنْدَ الأنامِ كَبِيرُ
إذَا لَبِسوا ادراعَهُم، فَعَوابِسٌ ... وإنْ لَبِسُوا تِيجَانَهُمْ فَبُدورُ
عَلَى أنَّهُمْ يَوْمَ الّلقاءِ ضَراغِمٌ ... وأيْدِيهِمُ يَومَ العَطَاءِ بُحُورُ
لَيالِي هِشامٌ بِالرُّصافَةِ قاطِنٌ ... وفِيكَ ابْنُهُ يادَيْرُ وهْوَ أمِيرُ
إذ الدَّهْرُ غَضٌّ والخِلافَةُ لَدنَةٌ ... وعَيْشُ بَنِي مَروَانَ فِيكَ نَضِيرُ
ورَوضُكَ مُرتادٌ ولَونُكَ مُزْهِرٌ ... وعَيْشُ بَنِي مَروَانَ فِيكَ قَرِيرُ
بَلَى ! فَسَقاكَ الّلهُ صَوبَ غَمامَةٍ ... عَلَيْكَ لَها بَعْدَ الرَّواحِ بُكُورُ
تَذَكَّرتُ قَومِي خَالِيًا فَبَكَيْتُهم ... بِشَجْوٍ، ومِثْلِي بالبُكَاءِ جَدِيرُ
فَعزَّيْتُ نَفسِي وهيَ نَفسٌ إذا جرى ... لَها ذِكْرُ قَوْمِي أنَّةٌ وزَفِيرُ
لَعَلَّ زَمانًا جا عَلَيهِم فَلَم يَكُن ... لَهُم بِالَّذِي تَهوَى النُّفوسُ يَدُورُ
فَيَفرَحُ مَحْزُونٌ ويَنْعَمُ بائِسٌ ... ويُطلَقُ مِن ضِيقِ الوثاقِ أسِيرُ
رُويْدَكَ إنَّ اليَومَ يَتْبعُهُ غَدٌ ... وإنَّ صرُوفَ الدَّائِراتِ تَدُورُ

فلمّا قرأها المتوكل ارتاع وتطيَّر وقال : أعوذ بالله من شرّ أقداره ! واستدعى صاحب الدير وسأله عن أمر الرقعة، فقال : لا علم لي بها ! ويذكر أنه رجع حينئذ الى بغداد، فلم يلبث إلا أياما قلائل حتّى قتله ابنُه المُنْتَصِر، رحمه الله تعالى . وقال الحَمَاسِيُّ :

عَسَى سائِلٌ ذُو حاجَةٍ إنْ مَنَعتَهُ ... مِن اليَوم سُؤْلاً أنْ يَكُونَ لَهُ غَدُ

والشعر في هذا المعنى كثير .

إنَّ مَنْ بِالنَّجَفِ مِنْ ذِي قُدْرَةٍ لَقَرِيبٌ .

النَّجَفُ، بفتحتين : الموضع المرتفع لا يعلوه الماء . والنَّجَفُ هنا : موضع بقرب الكوفة . وكان قوم من أهل الكوفة فروا من الطاعون الى هذا الموضع، فقال شُرَيْحٍ : إنَّ

مَنْ بِالنَّجَفِ مِنْ ذِي قُدرَةٍ لَقَرِيب . يضرب مثلا للأحداث والأقدار، وأن لا مَلْجَأَ منها لِدَيَّار .

إنَّ مِنَ البَيَانِ لَسِحْراً.

هذا من كلامه صلّى الله عليه وسلّم، وتقدّم شرحه في فضل الشعر . وسببه أن بني تميم وفدوا على النبي صلّى الله عليه وسلّم الزّبْرِقَانُ بْنُ بَدر وعَمْرُو بنُ الأهْتَم، فسأل النبي صلّى الله عليه وسلّم عمراً يوما عن الزّبْرِقَان بحضوره فقال : مطاع في أدنيه، شَديدُ العَارِضَةِ فِي قَوْمِه، مَانِعٌ لِمَا وَرَاءَ ظَهْرِه . فقال الزّبْرِقَان : يا رسول الله، إنه لَيَعْلَمُ مني أكثر من ذلك ولكنه حسدني . فقال عمرو : أما والله [إنّه] لزمن المروءة، ضَيِّقُ العَطَن، لَئِيمُ الخَال، أحْمَقُ الولد. ثم قال : والله ، يا رسول الله ما كذبت في الأولى، ولقد صدقت في الأخرى، ولكني [رجل] رضيتُ فقلتُ أحسن ما علمت، وغَضِبْتُ فقلتُ أقبح ما علمت . فقال صلّى الله عليه وسلّم : إن من البيان لَسِحْراً ! وقد بيّن ابن الأهتم بكلامه المذكور وجه الأمر في باب المدح والذمّ : فإن العرب كثيراً ما يمدحون الشيء ثم يَذُمُّونَه بعينه، حتى يكاد العقل يحكم بتناقض كلامهم، وتَهَافُتِ مَقالِهم . وليس فيه مناقضة، وإنما ذلك لاختلاف النظر، كما قال عمرو المذكور .

وبيان ذلك أن جميع الكائنات التي هي بصدد التغيرات والآفات لا تخلو عن صفة كمال يَتَجَلَّى الله بها فيها بالوصف الجمالي، وصفةِ نقصان يتجلى الله تعالى بها فيها بالوصف الجلالي . فكلّ مخلوق مشتملٌ على محاسن ومساوىء، إمّا تحقيقا، كرجل يكون جوادًا وحكيما وهو جبان أو شرّيرٌ أو قبيح المنظر؛ وإمّا بوجه واعتبار، وذلك ايضا : إمّا تحقيقًا لاختلاف النظر بحسب تَعَدُّدِ المُوجِبِ وتَبَايُنِه، إمّا عادة وشرعًا، كسفك الدماء ظلمًا يُمْدَحُ عادةً ويُذَمّ شرعًا ؛ وكالصمت والتعفّف يكون غالبًا بالعكس، أو عادة وعادة، ككثير من أوصاف الخِلْقَة وأنواع الزينة والملابس والمراكب ونحو ذلك ممّا تختلف فيه العادات استحسانا واستقباحا، وقد يختلف الأمر بحسب المكان والزمان والأقران والأحوال، وذلك أمر لا ينحصر. وإمّا تخييلاً، وذلك إمّا بحسب التشبيه كالورد يحسُنُ عندما يُشبَّه بالخدود النواضر، ويَقْبُح عندما يشبّه بسُرْمِ البغل؛ وإما بحسب النظر

والاعتماد على شبهة كالعسل، بعد كونه حسنا يقبح من حيث إنه قَيْءُ زُنْبُور ؛ وكبذل المال جوداً وسخاءً بعد كونه حسنًا يقبح من حيث إنه إتلافٌ للأموال وإضاعة لها وإفقارٌ مُحْوِجٌ الى التذلّل بالسؤال . وهذا تخييل أدّى قومًا من البخلاء الى التصريح بالثناءعلى البخل الذي أجمع العقلاء على ذمّه . وألّف سَهْلُ بْنُ هَارُونَ منهم في ذلك تأليفا، وقال قائلهم :

يارُبَّ جودٍ جرَّ فَقرَ امْرِىءٍ فَقامَ في النّاسِ مَقامَ الذّلِيل
فَاشْدُدْ عَلَى مَالِكَ واسْتَبْقِهِ فَالبُخْلُ خَيْرٌ مِن سُؤال البَخِيل

وقد عرفت بهذه الجملة أنه يمكنك أن تمدح الشيء وتذمّه بحسب اختلاف اعتباراته، من غير تهافت في الكلام ولا تناقض : فإنّ التناقض غير لازم، إلاّ لو أردت حُسْنًا وقُبْحًا، ومدحًا وذمًّا على محلّ واحد باعتبار واحد، لكن توارده على محلَّيْن ؛ أو باعتبارين كما بيّنا . والتفطّنُ لهذه المحالّ واستخراج هذه الاعتبارات الدقيقة هو مَرْمَى البُلَغَاء، ومَجَالُ فرسان الشعراء والخطباء، وهو مَحَطُّ البيان والسحر الحلال، كما وقع في القصّة السابقة : فليس الكلام بمجرد الجمع والتلفيق، ولا الشعر بمجرد الوزن والتقفية، كما قيل :

إذَا كُنتَ لاَ تدري سِوى الوزنِ وحْدَه فَقُلْ أنا وزّانٌ وما أنا شاعِرُ

وهذا كلام ليس من غرضنا، ولكن الحديث شجون . وسنذكر بعدُ ما للشعراء في مدح الشيب والهرم وذمّه، ومدح طول الليل وذمّه، ونحو ذلك . ولنذكر الآن بعض ما ورد ممّا يدلّ على ما ذكرنا، زيادة على القصّة المذكورة . قال مَسْلَمَةُ بنُ عبدِ الملك لأخيه هشام : كيف تطمع في الخلافة وأنت بخيل وأنت جبان؟ فقال : لأني حليم وأني عفيف . وقالت للحُصَيْن بن المُنْذِرِ امرأتُه : كيف سُدْتَ وأنت دَمِيمٌ بخيل ؟ فقال : لأني سديدُ الرأي شديد الاقدام .

وصعد خالد بن عبد الله القَسْرِيُّ مِنْبَرَ مَكّة أميراً للوليد بن عبد الملك، فأثنى على الحجاج خيرا . فلمّا كانت الجمعة الثانية، وقد مات الوليد، ورد عليه كتابُ سليمان يأمره بشتم الحجاج وذكر عيوبه وإظهار البراءة منه . فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : إن إبليس كان يظهر من طاعة الله عزّ وجلّ ما كانت الملائكة ترى له بها فضلا، وكان الله [قد] علم من غشه ما خفي عن ملائكته . فلمّا أراد فضيحته ابتلاه بالسجود لآدم،

فظهر لهم ما خفي عنهم فلعنوه . وإن الحجاج كان يظهر من طاعة أمير المؤمنين ما كنّا نرى له بها فضلا، وكان الله قد أطلع أمير المؤمنين على غشه أو نحوه[61] فالعنوه لعنه الله ! ثم نزل . وكان العباس بن علي عمُّ المنصور يأخذ الكأس بيده ثم يقول لها : أمّا المالَ فَتُتْلِفِين، وأمّا المُروءَةَ فَتُخْلِقِين، وأمّا الدِّينَ فتُفْسِدِين . ويسكت ساعة ثم يقول : أمّا النَّفْسَ فتُسْخِين، وأمّا القَلْبَ فَتُشَجِّعِين، وأمّا الهَمَّ فَتَطْرُدِين ؛ أتُراكِ مِنِّي تُفْلِتين ؟ ثم يَشْرَبُها .

ويحكى أن عيسى عليه الصلاة والسلام ما عاب شيئا قطّ، فمرَّ يوما بكلب ميت فقال أصحابه : مَا أنْتَنَ رِيحَه ! فقال عيسى عليه السلام : ما أحْسَنَ بَيَاضَ أسْنَانِه ! وكتب يَزِيدُ بن مُعَاوية في كتاب له الى عُبَيْدِ اللّه بن زِيَاد، حين ولاَّهُ محاربة الحُسَيْن رضي الله عنه وأرضاه وأرْغَمَ أنُوفَ واتِرِيه، وكان قبل ذلك سيِّء الاعتقاد فيه : أمّا بعد، فإن الممدوح مَسْبُوبٌ يومًا، وإن المَسْبُوبَ ممدوحٌ يوما . وما ورد من هذا المعنى كثير، فلنقتصر لئلا نطيل.

إنَّ مِنَ الشِّعْرِ لَحِكْمَةً .

تقدَّم هذا أيضا في فضل الشعر مبَيَّنًا . وقد حُكِي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال لكعب الأحبار : ياكعب، هل تَجِدُ للشعراء ذكراً في التَّوْرَاة ؟ فقال كعب : أجدُ في التوراة قومًا من ولد إسماعيل أنا جيلُهم في صدورهم، ينطقون بالحكمة ويضربون الأمثال، لا نعلمهم إلا العرب .

إنَّ مِنَ الشَّرِّ خِياراً .

يضرب عند تفاوت ما بين الشَّرَّيْن حتى يكون الأدنى خيراً بالقياس الى الأعلى . وهو قريب من قولهم : بَعْضُ الشَّرِّ أهْوَنُ مِن بَعْض . وسيأتي .

إنَّ مِنْكُمْ مُنَفِّرِينَ .

قد يُتَمَثَّل به . وهو من كلام النبي صلَّى الله عليه وسلَّم حين شُكِيَ إليه تطويلُ أصحابه بالناس في الصلاة، فقيل له : ما كدنا ندرك الصلاة ممَّا يُطوِّلُ بنا فلان، فغضب وقال ذلك وقال : فَمَنْ صَلَّى مِنْكُم بِالنَّاسِ فَلْيُخَفِّفْ، فَإنَّ فِيهم الضَّعِيفَ والمَرِيضَ وذَا الحَاجَة، أو كما قال صلَّى الله عليه وسلَّم . والحديث في الصحيح .

---

61) في ب : أو نحو هذا

إنَّ الهَدَايَا عَلَى مِقْدار مُهْدِيهَا .

وهو موجود في شعر وهو :

جَاءَتْ سُلَيْمانَ يومَ العَرضِ هُدهُدَةٌ
أهْدَتْ إلَيهِ جَراداً كانَ في فِيها
وأنشَدَتْ بِلِسانِ الحَالِ قَائِلةً:
إنَّ الهَدايَا عَلى مِقْدارِ مُهْدِيها
لَو كانَ يُهْدَى الى الانْسانِ قِيمته
لَكانَ يُهْدَى لَک الدُنْيا وما فِيها

وهذه القصَّة تذكر في حرف الميم إن شاء الله تعالى . والمثل ظاهر المعنى .

أهْلُ مَكَّةَ أعْرَفُ بِشِعَابِهَا .

مكَّة معروفة، زادها الله شرفا . والشّعابُ جمع شِعْب، وهو من الأرض بكسر الشين، ومن الناس بفتحها . وهذا مثل مشهور شائع الاستعمال، يضرب للمباشر للشيء والمخالط له أنه أخْبَرُ به وأبْصَرُ بحاله وأعرف، كقول القائل : وصَاحِبُ البَيْتِ أدرَى بالَّذِي فِيهِ

أيْنَمَا أذْهَبْ ألْقَ سَعْداً .

قاله الأضْبَطُ بْنُ قُرِيْعٍ السَّعْدِيُّ، وكان غَاضَبَ قومَه سَعْدَ بنَ مَنَاةَ بن تميم، فتجوّل في القبائل . فلما لم يجد منهم من يَحْمَدُ عِشْرَتَه، رجع وقال : أيْنَمَا أذهَبْ ألقَ سَعْداً، (أي) أينما ذهبت من الأرض ألْقَ قومًا ألْقَى منهم مثلَ الذي لَقِيتُ من سعد . ومَضْرِبُ المثل واضح، وسيأتي أيضا.

أيُّ دَاءٍ أدْوَى مِنَ البُخْلِ ؟.

الدّاءُ : المرض . يقال : داء الرجل يداء دوءا وداءً وادوا، فهو داء ومديء، وأدأته أيضا : أصبته بمرض، لازمٌ متعد والبخل معروف . وهذا من كلام النبي صلّى الله عليه وسلّم، قَدمَ عليه نَفَرٌ من الأنصار فقال : من سَيِّدُكم ؟ قالوا الجَدُّ بنُ قَيْس، على بُخْلٍ فِيه . فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : وأيُّ دَاءٍ أدوى من البخل ؟ بل سيّدكم الأغرُّ الأبيض عَمرُو بن الجَمُوح . فقال شاعرهم في ذلك :

وقالَ رَسولُ اللّهِ والحَقُّ قَولُهُ
لِمَن قالَ منّا منْ تَعُدُّون سَيِّدَا

فَقُلْنا لَه : جدُّ بنُ قَيْسٍ على التّي
نُبَخِّلُهُ فِيها وإنْ كانَ أسْوَدَا :

فَتىً ما تَخَطَّى خُطوةً لِدَنِيَّةٍ
ولاَ مَدَّ في يَوم الى سوءَةٍ يَدا.

فَسَوَّدَ عَمْرَو بْنَ الجَمُوحِ لِجُوده
وحُقَّ لِعَمْرو بالنَّدَى أن يُسَوَّدَا :

إذا جَاءه السُّؤّالُ أنْهَبَ مالَهُ
وقالَ خُذُوهُ إنَّهُ عَائِدٌ غَدَا.

فَلَو كُنتَ، باجَدُّ بنُ قَيس على التّي
عَلى مِثْلِها عَمرٌ لَكُنتَ المُسَوَّدَا !

إيّاك أعْنِي، واسْمَعِي يَا جَارة !.

هذا مثل مشهور الاستعمال عند التعريض بإظهارك شيئا وأنت تريد شيئا، وهو لنَهْشَل بن مَالِكٍ الفَزَارِي في شعر له . وسببه أنه خرج يريد النُّعْمَانَ بن المُنْذِر. فمرَّ ببعض أحياء طَيِّء، فسأل من سَيِّدُ الحيّ، فدُلّ على حَارِثَةَ بْنِ لأمٍ الطّائيِّ، فقصد رَحْلَه، فلم يُصِبْه حاضراً . فقالت له أخت حارثة : انزل على الرحب والسعة حتى يَلْحَقَ حارثة . فأنزلته وأكرمت مثواه، وأحسنت قِراه . ثم إنه رآها وقد خرجت من خباء الى خباء . فرأى جمالا باهرا، وحسنا فاتنا . وكانت عَقِيلةَ قومها، وسيّدة نساءِ حَيِّها . فوقعت من قلبه كلَّ مَوقِع، وجعل يقول :

يا أُخْتَ خَيْرِ البَدْوِ والحَضارَه.
كَيْفَ تَرَيْنَ في فَتَى فَزَارَهْ ؟

أصْبَحَ يَهْوَى حُرَّةً مِعْطَارَهْ
إيّاكِ أعْنِي واسْمَعِي يَا جَارَة !

فعرفت أنه يريدها، فقالت : ما هذا بِقول ذي عقلٍ أريب، ولا رأي مصيب، ولا أنف نجيب .

أقِم ما أقَمْتَ مكرما، وارتحل إذا ارتحلت مسلما ! فاستحيى وقال : واسَوْأتَاه ! فقالت : صدقت ! وارتحل وأتى النعمان، فأكرمه وحياه فلمَّا رجع، نزل على أخيها حارثة، وتبعت نفسه الجارية، وكان جميلا محبوبا . فأرسلت إليه الجارية : إن كانت لك حاجة فاخطبني الى أخي، فإني سريعة الى ذلك . فخطبها وتزوَّجها، فسار بها الى أهله.

وممَّا يُنْسَجُ على هذا النَّمَط، ويُسْلَكُ في هذا السَّفَط، قولُهم :

أخَذَ فُلاَنٌ رُمَيْحَ أبِي سَعْد إذا اتكأ على العصا هَرِمًا . وأبو سَعْد قيل هو لقمان الحكيم، وقيل هو كنيةُ الكِبَرِ والهَرَم . وقيل مَرْثَد بن سعيد أحد وفْدِ عَادٍ، وقد تقدَّم . وقولهم : **أخَذَ بِلَغَبِ رَقَبَتِهِ**، بفتحتين، إذا أدركه . وقولهم :

أخَذَهُ بِحَذَافِيرِهِ، أي بأجمعه . ويقال بِحَذَامِيرِه، وبأجْمُعِهِ، وجَرَامِيزِهِ وجَذامِيرِه، وبرَبَّانِه، بفتح الراء وضمَّها، وبصَنَابَتِه وسَنَابَتِه، وبِجُلْمَتِه وجَلْمَتِه، وبزَغْبَرِه وزِغْبَرِه، وبزَوْبَرِه، وأنشدوا :

وإنْ قَالَ غاو مِنْ تَنُوخَ قَصِيدَةً

بِها حَرَبٌ عُدَّتْ عَلَيَّ بِزَوبَرَا

وبِزَابَرِه وبِصُبْرَتِهِ، وأصْبَارِهِ وبِزَأبَجِهِ وزأمَجِهِ، وبأصِيلَتِهِ، وبِطَلِيقَتِه، وبِأزْمَلِهِ . فهذه كلها معناها واحد . ويقال معنى : برُبَّانِه وبحداثته : بأوَّله وابتدائه. وقال :

وإنَّمَا العَيْشُ بِرُبَّانِه وأنْتَ من أفنانِه مُفْتَقِرْ

وقولهم :

إذَا وجَدَتِ الظِّبَاءُ المَاءَ فَلا عَبَاب، وإنْ لَم تَجِدهُ فَلا أبَاب، أي إن وجَدَتْه لم تَعُبَّ فيه، وإن لم تَجِده لم تَؤُبَّ إلَيه، أي لم تَتَهَيَّأْ لطلبه . وقولهم :

إذَا بَلَغَ الرَّجُلُ السِّتِّينَ، فَإيَّاهُ وإيَّا الشَّوَابّ ! وقولهم : **أكَلَ فُلاَنٌ رَوْقَهُ** إذا أسنَّ . والمعنى أنه أكَلَ شبابَه وأفناه . يقال : فَعَلَهُ في رَوْقِ شبابِه ورَيْقِه، أي أوَّلِه . وكأنه ماخوذ من رَوْقِ البيت ورِوَاقِه، وهي الشِّقَّةُ في مُقَدَّمه . وقولهم :

إنَّكَ بِمَحَشِّ صِدقٍ فَلا تَبْرَحْهُ ! أي أنك بموضع الخير فالتزمه ! والمَحَشُّ، بالحاء المهملة والشين المعجمة، على مثال مَرَدّ : الموضعُ الكثير الحشيش وقولهم :

إنَّهُ أحد الأحدِينَ، وواحِدُ الأحَدِينَ، وإحْدَى الإحَدِ،[62] أي لا مِثْلَ له، وهو أبلغ المدح . وقولُهم :

إنَّهُ ابْنُ إحداها[63] أي كريم الآباء والأمَّهات . وقولهم :

إنْ كذبْتَ فَحَلَبْتَ قَاعِدًا، أي ذهبت إبلك، فحلبت الغنم . وقولهم :

إنْ كذبْتَ فَشَرِبْتَ غَبُوقًا بارداً، أي ذهبت الماشية فشربت الماء . وقولهم :

إنَّ فُلاَنًا لَتَدِبُّ عَقَارِبُهُ، أي يعترض أعْرَاضَ الناس . وقولهم :

إنَّهُ لَفِي حُورٍ وبُورٍ، بضمّ الحاء المهملة والباء الموحَّدة، أي في ضلال أو في غير صنعة . وقولهم :

إنَّهُ لَوَابِصَةُ سَمْعٍ، أي يَثِقُ بِكلّ ما يسمع . وقولهم

إنَّمَا فُلاَنٌ هَامَةُ اليَوْمِ أو غَدٍ، إذا كان مسنّا، أي يموت في يومه أو غده . والهامة : طائر يخرج من رأس الميت . يزعمون أنه إذا قتل القتيل خرج من رأسه طائر، فلا يزال يصيح : اسقوني ! حتى يقتل قاتله، كما قيل :

باعَمْرُو، إلاّ تَدَعْ شَتْمِي ومَنْقَصَتِي
أضْرِبْكَ حَيْثُ تَقُولُ الهَامةُ : اسْقُونِي !

وقال دُرَيْدُ بن الصِّمَّة فيما نحن فيه :

وهَوَّن وجْدِي إنَّمَا هُوَ فَارِطٌ
إمَامِي وإنِّي هَامَةُ اليَوْمِ أو غَدِ

وقال كُثَيِّر :

فإن تَسْلُ عَنْكَ النَّفْسُ أو تَدَعِ الهَوى
فَبِاليَأْسِ تَسْلُو عَنْكَ لاَ بِالتَّجَلُّدِ
وكلّ خَلِيلٍ زَارَنِي فَهْوَ قَائِلٌ[64]
مِنِ أجْلِكَ هَذَا هَامَةُ اليَومِ أو غد

62) في لسان العرب : إحْدَى الاحَد : الأمر المنكر الكبير . قال :
بِعُكَاظٍ فَعَلُوا احْدَى الاحَد

63) كذا **في القاموس** . وفي نسخة ب : أحَدَيْها.

64) **في أ** : وكلُّ خليلٍ رَاءَنِي ....**وفي لسان العرب** : وكلُّ خليلٍ رَانِىءٍ

وكانه اعتبر هنا المعنى المقصود فقط دون السنّ . وتمثل بهذين البيتين يزيد حين ماتت جاريته حُبَابة في قصَّة مشهورة .

ومن الأمثال العاميَّة في هذا الباب قولهم : **إذَا أرَادَ الّلهُ إهْلاكَ النَّمْلَةِ جَعَلَ لَهَا أجْنِحَةً تَطِيرُ بِهَا**، يضرب للمتسبب سببا يعطب به، لأن الطير يصيدها إذا طارت . والى هذا المثل أشار أبُو العَتَاهِيَّة بقوله :

وإذَا اسْتَوَتْ لِلنَّملِ أجْنِحَةٌ
حَتَّى يَطِيرَ فَقَدْ دَنَا عَطبُهْ

وكان الرشيد كثيرا ما يتمثّل به عند نُكْبَةِ البرامكة . وقولهم

إذَا امْتَلأتِ القِرْبَةُ تَرَشَّحَتْ. يضرب للرجل تَكْثُرُ ذَاتُ يَدِهِ، فلا بدّ أن يُنَالَ شيءٌ ممَّا عنده . وقول أبي محمد : **أنَا عِرْبِيد، وأنْتَ رِعْدِيد، وبَيْنَنَا بَوْنٌ بَعِيد** . والعَرْبَدَةُ : سوء الخلق ؛ والعِرْبِيدُ، والمُعَرْبِد : المُوذِي نديمَه عند السُّكْر . والرّعْدِيد، الجَبَان الفزاع . والبَوْنُ : الفضل والمقدار . وقولهم :

إنْ لَمْ تَجِدُوا نَاراً فَاقْلُوا قَلِيَّةً ! يضرب لِمَن اسْتَحْمَقَ فَطَلَبَ امراً حيث المَظِنَّةُ عَدَمُه . وقولهم :

الآنَ يَمُدُّ أبُو حَنِيفَةَ رِجْلَهُ ! زعموا أن الامام أبا حنيفة، رحمه الله، كان به ذات مرّة ألمٌ في رجله، فكان يمدّها في المجلس بين يدي أصحابه . ثم إنه يوما حضر مَجْلِسَه رجلٌ ذو هيئة كثّ اللحية لا يعرفه، فتوهَّمه فقيها وقبض رجله استحياء وصبر على ذلك مدّةً، والرجل لا يتكلم بشيء ولا يتبيَّن أمره . ثم إنه اختبره بشيء فبان له منه خلاف الظنّ، فمدّ رجله وقال ذلك .

هذا ما تيسَّر إيراده في هذا الباب من منثور الأمثال، بحمد ذي المنّ والافضال . وقد كنت أردت أن أقتبس الأمثال المضروبة في الشعر وأجلبها، وأودع كل باب من هذا الكتاب جملة وافرة منها، مشروحة مع التنبيه على شجرتها، وأصل ثمرتها . ثم بدا لي أن ذلك بحر لا يُدرك غوره، ومنزع لا ينال طوره . فرأيت أن أقتصر على إيراد الأمثال النثريَّة، وإردافها بالأمثال الشعريَّة، متضمّنة لما ضرب فيها إلا أن يكون شيء قد انتزع قبل فأذكره . ورأيت

أن أنبه في هذا الباب خصوصا على بعض ذلك ليقيس عليه من أحبَّ استعماله مستَغْنـيًا بذلك عن إعادة مثله في كل باب، فأقول :

أبَـى مَـنْـبِـتُ العِيدَانِ أنْ يَـتَـغَـيَّـرِ .

أخَذْنـَاه من قول جَـمِيل بن عبد الله بنِ مَعْمَرٍ العُذْرِيّ :

بَـنو الصَّالِحِين الصَّالحونَ ومَن يَـكن لآباءِ صِدقٍ يَـلقَهُم حَيثُ سَيَّرَا
أرَى كُـلَّ عودٍ نابِتا في أرُومَـةٍ أبَـى مَنْبِتُ العِيدان أن يتَغَيَّرَا

وقبل هذين البيتين يخاطب الحَجَّاج :

أبوك حُبابٌ سارقُ الضَّيفِ رحلَه وجَدِّيَ يا حجَّاج فارسُ شمَّرَا

وشمَّر : اسم فرس أنثى، وآباءُ الصِّدق : آباءُ الخير والصلاح والكرم . ومعنى سيَّر أكثر السير . والمعنى أن من كان كريم الأصل، رفيع الحسب، جرى على ذلك حيثما ذهب، وكيفما انقلب . والأرومَة، بفتح الهمز، وتُضَمّ، الأصلُ . قال زهير :

صبَحنـــا الخزرجـــيَّة مرهفـــات أبـــار ذوي أرومتهـــا ذوُوهَـــا

والجمع أرُومٌ . قال أيضا :

لَهُ في الذَّاهِبِينَ أرُومُ صِدْقٍ وكانَ لِكُلِّ ذِي حَسَبٍ أرُومُ

وقوله : أبَـى مَنْبِتُ العِيدَانِ إلخ : يريد أنّ الناس أصولٌ مختلفة، وأعراقٌ متباينة، كما في الحديث : الناس معادن، وكل أحد باق على أصله : فمن كان من أصلِ كَرمٍ لم يتحوَّل منه، ومن كان من أصلِ لُؤْمٍ لم ينحرف عنه وجَعَلَ النَّاسَ أعْواداً وأعْرَاقَها منابت على طريق التمثيل.

إنَّ المُحِبَّ لِمَنْ يَـهْواهُ زَوَّارُ.

طلع رجلٌ من حَجِيجِ المَغْرب الى عرفة، فلقي شيخا كبيراً، فقال له الشيخ : مِنْ أينِ أنت ؟ قال : من المغرب . قال : كم بينكم وبين هذا البيت ؟ قال : نحو ستة أشهر فقال الشيخ : أتحجون كل عام ؟ قال : لا . فقال : الشيخ لو كنا منكم لم يفتنا الحج أبدا . فقال له الرجل : وممَّن أنت ؟ قال : من كذا البلد، بعيد بمسيرة عام أو نحوه وأنشد :

زُر مَن تُحِبُّ وإن شطَّتْ بِكَ الدَّار وحالَ مِن دُونِه سَهْلٌ وأوْعارُ
لا يَمْنَعنَّك بُعدٌ عَن زيارتِه إنَّ المُحِبَّ لِمن يَهْواه زَوَّارُ

والـهَوى : العِشق في الخير والشرّ . يقال : هَويـَه بالكسر يـَهْواه هـَوىً، مقصور . والزَّوَّار : الكثير الزيارة . وكان بِـشْرُ بنُ مَروانَ شديدا على العصاة، وكان إذا ظفر بالعاصي أقامه على كرسيّ وسمَّر كفَّيه بالمسامير في الحائط، ثم نزع الكرسي من تحته، فيبقى معلقًا يضطرب حتى يموت . وكان فتى من بني عِـجْـل مع المُهَـلَّب بـْنِ صُفْرة في حروب الأزارقة، وكان عاشقًا لابنة عمّ له . فكتبت إليه تستزيره فكتب إليها :

لَـو لا مَخافَـةُ بـِشْرٍ أو عُقوبـَتِـه ... وأنْ يُـشدَّ عَـلى كفَّيَّ مِـسْمارُ
إذاً لَـعَـطـَّلتُ ثـَغْري ثـُمَّ زُرتُكمُ ... إنَّ المُـحِبَّ إذا ما اشْتاقَ زَوّارُ

فكتبت إليه :

لَـيسَ المُـحِبُّ الذي يـَخشى العقاب ولو ... كانـَتْ عُقوبتـَهُ في إلفِـهِ النـّارُ
بـَل المُـحِبُّ الذي لا شَـيءَ ينفـَعُـه ... أو تَـستـقِرَّ ومـَن يـَهوَى بـِه الدّارُ

فلما قرأ كتابها عطـّل ثـَغْره وجاءها وهو يقول :

أسْتغْفِرُ الـلّهَ إذ أخشَـى الأمِـير ولم ... أخشَ الذي أنا مِـنْـه غـَير مُنْـتصر
فَـشأنُ بـِشْرٍ بـِلَـحمِي فليُعْذّبه ... أو يـَعْفُ عفـْوَ أميرٍ خَـير مُقتَـدرِ
فما أُبالِـي إذا امْـسَيتِ رَاضِيَـةً ... يا هِـندُ ما نيلَ مِـن شَعري ومن بَشري !

فلم يلبث أن وُشِـي به الى بِـشْرٍ فأتي به فقال : يا فاسق، عطلتَ ثغرك، هلمّ الكرسي ! فقال : أعزّ الله الأمير ! إن لي عذراً فقال : وما عذرك ؟ فأنشده الأبيات، فرقّ له وكتب الى المهلـّب أن يـُثـَبـّته في أصحابه.

إنَّ الحـُرَّ حـُرٌّ

أخذناه من قول الشاعر :

عـَرضْتُ نـَصيحةً مِـنـّي ليـَحْيـَى ... فقال غـَشَشْتـَنـِي والنـُّصْحُ مُرُّ
ومالـِي أن أكُونَ أعِيبُ يـَحْيـَى ... ويـَحْـيـَى طاهِـرُ الأثـوابِ بـَـرُّ
ولكنْ قـَـد أتانـا أنَّ يـَحْـيـَى ... يـُقَـالُ عليهِ في نقـْعاءَ شَـرُّ
فـَقـُلْـتُ لـَهُ : تجنـَّب كُلَّ شَيءٍ ... يـُعابُ عَـلَـيك إنَّ الحـُرَّ حـُرُّ

والشاعر هو مُخَـيـِّس بنُ أرطـَأة الأعرَج يخاطب رجلا من بني حَـنـِيفـَة يسمـّى يحيى كان

يأتي امرأة في قرية من قرى اليَمَامَة، وهي التي سمَّاها في الشعر . وقوله إنَّ الحُرَّ حُرٌّ، أي أن الحرَّ باقٍ على ما عهد في الأحرار من الهمم العليَّة، والأخلاق الزكيَّة، ومجانبة الرِّيَب، والحِذْرِ من سوء المُنْقَلَب .

ومثلُه قولُ أبي النجم : **أنَـا أبُـو النَّجْـمِ وشِعْـرِي شِعْـرِي**، أي شعري هو ذلك المعروف بجزالته وفصاحته وسلاسته.

وكذلك قولهم : **النَّاسُ النَّاسُ أي هم على ما عُهِـد فيهم.**

ومثل ذلك قول العامَّة : الحُرُّ لا يكونُ إلاَّ حُرًّا، والرَّجُلُ لا يكونُ إلاَّ رجُلاً، والعَبْدُ لا يكونُ إلاَّ عَبْداً . ونحو هذا يضربونه عند تقصير الانسان عن بعض ما يحقّ له أو تعاطيه مالا ينبغي له.

وقوله **تَجنَّبْ كلَّ شيءٍ يُعابُ عليك**، هذا من حفظ المروءة . قيل للأحنف بن قيس: بم بَلَغْتَ ما بلغْتَ ؟ فقال : لو عاب الناسُ الماءَ ما شربتُه . وقيل لعبد الملك بن مروان، وقد بالغ في الثناء على المُصْعَبِ بن الزُّبَير رضي الله عنه يوم قتله : أكان المصعبُ يَشْرَبُ الطِّلا ؟ فقال : لو عِيبَ شُرْبُ الماءِ ما شربه . ووصف عمرو بن العاصي بعض الأشراف فقال : إنه آخذٌ بثلاث، تاركٌ لثلاث : آخذٌ بقلوب الرجال إذا حدَّث، ويحسن الاستماع إذا حُدِّث، وبأيْسَرِ الأمْرَيْن عليه إذا خُولِف ؛ تاركٌ لِلْمِراء، تاركٌ لمقاربة اللئيم، تارك لما يُعْتذرُ منه . وقال أعرابي يوصي صديقًا له: دَعْ ما يَسْبِقُ الى القلوب إنكارُه، وإن كان عندك اعتذارُه : فليس من حكى عندك نُكراً، تُوسعه فيك عُذْراً. وهذا كما قال الأوَّل :

قَد قِيلَ ما قِيلَ إن صِدقًا وان كَذبًا، فما اعتِذارُكَ من قَولٍ إذا قِيلاَ ؟

إنَّ الحِسَانَ مَظِنَّةٌ لِلْحُسَّدِ .

أخذناه من قول الحَمَاسِيّ :

بَيضاءُ آنسَةُ الحَديثِ كأنَّها قَمرٌ توسَّطَ جُنحَ لَيلٍ مُبْردِ
مَوسومَةٌ بِالحُسنِ ذَاتُ حَواسِدٍ إنَّ الحِسانَ مَظِنَّةٌ لِلحُسَّدِ

الحِسَانُ جمع حَسْناء . يقال : جارية حسناء وحَسَنَة وحُسَّانة على مثال رُمَّانة، فهنَّ حِسَان وحُسَّانَات، ورجل حاسِن وحَسَن . وحُسَيْن وحُسَان بضمّ الحاء مع

تشديد السين وتخفيفها، فهم حسان، وحسانون . ومَظنـَّة الشيء بكسر الظاء : موضعٌ يُظَـنُّ فيه وجودُه . والحُسَّدُ جمع حاسد وحاسدة . والمعنى أن الحسناء مَظِنـَّةٌ لأن تُحْسَدَ على حُسنها . وكذا كلّ مَن له فضيلةٌ مَّا أو مَزيَّة مَّا، فهو مظنـَّة لأن يُحْسَد، كما يقال : كلُّ ذِي نِعْمَةٍ مَحْسُودٌ . ومن ثـَمَّ يُتـَمدَّحُ بكثرة الحُسَّاد، ويُذمُّ بقلـَّتهم لأنّ وجود الحُسَّاد كنايةٌ عن وجود الفضل والنعمة كما قيل :

حَسَدوا مُروءَتَنا فضُلّل سَعيُهم ... ولِـكُـلّ بيتِ مُـرُوءةٍ أعـداءُ

وقـال الآخر :

إنْ يَحْسُدوني فإنـّي غيرُ لائمِهِم ... قَبلِي من النـَّاس أهلُ الفضل قد حسدوا

فدامَ لِي ولهم ما بِي وما بِهم ... وماتَ أكْثرُنا غيْظا بما يَجِدُ

أنا الذي يَجِدونِي في صُدورهِم ... لا أرتَقي صَدرا منها ولاَ أرِد

وقال أبو الأسود أو غيره :

حَسَدوا الفَتـَى إذ لم ينالوا سَعيَهُ ... فالقَـومُ أعـداءٌ له وخُصُـومُ

كَضَرائِر الحَسناءِ قُلنَ لِوجْهِها ... حَسَداً وبُغضًا إنـّهُ لَدَمِيمُ

وقال عمَّار بن عقيل بن بلال بن جرير :

ما ضَرَّنِي حَسدُ الّلئام ولم يَزلْ ... ذو الفَضْلِ يَحسُدهُ ذوُو النـُّقصان

وقال بشـَّار :

لا عشْتُ خِلْوا من الحُسَّاد إنـَّهمُ ... أعزُّ فَقدا من الـَّلائِي أحَبُّونِي

أبقَى لِي اللهُ حُسَّادي برَغمِهِم ... حتـَّى يَموتوا بداءٍ غَير مكْنون[65]

وقال محـمـود :

أعطَيتُ كلَّ النـَّاس منـّيَ الرِّضَى ... إلاَّ الـحَسودَ فإنـَّه أعيَـانِي

لاَ أنَّ لِي ذَنْبًا لديه عَلِمتُه ... إلاَّ تَظاهُـر نِعـمَةَ الرَّحْمـانِ

وقال ابن أبي الطاهر :

ولَم يَزلْ ذُو النـَّقْص مِن نِقصِه ... يَحْسُد ذا الفَضْلِ على فَضْله

وقال الآخـر :

ونِعْمَةُ الـّلهِ مَقْرُونٌ بها الحَسَدُ

65) سقط هذا البيت من أ

وقال الآخـــر :

ولَـنْ تَـرى لِـلِـئَـامِ النَّاسِ حُسَّاداً

إنَّ التَّخَلُّقَ يَـأتِـي دُونَـهُ الخلُقُ .

أخذناه من قول الحماسي :

عَلَـيكَ با لقَصْدِ فيما أنتَ فاعلُه   إنَّ التَّخلُّق يأتِـي دونَـه الخُلُقُ

والخُلُق بضمِّ الخاء واللام، وتسكَّن : السجيَّة والطبع ؛ وتَـخلَّق الرجلُ بغير خُلُقه : تكلَّف ذلك . والمعنى أن السجايا لا تزول، والخلائق القديمة لا تَـحُول، كما قيل :

يُـرامُ مِـن القَلْبِ نِـسْيانُكم   وتَـأبَى الطِّباعُ على النَّـاقِلِ

ومن كلام العامَّة : تَـنْـتَـقِلُ الجِبَـال ولا تَـنْـتَـقِلُ الطِّبَـاع : فمتى تخلَّق الانسان بغير خُلُقِـه، وتكلَّف ما ليس في طَـوقِـه، لقي العَنَاء الشديد، أو افْتَـضَـح غير بعيد، كما قال حسَّان :

إنَّ الخَلائِـقَ فاعلَـم شَرُّها البِـدع

وسيأتي إتمام هذا المعنى في قولهم : الطَّبْـعُ امْلَـكُ في حرف الطاء، إن شاء الله تعالى .

إنَّ السُّمَّ مَـشْرُوب .

أخذناه من قول الحماسي عبد الله بن عَـنَـمَـةَ الضَّبِّيِّ :

ما إن تَـرى السَّيدُ زيداً في نُـفوسِـهم   كما تَـراهُ بَـنـو زَيـد ومَرهـوبُ

إن تَـسألوا الحَـقَّ نُـعطِ الحَقَّ سائِـلَهُ   والدِّرعُ مُـحقَـبَـةَ والسَّيفُ مَـقرُوبُ

وإنْ أبَـيْـتُـم فإنَّا مَـعْشَرٌ أنُـفٌ   لا نَـطْـعَـمُ الخَـسْفَ إنَّ السُّمَّ مشروبُ

فازجُـر حِـماركَ لا يرتَـع بروضَـتِـنا   إذا يُـردُّ وقَـيدُ العَـير مَـكْروبُ

السِّيد بالكسر : قبيلةٌ من ضَـبَّة ؛ وزيد ومرهوب : حيَّان من ذُهْل بن شيبان . يقول : إنكم لا تَـعْظُـمون في نفوسنا كما يعظُـم بعضُكم في نفوس بعض ؛ فإن طلبتم الحق أعطيناه، وكان السلم بيننا حتى تكون الدرع مُـحْقَـبَـة، أي مجعولة في الحقائب وهو مؤخَّر الرحال، وتكون السيوف مقروبة أي مجعولة في قربها لعدم الحاجة الى استلالها . وقوله:

أنُفٌ جمع أنُوف . والخسف : الظلم والذلّ . والمعنى : انّنا نمتنع أن تلمسنا يد الظالم، ونعاف أن نطعم الهوان والضيم، ويهون علينا في نيل العزّة والارتفاع، تجشُّمُ غَمَرات الدفاع، واصطلاءُ جحيم القِراع، حتى نشرب سموم الموت المُنْقَعة، بأطراف الأسِنّةُ المُشْرعة . وضَرَب الطّعْمَ لنيل الهوان، وشُرْبَ السمّ للموت والألم مَثَلا.

إنّ الكَرِيمَ إذا خَادعْتَهُ انْخَدَع .

هذا في شعر لم أثبته الآن . وقد تمثّل بهذا المثل الرشيد، وذلك أنه كان سخط على حُمَيْد الطّوسِيّ، فدعا له بالنّطْع والسَّيْف لتَضْرَبَ عُنُقُه . فلمَّا أخِذ من بين يديه لتُضرب عنقُه بكَى، فقال له الرشيد : ما يُبكيك ؟ أجزعًا من الموت ؟ قال : لا، ولكن بكيت أن أخرج من الدنيا، وأمير المؤمنين عليّ ساخط . فضحك الرشيد وأنشد : إنّ الكريمَ إذا خَادعْتَه انْخَدع، ثم وهبه للحسن بن قَحطَبَة .

إنّ لَيْتًا وإنّ لَوًا عَنَاءُ .

أخذناه من قول الحماسي :

إنَّما مُتُّ غَيرَ أنّي حَيّ ... يوم بَانَتْ بِوُدّها الحسناءُ
مِنْ بنِي عامرٍ لَها شَطْرُ قَلبِي ... قِسمَةٌ مِثْلَ ما يُشَقُّ الرّدَاءُ
أشْربَتْ لَونَ صُفْرةٍ في بياضٍ ... وهْيَ في ذَاكَ لَدنَةٌ غَيدَاءُ
كُلُّ عَيْنٍ مَتَى تَرَاها مِنَ ... النَّاسِ إلَيْهَا مديمة حولاءُ
لَيتَ شِعرِي وأينَ مِنّيَ ليتٌ ... إنّ لَيتًا وإنّ لَوًا عَنَاءُ

وأراد بالّليْتِ التّمنّي، وجعله اسمه، كقوله : لَيْتَ، وهَلْ يَنْفَعُ شَيْئًا لَيْتُ ؟ ولو هنا هي التي تكون للتّمنّي، نحو : لو تَأتِينا فَتُحَدّثَنا . وجعله اسما كقوله :

ألامُ عَلى لَوٍّ ولَو كُنتُ عالمًا ... بأذنابِ لَوٍّ لَم تَفُتني أوَائِلُهْ

والعَنَاءُ : المشَقّة والتعب . يريد أن مَا ذكَر بَعِيدُ المَطْلَبِ، فتمنّيه مشقّةٌ وتعب . وللبيتين الأولين قصّة ظريفة، وهي أنه كان فيما يزعمون لأمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه قاضٍ يميل الى سماع القِيان، فسمع يومًا قَيْنَةً تُغَنّي بالبيتين الأوّلين من هذا الشعر، فَطَرِب لذلك طربا شديدا وقام من مجلسه وأخذ نعليه وعلّقهما في أذنيه وجعل يقول : أهْدُونِي، فإني هَدِيّة ! فبلغ ذلك عمر رضي الله

عنه فعزله. فلما بلغه العزل، قال : لِمَ عَزَلْتَنِي ؟ امرأتُهُ طالق لو سمعها لقال : اركَبُوني فإني مَطِيَّة ! فلما بلغ خبره عمر أمر أن يُؤتى به مع الجارية . فلمَّا جلسا بين يديه، قال له : مُرها أن تُغني بذلك الغناء ! فلمَّا غنَّت، اضطرب عمر لذلك اضطرابا شديدا، ودخلته الأرْيَحِيَّةُ، واستعاد الصوت منها مرارا، وبكى وقال للقاضي : قد قَارَبْت يَمْنَيْك، وردَّه إلى قضائه .

أيُّ الرِّجَال المُهَذَّبُ ؟

أخذناه من قول النابغة يعتذر للنعمان :

وَلَسْتَ بِمُسْتَبْقٍ أخًا لا تَلُمُّهُ عَلى شَعَثٍ أيُّ الرِّجالِ المُهَذَّبِ ؟

والتهذيب : التصفية والتنقيح ؛ والرجل المهذب : المطهر الاخلاق. والاستفهام للنفي، أي لا رجل يكون أبداً حسن الفعال، طاهر الخلال، محمود الخصال، إلاَّ مَنْ عُصِم، كقول الآخر :

مَنْ ذَا الذي مَا سَاءَ قَطّ ؟ وَمَنْ لَهُ الحُسْنَى فَقَطّ ؟

وإذ قد أتينا في هذا البيان على ما تيسر من الأمثال النثرية، فلْنُلِمَّ بشيء من الأمثال الشعرية، أو ما يكون جاريا على منهاجها، وماضيا على ادراجها، قال الحماسي أمَيَّةُ بنُ أبي الصَّلْتِ الثَّقَفِيّ يمدح عبد الله بن جَدْعَانَ القُريشي التَّيْميّ :

أأذكُرُ حاجَتي أمْ قَدْ كَفَاني حَيَاؤكَ ؟ إنَّ شيمَتَكَ الحَيَاءُ
وَعِلْمُكَ بالحُقُوقِ وأنتَ فَرْعٌ لَكَ الحَسَبُ المُهَذَّبُ والسَّنَاءُ
وأرْضُكَ كُلُّ مَكْرُمَةٍ بَنَتْهَا بَنُو تَيْمٍ وأنْتَ لَهَا سَمَاءُ
خَلِيلٌ لا يُغَيِّرُهُ صَبَاحٌ عَنِ الخُلُقِ الكَرِيمِ وَ لاَ مَسَاءُ
إذا أثْنَى عَلَيْكَ المَرْءُ يَوْمًا كَفَاهُ مِن تَعَرُّضِهِ الثَّنَاءُ
تُبَارِي الرِّيحَ مَكْرُمَةً ومَجْداً إذا ما الكَلْبُ أجْحَرَهُ الشِّتَاءُ

والذي يُتَمَثَّلُ به كثيرا منه هو قوله : أأذكُرُ حَاجَتِي... البيت، وقوله : « خليل لا يغيِّره... البيت، مع الذي بعده، وقد يقرن بينهما . والمَضْرِبُ واضح . وكثيرا مَّا

ينشد السادات الصوفيّة : كَريمٌ ما يُغيِّرُهُ صَبَاحٌ، إلخ، يتمثّلون بذلك عند التنبيه على أن التعرض لمواهب المولى جلّت كلمته، ومزيدِ مِنَحِهِ الجميلة، ومِنَنِهِ الجزيلة، بطريق الثناء والشكر والذكر وكثرة التحميد والتبجيل، والتَّعَبُّدِ والمجاهدة، أبْلَغُ من التعرض لذلك بمجرّد الدعاء طلبًا لنيل حاجة . ولهذا ورد في كلام الشارع صلوات الله وسلامه عليه : **أفْضَلُ الدُّعَاءِ الحَمْدُ لِلّه !** وقال تعالى : **لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأزِيدَنَّكُم. وهذا مقام يُبَيَّنُ في محلّه . وقال أبو نواس الحسن بن هانئ:**

دعْ عَنكَ لَومِي فإنَّ اللومَ إغراءُ ودَاوِني بالتّي كانتْ هِيَ الدّاءُ
صَفْراءُ لا تَنزِلُ الاحزانُ ساحتَها لو مسَّها حَجرٌ مَسَّتْهُ سَرَّاءُ

حتـى قال :

لِتِلكَ أبكِي ولا أبكِيَ لمنزلَةٍ كانت تَحُلُّ بها هِندٌ وأسماءُ
فقُل لِمن يدَّعِي في الحُبِّ مَعرفةً عَرفتَ شيئًا وغابت عَنكَ أشياءُ

والذي يُتَمَثَّل به منها كثيرا الشطر الأول والأخير . أمّا الأول فقد أخذه ابنُ قَلاقِسَ فقال :

فَدعي الملامَةَ في التَّصابي واعلَمِي أنَّ المَلامةَ رُبَّما تُغريني

وأكثر الشعراءُ في هذا النحو، وكلّهم مُقْتبِسون منه، حائمون عليه . فمن ذلك قولُ ابن شَرَف :

قُلْ لِلعَذولِ : لَو اطّلعتَ على الذي عاينْتُه لعناك ما يَعنِيني
أتُصدُّنِي أمْ للغَرام تَرُدُّني وتَلومنِي في الحُبِّ أم تغرينِي ؟
دعْنِي، فَلَستُ مُعاقَبًا بِجنايتِي إذ لَيسَ دينُك لِي ولاَ لَكَ دينِي

وقول الآخر :

ومـا عذُولِي ناهيًا عنكُـمُ لكِنّهُ بِالصّدْ ـر أمّارُ
قال : اسلُهُمْ إن لم تُطقْ هجرهم قُلتُ له : النّارُ ولاَ العَارُ

وقـول الآخر :

يَقُولُ لِي العاذِلُ في لومِهِ وقَــولُهُ زُورٌ وبُهتــانُ :
ما وجْهُ مَن أحبَبتهُ قِبلَةٌ قُلتُ : ولاَ قَـولُكَ قُـرآنُ

وقــول الآخــر :

يا عاذِلِي لَيسَ مثلِي مَن تُفنِّدُهُ ولَيسَ مِثلُكَ مأمونًا على عَذَلِي
ما دمْت خِلواً فما تَنفَكُ مَتَّهمًا إعشَقْ وقَولُكَ مقبولٌ عليَّ ولِي

وقــوله :

مَن مُنصِفِي مِن عاذلٍ جاهِلٍ يَخونُ بِاللَّومِ لِمن لا يَخونْ ؟
إن قُلتُ : ما نُصحُكَ إلاَّ أذىً قالَ : وما عِشقُكَ إلاَّ جُنونْ

وقــوله :

إنَّ قومًا يلْحونَ في حُبِّ سُعدَى لا يَكادُون يفْقَهونَ حَديثًا
سَمِعوا وصْفَها ولا موا عَلَيها أخذوا طيِّبًا وأعْطوا خَبِيثًا

وقول الآخــر :

أسْرَفْتَ في اللَّومِ ولم تَقتَصِر وزِدْتَ فِي لومِكَ ياذَا العَذُولْ
قَد رَضِيَت نفْسي بِمَحبوبِها وإنَّما المَولَى كَثِير الفُضُولْ

وقــول الآخــر :

تَعرَّضَ لي اللاَّحي وجاءَ يَزورُني وزخْرفَ لِي زُورَ الكَلامِ بِمَيْنِهِ
وقال : اسْلُ عن هَذَا وعُد عن غَرامِه فَقُلت له : هَذا الفُضولُ بِعَينِهِ

وقــول الآخر :

زعَمــوا أنَّنِي هويتُ سِواكُــمْ كَذَبوا، ما عَرفْتُ إلاَّ هَواكُمْ
قَدْ عَلِمتُم بِصِدقِ مُرسَلِ دَمْعي فَسَلوه إن كان قَلبي سِوَاكُم
قال لي عاذِلي : مَتى تُبْصِرُ الرُّشْدَ وتَسْلُو ؟ فَقُلْتُ : يَومَ عَمَاكُم

وقول ابن سَنَاءِ المُلْك :

أيــا عاذِلِي فِيه لمَّـا رآهُ لَئِنْ كُنْتَ أعْمَى فَإنِّي أصَمْ
وهَبكَ أبا ذَرٍّ هَذا المَلاَم فَإنِّي أبُو جَهْلِ ذَاكَ الصَّمَمْ

وقولــه أيضا :

وصَفْتُكَ واللاَّحي يُعانِد بالعَذلِ فَكُنتُ أبا ذرٍّ وكانَ أبا جَهْلِ
لَهُ شاهِدا زُورٍ مِن النَّهْيِ والنُّهَى عَلَيكَ ومِن عينيكَ لي شاهِدَا عَدلِ

وقــول آخر :

وبي عاذِلٌ يُغري الى الجَهلِ لم يخَلْ بِأنِّيَ في دعوَى الغَرامِ أبو ذرٍّ

والمراد بهذا الصِّدقُ في الهوى . ومن هذا النمط قول الآخر :

وشادنٍ ،مُبتَسمٍ عَن حَبَبْ مُوَرَّدِ الخَدِّ مَلِيحِ الشَّنَبْ
يَلُومُني العَاذِلُ في حُبِّهِ وما دَرَى شَعبانُ أنِّي رَجَبْ

وذلك لأن شَعْبَان عند العرب يُسمَّى العَاذِل، ورجب يُسَمَّى الأصَمّ. وممَّا نحن فيه قول الآخر :

إذا ما نَهى النَّاهِي فَلجَّ بِيَ الهَوى أصاخَت الى الواشِي فَلجَّ بها الهَجْرُ

أشار بالشطر الأول الى أن العذل يُغريه. وقول البوصيري :

مَحَضْتَني النُصحَ لكن لَستُ أسمعُه إنَّ المُحبَّ عن العُذَّال في صَمَمِ

ويَقْرُبُ منه قولُ عفيف الدّين التّلمسانيّ :

ولي عَلى عاذِلي حُقوق هَوَى عَليهِ شُكري بِبعضِها يَجِبُ
لامَ فَلَمَّا رآهُ هَامَ بِهِ فَكُنْتُ في عِشْقِهِ أنا السَّبَبُ

وقــول الآخر :

أبصَرَهُ عَاذِلِي عَلَيْهِ ولَمْ يَكُنْ قَبْلَهَا رَآهُ
فَقَال لِي : لَو هَويتَ هَذَا ما لامَكَ النَّاسُ في هَوَاهُ
قُلْ لي إلى مَن عَدلْتَ عَنهُ فَلَيس أهْلَ الهَوَى سِوَاهُ
فَظَلَّ مِن حَيثُ ليسَ يدْري يَأمُرُ بِالحُبِّ مَنْ نَهَاهُ

ومن ذلك قول حفص العليمي :

أقولُ لِحِلْمي لا تَزَعْني عَن الصِّبا ولِلشَّيبِ لا تُذعِرْ عَليَّ الغَوانِيا
طَلَبتُ الهَوى العُذرِيَّ حتَّى وجدتُه وصَيَّرتُ في نجدٍ به ما كفانيا

وقــول الخُزاعي :

هُدِّدتُ بالسُّلطانِ فيكَ وإنَّمَا   أخْشَى صُدودَكَ لاَ مِن السُّلطانِ

وقول أبي الشِّيصِ :

أجِدُ المَلامَةَ في هَواكَ لَذِيذَةً   حُبًّا لِذِكْرِكَ فَلْيَلُمْني اللُّوَّمُ

وأما بيته الأخير، فَيُنْشِدهُ المتمثلون اليوم :

قُلْ لِلَّذي يَدَّعي علمًا ومعرفَةً   عَرَفْتَ شيئًا وغَابَتْ عَنْكَ أشْياءُ

عجيبة : حكي أن المُفَضَّل الضَّبِّيَّ قال له الرشيد ـ دُلَّني على بيت أوَّله أكْثَمُ ابن صَيْفِيٍّ في أصالة الرأي وجودة الموعظة، وآخرها بُقْراط في معرفة الدواء . فقال : يا أمير المومنين، لقد هَوَّلْتَ عليَّ . فقال : هذا قول أبي نواس : دَعْ عنك لومي. وسأل حامدُ بنُ العباس عليَّ بن عيسى الوزير، فقال له : ما دواءُ الثَّمِلِ، وقد عَلِقَ به ؟ فأعرض عنه الوزير وقال : ما لنا وهذه المسألة ؟ فخجل حامد، وإذا بقاضي القضاة أبي عمر قَدْ وَرَدَ عليهم، فلما قعد سأله حامد عن ذلك، فقال القاضي : قال الله تعالى : **وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فانْتَهُوا** . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : **اسْتَعِينُوا عَلَى كُلِّ صَنْعَةٍ بِصَالِحِي أهْلِهَا**، والأعشى هو المشهور بهذه الصناعة في الجاهلية، وقد قال في ذلك :

وكَأْسٍ شَرِبْتُ عَلَى لَذَّةٍ   وأخْرى تَداوَيْتُ مِنْهَا بِهَا

ثم تلاه أبو نواس فقال في ذلك :

دَعْ عنْكَ لَومي فَإنَّ اللَّومَ إغْراءُ   وَداوني بالَّتي مِنها بِيَ الدَّاءُ

فأشرق وجه حامدٍ حينئذ وقال للوزير : ما ضرَّك يا بارد لو أجبتَ ببعض ما أجاب به قاضي القضاة، وقد استظهر في الجواب بقول اللهُ تعالى، وبقول رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبَيَّنَ الفُتْيا وأدَّى المعنى وتَبَرَّأَ من العُهْدة ؟ فكان خَجَلُ الوزير من حامد بهذا الكلام أكْثَرَ من حامد منه لمَّا ابْتَدَأَهُ بالمسألة .

قلت : وهذا الكلام من القاضي كان على مجاراة أهل هذه الصناعة، وتبيان ما ثبت في نفس الأمر من بعض منافع الخمر، ولم يتعرض للحكم الشرعي من حرْمَةِ التداوي بها،

لعلمه أن السائل يعرف ذلك، وإلا فكان الواجب أن يستدرك عقب كلامه بما ذكر النبيُّ صلّى الله عليه وسلّم فيمَنْ تَدَاوَى بالحرام، والله أعلم.

واعلم أن التَّصَامُمَ عن العُذّال قد تقدم في كلام الشعراء كثيرا قبل أبي نواس، كقول زهير في الجُود :

وأبْيَضَ فَيَّاضٍ يَدَاهُ غَمَامَةٌ ... عَلى مُعْتَفيه ما تَغِبُّ نَوافِلُه
بَكَرتُ عَليهِ غُدوةً فَرَأيْتُهُ ... قُعوداً لَديْهِ بالصّريمِ عَواذِلُهْ
يُفَدّينَه طوراً وطَوراً يَلُمنَهُ ... وأعْيَى فما يَدرينَ أين مَخاتلُهْ
فَأقصَرنَ مِنهُ عن كَريمٍ مَرزَّءٍ ... عَزومٍ عَلى الأمْرِ الذي هُو فاعِلُهْ

غير أن أبا نواس لم يكتف بكون العَذْلِ ضائعًا، حتى جعله ناجعًا، في عكس المطلوب، ونقيض المرغوب . ولم يحضرني الآن أسُبِق بهذا أم لا . وقال الشاعر :

ألقاهُ في البَحرِ مَكتُوفًا وقَال له : ... إيَّاكَ، إيَّاكَ أن تَبْتَلَّ بِالمَاءِ !

وهو مثل مشهور يضرب عند إلزام الشخص تَركَ ما لا مَحِيصَ له عنه عند وجود سببه، أو ارتكابَ مالا قدرة له عليه. ومنه التكاليف الشرعيَّة عندنا مَعْشَرَ الأشاعِرة عند النظر الى التحقيق وباطن الأمر، إلاَّ أنَّا نُجَوِّزُ في حقّ المَلِكِ الحقّ تعالى أن يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد من غير قُبْحٍ في شيء [من ذلك]، بل حُسْنٍ جار على وفق الاختيار، وتَصَرُّفِ مَن له الاقتدار، ولا سيما بحسب الظاهر . ويقرب من هذا المعنى قولُ بعض الشعراء في امرأة :

سَكَتُّ فقالت : قَد سَكَتَّ عن الحَقِّ ... فَفُهتُ فقالت ما دَعَاكَ الى النُّطقِ ؟
فَأومَأْتُ هَل مِن حالةٍ بين ذا وذا ؟ ... فقالت : وذا الايماءُ أيضًا من الحُمقِ
فَلم أرَلي إذ حلّتِ الغَربَ راحةً ... مِن الشَّرِّ إلاَّ في المَسير الى الشَّرقِ
فلمَّا أتيتُ الشَّرقَ الفيتُها بِهِ ... وقَد قَعدتْ بي مِنه في أضيقِ الطُّرقِ

فَيَا قَومُ هَلْ مِنْ حِيلَةٍ تَعرِفُونَها ؟

وقـال الآخر :

مَن غَصَّ دَاوى بشُرب الماء غُصَّته ... فكيف يَصنَعُ من قَد غَصَّ بالماءِ؟

ومَضْربهُ واضح . وفي معناه قول الأوّل :[66]

لَو بِغَير الماءِ حَلقي شَرِقٌ كُنتُ كالغَصّانِ بالماءِ اعتِصاري

وقـول الآخر :

الى الماء يَسعى مَن يَغَصُّ بأكْلِه فَقُل : أين يَسْعى من يَغصُّ بماءِ ؟

وقـول الآخر :

فكيف نُجيزُ غُصّتنا بشَيءٍ ونحنُ نَغَصُّ بالماءِ الشَّرُوبِ ؟

وقول الآخــر :

فَلو كان هذا الحُكمُ في غير مُلكِكُم لَبؤْت بِه أو غَصّ بالماءِ شاربُهْ

وقـول الآخر :

مُصاحَبةُ المُنى خَطرٌ وجَهلٌ وكَم شَرَقٍ تَولّد مِن زُلالِ !

وقـول ابن حَبُوس :

مَضَى الكُرماءُ صانوا ماءَ وجْهي بمَا بَذلوهُ عَن ذُلِّ السُّؤالِ

وها أنا بعدكُم في النّاسِ أبْغي كَريمًا يَشتري شُكري بِمَالِ

أرَى الاكْدارَ يَشرقُ شَاربُوهَا فَوا شَرقِي مِنَ المَاءِ الزُّلالِ !

وقــول الآخر :

إنّي لأذكُركُمْ وقَد بَلَغَ الظّمَا مِنّي فَأشرقُ بالزُّلالِ البارِدِ

وأقولُ لَيتَ أحِبَّتي عايَنْتُهُمْ قَبْلَ المَمَاتِ ولَو بِيَومٍ واحِدِ !

وقــول الآخر :

قَد كُنتَ عُدّتي الّتي أسْطوبِها ويدِي إذا اشْتَدّ الزّمانُ وساعِدي

فَرُمِيتُ مِنكَ بِضدّ ما أمّلتُه والمَرءُ يَشْرَقُ بالزُّلالِ البارِدِ

وقــول الآخر :

كُنتُ من مِحنَتي أفِرُّ إلَيْهِمْ فَهُم مِحْنتي فَأينَ الفِرَارُ ؟

وقول ابن سَنَاءِ المُلك :

أموتُ غَرامًا حين أحرمُ وصلَ مَن هَويتُ وأحْيا فَرحةً حينَ أُرزَقُ

---

66) هو عديّ بن زيد.

وإنَّ الفَتى يحْيا بما قَد يُميتُهُ   فبِالماءِ يَحيا وهْو بالماءِ يَشْرَقُ

وقــول البُحْتُرِيّ :

تَداويْتُ مِن لَيلى بِليلى فما اشتفى   بماءِ الرُّبى من باتَ بالماءِ يشْرَقُ

وهو مخالف لما قبله باعتبار : فإنَّ الأول ناظرٌ الى جنس الماء، وأنه يكون سببا للحياة والموت باعْتباري مسَاغِهِ والشَّرَقِ به، وتنظيرُ الأحبَّةِ بذلك باعتبار وصالهم وفِراقهم صحيح. والثاني ناظرٌ الى من وقع له الشَّرَقُ [بالماء]، وأنه لا ينتفع بالماء، لما مرَّ في الأناشيد وهو صحيح، ولكن التنظير خطأٌ، إلا أن يريد الاخبار عمَّا وقع له هو من حصول الوحشة ممَّن يترقَّب منه الأنس، ولم يلاحظ ما قال ابن ذَرِيح :

تداويْتُ من لَيلى بلَيلى من الهَوَى   كما يتَداوَى شاربُ الخَمْرِ بالخَمرِ

أخذه من قول الأعشى السابق :

وكـأسٍ شَـربْتُ على لَـذَّةٍ   وأخْـرَى تَـداويْتُ مِنها بِهَـا

وهذا كلُّهُ وفْقُ قول ابن سَنَاءِ المُلْك . وقال الآخر :

يا قَومُ قَلبِي عِنـد زَهْـرَاءِ   يَسْمَـعُه السّامِـعُ والـرائي

لاَ تَدعُني إلاَّ بِيا عَبْدَها   فَـإنَّهُ أشْـرَفُ أسْمَـاءِ

يتمثَّل بالبيت الثاني . وقد تمثَّل به العلماء في قصَّة تخيير النبي صلَّى الله عليه وسلَّم بَيْنَ أنْ يكون نبيًّا ملكًا أو نبيًّا عَبْداً، واختياره أن يكون عبداً، وهو أشرف الأمرين وأجل، فإنَّ الاضافة الى الشريف تفيد شرفًا . وأيُّ شرفٍ ومجدٍ وعظمة وجلال وراءَ عظمةِ مالك الملوك الحقّ تعالى ! وأيُّ منزلةٍ أعظمُ من الانتساب إليه ؟ وقال الآخر :

سِهام اللّيلِ لا تُخْطِي ولَكِنْ   لَها أمَـدٌ ولِلأمَـدِ انْقِضَـاءُ

وقَـبلـه :

أتَهـزَأ بالدُّعَـاءِ وتَـزدَرِيه ؟   تَأمَّلْ فِيك ما صنَعَ الدُّعَاءُ !

وتمثَّل صاحب التَّشَوُّفِ بهذا الشعر، حين ذكر أن أبا الفضل ابنَ النَّحْوِيّ دخل فاسًا، فلمَّا ظهر أصابت القاضي ابن دَبُّوسٍ منه غيرةٌ وآذاه . فلما أزمع أبو الفضل الخروج، قطع تلك الليلة التي يخرج في صبيحتها بسجدة دعا في آخرها وقال : اللّهُمَّ عليكَ بابْنِ دبوس ! فأصبح القاضي مَيِّتًا . وقال الآخر، وهو معنى رشيقٌ، وكان عُتِبَ

على الصَّمْت :

قالتِ الضِّفْدَعُ قَولاً فَسَّرَتْهُ الحُكَمَاءُ
في فَمي ماءٌ، وهَل يَنْطِقُ مَنْ فِي فِيهِ مَاءُ ؟ !

وقال ذُو الرُّمَّة :

أمَّا النَّبِيذُ فَلاَ يَذْعَركَ شاربُهُ واحْفَظ ثِيابَك ممَّنْ يشرَبُ الماءَ
قَومٌ يُورُّونَ عمَّا في صدورهِمْ حتى إذا استحكموا كانوا همُ الدَّاءَ
يُشمِّرونَ الى انصافَ سوقهم هُمُ اللصوصُ وقَد يُدعَونَ قُرَّاءَ

ولهذا الشعر قصَّة، وهي أن ذا الرُّمَّةِ اجتمع هو وإسحاقُ بن سُويْد العَدوي في مجلس . فأُتِيَا بطعام فَطَعِمَا، وأُتِيَا بنبيذٍ فشرب ذُو الرُّمَّة وأبَى إسحاق أن يَشرب . فقال ذو الرُّمَّة : أمَّا النَّبِيذُ فَلاَ يِذْعَرْكَ شَاربُهُ الأبيات . وقال إسحاق مجيبا له :

أمَّا النَّبِيذ فَقد يُزْرِي بشَاربِه ولَن تَرى شاربًا أزْرَى به الماءُ
الماءُ فيه حياةُ النَّاس كلِّهِم وفي النَّبيذِ إذا عاقَرتَهُ الدَّاءُ
يُقال هذا نَبِيذِيٌّ يُعاقِرُهُ فيه عَنِ البِرِّ والخيراتِ إبْطاءُ
وفيه إن قِيلَ مَهْلاً عن مصمَّمة وفيهِ عندَ ركوبِ الاثْمِ إغضاءُ

ومِثْلُ قول ابن الرومي قولُ الآخر ويُنسَبُ لابن الرومي في الفقهاء :

أذِيابًا بَدَتْ لَنَا فِي ثِيَابٍ مُلَوَّنَةْ
أحلالاً وجَدتُمُ أكلَنَا فِي المُدَوَّنَهْ

وقوله أيضا :

ألا إنَّما الدُّنيا كجيفَةَ مَيتَةٍ وطُلاَّبُها مِثلُ الكِلاب المواسِ
وأعْظَمُهم ذَمًّا لها وأشدُّهم لَها شَغَفًا قَومٌ طوالُ القَلانِسِ

ومثلُ قول إسحاق بن سويد في النَّبيذيين قول الآخر :

بَلَوتُ النَّبِيذِيِّين في كُلِّ بَلدةٍ فَلَيسَ لأصحابِ النَّبِيذِ حفاظُ
إذا أخَذوها ثمَّ اغْنَوكَ بالمُنى وإن فَقدوها فالوجوه غِلاظُ
عكاظِيَّةٌ لا قَدَّس الله رُوحَها وما ذكرتْ في الصَّالحينَ عُكاظُ

وسيأتي كلٌّ من الأمرَيْن مُسْتَوفىً إن شاء الله . وقال الآخر :

إذا انقطَع الرَّجا مِن كلٍّ حَيٍّ   فَفي اللهِ الكِفايَةُ والرَّجَاءُ
سَيُغنيني الذي أغناكَ عَنّي   فَلا فَقرٌ يَدُومُ ولاَ غِنَاءُ

وقد جمع بين قصر الممدود، وهو الرجاء، وبين مَدِّ المقصور، وهو الغناء بكسر الأوّل ضدّ الفقر .

وقال عَديّ بن الرّقَاع :

وإذا نَظرتُ الى أميري زادَني   ضَنـًّا به نَظَري الى الفُقَرَاءِ[67]
بَل ما رأيْتُ جِبالَ أرضٍ تَستَوي   فيما عسيت ولا نُجُومَ سَماءِ
كالغَيْمِ فيه وابلٌ مُتتَتَابِعٌ   غَدقٌ وآخر لا يَجُودُ بمَاءِ
والحُرُّ يُورثُ مَجْدَهُ ابْنَاءَهُ   ويَمُوتُ آخَرُ وهْوَ في الأحْياءِ

ومثل البيت الأول قولُ الحَمَاسَيّ :

ولمَّا أبى إلاَّ جماحًا فُؤادُهُ   ولم يَسلُ عن لَيلى بمالٍ ولا أهلِ
تَسَلَّى بأخرى غيرها فإذَا التي   تَسَلَّى بها تُغري بليلى ولا تُسلي

وقال الآخر :

لم ألقَ بعدهُم حيًّا فَأخبرهُم   إلاَّ يَزيدهم حُبًّا اليَّ هُمُ

وقال الحماسيّ عَدِيُّ بنُ الرَّعْلاَء :

لَيسَ مَن ماتَ فاستَراحَ بِمَيتٍ   إنـَّما المَيتُ مَيّتُ الأحْياءِ
إنـَّما المَيتُ من يَعيشُ كئيًا   كاسفًا بالُه قَلِيل الرَّجَاءِ

وقال الآخر :

يومًا بِحُزْوَى ويومًا بالعَقِيقِ   وبالعُذَيْبِ يومًا ويومًا بالخليصاء

وقال الحماسي قَيسُ بْنُ الخَطِيمِ الأنْصاريّ:

وما بَعْضُ الاقامَةِ في دِيارٍ   يُهانُ بها الفَتى إلاَّ عَناءُ
وبَعْضُ خَلائِقِ الأقوامِ داءٌ   كَداءِ البَطنِ لَيسَ لَه دَواءُ
يُريدُ المَرءُ أن يُعطَى مُناهُ   ويأبَى اللهُ إلاّ ما يَشَاءُ
وكُلُّ شَديدةٍ نَزلَتْ بِقَومٍ   سَياتي بَعد شِدّتِها رَخَاءُ

67) في ب : الأمراء بدل الفقراء

فلا يُعطى الحريصُ غِنىً لحِرْصٍ وقد ينمى على الجودِ الثراءُ
غَنيُّ النَّفسِ ما عمِرتْ غَنيٌّ وفَقرُ النَّفسِ ما عَمِرتْ شَقاءُ
وليس بنافِعٍ ذا البُخْلِ مالٌ ولا مُزرٍ بصاحِبه السَّخاءُ
وبَعضُ الدّاءِ مُلتَمسٌ شِفاهُ وداءُ النَّوكِ لَيْس لَهُ شِفاءُ
وقال الآخر من شعراء الحماسة :
وأعرِضُ عَن مَطاعِمِ قد أراها وأترِكُها وفي بَطْنِي انْطِواءُ
فَلا وأبِيكَ ما في العَيْشِ خَيْرٌ ولا الدُّنْيا إذا ذهَبَ الحَياءُ
يَعيشُ المَرءُ ما اسْتَحْيَى بخيرٍ ويبْقَى العودُ ما بَقِيَ اللّحَاءُ
وقلتُ أنا في أمْرٍ حَدَثَ :
تَعَلَّم أنَّ شَرَّ الأصْدقَاءِ صَديقٌ لا يَدُومُ علَى الاخَاءِ
مَتَى ما تَلْقَهُ أرضَاكَ بِشْراً وليسَ إذا تغيَّبَ ذَا وفَاءَ
لَعَمرُكَ ما الودَادُ سِوَى ودَادٍ يَدُومُ على التَّدَاني والتَّنائِي
وفي الأتْرابِ والتّرب المُجَلّي أخاك وفي المَسَرَّةِ والبَلاءِ
وليسَ أخوكَ من يُبْدي وداداً بوجهِكَ طاوِيًا مكنُونَ داء
فإن أدبَرتَ أتْبَعَكَ اعتِضاضًا بِنابَيه وعادَ مِن العِداء
(بياض بالأصل)
وقال الآخر :
إنَّ الذي، وهو مُثْرٍ، لا يَجودُ حَرٍ بفاقَةٍ تَعْتَريهِ بَعدَ إثْراءِ
قوله : وهْوَ مُثْرٍ، جملة حالية فصَلَ بها بين الموصول وصلته، وذلك قليل ؛ والمُثْري : الغَنِي . وقال الحماسي قَيْسٌ بنُ الخَطِيمِ الانصاريّ:
وكُنتُ أمرءاً لا أسْمَعُ الدَّهرَ سُبَّةً أُسَبُّ بها إلاَّ كَشَفتُ غِطاءَها
متى يأتِ هذا الموتُ لا تُلف حاجةٌ لِنَفسيَ إلاَّ قد قَضيتُ قضاءَها
يريد : إلا قد قَضَيتُها قَضاءً، فأوقَع القَلْبَ كما ترى . وقال الآخر :
أقولُ لمُقلَتي لمَّا التَقَيْنَا وقَد شَرِقَتْ مآقِيها بماءِ :
خُذنَّ اليَومَ مِن نَظَري بِحَظٍّ فَسَوفَ تُوكّلِينَ الي البُكَاءِ

ومثله قول الآخر :

تَرفَّقْ بِدمعِكَ فاسْتَبْقِهِ فَبَيْنَ يَديْكَ بُكاءٌ طَوِيل

وقال البُحْتَريُّ بنُ المُغِيرَة بنِ أبي صُفْرة، وكان المُهَلبُ بنُ أبي صُفْرَة قد استعمل يزيد على حرب خُراسان، والمُغِيرَةَ على خَراجِها، ولم يُولِّه هو شيئًا . فكتب إليه :

إقْرَا السَّلامَ على الأمِيرِ وقُلْ لَهُ : إنَّ المُقامَ عَلى الهَوانِ بَلاَءُ

أصْلُ الغُدُوِّ إلى الرَّواحِ وإنَّما أذُنِي وأُذنُ الأبعَدِين سَواءُ

أجفَى ويُدعَى مَن ورَائِي جالسًا ما بِالكرامَةِ والهَوانِ خَفاءُ

فلمَّا بلغ المُهَلَّبَ ذلك وجَد عليه وألزمه بيتَه، فكتب إليه :

جَفَانِي الأميرُ والمُغِيرةُ قد جَفا وأمْسى يَزيدُ لي قَدِ ازورَّ جانِبُهْ

وكلُّهُمُ قد نالَ شِبْعًا لِبَطْنِهِ وشِبْعُ الفتى لُؤمٌ إذا جاع صاحبه

فَيا عَمٌّ مَهلاً واتَّخِذني لِنوبَةٍ تُلمُّ فإنَّ الدَّهر جَمٌّ نَوائبه

أنا السيفُ إلاَّ أنَّ للسَّيفِ نبوةً ومِثلي لا تَنبو عَليكَ مضاربُهْ

فرضِي عنه وعَزَلَ المغيرة وولاَّه . وقال خالدٌ الكاتب :

أعان طرفي على جِسمي وأحشائي بنَظرةٍ وقَفت جِسمِي عَلى داءِ

وكُنتُ غِرًا بما يجني على بَدنِي لا عِلم لي أنَّ بَعضِي بعضُ أدواءِ

وأخذه من قول ابراهيم بنِ المَهْدِي :

إذا كلَّمَتني بالعُيون الفَواتِرِ رددتُ عليها بالدُّموعِ البَوادِرِ

فلم يعلم الواشونَ ما كان بيننا وقد قضيَت حاجاتُنا بالضَّمائِرِ

أقاتِلَتِي ظلمًا بأسهُم لحظها أما حكمٌ يقضي على طرف جائر ؟

فلو كان للعُشَّاق قاضٍ من الهوى إذًا لقضى بين الفؤاد وناظِري

ومثله قول الآخر :

والَّله يا طرفي الجاني على بدني لتطفئنَّ بدمعِي لوعة الحزَن

أولى محن حتى يحجُبوا سكني فلا يَراهُ ولو أدرجْتُ في كفنِي

ولهذا الشعر قصَّة طريفة : حُكِي عن بعض المغنين قال، قدم عليَّ فتى حسن الوجه

عليه أثر السُّقْم وقال : لي عندك حاجة ! قلت : وما هي ؟ فأخرج ثلاثمائة دينار وقال : اقبلها مني واصنع لي لحنًا في بيتين وغنّني بهما . فقلت : نعم ! حبًا وكرامة فأنشد البيتين المذكورين . قال : فصنعت لحنًا شجيا ثم غنيته إياه . فأُغمي عليه حتى ظننته قد مات، ثم أفاق وكأنَّما نُشِر من قبر . فقال : أعد عليَّ ! فنَاشَدتُه الله في نفسه وقلت : أخشى والله أن تموت . فقال : ليت ذلك [قد كان] فأستريح ! وجعل يتضرع لي حتى رحمته فأعدت الصوت . فصعق صعقة ظننت أن نفسه زهقت فيها . فجعلت أنضح وجهه بالماء . فلما أفاق وضعت دنانيره بين يديه وقلت : انصرف عني فإني لا أحب أن أُشرك في دمك . فقال : لا حاجة لي بها، ولك عندي مثلها . وأخرج ثلاثمائة أخرى وقال : أعد عليَّ الصوت مرة أخرى، وأنا أنصرف عنك . قال : فشرهت نفسي إلى الدنانير وقلت : أفعل على ثلاثة شروط . قال : وما هي ؟ قال : الأول أن تأكل من الطعام ما تتقوى به ؛ والثاني أن تشرب أقداحًا من النبيذ تمسك قلبك، والثالث أن تحدثني بقصَّتك فلعلَّ ذلك ينفعك . فقال : نعم . فدعوت بالطعام فأصاب منه، ودعوت بالشراب فشرب أقداحا وأنا أُغنيه ما يحضرني . فلما رأيت النبيذ شَدَّ قلبه غنَّيت الصوت، فطرب وأعدته عليه مرارا حتى رضي وسكن . فقلت : حدثني . فقال . أنا رجل من أهل المدينة، خرجت متنزها، وقد سال العقيق مع أصحاب لي . فخرج فتيات لمثل ما خرجنا إليه . فنظرت إلى فتاة منهنَّ كأنها غصن بان، فعلِقْتُها من وقتي وأطلت النظر إليها، وأبصرت هي ذلك مني . فلمَّا تفرَّق الناس وجدت بقلبي جرحا ولم أعرف لها ولا لصواحبها خبرا . فمرضت لذلك حتى يئس مني أهلي . فَخَلَتْ بِي ظِئْرِي وسألتني عن ضُرِّي وضمِنَتْ لي كتمان السر والسعي فيما يصلح . فأخبرتها خبري، فقالت : لا بأس عليك سيعود المطر ويسيل العقيق فتخرج معك . فإذا رأيتها عرَّفتني بها، فلا أفارقها حتى تقف على موضعها وأوصلك إليها وأسعى في تزوّجها . فسكنت نفسي لقولها، ولم نلبث أن جاء المطر وسال العقيق . فخرجت مع أصحابي ومعي ظِئْرِي، وجلسنا مَجْلِسَنا الأولَ بعينه، وإذا بالنسوة وفيهنَّ صاحبتي . فأومأت الى ظئري حتى عرفَتْها وقلت لها : انطلقي وقولي : يقول لك الفتى : والله لقد أحسن الذي يقول :

رمَتْني بسهْمٍ أقْصَد القَلْبَ وانثَنت وقد غادرت جُرحًا به ونُدُوبَا

فمضت وقالت لها ذلك . فقالت : قولي له : لقد أحسن القائلُ وأحسن الذي يقول :

بنا مِثل ما تشكو فصبراً لَعلَّنا نرى فرجًا يشْفي الفُؤادَ قريبا

قال : فلمَّا انصرفنا، تبعتُها حتى عرفتُ مكانها، فتلطَّفت حتى جمعت بيننا على مخالسة، فظهر ما بيننا فحُجِبَتْ عني ولم أقدر على لقائها . فبلغ ذلك أبي فخطبها من أبيها فقال : لو كان هذا قبل اشتهار حديثها لاسْعَفْتُه ؛ وأمَّا الآن فلا أحَقّقُ مقالة الناس فيها بتزويجها منه . فيئست منها ومن نفسي، فخرجت هائما حتى بلغتك . قال المغني المذكور : ثم إني حضرت مجلس جعفر بن يحيى، فغنَّيْتُه بشعر الفتى، فقال : ويحك ! ما هذا الصوت وما قصَّته ؟ فقلت : قصَّته أظرف منه . ثم حدثته بحديث الفتى، فأمر بإحضاره وسأله، فأعاد عليه الحديث كما حدثته، فقال له : أنا ضامن لك تزويجها، فطابت نفسه . ثم ركب جعفر الى الرشيد وحدثه الحديث . فاستظرفه وأمر بإحضارنا جميعا، وسأل الفتى عن حديثه فحدثه وقال لي : غنّ الصوت فغنَّيته وطرب له وشرب عليه، وأمر بالكتب الى عامل الحجاز بإشخاص الرجل وأهله وولده مكرمين . فلمَّا حضروا عنده أعطى الرجل ألف دينار وأمره بتزويج الجارية من الفتى، وأعطى الفتى ألفي دينار، وأمر لي بألف دينار.

وقال أبو تمام حبيبُ بْنُ أوْسٍ الطَّائِيُّ، من قصيدة :

أنظُر وإيَّاك الهوى لا تُمكِنَنْ شَيطانَه من مُقلَةٍ شَوسَاءِ

وقال أيضا، من هذه القصيدة، يخاطب خالد بن يزيد :

لَو سِرتُ لالتَقَتِ الضُّلوع على أسىً كلف قليل السِّلمِ للأحشَاءِ

ولجفّ نوّارُ الكَلام وقلّمَا يَبْقى بَهاءُ الغَرسِ بعد المَاءِ

وقال أيضا، من أخرى :

لا تسقِني ماءَ المَلامِ فإنَّني صبٌّ قَد استَعذبتُ ماءَ بُكائِي

وفي إضافة الماء للملام، غرابةٌ أوجبت بعض الهُجنَة والبرودة [في الكلام] ويحكى أنه عِيبَ عليه ذلك حتى تحدث أن بعض عصريّيه أرسل إليه أن ابْعَثْ اليّ بشربةٍ من ماء الملام. فقال : حتى تبعث اليّ بريشةٍ من جناح الذلّ. وهذه خطيئة أبشع من الأولى،

فإن الاستعارة في جناح الذلّ مأنوسةُ الاستعمالِ قديمًا وحديثا، ومُدْرَكٌ حُسْنُها وفصاحتها بالذوق دون ماء الملام . وقد وقع له في هذه القصيدة نفسها ما يقرب من هذا، حيث قال :

رأيٌ لو استسقيتَ ماءَ نَصيحةٍ   لجعلته رأيًا من الآراءِ

غير أن هذا، وإن كان غريبا، يُحسّنه أن الرأي والنصيحة تحيا بهما النفوس كما تحيا بالماء الأبدان، ولا كذلك الملام . وقال أبو الطيب أحمد بن الحسين المتنبي:

عَذلُ العَواذِلِ حَولَ قَلْبي التّائِه   وهَوى الأحِبّةِ منه في سَودائِه

وتقدم هذا المنزع وما فيه قبل . وقال أيضا :

أنا صخْرةُ الوادِي إذا ما زوحمت   فإذا انطَلقْتُ فإنّني الجَوزَاءُ
وإذا خَفيتُ على الغَبيّ فعاذرٌ   ألاّ تَراني مُقْلةٌ عَمْياءُ

وقال الآخر :

إنّ الحديثَ جانبٌ من القِرَى   ثُم المَنامُ بَعدَ ذَاكَ في الذُّرَى

وقال الآخر :

إذا القَومُ قالُوا من فَتىً لعظِيمةٍ   فما كُلُّهم يُدعى ولكنّه الفَتَى

وقال الآخر :

ضاع سعْيِي وخِبتُ خابَت أعاديكَ   ومن يَبتَغي لَكَ الأسواءَ
واحتَملتُ الحرمانَ والنّقصَ والابعادَ   والذُّلّ والعنا والجَفَاءَ
وتحمّلتُ واصطبرتُ فلم يُبْقِ   على عُودِيَ الزّمانُ لِحَاءَ
أعَلى هَذِهِ المُصِيبةِ صَبْرٌ   لا ولَوْ كُنْتُ صَخْرةً صَمّاءَ

ومثله في التشكي قول الآخر :

أسجْنًا وقَيدًا واشتياقًا وغُربَةً   ونأيَ حَبيبٍ ؟ إنّ ذَاكَ عَظيمُ !
وإنّ امْرءًا تَبْقى مواثِيقُ عَقدِهِ   على مِثلِ ما لاقَيتُه لكَريمُ

وقول الآخر :

ولقد أردْتُ الصَّبرَ عنْكَ فَعاقَنِي ... عِلقٌ بقَلبِي من هواكَ قَديمُ
يبْقَى على حَدَثِ الزَّمانِ وريبِهِ ... وعلى جَفائِكَ إنَّهُ لكَرِيمُ

وقال الآخر :

قال لي : كَيفَ أنتَ ؟ قُلتُ : عليلُ ... سهَرٌ دائمٌ وحُزنٌ طَويلُ

وقال الآخر :

وإذا ما الصَّدِيقُ صار عَدُوّاً ... كان في الشَّرِّ أكْبَرَ الأعداءِ[68]

وقال الآخر :

لا تُعِدَّنَّ لِلزَّمانِ صَدِيقًا ... وأعِدَّ الزَّمانَ للأصْدِقَاءِ

ومثله قول الآخر :

ليسَ بِالمُنكَرِ انقِلاَبُ صَديقٍ ... رُبَّما غصَّ شاربٌ بالشَّراب
لا تُضيِّعْ مَودَّةً مِن صَديقٍ ... فانقِلابُ الصَّدِيقِ شرُّ انقِلابِ

وقول منصور الفقيه :

احذَرْ عَدُوَّكَ مَرَّةً ... واحْذَرْ صَدِيقَكَ ألْفَ مَرَّهْ
فَلَرُبَّمَا انقَلَبَ الصَّدِيقُ ... فكَانَ أعْرَفَ بِالمَضَرَّهْ

وقوله :

إحْذَرْ مَوَدَّةَ مَاذِقٍ ... مَزَجَ المَرارَةَ بالحَلاَوَهْ
يُحْصِي الذّنُوبَ عَلَيْكَ ... أيّامَ الصَّدَاقةِ لِلْعَدَاوَهْ

وقول الآخر :

كُنْ مِن صَديقِكَ خائفًا فَلَرُبَّما ... حالَ الصَّديقُ فصار غَيْرَ صديقِ

وقول ابن الرّومي :

عَدُوُّك مِن صَديقِكَ مُستَفادٌ ... فأقْلِلْ ما اسْتَطَعتَ من الصّحاب
فإنَّ الدّاءَ أكثَرَ ما تَراهُ ... يَكونُ مِن الطَّعام أوِ الشَّرابِ

وقول الآخر :

دار الصَّديقَ إذا استشاطَ تَغيُّظًا ... فالغَيظُ يُخْرِجُ كامِنَ الأحْقَادِ

---

68) في ب : كان في الضرِّ...

وقول ابن الخالدي(69)

وأخٍ رخُصتُ عليه حتّى ملّني   والشّيءُ مملولٌ إذا ما يرخُصُ
ما في زمانِك ما يعِزُّ وجودُهُ   إنْ رُمتَهُ إلاّ صديقٌ مُخلِصُ

وقول منصور أيضا :

إذا تخلّفْتَ عن صديقٍ   ولم يُعاتِبْكَ في التّخلُّفْ
فلا تعُدْ بعْدَها إليْهِ   فإنّما وُدُّهُ تكلُّفْ

وقول الأنصاري :

ألا رُبَّ مَن تدعو صديقًا ولو ترَى   مقالتَهُ بالغَيبِ ساءَكَ ما يفْرِي
لسانٌ لهُ كالشّهدِ مادُمتَ حاضِراً   وبالغَيبِ مطرُورٌ على ثُغرةِ النّحْرِ

وقول أبي الطيب :

ومِن نكد الدُّنيا على المرْءِ أن يرَى   عَدُوًّا لَهُ ما مِن صداقتِهِ بُدُّ

وما يحكى أنّ كسرى قال يومًا لمرَازبَتِهِ : من أي شيءٍ أنتم أشدُّ حِذْرًا ؟ قالوا : من العدوّ الفاجر، والصديق الغادر. وقول موسى بن جعفر : اتّقِ العَدُوَّ وكُنْ من الصديق على حِذْرٍ، فإنّ القلوب سُمِّيت قلوبًا لتقلّبها . وسيأتي كثير من هذا النمط بعد إن شاء الله تعالى . وقال أبو الطيب :

وهَبْني قُلتُ هذا الصُّبْحُ ليلٌ   أيعْمَى العالِمونَ عَنِ الضّياءِ ؟

وقال أيضا مادحا :

وإذا مُدحْتَ فلا لِتكسِبَ رِفْعَةً   للشّاكريـنَ على الالهِ ثَنَاءُ
وإذا مُطِرتَ فلا لأنّكَ مُجْدِبٌ   يُسْقَى الخَصِيبُ وتُمطرُ الدّأماءُ

والدّأْمَاء : البحر . وقال أيضا :

إنّما التّهنِئاتُ للأكْفاءِ   ولِمَن يَدّنِي من البُعَداءِ
وأنا مِنكَ لاَ يُهَنّىءُ عُضْوٌ   بالمَسرّاتِ سائِرَ الأعْضَاءِ

وقال أيضا من هذه القصيدة يمدح كافورا وكان أسود :

إنّما الجِلدُ مَلْبَسٌ وابْيِضَاضُ   النّفسِ خَيرٌ من ابْيِضاضِ القَباءِ

وقال [أيضا] :

وما كُلُّ مَن قال قَولاً وفَى   ولا كُلُّ مَن سِيمَ خَسفًا أبَى

69) في ب : أبي الخالدي

وقال :

ولا بُدَّ لِلقَلْبِ مِنْ آلَةٍ ورأيٍ يُصَدِّعُ صُمَّ الصَّفَا

وقال :

فكانَ على قُربِنَا بَينَنَا مَهَامِهُ مِن جَهْلِهِ والعَمَى

وقال :

وماذا بِمِصْرٍ من المُضْحِكَاتِ ولَكنَّهُ ضَحِكٌ كالبُكَا

وقال :

ومَنْ جَهِلَتْ نَفْسُهُ قَدرَهُ رَأى غَيْرُهُ مِنْهُ ما لاَ يَرَى

وقال الحماسي مُحْرِزٌ الضَبِّيّ يهجو بَنِي عَدِيّ بن جُنْدُب، من أبيات :

وإنِّي لَرَاجِيكُم على بُطْءِ سَعْيِكُم كما في بُطونِ الحَامِلاَتِ رجَاءُ

ولَوشِئتُ قال المُخْبِرونَ أساءُوا[70] أُخَبِّرُ مَن لا قَيتُ أنْ قَدْ وفَيتُمُ

وقال القاسم بن حَنْبَل في بني سِنَان :

لَهُم شَمْسُ النَّهار إذا اسْتَقَلَّت ونُورٌ ما يُغَيِّرُه العَمَاءُ

هُمُ حَلوّا مِن الشَّرفِ المُعَلَّى ومِن حُسنِ العَشيرةِ حَيثُ شَاءُوا

بُنَاةُ مَكارمٍ وأُسَاةُ كَلْمٍ دِماؤُهُمُ مِن الكَلَبِ الشِّفَاءُ

وإنَّما قال ذلك لما يزعمون من أنّ من أصابه الكَلَبُ، وهو شبه جنون يصيب من عضَّه الكلْب، ثُمَّ سُقِيَ دَمَ ملكٍ أو شريف بَرِىء . ومثله قول زهير :

وإنْ يُقْتَلُو فَيُشْتَفَى بِدمائِهِم وكانوا قَديمًا مِن مَناياهُمُ القَتلُ

وقول الآخر :

أحلامُكُم لِسَقامِ الجَهلِ شَافِيةٌ كما دِماؤُكُمُ مِنَ الكَلَبِ

وقال الحُسَيْنُ بْنُ مَطَيْرٍ الأسَديّ يصف بَرْقًا وسحابا :

مُسْتَضْحِكٌ بلوامِعٍ مُسْتَعبِرٌ بمدامِعٍ لم تمرها الأقْذاءُ

فَلَهُ بِلا حُزْنٍ ولا بِمَسَرَّةٍ ضحِكٌ يُراوِحُ بَينَنا وبُكَاءُ

70) في الحماسة (ص.192) : قَالَ المُنْبَؤُنَ أساؤا وفيها أيضا تقديم هذا البيت على الذي قبله مفصولا بينهما ببيت آخر.

كَثُرتْ كَكَثْرةِ ودْقِهِ أطْباؤُهُ فإذا تَحلَّبَ فاضَتِ الأطْباءُ
وكأن عارضها حريق يلتقي أشَبٌ عَلَيْهِ وعَرْفَجٌ وألاءُ
لو كانَ مِن لُجَجِ السَّواحِلِ ماؤُهُ لَم يَبقَ في لُجَجِ السَّواحِلِ ماءُ

وللعرب فَمَنْ بَعْدَهم في وصف السحاب والبرق والرعد إكثارٌ وإطناب لا يأتي عليه الحصر، ولكنا نذكر جملة من مستحسن ذلك، ومِمَّا كان منه حسن أن يتمثَّل به . فمن ذلك قول امرىء القيس :

أصَاحِ تَرَى بَرقًا أرَاكَ ومِيضَهُ كَلَمْعِ اليَدين في حَبِيٍّ مُكَلَّلِ
يُضيءُ سَنَاهُ أو مَصابِيحُ رَاهِبٍ أمالَ السَّلِيطَ في الذُّبال المَفَتَّلِ[71]

وقوله :

أعِنِّي على بَرقٍ أراهُ ومِيضٍ يُضِيءُ حَبيًّا في شماريخَ بِيضِ
ويَهدأُ تاراتٍ سَنَاهُ وتارَةً ينوءُ كتَعْتابِ الكَسيرِ المَهِيضِ
وتَخْرُجُ منه لامعاتٌ كأنَّها أكُفٌّ تَلَقَّى الفَوزَ عِند المُفِيضِ

وقوله :

ديمةٌ هَطلاءُ فيها وطَفٌ طَبَّقَ الأرضَ تحَرّى وتَدِرْ
تُخرِجُ الودَّ إذا ما أشجَذَتْ وتُواريهِ إذا ما تَسْتَكِرْ

وهي قطعة أبيات في هذا . وأشْجَذَتْ : أقْلَعَتْ . وقوله :

يُساجِلُ التَّوءَمَ اليَشْكُرِي وأواخِرُ الانْصَافِ لِلتَّوْءَمِ

[وقوله] :

أحارِ تَرَى بُرَيقًا هَبَّ وهْنًا كنَارِ مَجوسَ تَستَعِرُ استِعارا
أرقتُ لهُ ونامَ أبو شُرَيْحٍ إذا ما قُلتُ قَد هَدأ اسْتَطارا
كأنَّ هَزِيرَهُ بِوراءِ غَيْبٍ عِشَارٌ وُلَّهٌ لاقَتْ عِشَارا
فلمَّا أن دنا لقَفَا أضَاخٍ وهَتْ أعجَازُ رَيِّقِهِ فحَارَا
فَلَمْ يَتركْ بِذَاتِ السِّرِّ ظَبْيًا ولم يَترُكْ بِجَلْهَتِها حِمارَا

وقال عَبيدُ بنُ الأبْرَصِ :

---

71) في أ : لَهَانَ السَّلِيطِ، وفي ب : أهان السليط . والتصحيح من الديوان.

يا مَن لِبَرقٍ أبيتُ اللّيلَ أرقُبه … في عارضٍ كَمُضيءِ الصُّبحِ لمّاحِ
دانٍ مُسفٍّ فُويقَ الأرضِ هَيدبُهُ … يكادُ يدفَعُهُ مَن قامَ بالرّاحِ
كأنّ ريّقَه لمّا علا شَطَبًا … أقرابُ أبلَقَ يَنفي الخَيلَ رمّاحِ[72]
ينزِعُ جِلدَ الحَصى أجَشُّ مُبتركٌ … كأنّه فاحصٌ أو لاعِبٌ داحِ
فَمن بِنَجوتِه كَمنْ بِعَقْوتِه … والمُستَكِنُّ كمن يَمشي بِقِرْواحِ
كأنّ فيه عِشارًا جِلّةً شرفًا … شُعثًا لهاميمَ قَد همّت بإرشاحِ
هُدلًا مشافِرُها بُحًّا حَناجِرُها … تُزْجى مرابعُها في صَحْصَحٍ ضاحِ

وقول كثيّر :

فالمُستكِنُّ ومن يَمشي بمَروتِه … سيّانِ فيه ومَن بالسَّهلِ والجَبَلِ

وقول الحِمّانيّ :

دِمَنٌ كأنّ رِياضَها … يَكسُبْنَ أعلامَ المَطارِفْ
وكأنّما غُدْرانُها … فيها عشورٌ في مصاحِفْ
وكأنّما أنْهارُها … تَهْتَزُّ بالرّيحِ العَواصِفْ
طُرَرُ الوصائِفِ يَلْتَقِينَ … بها الى طُرَرِ الوصائِفْ
بَاتَتْ سَواريهَا تمَخّضُ … في رَواعِدِها القَواصِفْ
ثمّ انبرَتْ سَحًّا … كَباكِيةٍ بأرْبَعَةٍ ذَوارِفْ
وكأنّ لَمْعَ بُرُوقِهَا … في الجَوّ أسْيافُ المَثاقِفْ[73]

وقول عبيد :

سَقَى الرّبَاعَ مُجَلْجِلُ … الأكْنَافِ لَمّاعٌ بُرُوقُهُ[74]
جَوْنٌ تُكَفْكِفُهُ الصَّبَا … وهْنًا وتَمْريهِ خَريقُهْ
مرْيَ العَسيفِ عِشَارَهُ … حَتّى إذا دَرّتْ عُرُوقُهْ
ودنَا يُضيءُ رَبَابُه … غَابًا يُضَرِّمُهُ حَريقُهْ

---

72) في لسان العرب : كأنّ أقرابَهُ لَمّا..
73) في ب : أسْبَابُ المَثَاقِف.
74) في الديوان :
سَقَى الرّبَابَ مُجَلْجِلُ … الاكْنَافِ لَمّاحٌ بُرُوقُهْ
وفيه استبدال كثير من الكلمات الواردة بأخرى في الأبيات التالية : انظر الديوان، ص .96 ـ 97

حتَّى إذا ما ذَرْعُه بالمَاءِ ضَاقَ فَمَا يُطيقُه
هبَّتْ لهُ من خلْفِهِ ريحٌ شآمِيَةٌ تَسُوقُهْ
حَلَّتْ عَزَالِيَهُ الجَنُوبُ فَثَجَّ واهِيَةٌ خُرُوقُه

وقال كثير :

تَسمَعُ الرَّعْدَ في المُخيلَةِ مِنها مثْلَ هَزمِ القُرُومِ في الأشوالِ
وتَرَى البَرْقَ عارضًا مُستَطِيراً مَرِحَ البُلْقِ جُلْنَ في الأجْلاَلِ
أو مَصابِيحَ رَاهِبٍ فِي يَفاعٍ سَغَّمَ الزَّيتَ سَاطِعاتِ الذُّبَالِ

وقوله :

أهاجَكَ بَرْقٌ آخِرَ اللَّيْلِ واصِبُ تَضَمَّنَهُ فَرشُ الحَيا فالمسَارِبُ
يجُرُّ ويستَأني نشاطًا كأنَّه بِغَيقَةَ حادٍ جلجل الصَّوتَ جالِبُ
تَألَّقَ واحمَومَى وخيَّمَ بالرُّبى أحمُّ الذُّرى ذو هيدبٍ مُتراكِبُ
كَما أومَضَتْ بِالعَينِ ثمَّ تَبسَّمت خَرِيعٌ بَدا مِنها جَبِينٌ وحَاجِبُ

وقول عبد الله بن المعتز :

ومُزنَةٍ جاد مِن أجْفانِها المَطرُ فالرَّوضُ مُنتَظِمٌ والقَطرُ مُنتَثِرُ
تَرى مواقِعَه في الأرض لائِحَةً مِثل الدَّراهِم تَبدو ثمَّ تَستَتِرُ[75]

وقوله أيضا :

كأنَّ الرباب الجون والفجْرُ ساطِعٌ دُخانُ حريقٍ لا يُضيءُ له جَمرُ

وقول أبي الغمر :

نَسَجَتهُ الجَنوبُ وهْيَ صَناعٌ فَترقَّى كأنَّهُ حَبَشِيُّ

وقول الآخر :

ما تَرى نِعمَةَ السَّماءِ على الأرْ ضِ وشُكرَ الرِّيَاضِ لِلأمْطَارِ

وقول الآخر :

وموقَرةٍ بِثِقلِ الماءِ جاءَتْ تَهادَى فوقَ أعناقِ الرِّياحِ
فجاءَت لَيلَها سحًّا ووبْلاً وهَطْلاً مِثْلَ أفْواهِ الجِرَاحِ

---

75) في الديوان : ترى مواقعها... ورواية اليوسي أوفق لأن (القَطْر) أقرب مذكور.

(وقول الآخر :

بَدا البرقُ مِن نحْوِ الحجاَزِ فَشَاقَني ... وكُلُّ حِجازِيّ لَه البَرقُ شائقُ

سَرى مثلَ نَبضِ العرقِ والّليلُ دونه ... واعلام ابلَى كلهَا والاسَالـق)[76]

وقول الطائي ومنه أخذ :

إليك سَرى بالمدح ركبٌ كأنّهُم ... على العيسِ حيّاتُ اللصاب النّضانضُ

تشِيم بُروقًا من نَداك كأنّها ... وقَد لاحَ أولاها عُروقٌ نَوابِضُ

وقول الآخـر :

أرقتُ لبرقٍ آخِرَ الّليلِ يَلمعُ ... سَرى دائبًا مِنْها يَهُبُّ ويَهْجَعُ

سَرى كاقْتِداءِ الصَّبر والّليلُ ضاربٌ ... بأرواقِه والصُّبحُ قَد كادَ يَسْطَعُ

وقول الآخـر :

أرقْتَ لِبَرقٍ سَرَى مَوهنًا ... خَفيٍّ كغَمْزِكَ بِالحَاجِبِ

كأنّ تألّقَهُ فِي السّماءِ ... يَدَا حاسِبٍ أوْ يَدَا كَاتِبِ

وقول ابن المعتز :

رأيتُ فِيها بَرْقَهَا مُنْذُ بَدَت[77] ... كَمِثْل طَرفِ العَينِ أو قَلبٍ يجِب

ثمّ حَدتْ بِها الصّبَا حتّى بَدا ... فيها مِن البَرْق كأمْثَال الشُّهُب

تَحسبُه فيها إذا ما انصَدَعَت ... أحشاؤُها عنْهُ شُجاعًا يَضْطَرب

وتَـارةً تَحسِبُه كأنّهُ ... أبْلَقُ مَالَ جُلُّه حِينَ وثَب

حتّى إذا ما رفَع اليَومُ الضُّحَى ... حَسِبْتَه سَلاسِلاً مِن الذّهَب[78]

وقول الآخـر :

نارٌ تُجَدِّد للعِيدَانِ نُضرتَها ... والنّار تَلفَحُ عيدانًا فَتَحترَقُ

وقول الطائي :

يا سهم للبَرقِ الذي اسْتَطارا ... ثابَ على رغمِ الدُجَى نَهَارًا

آضَ لَنَا مَاءً وكَانَ نَارًا

وقول عبد الله بن عبد الله بن طاهر :

أما تَرى البَرقَ قَد رقّتَ حواشِيه ... وقَد دعَاكَ الى الّلذّاتِ داعِيه ؟

---

76) سقط ما بين قوسين من أ.

77) في الديوان : رأيت فيها برقَهَا لمّا وثَبَ.

78) الأبيات الثلاثة الأخيرة تكاد تكون كل ألفاظها مغايرة لما في الديوان . انظر القصيدة بتمامها (36 بيتًا) في الديوان، ص. 16 ـ 18.

وجَاد بالقَطرِ حتَّى خِلتَ أنَّ لَهُ إلفًا نَـآهُ فما ينفكُّ يبكِـيهِ
ومثله قول الآخر :
كأنَّ السَّحابَ الغرُّ غَـيَّبْن تَـحْتَـها حبيبًا فما ترقَى لَهُنَّ مَدامِعُ
وتَـتَـبُّعُ الشِّعرِ في هذا يُطيل، فلنُمْسِكِ العنان . وقال أبو الأسود الدؤلي :
وما طَلَبُ المَعيشَةِ بالتَّمنّي ولَكنْ ألقِ دلْوكَ في الدِّلاءِ
تَجيءُ بِمِلئِها طَوراً وطَـوراً تَجيءُ بَحمأةٍ وقَلـيلِ مَـاءِ
وسيأتي إتمام هذا المنزَع بعد إن شاء الله تعالى . وقال ابن نقطة :
لا تُظْهِرَنَّ لِعَاذِلٍ أو عاذرٍ حالَيْكَ في الضَّرَّاءِ والسَّرَّاءِ
فلِرحْمة المُتَـوجِّعِين مَـرَارَةٌ في القَلبِ مِثْلُ شَمَاتَةِ الأعدَاءِ
وقال أبو سعيد الخُوارزمي في أبي بكر الخُوارزمي الشاعر :
أبـو بَكـر لَه أدبٌ وفَضْلٌ ولكِـن لا يدومُ على الوفَـاءِ
مودَّتُهُ إذا دامَتْ لِـخِلٍّ فَمنْ وقْتِ الصَّباحِ الى المساءِ
وقال عبد الله بن رَواحَة الأنصاري، يوم خرجوا الى مؤتَة وأمَّرَهُ النبي صلَّى الله عليه وسلَّم بعد زيد وجعفر، رضي الله عنهم أجمعين :
إذا بلَّغتِني وحَملتِ رَحْلِي مَسِيرةَ أربعٍ بعدَ الحَساء
فشأنُكَ فانْعَمِي وخَلاكِ ذمٌّ ولا أرجِـعْ الى أهْلِي وراءِ
قوله : فشَأنُك فَانْعَمِي يريد أنه قضى الوطر من ركوبها، ولم تبق له تباعة على ظهرها، وهي كناية عن أنَّه لا يحبّ المرجع ولا يشتهي مذهبا عن ذلك الموضع . ومن ثمَّ قال : ولا أرجع الى أهلي بجزم الفعل، قصداً للدعاء، كأنَّه يقول : اللهمَّ لا ترجعني الى أهلي، واستشهدني ! وما ذكره في الناقة قد تداوله الشعراء كثيرا فمن ذلك قول الشمَّاخ في عرابَةَ الأوْسِيّ :
رأيْتُ عَرابَةَ الأوسِيَّ يَسْمُـو الى الخَيراتِ مُنْقَطِعَ القَرينِ
إذا ما رَايَةٌ رُفِعَتْ لِمَجْدٍ تَلقَّاهـا عَـرابَةُ بِاليَمِيـنِ
إذا بَلَّغْتِنِي وحَملتِ رَحْلي إليهِ فَاشْرقِي بِدَمِ الوتِينِ

ومِثْل سَرَاةِ قَومِكَ لم يُجَارُوا الى ربْعِ الرِّهَانِ ولا الثَّمِين
وكان الشَّمَّاخ قَدِمِ المدينة، فقال له عَرابَةُ : ما أقْدمَك ؟ فقال : قدمت لِأمْتَار . فملأ له عَرَابَةُ رواحلَه تمْراً وبُرّاً، وأعطاه غير ذلك، فقال فيه ما تقدَّم . وقول ذي الرمَّة يمدح بلالَ بنَ أبِي ربَاحِ :

إذا ابْنَ أبِي مُوسَى بِلالاً بَلَغْتِهِ فَقَامَ بِفَاسٍ بَينَ وصلَيْكِ جَازِرُ

غير أنَّه يُعاب على هذين الشاعرين أن جعلا جزاء الرَّاحِلَةِ التي بَلَّغتهما ذلك المأمول العظيم والمطلب الخطير شراً، وما كان ينبغي لهما إلا أن ينظرا لها عند الاستغناء عنها ويكافآها خيرا بما قضيا منها، كما أشار إليه أبلغ البلغاء، وأحكم الحكماء، صلَّى الله عليه وسلَّم، حيث وردت المرأة راكبة على ناقته فقالت : إني نَذَرتُ إن نَجَوْتُ عليها أن أنْحَرَها . فقال صلَّى الله عليه وسلَّم : بِئْسَ ما جَزَيْتِها ! لاَ نَذْرَ في مَعْصِيَّة الله، ولا نَذْرَ للانسان في غير ماله . أو كما قال صلَّى الله عليه وسلَّم . وعلى هذا المنزع العجيب النبوي كان قول ابن رواحة السابق . وقول أبي نواس في محمد الأمين بن هرون الرشيد، وأوضح هذا المعنى :

وإذا المَطِيُّ بِنا بَلَغْنَ مُحَمَّداً فَظُهورُهُنَّ على الرِّجَالِ حَرَامُ
قرَّبْنَنَا من خَيْرِ مَن وطِيءَ الثَّرَى فَلَها عَلينا حُرمةٌ وذِمَامُ

وقول الفرزدق :

مَتى تَرِدِي الرُّصافةَ تَستَريحِي مِن التَّهْجِير والدبر الدوامي

ولهذا الشعر قصَّة تذكر بعد إن شاء الله . والعذر للأولين أن الدعاء عليها في نحو ذلك أبلغُ في التَّنْبيهِ على الاستغناء (عنها وعدم الالتفات إليها . وليس هذا المعنى ملحوظا في قصَّة المرأة)(79) فلا يقاس عليها . ومن هذا الباب قول السلامي :

إلَيْكَ طَوى عرضَ البسيطَةِ جَاعِلٌ قُصار المطايا أن يَلوحَ لَها القَصْرُ

ولعلَّ السابق الى هذا المعنى الأعشى القَيسِيُّ في قصيدته التي توجَّه بها الى النبي صلَّى الله عليه وسلَّم يمدحه حيث يقول :

---

79) ما بين قوسين سقط من أ

مَتى ما تُناخِي عِنِد باب ابن هاشمٍ تُراحِي وتلقيْ مِن فَواضِله يَدا

فضِمن لها عند النزول بابن هاشم، صلّى الله عليه وسلّم، أن يُخَلّيَ عن ظهرها ويُريحَها من كدّ الأسفار إذ لا مطلب وراءه ولا حاجة الى أحد سواه . وقال أبو بكر بن دُريْدٍ في مقصورته :

والنّاسُ كالنّبْتِ : فمِنهُم رائِقٌ، غَضٌّ، نَضِيرٌ عُودُهُ مُرُّ الجَنَى

ومِنهُ ما تقْتَحمُ العَينُ فإنْ ذُقتَ جَناهُ انْساغَ عَذبًا في اللّهَى

وهذه المقصورة جلّها أمثال وحكم، وهي مشهورة لا حاجة الى ذكرها . وقال الآخر :

يَقولونَ هَذي أمُّ عَمرٍو قَريبَةٌ نأتْ بِكَ أرضٌ نَحوها وسَماءُ

ألاَ إنّما قُربُ الحبِيبِ وبُعدُهُ إذا هَو لَمْ يُوصَلْ إلَيهِ سَواءُ

وقال صالح بن جناح :

إذا قلّ ماءُ الوجْهِ قلّ حَياؤُهُ ولاَ خَيرَ في وجْهٍ إذا قلّ ماؤُهُ

وقال الآخر :

ورُبَّ دَنِيّةٍ ما حالَ بَينِي وبَيـن رُكُوبِها إلاّ الحَيـاءُ

إذا رُزِقَ الفتى وجهًا وقَاحًا تَقَلّبَ في الأمورِ كَما يَشَاءُ

وتقدّم شيء من هذا في قولهم : إذا لَم تَسْتَحْيِ فَاصْنَعْ مَاشِئْتَ . وقال الآخر:

إذا جار الأمِيرُ وكَاتِبَاهُ وقَاضِي الأرضِ دَاهَنَ في القَضاء

فَويْلٌ ثمَّ ويْلٌ ثمَّ ويْلٌ لِقاضِي الأرضِ مِن قَاضِي السَّماءِ !

وقال زهير :

وإنّ الحقّ مَقطعُهُ ثَلاثٌ : يَمِينٌ أو نِفَارٌ أوْ جَلاَءُ

ويروى أنّ عمر، رضي الله عنه، لما سمع هذا البيت جعل يردّده استحسانًا له، وتعجبا من معرفته بالحقوق وإبانته أحكامها وإقامته أقسامَها . وقال الآخر :

خَيرُ ما ورّثَ الرّجَالُ بَينِهِمْ أدَبٌ صالحٌ وحُسنُ ثَنَاءِ

وقال سابِقٌ البَرْبَريّ :(80)

---

80) حرّف في ب الى البَريريّ.

مَوتُ التَّقِيِّ حَياةٌ لا انقِطاعَ لها   قَد ماتَ قَومٌ وهُمْ في النَّاس أحياء

ومثله قول الآخر :

أخو العِلم حَيٌّ خالدٌ بعد موتِه   وأوصاله تَحتَ التُّرابِ رَمِيمُ
وذو الجَهل ميتٌ وهو يمشي على الثَّرى   يُعد من الاحياء وهو عَديمُ

وقال ابن الروميّ :

إنَّ لِلَّه بالبَريَّةِ لُطْفًا   سَبَقَ الأمَّهَاتِ والآبَاءَ

وقال أيضا :

أنتَ عَينِي وليسَ مِن حقٌ عيني   غضُّ أجفانِها على الأقْذاءِ

وقال لَبِيد :

كانت قَناتِي لا تَلِينُ لغَامزٍ   فألا نَها الاصباحُ والامْسَاءُ

وقال عبد الله بن عُيَيْنَة :

كلُّ المصائِبِ قَد تَمُرُّ على الفَتى   فَتهونُ غير شماتَةِ الأعداءِ

ومثله في ذكر الشماتة قول الآخر :

إذا ما الدَّهرُ جَرَّ على أناسٍ   بكلكلِه أنَاخَ بآخَرِينَا
فقُل للشَّامِتينَ بنا : أفِيقوا   سَيَلقَى الشَّامتونَ كما لَقِينا

وقال عديٌّ بني زيد :

أيُّها الشَّامتُ المُعيِّرُ بالدَّهر   أأنتَ المُبرَّأُ المَوْفُورُ ؟
أم لديكَ العَهْدُ الوثِيقُ مِن الأيَّامِ   بَل أنتَ جاهلٌ مغرُورُ
مَن رأيتَ المَنونَ خَلَّدنَ أم مَّن   ذا عَليهِ من أن يُضَامَ خَفِيرُ

وقال منصورٌ الفقيه :

يا من يُسَرُّ بِمَوتِي   إذا أتَاهُ البَشِيرُ
ألَيْسَ مَن كَانَ مِثْلِي   الَى مَصِيري يَصِيرُ ؟

وتمثَّل الشافعي، رضي الله عنه، حين بلغه دعاء من دعا عليه بالموت بِبَيْتَي الشاعر :

تَمنَّى رجالٌ أن أموتَ فان أمُت   فَتلكَ طريقٌ لَستُ فيها بِأوحَد

فَقُلْ للذي يبْغِي خلافَ الذي مضَى تهيَّأ لأخْرى مِثْلِها فكأن قَدِ

وقال الحماسي في الملح :

وما العَيشُ إلاّ أكلَةٌ وتَشَرُّقٌ وتَمرٌ كأكبَادِ الجَرادِ ومَاءُ

التّشرّق بالراء : القعود للشمس، والتّمْرُ الذي كأكباد الجراد : الصَّيْحَانيّ. وقال الآخر:

مَن فَاتهُ العِلم وأخْطاهُ الغِنَى فَذاكَ والكَلبُ على حَدٍّ سَوا

ولنقتصر على هذا القدر من هذا الباب، فإن فيه كفايةً إن شاء الله تعالى . والّلهُ يَقُولُ الحَقَّ وهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ.

بـــاب البـــاء

بَحَثَ عَن حَتْفِهِ بِظِلفِهِ .

البَحْثُ التَّفْتِيش . والحَتْفُ : الهَلاك . والظِّلْفُ بكسر الظاء للشاة والبقرة والظبي بمنزلة القَدم لَنا. واستعاره عمرو بن مَعْدِي كَرِب للخيل في قوله : وخَيْلٍ تَطَأْكُمْ بِأظْلافِها .

يُضرَب هذا المثل في الحاجة تؤدي صاحبها الى التَّلف وجناية الانسان على نفسه . وأصله أن ما عزةً لبعض العرب كانوا أرادوا ذبحها، فلم يجدوا شفرة يذبحونها بها، فجعلت تَنْبش برجلها في الأرض حتى استخرجت بنبشها شفرة كانت ضاعت لهم في الأرض، فذبحوها بها وقالوا : بَحَثَتْ عَن حَتْفِهَا بِظِلْفِها . فذهبت مثلا . وقال الفرزدق في ذلك :

وكان يُجيرُ النَّاسَ من سَيفِ مالِكٍ   فَأصبحَ يَبغِي نفسه من يُجِيرها
وكان كعَنزِ السُّوءِ قامَتْ بظِلفِها   الى مُديةٍ تحتَ الثَّرى تستَثِيرها

وقال أبو الأسود :

فَلاتَكُ مِثل الَّتي استَخْرجَتْ   بِأظْلافِهـا مُـدية أو بفِيهَـا
فقـام إليهـا بِهَـا ذَابِحٌ   ومَن تَدعُ يومًا شَعُوبٌ يَجِيهَا

أبْخَرُ مِنَ الأسَدِ .

البَخَرُ، بفتح الخاء المعجمة : نَتْن الفَم وغيره . يقال : بَخِرَ بالكسر، فهو أبْخَرُ وهي بَخْرَاء . وعلى هذا، فالقياس أن لا يصاغ التفضيل من لفظه، بل يقال : أشدّ بَخَراً. فإن صحّ ورود لفظ المثل عندهم، كان من الشَّواذ : وإلاّ فَهُوَ لَحْنٌ . والأسد معروف، وهو مشهور بِبَخَرِ الفَم، وبه يضرب المثل فيه، ومن ثمّ قال البلغاء : لو قيل : جَاءَ أسَدٌ، وأريد رجلٌ أبْخَر، كان استعارةً صحيحة، غير أنها لا تكون مقبولة لعدم استعمالها : فان الوجه فيها يشترط أن يكون بَيِّنًا، ولا يكون بحيث يجعلها كاللّغز .

ومن الأمثال المشهورة للعامَّة قولهم : مَنْ يَسْتَطِيعُ أنْ يَقُولَ للأسَدِ أنْتَ

أبْخَرُ الفَمِ ؟ يضربونه عندما يُرَى عيبٌ أو أذى ممَّن لا يُقْدَرُ أن يُذكَرَ له ذلك وينبّه عليه ويُقبَّحَ له، أو تَصدُرُ كلمة باطلة ممَّن لا يُقْدَرُ أن تُرَدَّ عليه. وكان من أصل ذلك مثلٌ آخر لهم، وهو قولهم : « يَبْرأ الجَرحُ السُّوء، ولا يَبْرأ الكَلاَمُ السُّوء » وسيأتي.

أبْخَرُ مَنَ صَقْرٍ

البَخَرُ : تقدمَّ . والصَّقْر، بفتح الصاد المهملة وسكون القاف : كل شيء يصيد من البُزَاة والشواهين . جمعه صُقْرٍ بالضمّ، وأصْقُرٍ، وصُقُورٍ، [وصُقُورَةٍ] وصِقَارٍ، وصِقَارَةٍ . ويقال، تَصَقَّرَ الرَّجُلُ : صاد بالصَّقْر، وهو أيضا ممَّا يوصف بِبَخَرِ الفَم . قال الشاعر :

فَلَهُ لِحْيَةُ تَيْسٍ ... ولَهُ مِنْقَارُ نَسْرِ
ولَهُ نُكْهَةُ لَيْثٍ ... خَالَطَتْ نُكْهَةَ نَسْرِ

والنُّكْهَة : رائحة الفم .

البَدلُ أعْوَرُ .

بَدلُ الشيء بفتحتين والدال المهملة، وبِدْلُه بالكسر، وبَديلُه : خَلَفُه والأعور معروف . يضرب هذا المثل في سُوءِ الخَلْق، والرَّجُلِ المَذمُوم يَخْلُفُ بَعد الرجل المحمود . وأصله أن يَزيدَ بْنَ المُهَلَّب كان على خراسان، ثم عُزِل عنها ووُلِّيَ مكانَهُ قُتَيْبَةُ بْنُ مُسْلمٍ البَاهِليُّ، وكان شيخًا أعور شحيحًا، فقال الناس : هذا بَدَلٌ أَعْوَرُ ! فذهب مثلا لكل مالا يُرضَى بَدلا . وفي ذلك قال بعض الشعراء :

كَانتْ خُراسانُ أرضًا إذ يَزيد بها ... وكُلُّ باب مِن الخَيراتِ مفْتوحُ
حتَّى أتَانا أبو حَفصٍ بأسرتِه ... كأنَّما وجْهُه بِالخلّ مَنْضوحُ

وفيه قال ابن همَّام السَّلُولي :

أقُتَيبَ قَد قُلنا غَداةَ أتَيتنا ... بَدلٌ لَعَمْرُكَ مِن يَزيد أعْوَرُ

قلت : ويظهر لي أن المثل قديم، ويدلّ على ذلك ما نسبه أهل السيرة لِدِحْيَةَ بنِ خليفة أنه قال حيث أتى قيصر :

ألاَ هَلْ أتاهـا عَلى نَأْيِهـا بأنّي قَـدِمْتُ عَلى قَـيْصَـرِ
فَـغَـرَّرْتُهُ بِصَلاَةِ المَسِـيحِ وكَانَـت مِـن الجَوْهَـرِ الأحْمَـرِ
وتَدْبِير ربّكَ أمْـرَ السَّمَـاءِ والأرْضِ فَـاغضَى ولَـم يُنْكِرِ
وقُلتُ تُقرُّ بِبُشْرَى المَسيح فقَـالَ سأنْظُــرُ قلت انْظُــرِ
فكـاد يُقِـرُّ بامْـرِ الرَّسُـولِ فَمَـالَ إلَى البَـدَلِ الأعْـوَرِ
فَشَكَّ وجَـاشَتْ له نَفسُهُ وجَاشَتْ نَفُوسُ بَنِي الأصْفَرِ
عَلَى وضْعِهِ بِيَدَيْهِ الكتَابَ عَلى الـرَّأسِ والمِنْخَـرِ
فأصبَح قَـيْصَـرُ مِـنْ أمْـرِهِ بِمَنـزِلةِ الفَـرسِ الأشْقَـرِ

والله أعلم :

بَـرِحَ الخَـفَـاءُ .

يقال : بَـرِح الرجلُ مكانه، بالكسر، إذا زال عنه . وأكثرُ استعماله مع النفي ونحوه، كقوله :

وما بَـرِحَـتْ أقْدامُنَـا مِن مكَانِنا ثَلاثَـتُنا حَـتَّى أُزيرُوا المنَـائِيا

وقد يحذف لفظا، كقول الآخر :

وأبْـرَحُ مَا أدَامَ اللّهُ قَـوْمِي بِحَمْدِ اللّهِ مُنْتَطِقًا مُجِيدا

والمُنْتَطِق : ذُو السلاح، والمُجيد بالضمّ : صاحب الجواد من الخيل . ومن هذا قولهم لاَ بَـرَاحَ قال :

مَـن صَـدَّ عَـنْ نِيرَانِـهَـا فَأنَا ابْنُ قَـيْسٍ لاَ بَـرَاحُ[1]

ويقال للأسد وللرجل الشجاع حَبِيكُ بَـرَاحٍ، بمعنى أنّ كلاً منهما كأنه شدّ بالحبال فلا يبرح مكانه ولا يزول . ويقال : بَـرِحَ الخَـفَـاءُ بالكسر، ومعناه وضَحَ الأمْرُ . قال بعض اللغويين : معناه ظهر الأمر، وصار كأنه في بَـرَاحٍ، وهو المكان المستوي من الأرض . ويقال : البَـرَاح من الأرض ما كان ظاهرا مكشوفا ؛ ولذا قيل للشمس بَـرَاحِ، وهو اسم معدول مكسور قال الراجز :

هَـذَا مُقَـامُ قَـدَمَيْ رَبَـاحِ غُدْوَةَ حَتَّى دَلَكَتْ بَـرَاحِ

1) في لسان العرب : مَنْ فَرَّ عن نيرانها... قال ابن الأثير : البيت لسعد بن مالك يعرّض بالحَرْثِ بن عبّاد.

ورَبَـاحٌ اسمُ ساق كان يسقِي لابله . يريد أنه أقام على السقي حتى دلكت الشمس، أي مالت . وقيل : برح الخفاء، أي ذهَب السُّر وظَهَر. والخفاء هنا : السِّرُّ . وقيل : الخفاء المُتَطَأطِئُ من الأرض، والبَراح والمُرتفِعُ منها الظّاهِرُ . فإذا قيل : بَرِحَ الخَفَاءُ، فكأنه قيل ارْتَفَع المُتَطَأطِئُ حتى صار كالمرتفع الظاهر . وقال بعضهم : الخَفَاءُ ما غاب عنك . وقال بعض الأئمَّة : يقال : بَرِحَ الشيءُ، يَبْرَحُ، إذا انْتَحَى وذهب، وبَرِحَ الخَفَاءُ : ذهب ؛ وأبْرحْتُه أنا : أذْهَبْتُه . قال ابن دريد : وأوّل من قاله شِقٌّ الكَاهِنُ . وقال حسَّان، رضي الله عنه :

ألاَ أبْلِغَ أبَا سُفْيَانَ عَنِّي مُغَلْغَلَةً فَقَدْ بَرِحَ الخَفَاءُ

أبْرَدُ مِنْ حَبْقُرٍّ .

أبْرَدُ : من البُرُودَة وهي معروفةٌ، وحَبْقُرُّ أصله حَبّ قُرّ، والحَبُّ : حَبُّ الغَمام، والقُرُّ : البَرْدُ . ويقال : أبْرَدُ مِن حَبّ قُرٍّ، وأبْرد مِن عَبْقُرٍّ، ومِن عَبّ قُرّ . والعَبُّ من أسماء البرد.

بِرُّ الكَرِيمِ طَبْعٌ، وبِرُّ البَخِيلِ دَفْعٌ .

البِرُّ : الاحسان والفضل . ولا شكَّ أنَّ الكريم ينبعث منه البَذْلُ طَيِّبَةً به نفسُه، بل يجد في ذلك أعظم اللذات، والبخيل لا يصدر عنه عطاء إلا عن عناء ومقاساة من نفسه حتى لا يكاد تسمح نفسه بالعطاء إلا عن رغبة أو رهبة كتوقّي الأذى في النفس والمال والعِرْض. وهذا المعنى بيّن مشروح في أبواب الكرم والبخل، مشهور لا حاجة الى ذكره وما قيل فيه.

ومن الشديد الصعب [في هذا المقام][2] ما ذكره صاحب التشوّف، رحمه الله تعالى، في مناقب الشيخ أبي العباس السبتيّ، رضي الله عنه، عن أبي زيد عبد الرحمان بن يوسف الحسني قال : رأيت رسول الله، صلّى الله عليه وسلّم، فقلت يا رسول الله، أريد أن أراك في النوم كلَّ ليلة . فقال : هذا لا يمكن، فإني مطلوب في المشرق والمغرب . فشكوت له حالتي وفقري، فقال [لي] : البخل أضرّ بك . قال . فمرَّ بنا أحمد بن دُونَاس، وهو رجل صالح من الأولياء الأخفياء من أهل أغْمَاتَ، لا يُمسِك شيئا، وربَّما تجرَّد عن أثوابه فَيُؤْثِرُ

2) سقط من أ

بها ويَسْتتِر بالأبواب . فسلَّم علينا وانصرف . فقلت : يارسول الله، وهذا ؟ فقال : البخلُ أضرَّ به . فقلت : يا رسول الله، بيِّن لي ما هذا البخل . فقال لي : لأَقُولَنَّ لك فيه قولا ينقله إليكم علماؤكم، إذا خطر لأحدكم خاطر بالعطاء، ثمَّ عقبه خاطر آخر بالمنع، فالتردد في الخاطر الأول بُخْلٌ. قال : فسألته عن أبي العباس السبتي، وكنت سيِّءَ الاعتقاد فيه، فتبسم ثم قال لي : هو من السُّبَّاق . فقلت له : بيِّن لي . فقال لي : هو ممَّن يَمُرُّ على الصراط كالبرق . قال : فأصبحت وخرجت فلقيت أبا العباس السبتي، فقال : ما سمعتَ وما رأيتَ ؟ فقلت له : دعني . فقال : والله لا تركتك حتى تعرّفني . فذهبت معه إلى حانوت ابن مساعد، فأنشأت أحدّثه الى أن قلت له : التردد في الخاطر الأول بخل . فصاح وغُشِيَ عليه، ثم قال:كلمة الصفا من المصطفى، وصار متى يذكر هذا الكلام يغشى عليه. انتهى ملخَّصا . فليعتبر العاقل بهذه القصَّة وهذا الكلام، ولينظر في أحوال نفسه وأحوال غيره كيف يلقى من نفسه عندما يَهُمُّ بخير غاية التردد والمنازعة والعناء، حتى إذا أعطى قليلا وأكْدَى أوهمته نفسُه أنه جواد كريم، رؤوف رحيم . وليته عرف مقامه وتقصيره فيتوب أو يستغفر وينكسر، عسى أن يتخلَّص ممَّا ورد على البخل من الوعيد الشديد، والذمّ الأكيد ! والله المستعان.

أبَرُّ مِنْ هِرَّةٍ.

البِرُّ يُطْلَق على الخير وعلى الاتساع في الاحسان كما مرَّ، وعلى الصلة، وعلى الجنة، وعلى الطاعة، وعلى الصدق، وعلى ضِدِّ العُقُوق وهو المراد هنا . يقال منه : بَرَرْتُه، بكسر الراء وفتحها بِرًّا ومَبَرَّةً، أبَرُّه، فأنا بارٌّ، وهو مَبْرُور . والهِرَّة، بكسر الهاء، معروفة، وهي الأنثى ؛ والذكر هِرّ . وإنَّما وصفت الهرَّة بالبرّ لأنَّها تأكل أولادها محبَّة لهن، كما قال الشاعر :

أمَا تَرَى الدَّهْرَ وهَذا الوَرَى كَهِرَّةٍ تَأكُلُ أولاَدَهَا

وهي أيضا توصف بالعقوق، وسيأتي .

بِالرِّفَاءِ والبَنِينَ .

الرِّفَاءُ، بكسر الراء والمدّ، على مثال كِساء : الاتِّفاق والالتئام . ويُستعمل عند تهنئة المتزوّج والدعاء له بان يُرْزَقَ اجتماعَ الشَّمل ويُرْزَقَ الأولادِ . والرِّفاء مأخوذ من

قولك : رَفَأْتُ الثوب، ورفَوْتُه، يُهْمَزُ ولا يُهمز . ومعناه لأَمْتُه وضَمَمْتُ بعضَه إلى بعض . يقال : مَنِ اغْتَابَ خَرَق، ومَنِ اسْتَغْفَرَ رَفَأ؛ وقال ابْنُ هَرِمَة :

بُدِّلْتُ مِنْ حَدِّ الشَّبِيبَةِ والأبْدَالُ ثَوْبُ المَشِيبِ أَرْدَؤُهَا

مُلاءَةً غيـــــر جد واسعة أَخَيطُهَـــا مَـــرَّةً وأَرْفَؤُهَــــا

واسْتُعْمِلَ الرِّفَاءُ والمُرَافَاةُ في الموافقة . قال الآخر :

ولَمَّا أنْ رأيْتُ أبَا رُوَيْمٍ يُرَاعِينِي ويَكْرَهُ أنْ يُلاَمَا

وبعض اللغويين يجعل هذا المعنى أصلاً للمثل المذكور . وقيل هو دعاء بالسكون والطمأنينة، أخذا من قولهم :

رَفَوْتُ الرَّجُلَ، أي سَكَّنْتُه من الرعب . قال أبُو خِراش :

رفَوْنِي وقَالُوا : ياخُوَيْلِدُ لا تُرَعْ فَقلتُ وأنكرتُ الوجوهَ هُمُ هُمُ

ويقال : رفَّأتُ الرجلَ ترفيئا : قلت له بالرِّفَاءِ والبَنِينَ . وتزوَّج عَقِيلُ بْنُ أبي طالب امرأةً، فقيل : بالرِّفاء والبنين . فقال، قال النبي صلَّى الله عليه وسلَّم : إذا رفَّأَ أحَدُكُم أخَاهُ فَلْيَقُلْ : بَارَكَ اللَّهُ لَكَ وبَارَكَ عَلَيك !

بَرِّقْ لِمَنْ لا يَعْرِفُكَ .

يقال : بَرَق الرَّجُلُ، وبَرِقَ، وأبْرَقَ، إذا أوعَدَ وتَهدَّد . ويقال أيضا : رَعَدَ وبَرَقَ، وأرْعَد وأبْرَقَ . قال ابن أحمر :

ياجل مَابَعُدَتْ عَلَيْكَ بِلاَدُنا فَابْرُقْ بِأرضِكَ مَابَدالَكَ وارْعُدِ !

وقال الكميت :

أبْــرِقْ وأرعِـــد يَـــا يَزيــدُ فَمَا وعِيدُكَ لِي بِضَائِرِ !

وقال المُتَلَمِّسُ :

إذا جاوَزَتْ مِن ذَاتِ عِرقٍ ثَنِيَّةً فَقل لأبِي قَابُوسَ ما شِئت فارعُدِ !

وأنكر الأصمعي أبْرَقَ وأرعَد رُبَاعيًّا . ذكر القالي في نوادره عن أبي حاتم قال : قلت للأصمعي : أتقول في التهدّد أبْرَقَ وأرْعَد ؟ قال : لا، لست أقول ذلك إلاّ أنْ أرى البرق أو أسْمع الرعد . قلت : فقد قال الكميت (أبْرِقْ وأرْعِدْ، البيت فقال)[3] الكميت جُرْمُقَانِيٌّ مِن أهْل المَوصِل ليس بحُجَّة ؛ والحجَّة الذي يقول : إذا جَاوَزَتْ مِنْ

3) سقط من ب.

ذَاتِ عِرقٍ، البيت . فأتيتُ أبا يزيد فقلت له : كيف تقول من الرَّعْد والبرق فَعَلَتِ السماء ؟ قال : رَعَدَت وبَرقَت (أو أرْعَدَتْ وأبْرَقَت، من الرعد والبرق)[4] قلت : فمن التهدُّد ؟ قال : رَعَدَ وبَرَقَ، وأرْعَد وأبْرق، فأجار اللغتين جميعا . وأقبل أعرابيٌّ مُحْرِمٌ فأردت أن أسأله، فقال لي أبو زيد : دعني فأنا أعْرَفُ بسؤاله . فقال [أبو زيد] : (يا أعرابي، كيف تقول : رَعَدَتِ السَّماءُ وبَرَقَت أو أرْعَدَت وأبْرَقَت ؟ فقال : رَعَدَتْ وبَرَقَتْ . فقال أبو زيد)[5] فكيف تقول للرجل مِن هذا ؟ فقال: أمن الجخيف تريد ؟ يعني التهدّد . قال : نعم . فقال : أقول : رَعَدَ وبَرَقَ، وأرعَدَ وأبْرَق . ومعنى المثل : بَرْقٌ وتهدُّدٌ على من لا يعرف موقع وعيدك، ومنتهى تهديدك ! وأما أنا فقد عرفتك . يضرب عند جواب الجبان إذا جعل يخوّف ويتهدَّد . وقد ذكر في هذا المثل المثل الآخر، وهو قولهم : بَرْقٌ ورَعْدٌ، فلا حاجة الى إعادته.

أبَـرَمًا قَـرُونـًا.

البَرَمُ بفتحتين : مَنْ لا يَدخُلُ مع القوم في المَيْسِرِ، وهو ذمٌّ عند العرب غاية؛ كما أن الدخول فيه مدح . قال متمم :

ولاَ بَرَمٌ تُهْدَى النِّساءُ لِعِرسِهِ إذا القَشعُ مِن بَردِ الشّتاء تَقَعقَعَا
هلاَّ سَألتِ بِنِي ذُبْيانَ ما حَسَبِي إذا الدُّخانُ تَغَشَّى الأشْمَطَ البرمَا ؟

يقول إنَّه يغشى مستوقد القوم ليصيب ممَّا نحروا، لأنه بَرَمٌ لا تَسْخُو نفسُه بالأخذ مع القوم والدخول معهم ؛ وجمعه أبرام . قال دُرَيْدُ بنُ الصِّمَّة:

إذا عُقَبُ القُدُورِ عُدِدْنَ مَالاً أحَبَّ حَلائِلُ الأبْرامِ عِرْسِي[6]

وعُقَبُ القُدور : ما يَبْقى في أسفلها فاضلا، ولا تُعَدُّ مالاً إلاَّ عند اشتداد الأمر ؛ وحينئذ تبقى زوجاتُ الأبرام لا مرقة عندهنَّ فيُحْبِبْنَ عِرْسِي لما عندها من المرق والخيْر . وبَرِمَ الرجلُ بالكسر، يَبْرَمُ . قال النابغة :

لا يَبْرِمُونَ إذا ما الأفْقُ جَلَّلَهُ بَردُ الشِّتَاءِ مَن الامْحَالِ كالأدَمِ

ويُقال في ضدِّه : يَسَرَ الرجلُ يَيْسِرُ، أي ضَرَبَ بالقِداحِ . قال علقمة :

وقد يَسَرْتُ إذا ما الجُوعُ كَلَّفَهُ مُعَقَّبٌ مِن قِداحِ النَّبْعِ مَقرُومُ

ورجل يَسَرٌ، والجمع أيْسَار . قال الشاعر :

---

4) سقط من أ
5) سقط من أ
6) في لسان العرب : تَحُتُّهُ حَلائِلَ الأبرامِ عِرسِي.

ورَاحِلَةٍ نَحَرتُ لِشَرْبِ صِدقٍ وما ناديْتُ أيْسارَ الجَـزُورِ

وقال الحماسي[7]

هَينُونَ لَينُونَ أيْسارٌ ذَوُو كَرمٍ سُوَّاسُ مَكرُمةٍ [أبناءُ أيسارِ]

من تلقَ منهُم تقُل لا قيتُ سَيِّدهُم مِثل النُّجومِ التي يَسري بها السَّارِي

وقال عنترةُ في معناه :

ومِشَكٌّ سَابِغَةٍ هَتَكتُ فُرُوجَها بالسَّيفِ عَن حامي الحقيقَةِ مُعلَمِ

ربِذٍ يَداه بالقِداحِ إذا شَتا هَتَّاكِ غَايَاتِ التِّجارِ مُلَوَّمِ

والرَّبِذُ المُسرِع . يريد أنه يُسرع الى ضرب القِداح إذا شتا ؛ والتِّجارُ : باعةُ الخمر . ويريد أنَّه مع ذلك يشرب الخمر ويسقيها ويغالي في ثمنها حتى يعطي غاية ما يطلبه التجَّار، وهو معنى هَتْكِ غَايَاتِهم .

وقالت عجوز أعرابية لثلاث بنات لها : لِتَصِفْ كلٌّ منكنَّ مَن تُحِبُّ من الرجال ! فقالت الكبرى : أريده أوْرَعَ بسَّاما،أحَذَّ مِجْذَامًا، سَيِّد نَادِيه، وثِمَال عَافِيه، ومحسب راجيه، فِناؤُه رَحْب، وقِيادُه صعب . وقالت الوسطى : أريده عالِيَ السَّنَاء، مُصَمِّمَ المَضَاء، عظيمَ نار، مُتَمِّمَ أيْسَار، يُفِيدُ ويُبِيد،ويُبْدِىءُ ويُعيد، في الأهل صَبِيّ، وفي الجَيْشِ كَمِيّ، تَسْتَعْبِدُه الحَلِيلَة، وتُسَوِّده الفَصِيلَة . وقالت الصغرى : أريده بَازِلَ عَام، كالمُهَنَّد الصَّمْصام، قِرانه حُبور، ولِقاؤه سرور، إن ضَمَّ قَضْقَض، وإن دَسَّ أغْمض، وإن أخَلَّ أحْمَض. فقالت أمّها : فُضَّ فوك ! لَقَد فَررْتِ لِي شِرَّةَ الشَّبَابِ جَذَعَةً . والأورَع : الكريم، وقيل الجميل . والأحَذّ : الخفيف السريع . والمِجْذَام : القطَّاع للأمور، من الجَذمِ وهو القطع. والنادي : المجلس . والثمَال : الغيَاث . والعَافي والمُعْتَفِي : مَن جاء طالبًا للمعروف. والفِناء : الرَّحْبُ الواسع . وصَعْبُ القِياد من الرجال : العزيز المُمْتَنِع، وأصله في الدابة . والسَّنَاء بالمدّ : الشَّرف ؛ والمصمِّمُ : الماضي في الأمور لا يثنيه شيء. والأيْسَار جمع يَسَر، كما مرَّ . والكَمِيُّ : الشّجاع . وحَلِيلَةُ الرجل : زوجه . والفَصِيلة : رَهْطُ الرجل الأقربون . وبَازِلُ عَام : التَّامُّ الشباب، وأصله في الابل، وستذكر بعدُ أسنانُها إن شاء الله تعالى . وقَضْقَض : حَطَّم، كما يُقضقض الأسدُ

7) هُو العَرَنْدَسُ الكِلابي يمدح بني عمرو الغنويين.

فريسته، وهو أن يحطّمها فيُسْمَعَ لعظامها صوت ؛ ودسّ الشيء : دفعه ؛ والاخلال والاحماض : مثل، وسيأتي تفسير ذلك بعدُ إن شاء الله تعالى ؛ والقَرُونُ فَعُولٌ مِن قَرَنَ للمبالغة : يقال : قَرَنَ بين أحَدَيْن إذا جمع بينهما، فهو قَارِن وقَرُون وقَرّان.

وأصل المثل أن رجلا كان بَرِمًا، فدخل يوما على امرأته، فوجدها تأكل لحما، فجعل يأكل بَضْعَتَيْن بضْعَتَين . فقالت له : **أبَرَمًا قَرُونًا**، فذهبت مثلا . والمعنى أن تكون بَرَمًا قَرُونًا، فتجمعَ بين مَذَمَّتَيِ البُخل والنَّهَم . ولم يذكر في **الصحاح** أصل هذا المثل وقال : معناه هو بَرَمٌ ويأكل مع ذلك تَمرْتَين انتهى . فجعل القران . وهو يحتمل أن يكون أصله أو من مضاربه، وهو صحيح . ومثله في القاموس، إلا أنه فسَّر البرم في المثل بالثقيل . ولاشك أن البَرمَ يُطلَق على السآمة والضجر . يقال : بَرِم به إذا ضجر، وأبرمه : أضجره . قال الشاعر في ثقيل :

مُشْتَمِل بالبُغْضِ لا تَنْثَنِي ... إلَيْهِ طَوعًا لَحظَةُ الرّامِقِ
يَظَلُّ في مَجْلِسِنا مُبْرِمًا ... أثْقَلَ مِن واشٍ عَلَى عَاشِقِ

ويقال : كتب الأعمش نقشًا في خاتمه : يامَقِيتُ، أبْرَمْت فَقُمْ ! فإذا استثقل جليسا ناوله إياه .

أبْصَرُ مِن عُقَابٍ .

البَصَرُ : حِسُّ العَين . يقال : بَصُرَ بالشيء، بالضمّ والكسر، بَصارَةً وبَصَرًا، صار مُبْصِرًا له ؛ وتبصَّره : نظر هل يُبْصِره ؛ وهو أبصرُ منه، أي أقوى إدراكًا .

والعُقاب : الطائر المعروف، جمعه أعْقِبَة وأعْقُب، لأنَّه مؤنَّث . قال امرؤ القيس :

كأنَّ دِثَارًا حَلَّقَتْ بِلَبُونِه ... عُقَابُ تَنوفَى لا عُقَابُ القَواعِلِ

والعُقَاب تُوصَف بحدّة البصر .

أبْصَرُ مِنْ غُرابٍ .

البصر معروف . والغراب جمعه غِربان وأَغْرِبة وغَرَابِين وغُرُب، ويوصف أيضا بحدّة البصر . وزعموا أنَّه يرى من تحت الأرض مقدار منقاره . وذكر بعض اللغويّين أن العرب تسمي الغراب أعور، ويزعمون أنَّه يُغْمِض أبدًا إحدى عينيه، ويقتصر على النظر بواحدة

من قوّة بصره . وقيل سمّوه أعور من حدّة بصره على طريق التفاؤل، كما قال بشّار بن برد:

وقَد ظَلَموهُ حِينَ سَمَّوهُ سَيِّداً كَما ظَلَمَ النّاسُ الغُرابَ بِأعْوَرا

وقال ابن التّلبّانَة :

لمّا تَناهَيتُ عِلماً ظلَّ يَنقُصني عِند الكَمال خَصيب النير السرر
وفي الغُرابِ إذا فكّرتَ مغربة مِن فَرطِ إبْصارِهِ يُعزَى الى العَورِ

أبْصَرُ مِن فَرسٍ .

الفرس معروف، للذكر والأنثى . ويوصف أيضا بحدّة البصر، وهو صحيح مجرَّب، بحيث إن الفارس قد يُرخِي عنانه في الطريق غير الواضح، والظلام معتكر، فيسير به ويتخطى المهاوي والجراثيم التي لا شعور للراكب بها ولا إحساس .

أبْصَرُ من المَائِحِ بِاسْتِ المَاتِحِ .

المَائِح : الذي ينزل البئر ليملأ الدَّلْوَ بيده إذا قلَّ الماء فيها، وقد مَاحَ يَمِيح . قال الراجز :

يا أيُّها المائحُ دَلْوِي دُونَكَا إنّي رأيتُ النّاسَ يَحْمَدُونَكَا

وقال الآخر :

فَآنَسَ سِربَ قَطَا قَاربٍ جبَى مَنْهَلٍ لَم تُمِحْهُ الدّلاَ

والمَاتِحُ : المُسْتَقِي النّازِعُ للدَّلْوِ على جَبَى البِئر . قال علقمة :

كأنَّ ذِراعَيها عَلى الخَلِّ بَعد مَا - ونَيْنَ ذِراعا ماتِحٍ مُتَجَرِّدِ

وقال ذو الرمّة :

كأنّها دَلْوُ بِئْرٍ جَدَّ ما تِحُها حتّى إذا ما رآها خَانَها الكَرَبُ

ومن المعلوم أنّ المائح الذي تحته يبصر عورته ويكون بصيرا باسته إن لم يتسرول ؛ فلذلك قالوا ما تقدّم . وقال بعض الأدباء :

يا مائِحَ العَينِ عَدِمتَ الرُّقَى مِن حِرصِ هَذي العَينِ لم يَستَقي
من شِيمَةِ المَاءِ انحِدارٌ فَلِم ماءُ جُفُوني أبداً يَرتَقي ؟

أبْصَرُ مِنْ هُدْهُدٍ .

الهُدْهُد معروف، ويقال له أيضا هُدَاهِد بالضمّ، والجمع هَدَاهِد بالفتح، ويوصف بحدّة البصر أيضا . وزعموا أنّه يُبصر الماء من تحت الأرض ، وأن الأرض كانت له كالزجاج . وقالوا إنّه كان دليلَ نبيِّ الله سليمانَ عليه السلام على الماء، وإنّه إنّما غضب عليه وحلَفَ ليُعَذِّبَنَّه لكونه نزل على غير ماء . وحضرت الصلاة، فسأل الانس والجنّ والطير عن الماء فلم يجد عندهم علما، فتفقّد الهدهد فلم يجده فغضب عليه، وفي ذلك قصّة طويلة . وتقدّم من كلام ابن عبّاس، وأنّ نافعا سأله لِمَ اعْتَنَى سليمانُ مع ما خوّله الله تعالى من المُلْكِ بالهدهد مع صغره ؟ فقال : انّه احتاج الى الماء ، والهدهد كانت له الأرض كالزجاج، وأنّ ابن الأزرق قال لابن عبّاس : قف يا وقّاف ! كيف يبصر الماء من تحت الأرض، ولا يرى الفخّ إذا غطّي له بقدر أصبع من تراب ؟ فقال ابن عبّاس : إذا نَزَلَ القَضَاءُ عَمِيَ البَصَرُ !

أبْصَرُ مِنْ وطْوَاطٍ بِاللّيلِ .

الوَطْوَاط : الخُفّاشُ، وهو معروف.

بَصْبَصْنَ إذْ حُدِينَ بِالأذْنَابِ

يقال : بَصْبَصَ الكلبُ والفحلُ وغيرهما إذا حرّك ذنبه . وحُدِينَ : سُقْنَ ، من الحُدَاء الذي يُبْعَثُ به نشاط الابل، وهو بالدال المهملة . ويُرْوَى حُذِين بالذال المعجمة، من المُحاذاة . يضرب هذا المثل في فرار الجبان وخضوعه واستكانته، وكأنّه شطر بيت .

بِضَرْبِ خَبَّابٍ وريشِ المُقْعَدِ .

خَبَّابٌ : قَيْنٌ بمكّة كان يضرب السيوف ؛ والمُقْعَد كان يَرِيشُ السّهام . فتكالم الزبير وعثمان، فقال الزبير : إن شِئْتَ تقاذفنا، قال : أبِالبَعَرِ، يا أبا عبد الله ؟ فقال الزبير : بل بِضَرْبِ خَبَّابٍ وريشِ المُقْعَدِ، أي نتقاذف بالسيوف والسهام .

أبْطَأتَ بِالجَوابِ، حَتّى فَاتَ الصَّواب .

قاله قصيرٌ لِجَذِيمةَ الأبْرَشِ في قصّة طويلة . وملخّصها، على ما ذكر

الاخْبَاريون يزيدُ بعضُهم عى بعض ويدخُلُ حديثُ بعضهم في بعض، أنَّ جَذِيمَة هذا، وهو جَذِيمة بالذال المعجمة المكسورة ابن مالك بن فهم بن الأوس بن الأزْد بن الغَوْث بن نبت بن مالك بن زيد بن كهلان بن يَشْجُب بن يَعْرُب بن قحطان . وقد قيل إنَّه من العرب الأولى من إياد بن أميم، وكان به بياض . فكرهت العرب أن تقول « أبرص »، فقالوا له أبرش والوَضَّاح . وقيل : الصواب أنَّ الوضَّاح غير هذا . وقيل : سمّي الأبرش لأنَّه أصابه حرّ ونار، فبقي فيه نقطا نقطا سودا وحمراء . كان ملك الحيرة وما حولها ستّين سنة، وكان زمانَ ملوك الطوائف، وكان يغير على من حوله من الملوك حتَّى غلبهم على كثير ممَّا في أيديهم . وهو أوّل من أُوقد له الشمع ونَصَبَ المجانيق للحرب. ثمَّ إنَّ جذيمة غزا الحَضْر، وهي مدينة بين دجلة والفرات . وإيَّاه عَنَى عَدِيُّ بنُ زيدٍ العِبَاديّ بقوله:

وأخو الحضْر إذْ بناه وإذْ دجلة تُجْبَى إلَيهِ والخَابُورُ
شادَهُ مَرمَراً وجَلَّلهُ كَلْسًا فَلِلطَّيرِ في ذُراهُ وكُورُ

وكان صاحب الحَضْر إذ ذاك عمرو بن الظَّرِب، وهو أبو الزبَّاء كان ملكا على الحضر، فظفر به جَذِيمة وقتله . وذهبت بنته الزبَّاء مطرودة نحو الروم، وكانت من أجمل نساء زمانها، وكان لها شَعَرٌ إذا أرسلته غطَّى بدنها، وبذلك لقّبت بالزبَّاء ، وهي تأنيث الأزبّ، أي الكثير الشعر . وعلى هذا فاسمُها ممدود . وقال البكري : الزبَّاء ألِفُها مقصورة . قال : وقد ردَّ العلماء فيه المدَّ لأنَّه تانيث زبَّان، الاسم المستعمل . فأمَّا الزبَّاء ممدودا، فإنمَّا هو تأنيث أزبّ، لم يستعمل اسما، وإنَّما هو صفة للكثير شعر البدن . قال : والشاهد لما قلناه قول عَدِيّ بن زيد :

فَأضْحَت في مَدائِنِها كأنْ لَمْ تَكُن زبَّا لِحامِلَةٍ جَنِينا

قلت : وما أراه إلا وهما وغلطا، وذلك أن فَعْلَى بالقصر إنَّما تأتي تأنيث فَعْلان، كعطشان وسكران . وزَبَّان الذي هو اسم، إنَّما هو فعال أصيل النون من مادَّة الزّبن والمزابنة، لا فعلان . ومادَّة زَبَبَ لم يرد منها إلا زبَّاب لصاحب الزبيب، وأزبّ للكثير الشعر. والأول لا يرد منه فَعْلَى بالقصر، كما لا يرد من عشَّاب، وبقَّال، وحمَّار . وكذا الثاني، إنَّما ترد منه فعلاء بالمدّ، كأحمر، وأشهب، وأوطَف، وأجرد، ومؤنَّثُهُ حمراء،

ووطفاء، وجرداء، وكذا أزبّ وزبّاء، وهذا أمر واضح . وأمّا قوله : إنّ الأزبّ لم يستعمل اسمًا فغير بيّن، فإنّ الأزبّ من أسماء الشياطين . وفي حديث العَقَبة هو شيطانٌ اسمه أزبُ العقبة . والزبّاء اسم لبلد على الفُرات، ولفَرَس الأصَيْدِفِ الطّائي، ولماء لبني سَلِيط، وآخر لِطُهَيَّة، ولعَيْنٍ باليَمَامة . والزبّاء أيضا اسمٌ من أسماء الإسْتِ، والداهية الشديدة . فلم يصحّ قوله إنّه لم يستعمل اسمًا . ولم يمتنع أن يكون اسما للملكة المذكورة، وإن كان وصفًا في أصله بل لو لم يكن اسما في غيرها لم يمتنع أن يكون اسما فيها، على أنّه ليس اسما لها بادىء بَدْء . وإنّما لُقّبت به لكثرة شعرها كما قلنا أوّلا فغلب عليها . واسمها فارعة، وقيل نائلة، وقيل ميسور . وأمّا البيت الذي استشهد به، فليس وحده بناهض في الاحتجاج لصحّة قصر الممدود . والمعروف عند اللغويّين أنّ الزبّاء بالمدّ، كما نطق به الامام أبو بكر بن دُرَيْد في مقصورته، حيث قال :

فاسْتَنزَلَ الزّبّاءَ قَسرا وهْيَ من عُقابِ لَوحِ الجوّ أعلى مُنتمَى

وهو المُوافِق للقياس . ومدّ المقصور أضعف وأبعد من قصر الممدود . ثمّ إنّ الزبّاء جمعت الأموال والأجناد وتقوّت، وكانت نبيلة عاقلة . فعادت الى ديار أبيها وأزالت جَذيمة عنها وملكت. فكانت تُعدُّ من ملوك الطوائف، وحرّمت الرجال على نفسها، فهي بتول. وكان بينها وبين جَذيمةَ مهادنةٌ بعد حروب جرت . فلمّا همّت بالقيام بثأر أبيها أرسلت إليه تخطبه على نفسها وتُرغّبُه في أن يتّصل ملكه بملكها، فأحبّ ذلك . وقيل هو الذي حدّثته نفسه بِخِطْبَتِها، فشاور خاصّته فوافقوه كلّهم إلاّ قَصيرًا . وهو قَصِير بكسر الصاد ابن سعد، وكان عاقلا نبيلا، وهو ابن عمّ جَذيمة وخازنه وصاحب أمره وعهده . قالوا ولم يكن قصيرًا وإنّما سمّي به فقط . قال له : أبَيْتَ اللّعنَ أيّها الملك ! إنّ الزبّاء حرّمَتِ الرجالَ فهي بتول عذراء، لا ترغب في مال ولا جمال، ولها عندك ثأرٌ والدم لا ينام؛ وإنّما هي تَارِكَتُك رهبة وحِذَارًا، والحقد دفين في سويداء القلب، له كُمُونٌ ككمون النار في الحَجَر، إن اقتدحته أوْرَى، وإن تَرَكْتَه تَوارى، ولِلمَلِك في بنات الملوك مُتَّسَع . وقد رفع الله قدرك عن الطمع فيما هو دونك، وعظّم الربّ شأنك فما أحد فوقك . فقال جَذيمة : يا قصير، الرأي ما رأيته، ولكن النفس توّاقه، والى ما تحبّ مشتاقة، ولكلّ امرىء قَدَرٌ لا مفرّ منه ولا وَزَر ! ثمّ وجّه جذيمة اليها خاطبا وأمره أن يظهر لها

ما تَرغَب به وتَميل. فلمّا جاءها الخاطِبُ أجابت وأظهرت فرحا كبيرا وغبطة عظيمة وقالت : لولا أنّ المسير في هذا أجمل بالرجال سرت إليه. فوجّهت الخاطب وبعثت معه الى جَذِيمة بهديّة سنيّة فيها من الاماء والكُراع والسلاح والأموال والبقر والغنم وغير ذلك من الجواهر الرفيعة والطُّرَفِ العجيبة ما يَبْهَرُ الناظرين. فلمّا بَصُر جَذيمة بذلك أعجبه مع ما بلغه من حسن جوابها وطيب كلامها، وظنّ أن ذلك كان رغبة منها فيه زوجا . فخرج إليها من فوره مع خاصّته وفيهم قَصِير، واستخلف على مملكته ابن أخيه عمرو بن عَديّ اللخميّ، وسيأتي ذكره بعد إن شاء الله تعالى . فسار حتى بلغ موضعا يقال بَقّة، فأكل وشرب وأعاد المشورة، فاستصوبوا أيضا ما أراد إلاّ قصيرا فإنّه قال : أيها الملك، كلّ عزم لا يؤيّد بحزم فإلى أفن يكون كونه . فلا تَثِقْ بزُخرُف قولٍ لا محصول له، ولا تَقْذِفِ الرأي بالهوى فَيَفْسُد، ولا الحزم بالمُنَى فَيَبْعُد ! والرأي عندي للملك أن يَتَعَقّبَ أمره بالتثبّت، ويأخذ حِذْرَه بالتيقّظ . ولولا أنّ الأمور تجري بالمقدور لعزمت على الملك عزمًا بتًّا أن لا يفعل. فقال جذيمةُ : الرأي مع الجماعة . فقال قصير : أرى القَدَر سائق الحذر، لا يطاع لقصير أمرٌ أو رأي . فأرسلها مثلا . ثمّ سار جذيمة حتى قرب من ديار الزبّاء، فأرسل إليها يعلمها بمجيئة . فلما جاءها الرسول أظهرت السرور والرغبة، وأمرت بحمل الضيافة إليه، وقالت لأجنادها وخاصّتها : تلقّوا سيّدكم ومالك دولتكم ! وعاد الرسول بالجواب إليه، وأخبره بما رأى وسمع . فلمّا أراد جذيمة أن يسير، دعا قصيرا فقال له : أنت على رأيك ؟ قال : نعم ! وقد زادت بصيرتي فيه . أفأنت على عزمك ؟ قال : نعم ! وقد زادت رغبتي فيه . فقال قصير : ليس للدّهْر بصاحب، مَنْ لَمْ يَنْظُرْ في العواقب . فأرسلها مثلا . ثمّ قال له : وقد نَذَرْتُكَ الأمرَ قبل فواته، وفي يد الملك بقيّة هو بِهَا قادر على استدراك الصواب ؛ فإن وثقت بأنك ذو ملك وسلطان وعشيرة، فقد نزعت يدك من سلطانك، وفارقت عشيرتك وألقيتها في يَدِ مَنْ لستُ آمَنُ عليك مَكْرَهُ وغَدْرَهُ . فإن كنت فاعلا ولابدّ،(8) فإنّهم غدا يَلْقَونَكَ ويقومون لك صفّين، حتّى إذا توسّطتهم أحدقوا بك : فهذه العصا لا يُشَقّ غُبارها، وهو أوّل من قاله . وكانت العصا فرسًا لجذيمة لا تدرك، فهي ناجية بك إن مَلَكْتَ ظهرها وناصيتها . ويروى أنّه

8) في ب : فإن كنت ولابد فاعلا.

قال له : إنَّهم غداً إن لَقُوكَ فترجَّلوا وحيَّوك فتقدَّموا، فقد كذب ظنِّي، وإن رأيتهم حَيَّوك فطافوا بك، فإني أعرض لك العصا . فسمع جَذِيمةُ كلامه فلم يردَّ عليه جوابا. ثمَّ سار جذيمة، وقَصِيرٌ عن يمينه، فقامت الزبَّاء وبعثت بجندها وقالت لهم : سيروا حتى إذا لقِيتُمُوه فقوموا صفَّين عن يمينه وشماله، فإذا توسَّطكم فانقضّوا عليه أجمع، وإيَّاكم أن يفوتكم ! فلمَّا أحاطوا به وعلم أنَّهم مَلَكوه أقبل على قصير، وكان مسايره، فقال له : صدقت يا قصير ! فقال قصير : أبْطَأتَ بِالجَواب، حَتّى فَاتَ الصَّواب ! فأرسلها مثلا . فقال جذيمة : كيف الرأي ؟ فقال : تركت الرأي بِبَقَّة ! فأرسلها مثلا . ويروى أنَّه قال له : هذه العصا فدونكها لعلك تنجو عليها ! فأنِفَ من ذلك . وقيل إنَّه عَرَضَها له فَشُغِل عنها، فركبها قصير فنجا . فلمَّا نظر إليه جذيمة وهو عليها ينقطع دونه السراب، قال : ماذَلَّ مَن جَرَتْ بِهِ العَصَا ! فأرسلها مثلا . ويروى أنَّه قال، حين نظر إليه على ظهرها : ويل أمّه حزمًا على ظهر العصا ! فأرسَلها مثلا . ثمَّ سارت الجيوش بجذيمة، فتطلَّعت عليه الزبَّاء من قصرها فقالت : ما أحسنك من عروس تُجْلَى عليَّ وتُزفُّ إليَّ ! حتى دخلوا به عليها في قصرها وحولها جواريها . وكانت قد ربَّت شعر عانتها سنة وضفرته . فلمَّا دخل عليها تكشَّفت له فقالت : أشَوَارَ عَرُوسٍ تَرَى ؟ فقال : بل شَوَارَ أمَةٍ بظراء . فقالت : أما إنَّه ليس من عَدَمِ المَواسي، ولا من قِلَّة الأواسي، ولكنَّه شِيمَةُ ما أقاسِي فأمرت به فأجلس على نِطْعٍ وقطعت رواهِشَهُ. ويُروى في طَسْتٍ من ذَهَب تفاؤلاً أن يذهب دمُه هَدَرًا . وكان قد قيل لها : تحفظي بدمه، فإنَّه إن وقعت قطرةٌ منه على الأرض طُلِبْتِ بِثأره . فلمَّا ضعُفت يدُه سقطت، فقطر منه في غير الطست شيء، فقالت : لا تضيِّعوا دم الملك ! فقال : دعوا دمًا ضيَّعه أهلُه ! ومات . وقيل إنَّه قد قال : لا يحزنك دمٌ أراقه أهله ! فقالت : والله ما وفَّى دمُك، ولا شَفَى قتلُك، ولكنه غَيْضٌ مِنْ فَيْضٍ فأرسلتها مثلا . فلمَّا قَضَى أمرت به فدُفِن . وكان عمرو بن عَدِيّ يخرُج الى ظهر الحيرة يَسْتَشْرِف خبر خاله . فبينما هو ذات يوم ينظر إذ رأى العصا تَهْوِي بقصير، فقال عمرو : أمَّا الفرسُ ففرسُ جَذيمَة، وأمَّا الراكبُ فكَالبَهِيمة، لأمْرٍ جَاءَتِ العَصَا . فأرسلها مثلا . فإذا هو بقصير قد أقبل، فقالوا : ما وراءك ؟ فقال : سَعَى القَدَرُ بالمَلِك الى حَتْفِه، عَلَى

الرَّغْمِ مِنْ أنْفِي وأنْفِه ! وسيأتي تتمَّة القصَّة بعد هذا في خير قَصِيرٍ حيث قام بثأر جذيمة إن شاء الله تعالى . وفي قتل جَذِيمَةَ قال الشاعر :

وقدَّدتِ الأديمَ لِرَاهِشيهِ ... وألْفَى قَولَهَا كَذِبًا ومَيْنَا

وقال سُويْد بن أبي كَاهِل :

وأبو ملك الملك الذي ... قَتلتْهُ بنْتُ عَمْرٍو بالخُدَعْ

أبْطَأُ مِن غُرابِ نُوحٍ.

زعموا أنَّ نبيَّ الله نوحا عليه السلام بعث الغرابَ لينظر له هل غَرِقَتِ البلادُ ويَأتِيَه بخبرها . فذهب فوجد جيفة طافية على وجه الماء، فاشتغل بها وبقي ولم يأته بالخبر . فدعا عليه فغلت رِجْلاهُ وخاف من الناس. واعلم أنَّ البطءَ ثلاثيٌ ورُباعيٌّ : يقال بَطُؤَ بضمّ الطاء، بُطْئًا وبِطَاءً بالكسر، وأبْطَأَ : ضدُّ أسرع . ويقال : هو أبْطَأ منه . وهو إن كان صوغه من الثلاثي فَمَقِيسٌ اتفاقا ؛ وإن كان من الرباعي فهو جائزٌ أيضا عند سيبويه في هذا الوزن.

أبْطَأُ مِن فِنْدٍ.

البُطء : مرٌّ. وفِنْدٌ بكسر الفاء وسكون النون بعدها دال مهملة : اسم رَجُل . وهو مولى لعائشة بنتِ سَعْد بن أبي وقَّاص، بعثته يأتيها بنار . فلمَّا خرج وجد قومًا يريدون مصر، فصحبهم وأقام بمصر سنة، ثم رجع فأتاها بالنار ؛ وجاء يشتدّ فعثر وتبدَّد الجَمْر فقال : تعست العجلة ! فضُرب [به] المثل في البُطْء.

البِطْنَة، تُذْهِبُ الفِطْنَةَ .

هذا من الأمثال الحِكميَّة . والبِطْنَةُ بالكسر : امتلاء البطن طعاما . والفِطنة بكسر الفاء : الذّكاء والحِذْق . يقال : فطِنَ إليه، وفطِنَ لَه، بضمّ الطاء وكسرها وفتحها، يفْطَن بالضمّ والفتح فطنا وفطانة . وفي الأثر يُروى عن النبي صلى الله عليه وسلم : ما أحَلَّ اللّهُ حَلالاً أبْغَضَ مِنْ بَطْنٍ يُمْلأُ طَعَامًا. وقال عليه الصلاة والسلام : مَا مَلأَ ابنُ آدَمَ وعاءً شرًا مِن بَطْنِه، بِحَسْبِ ابْنِ آدَمَ أكْلٌ أو لُقَيْمَاتٌ يُقِمْنَ صُلْبَه، فَإنْ كَانَ لا محالةَ، فثُلُثٌ للطَّعام، وثُلُثٌ للشَّراب، وثُلُثٌ لِلنَّفَسِ. وعن عمر رضي الله عنه : أيُّهَا النَّاسُ، إيَّاكم والبِطْنَةَ، فإنَّها

مَكْسَلَةٌ عَنِ الصَّلاَةِ، مَفْسَدَةٌ لِلجَسَدِ، مُورِثَةٌ لِلسَّقَمِ. وعن عليٍّ كرَّم الله وجهه : إيَّاكُمْ والبِطْنَةَ، فإنَّها مَفْسَدَةٌ لِلقَلْبِ . وقال الحَارِثُ بْنُ كَلَدَةَ: أربعة أشياءٍ يُهْرِمْنَ البَدنَ : الغِشْيَانُ عَنِ البِطْنَةِ، ودُخُولُ الحَمَّام عَلَى الامتِلاَءِ، وأكْلُ القَدِيد، ومُجَامَعَةُ العَجُوز . ويقال أقْلِلْ طَعَاما، تُقْلِلْ سَقَاما . ويقال : النَّهَمُ لؤم، والرغب شؤم . وقيل : أكبَرُ الدَّواء، تَقْلِيلُ الغِذَاء . وجمع الرشيد أربعة من الأطبَّاء العارفين : هنديًّا وروميًّا وفارسيًّا وعربيًّا، وقال لهم : لِيَصِفْ لي كلٌّ واحد منكم الدواء الذي لا داء فيه . فقال الهنديّ : الدواء الذي لا داء فيه عندي الاهْلِيلَجُ الأسود . وقال الروميّ : هو حَبُّ الرَّشَاد الأبْيَض . وقال الفارسيّ : هو عندي المَاءُ الحَارّ . فقال العربيّ، وكان أعلَمَهم : الاهلِيلج يَعْفِصُ المَعدةِ وذلك داء، وحَبُّ الرشاد يُرِقّ المعدة وذلك داء ؛ والماء الحارّ يُرْخِي المعدة، وذلك داء . فقالوا له : وما الدواء الذي لاداءِ فيه عندك ؟ قال : أنْ تَضَعَ يَدكَ في الطعام وأنتَ تَشْتَهِيه، وتَرفَعَ يَدكَ منه وأنت تشتهيه . فقالوا : صدقت ! وسلَّموا له . ويروى حديثا : المعِدَةُ بَيْتُ الدَّاء، والحِمْيَةُ رَأسُ الدَّوَاء، وأصْلُ كُلِّ دَاءٍ البَرْدَةُ . والبَرْدَةُ : التُّخَمَة . ويقال إنَّ مَالكًا، رضي الله عنه، لمَّا ودع يحيى بن يحيى قال له : أُوصيك بأربع كلمات : الأولى أجمع لك فيها فقه الفقهاء، إذا سئلت عن شيء لا تعرفه فقل لا أدري، والثانية أجمع لك فيها حكمة الحكماء، إذا جالست قومًا فكن أصْمَتَهم، فإن أصابوا أصبت معهم، وإن أخطأوا سَلِمْت، والثالثة أجمع لك فيها طبَّ الأطبَّاء، أن تضع يدك في الطعام وأنت تشتهيه، وترفع يدك وأنت تشتهيه ؛ فإنَّك إذا فعلت ذلك لم يُصِبْك مرضٌ إلاَّ مرضَ الموت . وفي الحكمة : إذَا امْتَلأتِ المَعِدَة، نَامَتِ الفِكْرَة، وَقَعَدَتِ الأعْضَاءُ عَنِ العِبَادَة . وقال حاتم بن عبد الله الطائيّ :

أكُفُّ يَدي عَن أن يَنال التِماسها   أكُفُّ صحابي حينَ حاجَتُنا مَعا
أبيتُ هضيمَ الكشحِ منطَوِي الحشا   مِن الجُوعِ أخشَى الذمَّ أن أتضلَّعا
وإني لأسْتَحْيِي رفِيقِيَ أن يَرَى   مكانَ يَدِي مِن جانِبِ الزَّاد أقرعا
وإنَّك إن أعْطيتَ بَطنَكَ سُؤْلَه   وفَرجَكَ نَالاَ مُنْتَهى الذَّمِّ أجمعا

وقد آكثر الحكماء من هذا النمط نثراً وشعرا، وفيما ذكرناه كفاية إن شاء الله تعالى .

بَطْنِي عَطِّرِي، وسَائِرِي ذَرِي !

البَطْنُ : خلاف الظهر، وهو مذكَّر، جمعه أبْطُن، وبُطُون، وبُطْنَان ؛ ويقال أيضا لما دون القبيلة من الناس بَطْنٌ كما قيل :

وإنَّ كِلابًا هَذه عَشْرُ أبْطُنٍ وأنتَ بَرِيءٌ مِن قَبَائلها العَشْرِ

والمراد هنا الأول : والعِطْر، بكسر العين : الطِّيبُ . يقال : منه عَطِرَت المرأةُ، بالكسر، فهي عَطِرةٌ ؛ ويقال عَطَّرتُ الرجلَ تَعْطِيرا : طيَّبتُه . والسَّائِرُ : الباقي، وهو من السُّؤْر، وهو البقيَّة مهموزاً . يقال : أسْأرَ الشَّيءَ وسَأرَهُ إذا أبقاه، فهو سَئَّار، وقياسه مُسْئِر، وهو جائز أيضا . وذهب كثير من الناس الى أنَّ السائر يكون أيضا بمعنى الجميع، وأنكره آخرون : وذَرِي معناه اتْرُكِي يقال : ذَرْه أي أتْرُكْهُ . وأصلُ الماضي منه . وذرِه بالكسر يَذَرُهُ كوَسِعَه يَسَعُ، لكن لم يستعمل منه ماضٍ ولا مصدر . وأصل المثل أنَّ أعرابيًا ضاف قومًا، فأمروا جارية لهم أن تَطيَّبَه فقال : بَطْنِي عَطِّرِي، وسَائِرِي ذَرِي ! ومعناه ظاهر . وإضافة التعطير الى البطن في نحو هذا يكون من المشاكلة، وهي ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته، كقوله :

قالوا : أقترح شَيئا نَجد لك طَبخَه فَقلت : اطْبَخوا لي جُبَّةً وقميصا !

أراد أن يقول : خيطوا لي جُبَّةً ! فقال : اطبخوا ! لصحبته للطبخ تحقيقا . وكقوله تعالى: وجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُها، وقوله تعالى : فَمِنَ اعْتَدَى عَلَيْكُم فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيكُم . أطلِقَتُ السيئة والاعتداء على جزاء السيِّئة وجزاء الاعتداء عدلاً لأجل المصاحبة، وإن لم يكن الجزاء سيِّئةً ولا اعتداءً . وقوله تعالى : تَعْلَمُ مَا في نَفْسِي ولاَ أعْلَمُ مَا في نَفْسِك . وهو كثير . وكقول ابْنِ كُلْثُوم :

ألا لاَيَجْهَلَن أحَدٌ عَلَيْنَا، فَنَجهَلَ فوقَ جَهلِ الجاهلينا

وقد يتقدَّم المشَاكِلُ فتُراعَى صحبةُ المتأخِّر، كقول أبي تمَّام:

مَن مُبْلِغٌ أفْناءَ يَعرُب كُلَّها أنِّي ابْتَنَيتُ الجارَ قَبلَ المنزِلِ ؟

والأفْنَاء بالفاء : الجماعات من الناس . ومن هذا أيضا عند بعضهم قولهم :

لاتَسقِني ماء المَلامِ فإنَّني صَبٌّ قَد اسْتَعذبتُ ماءَ بُكائي

ومن هذا القسم لفظ المثل، لانَّ المُراعَى هو قوله : وسائِرِي ذَرِي ! أي لا تُعَطِّرِي شيئًا من سائر بدني : ويحتمل أن يكون قائله لم يعتبر هذا، وإنَّما اعتبر قولهم للجارية عَطِّرِيهِ، فيكون من القسم الأوَّل . ويحتمل أن يكون رَاعَي فعَل الجارية وما هَمَّت به من التعطير، فتكون المصاحبة إنَّما وقعت تقديرا، كقوله تعالى : صِبْغَةَ اللَّه، ومَن أحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةَ عبَّر بصبغة الله عن تطهير الله بالايمان، لوقوع ذلك في صحبة الصّبغ الواقع للنصارى بِغَمْسِهِم أولادَهم في ماء أصفر تقديرا، لأنَّ سبب النزول دلّ على ذلك . ومثله قولك لمن يغرس أشجارًا : اغْرِس كما يَغْرِسُ فلان ! تريد رجلاً يصطنع المعروف الى الكرام .

تتمَّة : وقع في اللفظ الوارد على المشاكلة إشْكالٌ من حيث إنَّه لا يكون حقيقة، إذ ليس موضوعًا لذلك المعنى، ولا مجازًا أيضا لعدم العلاقة، فإنَّ إطلاق اللفظ على المعنى لأجل الصحبة في المشاكلة صحيح، سواء وجِد هنالك شيء ممَّا يكون من العلاقات، كإطلاق السيّئة على الجزاء المُتَسَبِّب عنها في الآية السابقة، أو لم يوجد كإطلاق طَبْخ الجُبَّة على خياطتها. قال سَعْدُ الدّين التَّفْتازانيُّ في شَرح المِفتاح : ولا محيص سوى التزامِ قسم ثالثٍ في الاستعمال الصحيح بأن يُجعل نفسُ الوقوع في الصحبة مصححًا لاستعمال لفظ المصاحب عليه، أو القول بأنَّ هذا نوع من العلاقة فيكون مجازا . انتهى.

أبْعَدُ مِنْ بَيْضِ الأنُوقِ.

البُعد معروف ؛ يقال : بَعُد وبَعِد بالضمّ والكسر ؛ وقد يستعمل البُعْدُ بمعنى الموت والهلاك . قالت الشاعرة :

لا يَبعُدنْ قَومي الذينَ هُمُ سُمُّ العُداةِ وآفَةُ الجُزْرِ

والأنُوق بفتح الهمزة، على مثال صَبُور : الرَّخَمَة، وهو طائر أسود أصلع الرأس أصفر المنقار . وهي تجعل بيضها حيث لا يُنال، فتتَّخذ أوكارها في قُنَن الجبال الصعبة، فيُضرب المثل ببيضها في البعد وعزةِ المنَال، كما قيل :

وكُنتُ إذا استُودعْتُ سرًا كَتَمتُه كَبَيضِ الأنوقِ لا يُنالُ لها وكْرُ

وقال الآخر :

وأجازَها قذفاتُ كلّ تنوفةٍ وكرُ العُقاب بها وبَيتُ الأعْصم
فوطِئن أوكارَ الأنوقِ وروّعَت منها وباتَ المُهرُ ضَيفَ الهَيثمِ

وزعموا أنّ رجلا أتى معاوية رضي الله عنه فقال له : زوجني هندا !، يعني أمّهُ . فقال : لا أرَبَ لها في الزوج . قال : فولّني كذا ! فأنشد معاوية :

طَلَبَ الأبْلَقَ العَقوقَ فلمّا لَم يَجدهُ أراد بَيضَ الأنُوقِ

والأبلقُ العَقوقُ : الذّكر الحامِل، سيأتي، وهو مُحَال . فكأنه يقول طلب أمرا محالا، فلما أعجزه طلب أمرا بعيدا لا ينالُه . واعترُضَت الحكاية بأنّ أمّ معاوية ماتت سنة أرْبَعَ عشرة، فكيف يُطْلَبُ تَزْويجُها يوم الولاية ؟ وحُكيت على وجه آخر يصحّ، وهو أنّ رجلا أتاه فقال له : افرض لي شيئا ! قال : نعم ! فقال : ولولدي ؟ قال : لا ! قال : ولعشيرتي ؟ فأنشد البيت.

قلت : وعلى [كلا] الوجهين لم يقع الانتقالُ مَوْقِعَه، لأنه [إنّما] يحسن عندما يكون ن الأضعف الى الأقوى، ولم يوجد ذلك في البيت على شيء من الوجهين : فإنّه في أحدهما من المحال الى الممكن البعيد، وفي الآخر من البعيد الى الأبعد، ضرورة أنّ الفَرضَ للعشيرة أبعدُ من الفرض للولد، وإن كان السائل يغترُّ بِشُبْهَة أنّهُ لما فَرَضَ له (أغْنَى ذلك عن الولد، فلم يبق له استحقاق الفرض، وكانت العشيرة أولى منه، ولذا سأل لها)[9] بعده . ومن اللغويّين من قال : إنّ الأنُوقَ الذّكر من الرّخَمِ، ووجدان البيض له محال. ولا إشكال حينئذ، إذ القصد النداء على ضلال السائل وحَيرتِه حيث جعل ينتقل من محال الى محال . ومنهم من قال : الأنُوق يُطلَق على الذّكر والأنْثَى، والله أعلم .

فائدة : قيل : وفي الرّخَمَة عشر خصال : تَحْضُن بيضها، وتَمْنَع فرخها، ولا تمكّنُ من نفسها غير زوجها، وتَقْطع في أوّل القواطع، وترجِع في أوّل الرواجع، وتَألَفُ ولدها،

(بيــاض)

هي مع ذلك تحمق، كما قيل :

وذاتَ اسْمَين والألوانُ شَتّى تُحَمَّق وهْي كَيّسةُ الحَويلِ

أي الحِيلة . والرّخَمَةُ أحدُ لِئَام الطّير، وهي : الرّخَمَة، والغُرابُ، والبُومُ.

9) سقط ما بين قوسين من أ.

أبْعِدي عَنِّي ظِلَّكِ، أحْمِلْ حِمْلِي وحِمْلَكِ !

هذا من الأمثال الموضوعات على ألْسِنَة العَجْمَاوَات. زعموا أنّ النخلة قالت ذلك لجارتها، بمعنى أنّهما إذا تباعدتا حملت كلّ واحدة منهما مثل ما تحملان معًا. والحِمْل إذا أطْلِق على ما يُحْمَل من الأمتعة على ظهر أو رأس، فهو بكسر الحاء ؛ وإذا أطلق على ما في بطن الأنثى، فهو بالفتح : وإذا أطلق على ثمر الشجر، فهو بالوجهين لما له من الشَّبَه بالأمرين . هكذا قال بعض اللغويّين، وقال : ما بَطَنَ من الثمار فبالفتح، وما ظهر فبالكسر . وقيل إنّ الثمر كلّه بالفتح كما في البطن . وقيل إنّ الثمر بالكسر مالم يَكْثُرْ ويَعْظُم، فإذا كثُر فبالفتح . وجمع الحَمْل حِمَال، ومنه : هَذَا الحِمَالُ لا حِمَالُ خيْبَرَ.

بَعْضُ الشَّرِّ أهْوَنُ مِنْ بَعْضٍ .

هذا مثل مشهور وظاهر المعنى . ويوافقه من أمثال العامّة قولهم : **نِصْفُ الخَسَارَةِ ولا الخَسَارَةُ كُلُّهَا.** وقال طرفة بن العبد لمّا حبس :

أبا مُنْذِرٍ كانت غُرورًا صحيفَتِي ... ولم أعطِكُمْ في الطّوع مالي ولا عرضي
أبا مُنذرٍ أفْنيتَ فاستبقِ بَعضنا ... حنانيكَ بعضُ الشَّرِّ أهونُ من بعض

وقال أبُو خِرَاشٍ الهُذَلِي :

حَمدتُ إلاهِي بَعد عُروةَ إذ نجا ... خِراشٌ وبَعضُ الشَّرِّ أهْونُ من بعض

وبعده :

فَوا لَله ما انسى قَتيلاً رُزِئْتُه ... بجانبِ قُوسَى، ما مشيتُ على الأرض
على أنّها تَعفو الكُلومُ وإنّما ... نوكّلُ بالأدنى وإن جلَّ ما يَمضي
ولم أدر من ألقى عليه رداءَهُ ... على أنّه قَد سُلَّ عَن ماجِدٍ مَحضِ
ولَم يكُ مثلوجَ الفُؤاد مُهَبَّجًا ... أضاع الشَّباب في الرَّبيلَة والخَفضِ
ولكنّه قَد لوَّحَتْه مخَامِصٌ[10] ... على أنّه ذُو مرّة صادقُ النَّهضِ
كأنّهم يُشبّثُون بِطَائرٍ ... خَفيفِ المُشاشِ عظمهُ غيرُ ذي نحض
يُبادرُ قُربَ اللّيل فهو مُهابذٌ ... يحثُّ الجناح بالتَّبسُّط والقَبض

10) جاء في الحماسة (1 : 327) : ولكنّهُ قَدْ نَازَعَتْهُ مَجَاوعٌ

وذكر صاحب **القلائد** أنَّ الظافر بن المعتمد، لمَّا قام عليه ابن عُكَاشَة وأتباعُه بقرطبة، ودافعهم حتَّى قُتِل وجُرِّد من ثيابه، وكان ذلك ليلاً، مرَّ به أحد المُغَلِّسين الى الجامع فألقى عليه ثوبًا، ولم يُعْرَفْ مَنْ فَعَل ذلك . فكان أبوه المُعْتَمِدُ بْنُ عَبَّاد إذا تذكَّر ذلك رفَعَ عَقِيرَتَه وأنشد : ولَمْ أدْرِ مَنْ أَلْقَى عَلَيهِ رِدَاءَهُ.

ومن أظرف الاتفاق ما حكى ابنُ الخَطِيب من قول بعضهم في طبِيبٍ يسمَّى نُعْمَان ويكنَّى أبَا المُنْذِرِ :

أقولُ لِنُعمانٍ وقَد ساقَ طِبُّهُ نفوسًا نَفيساتٍ الى باطِنِ الأرضِ:
أبا مُنذرٍ أفنَيتَ فاستبقِ بَعضنا حنانيكَ بَعضُ الشَّرِّ أهون مِن بعض

وممَّا قيل في الطَّبِيب الجاهل قولُ الآخر :

يا مَلَكَ المَوتِ وابنَ زُهْرٍ جاوزتُما الحَدَّ والنِّهايهْ !
تَرفَّقا بالوَرَى قَلِيلاً : في واحِدٍ مْنكُما الكفايهْ !

وقوله :

أعْمى وأفْنى ذا الطَّبيبُ بِطبِّه وبِكُحْله الاحياءَ والبُصَراءَ
فإذا نَظَرتَ رأيتَ مِن عُمْيانِه أممًا على أمواتِهِ قُرَّاءَ

وقول الآخر :

قال حِمارُ الطَّبِيبِ تُومي، لَو أنصَفُوني لَكُنْتُ أركَبْ
لأنَّني جاهِلٌ بَسِيطٌ وصَاحِبِي جَاهِلٌ مُرَكَّبْ

بِعِلَّةِ الوَرَشَانِ يَأكُلُ رُطَبَ المِشَانِ.

الوَرَشَانُ بفتحتين : طائر، وهو سَاقُ حُرٍّ. وأنشدوا عن الأصمعي :

أيُّها البُلبُل المُغرِّد في النَّخلِ غَريبًا مِن أهْله حَيرانا
أفِراقًا تَشكوهُ أمْ ظِلتَ تَدعو فَوق أفنان نَخلِك الورشانا ؟
هاجَ لي شَجوكَ المُغَرِّدُ شَجْوًا رُبَّ صَوتٍ يُهَيِّجُ الأحْزانا

والمُشانُ بضمّ الميم وكسرها، على مثال غُراب وكِتاب، والشين معجمة : نوع من الرُّطَب طَيِّب ؛ ورُطَبُ المُشَان في لفظ المثل بالاضافة، ولا يقال الرُّطَبُ المُشَانُ وأصل المثل أنَّ قومًا اسْتَحْفَظُوا غلامًا لهم رُطَبَ نَخْلِهم فكان يأكله، وإذا سئل عن ذلك

وعوتب عليه قال : أكَلَه الوَرَشَان، فقالوا ذلك . يُضرَب ذلك لمن يُظهِر شيئا والقصد شيءٌ آخر .

البُغَاثُ بِأرضِنَا يَسْتَنْسِرُ.

تقدّم معنى هذا المثل في الباب الأول.

أبْلِعْنِي ريقِي.

يقال : بلِعْتُ الشيء بكسر اللام، وابْتَلَعْتُه بمعنى، وأبلعْتُه غيري : أمْكَنْتُه أن يَبْلَعَه : والرِّيقُ : ماءُ الفم ما دام لم ينفصل عنه، فإذا انفصل فهو بُزَاق ؛ والبعض منه ريقة . قال النابغة :

زَعَمَ الهُمَامُ ولم أذقْهُ أنَّهُ يُشفَى برَيَّا رِيقِها العطشُ الصدي

وقال الآخر :

يَسْقِي امتياحًا ندى المسواك ريقتها كما تضمَّن ماء المزنة الرَّصف

ويقال : أبْلِعْني ريقي، أي أمْهِلْني ساعة مِقْدار ما أبْلَعُه ولا تُعَجِّل عَلَيَّ ! يضرب عند الاستمهال في مقام المحاورة والاكثار من السؤال واستدعاء الجواب حتّى يعوق الاشتغال بالجواب عن بَلْعِ الريق . والقصد التأخير والتنفيس . قال شاس بن عبدة :

حَلفتُ بما ضمَّ الحجيجُ الى منى وما ثجَّ من نَحر الهَديّ المقلّد
لئن أنت عافيتَ الذنوب التي ترى وأبلعتني ريقي وأنظرتني غَدِي
لأستعتبنْ ممَّا يَسوءُك بَعدها وإنْ سبَّني ذو لكنة بين أعبُدِ

ويحكى أنَّ عبد الملك بن مروان رحمه الله تعالى قال يوما لحاجبه : هاتِ بَدرةً ! فأتَى بها، فوضعها بين يديه وقال لمن حضر من وجوه العرب : أيُّكُم أنشدني صدر هذا البيت : والعَودُ أحمَد، فله هذه البَدْرةُ ! فلم يكن فيهم من يعرفه . فقال للحاجب : اخرج وانظر من بالباب من العرب، وقل : من يُنشدني صدر البيت : والعود أحمد، فله جائزة ! فخرج الحاجب وقال ذلك . فقام فتى من القوم فقال : أنا . قال الحاجب : فأنشدني ! قال : لا ! إلاّ أن أُشَافِهَ أمير المؤمنين. فدخل الحاجب فأخبره، فقال عبد الملك : هذا رجل طال مُقَامُه بالباب وله حاجة . والله، لئن دخل عليَّ ولم يُنْشِدني لأعَاقِبَنَّه . أدخِلْه ! فلمَّا دخل وسلَّم قال له عبد الملك أنْشِدنا صَدرَ بَيْتنا ! فقال : يا أمير المؤمنين،

حاجتي ! قال : وما هي ؟ قال : بنو عمّ لي باعوا ضَيْعَتَهم بالسَّواد، فأدخلوا ضيعتي في ضيعتهم فقال عبد الملك : فإنّ أمير المؤمنين قد ردّ عليك ضيعتك فأنْشِدنا صدر بيتنا ! قال : نعم، ياأمير المؤمنين ! قالت تميم إنّه بيتُها . قال أوسُ بن حَجَر :

جَزينا بني شيبان صاعا بصاعهم وعُدنا بمثل البدء والعَودُ أحْمَد

قال : أخْطَأت ! قال : يا أمير المؤمنين، أبْلِغني ريقي ! قال : قَد أبْلَغْتُك قال : قالت اليمنُ إنّه بيتُها . قال امرؤ القيس :

فَإن كُنتِ قَد ساءتك منّي خَليقة فعودي كما نهواك والعود أحمد

قال : أخطأت ! قال : ياأمير المؤمنين، قالت ربيعة إنّه بيتها . قال المرقّش :

وأحسِنُ فيما كان بيني وبينها وإن عاد بالاحسان فالعود أحمد

قال : أصبت، وإنك لظريف . فمن أنت ؟ قال : أنا زيد بن عمرو . قال : ممّن ؟ قال مِن حَيّ جانَبَ عِجْرفِيَّةَ قيس، وعَنْعَنَة تَمِيم، وكَسْكَسَة ربيعة، وصأصأة اليمن، وتَأنِيثَ كِنَانة : أنا امْرُؤٌ من عُذرَةَ . فَأمَر له بالبدرة . وكان بين أبي العبَّاس بن سُريْجٍ الفقيه الشافعي، وبين أبي بكر محمد بن داوود الظَّاهِري مناظراتٌ. فقال له أبو بكر يوما: أبْلِعْنِي ريقِي ! قال أبلَعْتُكَ دِجْلَةَ ! وقال له مرّة أخرى أمْهِلْنِي سَاعَة ! قال : أمْهَلْتُك الى قِيَامِ السَّاعة ! وقال له أخرى : أجِيئُكَ مِنَ الرجْلِ، وتجِيئُنِي من الرَّأس، قال : هكذا شأن البقر : إذا حَفِيَت أظْلافُها، دُهِنَت قُرونُها. واجتمعا يوما في مجْلِس الوزير أبي الحسن بن الجرّاح، فتناظرا في مسألة من الايلاء، فقال له ابن سريج : أنت بكتاب الزهرة أعرف منك بهذا الفنّ، حيث تقول فيه : ومَنْ كَثُرتْ لَحَظَاتُه، دامَت مَسرّاتُه . فقال أبو بكر : والله إنّك لا تُحْسِن أن تَقْرأه، وإنّه لأحد مناقبي، حيث أقول :

أنزّه في روضِ المحاسن مُقلتي وأمنَع نفسي أن تَنال مُحرَّما
وأحمِل من ثقل الهوى مالَوَ آنّه يُصبُ على الصَّخر الأصمّ تهدما
ويَنطق طَرفي عن مُترجم خاطري ولولا اختلاسي ردّه لتكلّما
رأيت الهوى دعْوى من النَّاس كلهم فلَست أرَى حُبًّا صحيحا مُسلَّما

فقال ابن سريج : أو عليّ تَفْخَرُ بهذا وأنا القائل، ولو شئت لقلت :

ومُسافر بالغُنجِ مِن لَحَظاتـهِ   قَد بِتُّ أمْنَعُه لَذيذَ سِناتـهِ
صبًّا بِحُسن حَديثِه وغِنائِه[11]   وأردّد التّلحَظات في وجناته
حتّى إذا ما الصُّبْحُ لاحَ عَمودُهُ   ولّى بخَاتَمِ ربّه وبَراتِه

فقال أبو بكر : يا وزير، إنّه قد أقرّ : فعليه إقامةُ البيّنة أنّه بخاتم ربّه وبَراته، وإلاّ أقمنا عليه الحدّ ! فقال ابن سريج : هذا لا يلزمني : فإنّ مذهبي أنّ مَن أقرّ بأمرٍ وناطَهُ بِصِفة، فإنّ إقراره لا يلزمه إلاّ مَنُوطًا بتلك الصفة . وقيل : بل قال له : يَلزمُني في ذلك ما يَلزمُك في قولك :

أنزّهُ في رَوضِ المحاسِن مُقلتي   وأمنَعُ نفسي أن تَنال مُحرّما

فضحك الوزير وقال : لقد جَمَعْتُما أو مُلِئتُما علمًا وظرفا ولطفا ! (ويُحكى أيضا أنّ الحجاج، لما قال لأبي عمرو بن العلاء البصري ماوجه)[12] (بياض)

يُبْلَغُ الخَضْمُ بالقَضْمِ .

بلوغ الشيء معروف . والخَضْم، بالخاء والضاد المعجمتين : الأكل بِجَمِيع الفَم، أو بأقصى الأضراس . وقيل خاصٌّ بالشيء الرطب كالقِثّاء ؛ يقال منه : خَضمتُ الشيء، بكسر الضاد وفتحها، أخْضِمه، كذلك بالكسر والفتح . والقَضْمُ، بالقاف والضاد المعجمة : الأكل بأطراف الأسنان ؛ يقال قَضِمْتُ الشيء، بكسر الضاد، أقْضَمُه . وفي الحديث **أيَتْركُ يَدهُ في فِيكَ تَقْضَمُها كما يَقْضَمُ الفَحْل ؟** ودخل أعرابي على ابن عمّ له بمكة فقال : إنّ هذه بِلادُ مَقْضَم، ولَيسَتْ بِبلاد مَخْضَم . وقلت أنا زمن الصبا، من أبيات :

لَو كَانَ لِيَ تجارةٌ غَيرُها   أو كُنتُ بَيْنَ الخَال والعَمّ
أو كنتُ في وسْعٍ لَقيل اكتَفَى   مِن ذَاكَ بِالقَضْمِ عَن الخَضْمِ

ومعنى المثل أنّ الخَضْمَ الذي هو الأكل الكثير يُدركُ ويُنال بسبب القضم الذي هو الأكل الضعيف، فالشّبْعَة قد تُدركَ بالأكل بأطراف الفم . والمقصود من ذلك أنّ الغاية البعيدة تُدرك بالرفق . قال الشاعر :

تَبلّغ بأخلاق الثّياب جَديدَها   وبالقَضم حتى تُدرك الخَضم بالقَضم

11) في ب :وعتابه
12) سقط ما بين قوسين من ب.

وللعامّة في نحو هذا المعنى أمثال كثيرة، منها قولهم : المَهَلُ يُبْلِغُ، وقولهم : الرَّاحَةُ تَنزِلُ شَيْئًا فَشَيْئًا . وأ صلُه في المريض . وقولهم : لا يَجِيءُ دُفْعَةً إلاّ المَوتُ ؛ وقولهم : قَطْرَةٌ الى قَطْرَةٍ فَيَسِيلُ النَّهْرُ ؛ وقولهم : امْشِ بالنَّعْلَيْنِ حَتَّى تَجِدِ السُّبَّاط، أي الخُفَّيْن.

بَلَغَ السِّكِّينُ العَظْمَ .

السَّكّين، بفتح السين وتشديدها،[13] معروف، يذكَّر ويؤنَّث . قال في الصحاح : والغالب عليه التذكير . وأنشد :

يُرى ناصحًا فيما بَدا فإذا خَلا   فَذالِك سَكّينٌ على الحَلقِ حاذقُ

ويقال : سَكّين وسكّينَة ؛ والعظم معروف وبلوغ السكّين العظم في القطع كناية عن بلوغ الأمر في الشدّة نهاية، وفي الصعوبة غاية، كما قيل :

وكَم ذُدْتَ عنّي من تَحامل حادثٍ   وسَوْرَةِ أيّامٍ حَزَزْنَ إلى العَظْمِ

بَلَغَ السَّيْلُ الزُّبَى .

السَّيْلُ مصدرٌ يقال : سال الماءُ يسيل سَيْلاً وسَيَلانًا . فإذا قيل للماء سَيْلٌ فمعناه سائل، وضِعَ المصدرُ مَوْضِعَ الصِّفَة . ويستعمل السيل في الماء الكثير السائل ؛ والزُّبَى بالزاي جمع زُبْيَة، وهي حُفْرَة تُتَّخَذ للأسد في الموضع العالي، وتُغَطّى بشيء، ويُجْعَل عليها لحم . فإذا تناوله الأسد سقط فيها . هكذا ذكر بعضهم . ويقال تَزَبَّيتها : اتَّخَذْتُها . قال الراجز :

وكُنتُ بالأمر الذي قَد كِيدا[14]   كالذْ تَزبَّى زُبْيَةً فَاصْطِيدا

وفي كتب اللغة : إنَّ الزُّبْيَة تُطْلَقُ على المكان المرتفع لا يصل إليه الماء، ومنه المثل، وعلى حُفرة الأسد . وقال الطِّرِمَّاحُ :

ياطيّء السهل والأجبال موعدكم   كمبتغي الصيد أعلى زبية الأسد

نعم، قال في الصّحاح : إنّما سُمّيَت حفرةُ الأسد بذلك لأنهم كانوا يحفرونها في الموضع العالي . فأصل الزُّبْيَة الموضع العالي، والسيل لا يصل إليه، وإن وصله كان جارفًا مفرطا مجحفا . فإذا قيل : بَلَغَ السَّيْلُ الزُّبَى، فمعناه أنَّ الأمر قد بلغ غايته،

13) المعروف هو كسر السين لا فتحها. وفي لسان العرب : ابن دريد : السِّكّين : فِعّيل من ذَبَحْتُ الشيء حتى سكن اضطرابه. وقال الأزهري : سميت سِكّينًا لانها تُسَكّن الذبيحة أي تُسَكّنُها بالموت... ومثله غِرّيد... وشمّير.

14) في لسان العرب : فكَان والأمْر الذي قَد كِيدا.

والهَوْلَ أدرك نهايتَه، كما قال الراجز : قد بلغ السيل الزبى فلا غير . أي قد عظم الأمر عن أن يغيَّر ويُصلح . وكتب أمير المؤمنين عثمان بن عفَّان رضي الله عنه، أيام حُصِرِ، الى أبي الحسن علي بن أبي طالب رضي الله عنه : أمَّا بعد، فقد بَلَغَ السَّيْلُ الزُّبَى، وجاوز الحِزَامُ الطُّبْيَيْن، وطَمِع فِي مَن لا يَدفَعُ عن نفسه، ولم يَفْخَر عليك كضعيف، ولم يَغْلِبْك مثلُ مُغَلَّب، فأقْبِل اليَّ عَلَى أيّ أمْرَيْكَ أحْبَبْتَ :

فَإن كُنتُ مأكولا فكن خَير آكلٍ وإلاَّ فداركني ولمَّا أُمَزَّقِ

وهذه أمثالٌ أخرى سيأتي كلٌّ منها في موضعه إن شاء الله تعالى . وقال أبو بكر بن دريد رحمه الله :

لَستُ إذا ما بَهَضَتني غَمرَةٌ ممَّن يقول : بَلَغ السَّيلُ الزُّبى

ومن أبلغ ما جاء في وصف قوَّة السيل قول امرىء القيس :

كأنَّ ذُرى رأس المُجَيْمر غُدوةً مِن السَّيل والغُثَّاءِ فلكةُ مِغزلِ

وألقَى بصَحراءِ الغَبِيطِ بَعَاعَهُ نزولَ اليَماني ذي العيابِ المُخَوَّلِ[15]

كأنَّ أسودا فيه غَرقَى غديَّة[16] بأرجائه القُصوى أنابِيشُ عُنصُلِ

والمُجَيْمر : جبل ؛ وذُرَاه : أعاليه ؛ وفَلْكَة المِغزَل التي يدور بها معروفة . يريد أنَّ السيلَ قد أحاط بهذا الجبل، فكأنَّه يدور، فلذا شبَّهه بفَلْكَة المغزل، فهو من التخييلات . والغَرقَى جمع غَرِق ؛ والأرجاء : النواحي ؛ والقُصْوَى : البعيدة : والعُنْصُل : البصل البَرِيّ المعروف . والأنابيش جمع أنباش، والأنباش جمع نَبْش، وهو أصله المنبوش . يريد أنَّ هذا السيل لكثرته أغرق السباع، فصارت طافية فوق الماء كأنها أنْبَاش العُنْصُلِ يَقتلِعها السيل.

بَلَغَ الشِّظَاظُ الوَرِكَيْنِ.

الشِّظَاظ بكسر الشين، وبظاءين مشالتين بينهما ألف : عُوَيْد يُجعَلُ في عُروة الجُوالق . قال الراجز :

أيْن الشِّظَاظَانِ وأيْنَ المِربَعَهْ وأيْنَ وسْقُ النَّاقَةِ الجَلَنْفَعَهْ

ويقال : شَظَظْتُ الجُوالِقَ : شَدَدْتُ عليه شِظَاظَه وأشْظَظْتُه : جَعَلْتُ له

15) في الديوان : ذي العِيَاب المُحَوَّ
16) في الديوان : كأنَّ السِّبَاعَ فيه غَرقَى عَشِيَّةً

شِظَاظا[17] والوركُ على وزن كَتِف : ما فوق الفَخِذ ؛ ويقال أيضا وَرْك، بسكون الراء، مع فتح الواو وكسرها . قال الراجز : مَابَيْنَ وركَيْها ذِراعًا عَرضًا . وبلوغِ الشِّظَاظُ الوركَيْن كناية" عن اشتداد الأمر : فهذا المثل من معنى الذي قبله :

بَلَغَ اللَّهُ بِكَ أكْلأَ العُمْرِ !

يقال : كَلأتُ الرَّجُلَ بالهمز، كمَنَعْتُه أكْلَؤُه كِلاءً وكِلاءَةً بالكسر : حَرسْتُه وحفِظته؛ وكَلأَ الدَّيْنُ : تَأخَّرَ ؛ والكَالِيءُ النَّسِيئَةُ . قال الراجز :

وعَينه كَالكَالِيءِ المِضْمَار

وفي الحديث النَّهْيُ عن بيع الكَالِيء بالكالِيء . وهو يصحّ من كَلأَ إذا تَأخَّرَ، أو من كَلأته : حَفِظْتُه، أي بَيْع المَكلُوء بالمَكلُوء، لأنّ كلاً منهما قد كلأ لصاحبه شيئًا. قيل : وكان الأصمعي لا يهمز الكالىء، وينشد :

وإذا تُباشِرك الهُمُومُ فَإنَّهَا كَالٍ ونَاجِزْ

وهذا المثل يقال في الدعاء، فقيل : معناه بلغ الله بك أحفظ العمر، كما يقال : كلأه الله، أي حفظه . قال الشاعر :

كَلاكَ اللَّه حَيث عزمتَ وجها وحَاطَك في المَبِيتِ وفي الرَّحِيل

وقيل : الصواب أنّ معناه الدعاءُ بطول العمر، أي بلغ الله بك أنْسَأ العُمر أي أبعده، من كلأ بمعنى تأخَّر، كما مرَّ .

بَلَغَ مِنَ العِلْمِ أطْوريْهِ .

الطَّوْرُ بفتح فسكون : الحَدّ ؛ ومنه قولهم : تَعَدَّى فلان" طَورَهُ، ومَلَكَ الدَّار بطَورِها وطُورِها وأطوارها، بمعنًى . ويقال : هذه الدار أطوَرُ من هذه، أي أوسَعُ حُدُودًا . فإذا قيل : بَلَغَ مِنَ الأمْر أطوريهِ، فهو بكسر الراء، جمع أطور، أي بلغ منه أقصى حدوده. هكذا قاله أبو زيد بكسر الراء . وقال غيره : بلغ أطْوريْه بفتح الراء ، وهو تثنية أطْوَر ، أي بلغ منه حدّ الطُّولِ والعرض . فَيُضْرَب في الانتهاء الى غاية العلم.

أبْلَهُ مِنْ ضَبٍّ .

يقال : بَلِهَ، بكسر اللام، يَبْلَهُ بَلَهًا أو بَلاهةً، فهو أبْلَهُ والبَلَهُ : الغَفْلَة، وقيل : الغفلة عن الشرّ خاصَّة ؛ وقيل : الحمق بلا تمييز . وقيل : الأبله : المأمونُ الشرّ ؛

17) سقط من ب.

وقيل : من غلبت عليه سلامة الصدر . والضبّ، بالضاد المعجمة : الدُويْبَّةُ المعروفة ؛ والأنثى : ضَبَّة، وهو يُضْرَبُ به المثلُ في أمور كثيرة مثل البلَه ، والعقوق، والخديعة، وغير ذلك . وسيأتي الكلّ، إن شاء الله تعالى . وإنَّما ضُرب به المثل في البلَه والذهول، لما يزعمون من أنّ في طبعه الحيرة والنسيان وعدم الهداية . قالوا : ولذلك يحفر بيته في كُدْية وموضع مرتفع لئلاّ يَضِلّ عنه إذا خرج لابتغاء الطُّعْم ورَجَع، والله أعلم.

ابنُكَ ابنُ أيْرِكَ، لَيْسَ بِذِي أبٍ غَيرِكَ.

الأيْر، بفتح الهمزة وسكون الياء : الذَّكَر . والمعنى أنّ ابنك الذي يكون لاَحِقًا بك وناصرا ومعينًا هو الذي نشأ من نُطْفَتِك ولم يَنْتَسِبْ الى غيرك . يُضْرَبُ في تبنّي الرجلِ أو المرأة غيرَ ولِديهما.

ابْنُكَ ابْنُ بُوحِكَ.

هذا كالذي قبله في المعنى والمَضْرِب . وبُوح في هذا المثل بضمّ الباء الموحَّدة، قيل هو الذَّكَر، وقيل النفس، وقيل الوَطْء . وهو يطلق على الكلّ في اللغة، ومرجعها الى معنى واحد . ويقال أيضا في هذا المثل : ابْنُكَ ابْنُ بُوحِك، الذي يَشْرَبُ مِن صَبُوحِك . قيل : وأوّل من نطق بهذا المثل الأحْزَنُ بْنُ عَوفٍ العَبْدِي، وذلك أنَّه كانت عنده امرأة فطلّقها وذهبت بولد، فتزوّجها عجل بن لُجَيْم بن بكر بن وائل، فقالت لِعِجْل حين تزوّجها : احفظ عليّ ولدي ! وسمَّاه عجلٌ سَعْدا . وشبّ الغلامُ فخرج به عجلٌ ليدفعه الى الأحزن بن عوف أبيه . وأقبل حنيفة بنُ لُجَيْم أخو عجل، فتلقّاه بنو أخيه، فلم ير فيهم سعدا، فسألهم، فقالوا : انْطَلَقَ به أبُونا الى أبِيه . فذهب حنيفة في طلبه فلقيه راجعا قد وضع الغلام في يد أبيه . فجمع حَنِيفَة بني أخيه إليه وسار الى الأحْزَن ليأخذ سعدا، فوجده مع أبيه ومولى له، فاقتتلوا . فقال الأحزن لسعد : يابُنَيّ ! ألا تُعِينُنِي على حَنِيفة ؟ فكعّ الغلام عنه، فقال الأحزنُ حينئذ : ابْنُكَ ابْنُ بُوحِكَ، الذي يَشْرَبُ مِن صَبُوحِك، فذهبت مثلا . وضرب حنيفةُ الأحزنَ بالسيف فجَذَمَه، فَسُمّي جَذيمَة . وضرب الأحزنُ حنيفةَ على رَجْلِهِ فَحَنَفَها، فسمّي حَنِيفَة، وكان اسمه أثَالَ بنَ لُجَيْم . فأخذ حنيفة سعدا فردَّه الى عِجْل . وقال بعضهم : البَاحَةُ وسط الدار، وجمعها بُوحٌ . ومن كلامهم : ابْنُكَ

ابْنُ بُوحِك، الذي يَشْرَبُ مِن صَبُوحِك . انتهى . فَجَعَلَه من بَاحَة الدار.

ابْنُكِ مَنْ دَمَّى عَقِبَيْكِ .

الدَّمُ أصْلُه دَمْيٌ . وتقول : دمِيَ الشيء، بالكسر، يَدمَى، فهو دَمٍ ودَامٍ ؛ وأدْمَيْتُه أنا، ودَمَّيْتُه تَدْمِيَةً . وهذا المثل كالذي قبله . قِيل : وقائله امرأة الطُّفَيْل بن مَلِك بن جعفر بن كلاب. وكانت من بلقين،[و] ولدت للطفيل عُقَيْل بن الطُّفَيْل ، فَتَبَنَّتْه ضرَّتُها كَبْشَةُ بنت عُرْوَة بن جعفر بن كلاب . ثمَّ إنَّ عُقَيْلاً ذات يوم ضربته أمُّه، فجاءت كبشةُ فمنعتها وقالت ابني ! ابني ! فقالت لها البلقينيّة ابْنُكِ مَنْ دَمَّي عَقِبَيْكِ، وهو بكسر الكافَيْن مُخَاطَبَةً بها، أي : ابنكِ هو الذي نَفِستِ به حتى أدمَى النِّفاسُ عقبيك، لا الذي تَتَبَنَّيْنَهُ ولم تَلِدِيه . ولما قالت البلقينيّة هذا الكلام لكبشة، انقلبت عنها مغمومة منكسرة، إذ لم يكن لها ولد، وتعظَّمت عليها ضَرَّتُها بولدها، فاشتملت كبشة على عامر بن الطفيل في تلك الليلة، فجاءت به أسْوَدَ أهل زمانه، وأنْجد أهل زمانه، وأفْرَس أهل زمانه، حتى كان مناديه ينادي بعكاظ : هل من راجِلٍ فَأحْمِلَه، أو مِنْ خائفٍ فأؤمِّنَه ؟.

بِهِ لاَ بِظَبْيٍ .

الظَّبْيُ معروف، جمعه ظِبَاءٌ، وأظْبِى، وظُبِيٌّ . وهذا المثل يقال عند الدعاء على أحد بالمصائب والموبقات، وان لا يعدلن عنه عند الشماتة به . والمعنى : جعل الله ما أصابه لازماله ! قال الفرزدق، لما مات زياد، وكان مسكينٌ الدارمِي رثاه بقوله :

رأيْتُ زيـــادَةُ الاسلامِ ولَّت ... جِهارا حِينَ فَارقَها زيَادُ

فقال الفرزدق يَردُّ على مسكين :

أمِسْكِينُ أبْكى اللّه عينك إنَّما ... جرى في ضَلالٍ دَمعُها فتَحدَّرا

بَكيتَ امرءا فظًا غليظًا مُبغَّضًا ... ككسرى على اعدائه وكقيصرا

أقول له لما أتاني نعِيُّهُ ... بِه لا بِظبْيٍ بالصَّريمَة أعْفَرا

وقال أبو تمَّام من قصيدة له :

قَتَلَته سرًا ثُمَّ قالت جَهْرَةً ... قَولَ الفَرزدق لا بظَبى أعْفَرا

بَاءَتْ عَرَارِ بِكَحْلٍ .

يقال : باءَ إليه، يَبُوءُ، إذا رجع إليه وانقطع ؛ وبَاءَ بِذَنْبِهِ بَوَاءً إذا احْتَمَلَه أو اعترف به ؛ وبَاءَ دَمُهُ بِدمِه : عَدلَ به ؛ وباء فلان [بفلان] إذا قُتِلَ به فقاومه . ومنه قول مُهَلْهِلٍ للبَكْرِيّ الذي قَتَلَه : بُؤ بِشِسْعِ نَعْلِ كُلَيْب ! وقول الشاعر :

فَقلت له : بُؤ بآمرىء لستَ مِثلَه   وإن كنت قُنعانا لمن يَطلب الدّما !

وعَرارِ، على وزن رقَاشِ . وكَحْلٌ بفتح الكاف وسكون الحاء : بقرتان، [وكانتا قد انتطحتا فماتتا معا، فقيل : بَاءَتْ عَرارِ بِكَحْلٍ]، أي باءت هذه بهذه . يُضْرَبُ إذا قُتِلَ القاتلُ بمقتوله . ويضرب لكلّ متكافئَين متساويَيْن .

بَالَ حِمَارٌ فاسْتَبَالَ أحْمِرَةً .

البَوْلُ معروف . يقال : بال، يبول، بَوْلاً . والحمار معروف . ومعنى استبال أحْمِرة : حَمَلَهُنّ على البول لمَّا بَالَ . وأمَّا قول الفرزدق :

وإنّ الذي يَسْعَى لِيُفسِد زوجَتي   كساعٍ الى أُسد الشَّرَي يَسْتَبيلُهَا

فقالوا : معناه يأخذ بَولَها في يده . ولا يبعد أن يكون معناه : يَحْمِلُها أن تبول عليه، ويتعرَّض لذلك، أي يتعرَّض لهجوي، كما قال الآخر :

تَعَرَّضَتْ (بياض) لِأَهْجُوَهَا[17م]   كما تعَرَّضَ لاسْتِ الخارِيء الحَجَرُ

والمثل المذكور يضرب في تعاون القوم على المكروه، وتنافسهم في الشرّ.

بَالَتْ عَلَيه الثَّعَالِبُ .

الثعالب جمع ثَعْلب . يضرب هذا المثل للشرّ الواقع بين القوم، وفساد ما بينهم . قال حُمَيْدُ بْنُ ثَوْر :

ألم تَر ما بَيني وبَينَ مُحاربٍ   مِن الودّ قد بالت عليه الثَّعالِبُ

وأصْبح باقي الودّ بيني وبينه   كأن لم يَكن والدّهْرُ فيه عجائب

بَاتَ فُلاَنٌ بِلَيْلَةِ ابْنِ المُنْذِرِ.

هو النعمان بن المنذر، أي بليلة شديدة.

17م) كذا في المخطوطات، وتمامه من ديوان جرير : تَعَرَّضَتْ تَيْمُ لِي لأهْجُوَهَا

بَاتَتِ المَرأَةُ بِلَيْلَةٍ حُرَّةٍ.

أي إذا لم يقدر الزوجُ على افتضاضها ليلة هدائها . ويقال لَيْلَةٌ حُرَّةٌ بالوصف، وهي أولُ ليلة من الشهر . قال النابغة :

شُمْسٌ مَوانع كلَّ ليلَةِ حُرَّةٍ   يُخْلفنَ ظنَّ الفاحش المغيار

بَاتَتْ بِلَيْلَةٍ شَيبَاء.

يقال : لَيْلَةُ شَيْبَاء بالاضافة، ولَيلَةُ الشَّيْبَاء، وهي آخر ليلة من الشهر . ويقال ذلك إذا غُلبَتْ على نَفْسِها، عكس الذي قبله.

بَاتَتْ بِلَيْلَةٍ أنْقَدَ.

الأنْقَدُ بالدال المهملة، على مثال أحْمَر ـ: القُنْفُذ، وهو يبيت الليل كلَّه لا ينام، فيقال لمن بات غير نائم : بَاتَ بِلَيْلِ أنْقَد . وذكر في الصّحاح أنَّ لفظ أنقد معرفة كأسَامة للأسد . وجوَّز غيره أن تدخل عليه الألف واللام.

بِيَدي لاَ بِيَدِ عَمْرٍو.

قالته الزَّبَّاء المَلِكَةُ السابقُ ذِكْرُها . وعمرو هذا هو عمرو بن عدي بن نَصْر الّلخمي ابن أخت جَذيمَة . وسبب ذلك أنَّ الزبَّاء، لما قتلت جَذيمَةَ كما مرَّ، رجع قَصِيرٌ إلى عمرو بن عدي فقال له : قُمْ بِثَأرِ خَالِك من الزَّبَّاء ! فقال عمرو : كَيْفَ لِي بِها، وهِيَ أمْنَعُ مِن عُقَاب الجَوّ ؟ فأرسلها مثلا . فقال قصير : اطْلُبِ الأثر وخَلاَكَ ذَمٌّ ! فذهبت مثلا . فقال له إني، والله، لا أنام على طلب دمه ما لاح نجم أو طلعت شمس، حتى أدركه أو تخترم نفسي دونه ! ثم قال قصير لعمرو : اجدع أنفي، واقطع أذني، واضرب ظهري، حتى تؤثّر فيه، وخَلّني وإياها ! ففعل عمرو ذلك . وقيل إنَّ عمرا أبى عليه، ففعل هو ذلك بنفسه، فقالت العرب : لأمرٍمَّا جَدَعَ قَصيرٌ أنْفَه فذهبت مثلا . قال المتلمّس :

ومِن طَلَبِ الأوتار ما حزَّ أنفَه   قَصيرٌ وخاض الموت بالسَّيف بَيْهَسُ

ثم إن قصيرا ذهب فَلَحِق بالزبَّاء، فقالت له : ما أتى بك إلينا يا قصير، وبيننا وبينك دم عظيم الخطر ؟ فقال لها : يا ابنة الملوك العظام، قد كان دم الملك ـ يعني أباها ـ يطلُبُ جَذِيمَةَ حتى أدركه ؛ وقد أتيتك فيما يأتي فيه مثلي مثلَك مستجيرا من عمرو،

فإنّه اتّهمني بقتل خاله، وفعل بي ما تَرَيْن . وقد حال بيني وبين أهلي وولدي، وخَشِيتُ على نفسي، فأتيتك . فأعطته الجِوار وأنزلته مكرما مخدما . فأقام مدّة لا يكلّمها، وهو يتطلّب لها الحيل ويِتأمّل الفرص . ثم قال لها يوما : إنّ لي بالعراق أموالا كثيرة، وذخائر نفيسة، ممّا يصلح بالملوك . فإن أذنْتِ لي في الخروج الى العراق وأعطيتني شيئا اتعلّل به تجارة وأتخذه وصلة إليها، أتيتك بما أمكنني منها . فأعطته مالا، فرجع إليها بأرباح كثيرة وطرائف خطيرة . فلمّا رأت ذلك أعجبها وعظمت منزلتُه عندها، ورغبت فيه . ولم يزل يتلطّف إليها ويتقرّب، حتى أعادته مرّة أخرى الى العراق، فأضعف لها الأموال، وأتاها من الجواهر والخَزّ والبَزّ والدّيباج بشيء عظيم، فازدادت منزلته عندها . ويقال إنّه رجع مرّة ثالثة، فأتاها بأكثر من الأولَيَيْن . فبلغ منها مكانة عظيمة حتى إنها كانت تستعين به في مهماتها . وكان لبيبا أديبا . وكانت ابْتَنَتْ على الفرات مدينتين عظيمتين، واتخذت بينهما نَفَقًا . فإذا أوجَسَت شرًا دخلت النّفَقَ . فلما بلغ قصيرٌ من مداخلتها ما بلغ، عرف النّفَقَ وعرف الطريق إليه. فعند ذلك رجع مرّة أخرى للتجارة. ويقال انها هي التي قالت له : أريد أن أغزو بلد كذا من أرض الشام، فاخرج الى العراق فَأْتِنِي بكذا وكذا من السلاح والكُراع والعبيد والثياب ! فقال قصير : ولي في بلد عمرو بن عدي ألفُ بعير، وخزانة من المال، وخزانة من السلاح فيها كذا وكذا، وما لعمرو به علم . ولو قد علمه لاستعان به على حرب الملكة، وقد كنت أتربّص به المَنُون، وها أنا أخرج مُتَنَكّرا من حيث لا يعلم فأتى الملكة بذلك مع الذي سألت، فأعطته من المال ما أراد. ويذكر أنها قالت [له] إذ ذاك : يا قصير ! المُلْك يَصْلُح لمثلك، وعلى يد مثلك يصلح أمره . ولقد بلغني أن أمر جَذيمَةَ كان إيرادُه وإصدارُه إليك . وما يَقْصُر بك عن شيء تناله يدي، ولا يقعد بك حالٌ ينهض بي فسمع كلامها رجل من خاصّة قومها فقال : أسَدٌ خَادِر، ولَيْثٌ ثائر، قَدْ تَحفّزَ لِلوثْبَة ! فلما سمع قَصِيرٌ كلامَها، وعلم ما بلغ من قلبها قال : الآن تمكن الخداع ! وخرج من عندها فأتى عمرا، فقال له : قد أصبت الفرصة . قال له عمرو : قُلْ أسمع، ومُرْ أقْبَل، فأنت طبيب هذه القُرحَة ! قال : الرجال والأموال فقال عمرو : حُكْمُك مسلّطٌ فيما عندي ! فعَمَدا الى ألفيْ رجل من فُتّاك قومه، فحملهم على ألفيْ بعير في الغرائر السود. ويقال

إنه اتخذ الجُوالق ـ وهو أوّل من اتخذها ـ وحمل فيها الرجال، وجعل ربطها من داخل . فأتى بها وأخذ غير الطريق، وجعل يسير الليل ويَكمنُ النهار. وجاء عمرو معه . وكان عمرو قد صُوِّر للزّباء قاعدا وقائما وراكبا . فلما عَمِيَ عنها خَبَرُ قَصِير، سألت عنه فقيل لها إنه أخذ على طريق الغويْر، فقالت : عَسَى الغُويْرُ أبْؤُسًا . فذهبت مثلا، وسيأتي . فلما قربوا، تقدّم قصير، ودخل على الزبّاء فقال لها : قفي فانظري الى العِير ! فرقِيَتْ سطحا وجعلت تنظر الى الابل تحمل الرجال . فقالت : ياقصير،

ما للجِمالِ مَشْيُها وئِيدا أجَندلاً يَحمِلن أمْ حَديدا ؟
أمْ صَرفانًا بَاردًا شَديدا أمِ الرِّجَالَ جُثَّمًا قُعُودا ؟

ويقال إن الزبّاء كان وشِيَ لها بقصير، فلما رأت مِشْيَة الأجمال ازدادت الريبةُ في قلبها فقالت ذلك . فلما دخلت العِير القصر، وعلى الباب بوّابون من النَّبَط، وفيهم رجلٌ بيده مِخْصَرةٌ فطعن بها جوالقا فأصابت المخصرةُ رجلاً فضرط، فقال البوّاب بالنَّبَطِيّة : بشتا ! بشتا ! أي الشَّرّ ! الشَّرّ !. فاستلّ قصيرٌ السيف فقَتَل النَّبَطِيّ، فدخل عمرو، وكان وراء الابل . فبركَتِ الابل، وخرج الرجال، وذهب عمرو فوقف على فم النفق، وكان قد وصفه له قصير وعرّفه به . فجاءت الزبّاء نحو النّفق . فلمّا رأت عمرا عرفته بما صُوِّرَ لها، فمصّت خاتما كان في يدها مسموما وقالت : بِيَدي لا بيَدِ عَمْرٍو، فماتت . ويقال إنه هو قتلها بالسيف، واستباح بلادها . ومعنى المثل ومَضْرِبُه واضح .

بِيَدَيْنِ مَا أوردها زائدة .

اليد تطلق على الجارحة وعلى القُوّة الناشئة عنها . ويُثَنّى بالمعنى الثاني أيضا، كما يثنّى بالمعنى الأول الحقيقيّ . قال تعالى : لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيّ . وقال عُرْوَةُ بن حِزَام :

فَقالوا شَفاكَ اللّهُ واللّهِ مالنا بما حَملتْ مِنك الضّلُوع يَدان

واليد في المثل، إن كانت بالمعنى الحقيقي، فهي كناية عن الجِدّ والشدّة والقوّة، لأنّ العامل عملاً بكلتا يديه يكون عليه أقوى وأشدّ من الذي يعمله بيد واحدة ؛ وإن كان بالمعنى الثاني، فواضح، وثنّيت للمبالغة . والمثل يضرب للجَلادة والقوّة في العمل[18]

18) في مجمع الأمثال للميداني : زائدة : اسم رجل. يريد بالقوة والجلادة أورد إبله الماء، لا بالعجز.

بَـيْضُ القَـطَـا يَـحْضُنُـهُ الأجْـدَلُ .

القَـطَـا : الطير المعروف، واحدته قَـطَـاة، وتقدّم أنها تُـعدّ في الحَـمَـام . وتبيض ولا تزيد غالبا على ثلاث بيضات، ومن ثمّ يقال لِلْـقَـطا أمُّ ثَـلاث . قال الشاعر :

وأمُّ ثَـلاثٍ إنْ شَـبَـبْـنَ عَـقَقنَـهَا   وإن مُتن كان الصَّبر مِـنها على صبر

وحَـضَانة الأولاد معروفة، وأصل الحَضْن جعلُ الشيء تَـحتَ الابط . والاجْـدَلُ هو الصَّقْـر، مشتقّ من الجَـدْلِ وهو القوّة، وغلبت عليه الصفة . وهذا المثل يضرب في الضعيف يستنـد الى القويّ ويَـأوي إليه.

بَـيَّنَ الصُّبْـحُ لِـذِي عَـيْـنَـيْـنِ.

معناه أنّ الليل لا ظِـلامه يستوي فيه البصير والأعمى، فإذا أقبل الصبح تبيّنت الأشياء لكلّ ذي بَـصَـرٍ فأدركها . أو معناه أن الصبح لظهوره يُـدركه كلُّ ذي بصر لا يَـمْـتَـرِي فيه ولا يلتبس عليه . يضرب في الشيء يتّضح وينجلي بحيث لا يتطرّق إليه التباس . ويقال أيضا : وضَـحَ الصُّبْـحُ لِـذِي عَـيْـنَـيْـنِ . وأصل المثل لقيس بن زُهَـيْـر العَـبْـسِيّ صاحب الحروب بين عَـبْـس وذُبْـيَـان بسبب الفرسَـيْـن داحِـسٍ و الغَـبْـراء . وسنشرح ذلك في موضعه إن شاء الله تعالى . وكان قيس داهية من دُهاة العرب، يُضرب به المثل في ذلك كما سيأتي . فحكي أنّ رجلا مرّ بحيّ الأحوص، فلما دنا من الحيّ نزل عن راحلته، فعمد الى شجرة فعلّق عليها سِقَـاءً من لبن، وجعل على بعض أغصانها حنظلة، ووضع صُرّة من تراب وصُرّة من شوك، ثم استوى على راحلته وانطلق . فنظر القوم الى ذلك فعَـمِيَ عليهم أمْرُه، فأرسلوا الى قيس بن زهير، فلما جاءهم قال له الأحوص : ألم تخبرني أنّه لا يَـرِدُ عليك أمرٌ إلاّ عرفت مَـأتَـاه ؟ قال : ما ذاك ؟ فأراه ذلك، فقال : وضَـحَ الصُّبْـحُ لِـذِي عَـيْـنَـيْـنِ . فأرسلها مثلا، ثم قال : هذا رجل أسَـرَهُ جيشٌ قاصدٌ إليكم، ثمّ أطلِـق بعد أن أخِـذ عليه العهدُ والميثاقُ أن لا يُـنْـذِركم، فَـعَـرَّض لكم بما تَـرَوْن . أمّا الصُّرّة من التراب فإنّه يزعم أنّه أتاكم عدد كثير ؛ وأمّا الحنظلة فإنّه يزعم أنّ بني حنظلة قد غَـزتْـكم، وأمّا الشّوْك فيخبر أنّ لهم شوكة، وأمّا اللّبن فإنّه دليل على قرب القوم (أو بعدهم إن كان حلوا أو حامضا . فاشتد القوم)[19] فكان كما قال .

19) سقط ما بين قوسين من ا

وممَّا يلتحق بهذا الباب قولك مثلا . أبْردُ من الثَّلج، وأبْردُ مِن قرَّة، ونحو ذلك . وهذا النحو من الأمثال لا يختصّ بنوع ولا ينحصر في شيء، إذ ما من شيء اتصف بصفة وامتاز بمزيَّة من برودة أو بله أو بطء أو إبصار أو غير ذلك من الأوصاف، إلا ولكَ أن تضْرِبَ به المَثَلَ، إمَّا تفضيلا أو تشبيها . وهكذا في كل باب ؛ غير أنّ ما اشتهر من ذلك يثبت في الكتاب، وما سواه فسائغٌ استعمالُه، غيرُ محذورٍ ارتكابُه.

وقولهم : بِفُلانٍ تُقْرَنُ الصَّعْبَةُ.

يقال للرجل إذا كان نافذا في الأمور قويًا عليها نهَّاضًا بها.

وقولهم : بَعْدَ اللَّتَيَّا وَالَّتِي .

[في] الأمر يكون بعد مُعانَاةِ الكَدّ ورُؤْيَةِ الشّدّة.

وقولهم :هُوَ ابْنُ زَوْمَلَتِهَا، أي عالمٌ بها.

وقولهم :هُوَ بَيْنَ سَمْعِ الأَرْضِ وبَصَرِهَا، إذا لم يُدر أيْنَ تَوجَّه. أو يراد به أنَّه بأرض خالية بحيث لا يسمعه ولا يبصره [إلا] الأرض. وقيل أريد بسمع الأرض وبصرها طولُها وعَرضُها. وضمَّن هذا المثل أبو محمد بن عبدون رحمه الله ! في قصيدته التي يرثي بها بني المظفَّر، فقال :

وأنْفَذتْ فِي كُلَيْبٍ حُكْمَهَا ورمت مُهلْهلا بين سَمعِ الأرضِ والبَصَرِ

ومن أمثال العامَّة في هذا الباب قولهم : يَبْرَ الجُرحُ السُّوء، ولا يَبْرَا الكَلامُ السُّوء. وأصله يزعمون أنّ شخصا أدَّاة تطوافُه الى أن سقط في مغارة أسد منكسرا، فوجد أشباله فلاذبها . فلما دخل عليه الأسد ورآه على تلك الحال، رقّ له وجعل يأتيه باللحم ويقدّمه إليه ويرفق به حتَّى برىء وذهب الى أهله . فبينما هو يحدّثهم ذات يوم بقصَّته مع الأسد، إذْ جاء الأسد فاستمع من وراء البيت، وسمعه يقول لهم : ما رأيت في الأسد من عيب إلاّ بَخَرًا في فيه، يدنو مني فيؤذيني غاية الايذاء . فلمَّا سمع الأسد كلامه أحفظه. فبينما ذلك الشخص يوما في موضع إذ وجده ذلك الأسد وعرفه، فقال له الأسد : أما كان لي عليك حقّ وجزاء لنعمتي ورفقي وإحساني بك ؟ أو نحو هذا . قال :نعم ! قال له : فإني أسألك أن تضربني بهذا الفأس ضربة بين عينيّ منكرة . فأبى عليه، وألحّ عليه الأسد حتى ضربه . فذهب، ومكث زمانا حتى برئت تلك الضربة وذهب أثرها . فرجع إليه

حتى لقيه فقال له : انظر هل ترى لضربتك التي ضربتني أثرا ! قال : لا ! فقال له حينئذ : **يَبْرُؤُ الجُرحُ السُّوءُ، ولا يَبْرُؤُ الكَلامُ السُّوءُ** يعني قوله فيه إنَّه كان أبْخَر، وافترسه.

ولنحو هذا يقوله العامَّة في مثل آخر : **مَنْ ذَا يَقْدِرُ أن يَقُولَ لِلأسَدِ : فُوكَ أبْخَرُ ؟**

وقولهم : البَرَكَاتُ في الحَرَكَاتِ .

وقد ورد في مدح السفر والحضّ على التحوّل والحركات لنيل الأوطار كلام كثير . قال صلَّى الله عليه وسلَّم : **سَافِرُوا تصِحُّوا، واغْزُوا تسْتَغْنِمُوا** ! ويُروى : **سَافِرُوا تصِحُّوا وتَغْنَمُوا** ! وقال : **الأرْضُ أرضُ اللّهِ، والعِبَادُ عِبَادُ اللّهِ : فَحَيْثُ وجَدَ أحَدكُم رزْقَهُ، فَلْيتَّقِ اللهَ وليُقِم** . وقال : **ماماتَ ميّتٌ بأرض غُربةٍ إلاّ قِيسَ بِهِ من مَسْقِطِ رأْسِهِ الى مُنْقَطَعِ أثَرِهِ فِي الجَنَّةِ** . وقال : **مَوْتُ الغَرِيبِ شَهَادَةٌ** .وقال : **مَنْ مَاتَ غَرِيبًا مَاتَ شَهِيدا**. وفي التوراة : ابْنَ آدَمَ، أحْدِثْ سَفَرا أُحْدِثْ لَكَ رِزْقًا . وفيها أيضا : ابْنَ آدَمَ، خُلِقْتَ مِنَ الحَرَكَةِ الى الحَرَكَةِ : فَتَحرّكْ وأنَا مَعَكَ ! وفي بعض الكتب : امْدُدْ يَدَكَ الى بَابٍ مِن العَمَلِ، أفْتَحْ لَكَ بابًا مِنَ الرِّزْقِ ! وقال صلَّى الله عليه وسلَّم لِوفْدِ عبدِ القيس : **ما المُروءَةُ فِيكُم ؟** قالوا : **العِفَّةُ والحِرفَة** . وقال موسى بن عمر ان عليه السلام : لا تَلُومُوا السَّفَرَ ! فإنّي أدْرَكْتُ فيه مَالَمْ يُدرِكْ أحَد، يريد أنَّ الله كَلَّمَه . ونظمه أبو تمَّام بقوله :

فَإنَّ مُوسى صلَّى عَلَى رُوحِهِ ... اللّهُ صَلاةً كَثِيرَةَ القُدسِ
صَار نَبِيًّا وعَظم بُغْيَتِهِ ... في **جَذوةٍ لِلصَّلاءِ** أو قَبَسِ

قيل : وقد قال رجل لمعروف الكرخي : يا أبا محفوظ، أتَحرّكُ لطلب الرزق أم أجْلِسُ ؟ قال : بل تحرّك، فإنّه أصلحُ لك ! فقال له : أتقول هذا ؟ قال : ما أنا قلته، ولكنه عزَّ وجلَّ أمر به حين قال : **وهُزِّي إلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تَسَّاقَطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنيًّا**، ولو شاء أن يُنزله عليها فعل. وفي هذا أنشد الثعالبيّ :

ألَـم تـَر أنَّ الـلَّه أوحى لمريـَم فـَهـُزي إليكِ الجذع تسَّاقط الرُّطب
ولو شـَاء أن تجنيه من غير هزها جنته ولكن كلّ شيء له سبب

وقال المأمون : لاشيء ألذ من السفر في كفاية، لأنك تحلُّ كلَّ يوم محلَّة لم تـَحـْلـُلها، وتعاشرُ قوما لم تعاشرهم . وقالوا : ربَّما أسْفـَر السَّفـَر، عـَن الظـَّفـَر . وقالوا : [إنَّ] من فضائل السفر أنَّ صاحبه يرى من عجائب الأمصار، ومحاسن الآثار، ما يزيد علمـًا بقدرة الله، ويدعو الى شكر نعمته . وقالوا : السفر يـَشـُدُّ الابـْدان، ويـُنـَشـِّطُ الكسلان، ويسلـّي الثـّكلان، ويـُشـَهـِّي الطعام، إذ ليس بينك وبين بلدٍ نسب، فخير البلاد ما حمل . وكتب ابن رشيق الى بعض إخوانه : مـَثـَلُ الرَّجـُل القاعد ، أعزَّك الله ! ـ كمثل الماء الراكد، إن تـُرِك تغيـَّر، وإن حـُرِّك تكدَّر ؛ ومـَثـَلُ المسافر كالسحاب الماطر، هؤلاء يـَدْعـُونه نـِقـْمة، وهؤلاء يدعونه نـِعمة . فإذا اتصلت أيامـُه، ثـَقـُل مـُقـَامـُه، وكثر لـُوَّامه . فاجـْمـَعْ لنفسك فـُرْجة الغـَيـْبـَة، وفـَرحـَة الأوبة ! وقالوا : المسافر يسمع العجائب، ويكشـِفُ التـَّجـَارب، ويـَجـْلـُب المكاسب . أوْحـِشْ أهلـَك إذا كان أنـْسـُك في إيحاشهم، واهـْجـُر وطـَنـَك إذا نـَبـَتْ عنك نفسك ! وقيل لأعشى بـَكـْر : الى كـَمْ ذا الاغتراب ؟ أما ترضى بالدَّعـَة ؟ فقال : لو دامت الشمس يوما عليكم لـَمـَللتموها . وأخذه أبو تمَّام فقال :

وطولُ مـُقامِ المرءِ في الحيّ مخلقٌ لـِديباجتيـْه فاغتـَرب تتجـَدَّدِ !
فإني رأيت الشـَّمس زيدَت محبـَّةً الى الناس أن ليست عليهم بسَرمدِ

وقال الحكماء : لا تـُنال الراحة إلاَّ بالتعب، ولا تـُدرك الدَّعـَةُ إلاَّ بالنـَّصـَب . وقال أبو تمَّام :

ولـَكنني لم أحـْوِ وفرا مـُجمـَّعـًا ففـزت به إلاَّ بشـَملٍ مـُبـدَّدِ
ولم تـُعطني الأيـَّام يومـًا مـُسكنـًا ألـذُّ بـِه إلاَّ بنـَومٍ مـُشـَـرَّدِ

وقال النابغة الجعديّ في هذا المعنى الذي نحن فيه :

إذا المرءُ لم يطلـُبْ معـَاشـًا لنفسه شـَكا الفـَقر أو لام الصديق فأكثرا
فسِرْ في بلاد اللـّه والتمسِ الغـِنى تعشْ ذا يسار أو تموتَ فتعذرا

وقال ابن صارة :

سافر فإنَّ الفتى من باتَ مُفتتِحًا قفل النَّجاح بمفتاحٍ من السَّفرِ
إن شئت خضرتَها يا ابن الرجاء فكن في طي غُبر الفيافي ثانيَ الخضر
ولا يَصُدَّنْكَ عَن وجهٍ تَصعُّبُه قد ينبع الكوثَر السَّلسال من حجر

وقال الآخر :

تُخوِفُني طول السِّفار وإنَّني لتقبيل كفٌ العَامريِّ سفِيرُ
ذريني أردْ ماءَ المَفاوزِ آجِنًا إلى حيث ماءُ المكرماتِ نَمِيرُ
وإنَّ خَطيرات المهَالِك ضُمَّنٌ لِراكبها أنَّ الجَزاءَ خَطِيرُ

وقال الآخر :

لا يَمنعنَّك خفْضَ العيش في دعَةٍ نُزوعُ نفس الى أهلٍ وأوطَانِ
تلقى بكلٌ بلادٍ أنت ساكِنُها أهلاً بأهلٍ وجِيرانًا بجيرانِ

وقال البُحْتُرِيّ :

وإذا الزَّمان كَساكَ حُلَّةَ مُعدمٍ فالبَس لَه حُلل النَّوى وتَغرَّبِ

وقال الآخر :

لَيس ارتِحالُك ترتَاد الغِنى سَفرا بَل المُقام على خَسفٍ هو السَّفَر

وقال أبو الفتح البُسْتِيّ :

فالحُرُّ حرٌّ عزيز النَّفس حيث ثَوى والشَّمس في كلٌ برجٍ ذات أنوارِ

وقال ديكُ الجِنّ :

ولَيس المرءُ ذُو العَزمات إلاَّ فَتَى تلقاه كلَّ غَدٍ بلادُ

وقال الآخر :

يُقيم الرِّجالُ الأغنياءُ بأرضهم وترمي النَّوى بالمُقترينَ المَراميا

وقال البُحْتُرِيّ :

وإذا ماتَنَكَّرتْ لِي بِلادٌ أو صَديقٌ فإنَّنِي بالخِيَارِ

وقال أبو الطيّب :

إذا لم أجد في بَلْدةٍ مَا أريدُهُ فَعِندي لأخْرى عَزمةٌ وركَابُ

وقال :

وما بَلدُ الانسان غَير المُوافِق ولا أهلُه الأدنَوْنَ غَير الأصادقِ

وقال الآخـــر :

غِب عَن بِلادك وارجُ حُسنَ مَغبَّةٍ إن كُنت حقًّا تشتكِي الإقلالاَ

فالبَدرُ لَمْ يُحْجَب بِه إدبَارُهُ إلاَّ بغَيرٍ يَطْلُبُ الإقبَالاَ

وقلت أنا من جملة قصيدة :

لا يَكسُك الوطنُ الأليفُ مذلّةً إن كُنتَ تَكتَسِبُ العُلى بتغرُّب

فالجار من يدنو إليك مُواتِيًا في كلّ أرضٍ بالجِوار الأطيَبِ

ومَن احْتبَاكَ مَودّةً ونَصِيحةً في حالتيكَ فَذاكَ خيرُ الأقربِ

وهذا باب لا يحصى . وقد أكثروا في عكس هذا المقصد، وهو مدح الاقامة والاخلاد الى الراحة وانتظار الفرج واستمطار الرجاء . قال الأعشى :

ومَن يغترب عَن قومِهِ لا يزل يرى مصارعَ مظْلومٍ مُجرًّا ومُسحَبا

وتُدفَنُ منهُ الصَّالحاتُ وإنْ يُسِئْ يكُن ما أساء النَّار في رأس كبكبا

وقال زهيـــر :

فَقرِّي في بلادك إنَّ قَومًـا مَتى يَدَعُوا بلادَهُمْ يَهُونُـوا

وقال الآخـــر :

لَقُربُ الدَّار في الاقتار خَيرٌ مِن العَيشِ المُوسَّعِ في اغتِرابِ

وقال الآخـــر :

وما زلْتُ أقْطَع عرضَ البِلاَ دِ مِن المَشْرقَينِ إلى المغرْبَينِ

وأدَّرِعُ الخَوفَ تَحتَ الرَّجا وأسْتَصْحِبُ الجَدي والفرقَدينِ

وأطوِي وأنْشُر ثَوبَ الهُمُو مِ إلى أن رجَعتُ بخُفَّيْ حُنَينِ

وقال الآخـــر :

يُعطَى الفَتى فَينالُ في دعَةٍ ما لَم يَنل بالكدّ والتَّعَبِ

فاطْلُب لنَفسِك فَضْل راحَتِها إذ ليست الأشيَاء بالطَّلَبِ

إن كان لارزْقٌ بِلاَ سَبَبٍ فَرجَاءُ ربِّكَ أعْظَمُ السَّبَبِ

وقال الآخـــر :

قَد يُرزَقُ الخَافِضُ المُقيمُ وما ... شَدَّ لِعَنْسٍ رحْلاً ولا قَتَبَا
ويُحرمُ المَالَ ذُو المَطيَّة [والرَّ ... حْلِ] ومن لا يَزالُ مُغْتَربا

وقال الآخر :

قَد يُرزقُ المَرءُ لم تَتعَبْ رواحِلُهُ ... ويُحرمُ الرِّزقَ بالأسفار والتَّعَبِ
إنّي وعَمركَ لا أحْصي ذَوي حُمُقٍ ... الرِّزق أغْرَى بهم من لاصِقِ الجَربِ

وقال الآخـــر :

ألا رُبَّ باغي حاجةٍ لا ينالُها ... وآخَرَ قَد تُقضَى له وهْو جالسُ

وقال الآخـــر :

قَد يُرزقُ المَرءُ لا مِن حُسن حيلَته ... ويصرفُ الرِّزق عن ذي الحيلة الدّاهي
ما مسَّني من غِنى يومٍ ولا عَدمٍ ... إلاَّ وقَوليَ فِيه الحَمدُ للّهِ

وقلت أنا من جملة قصيدة :

لاَ ولا بالحِجَى تُنالُ الأمَاني ... لاَ ولاَ الجَهْلُ رائِدُ الحِرمَانِ
فالغِنى بالحِظَاء لا بالتَّعنّي ... والتَّوى بالقضَاء لا بالتَّواني
كَم لَبيبٍ ذِي نجدةٍ مات هزلاً ... وغَبيٍّ يَحُفُّهُ ألْفُ هَانِ
وكَريمٍ أذِيلَ بَعد اعْتِزازٍ ... ووضِيعٍ يَسْمو عَلَى كِيوَان
قِسْمَةٌ قُدِّرَتْ وأحْكَمَ مَبْنَاهَا قَضَاءُ المُهَيْمِنِ الدَّيَّانِ

ولنرجع الى المقصود خشية الطول .

وقولهم : **بِأضْدادِها تتبيَّنُ الأشْياءُ** . ونظمه أبو الطّيب حيث قال :

مَن يظلِم اللُّؤَماءَ في تَكليفِهم ... أن يُصبحُوا وهُمْ لَه أكْفَاءُ
ويَذُمُّهُم وبِهم عَرفْنا فَضْلَهُ ... وبِضِدِّها تَتبيَّنُ الأشياءُ

ونحوه قول أبي تمَّام :

كَثْرةُ السَّفرِ يَمْنَةً وشِمالاً ... أضْعَفَتْ في نَفِيسَةِ العِقْيانِ

ونحوه قول المعرّي :

والشَّيءُ لا يَكْثُرُ مُدّاحُهُ إلاّ إذا قِيسَ الى ضِدِّهِ
لَو لاَ غَضا نَجدٍ وقُلاّمُهُ لَم يُثنَ بالطّيب على رَنْدِهِ

وقد يُعاب الامتداح بنحو هذا بأنه امتداحٌ بكمال إضافيّ، وقلمّا يخلو شيء من نحو هذا الكمال . والجواب أن ليس القصد إلى بيان كون الكمال إضافيًا لا حقيقيًا، بل الى بيان أنّ الكمال اتضح غاية الاتضاح، وأنّ سبب اتضاحه كذا . والشيء قد يكون في غاية الكمال والفضل، ويَخْفَى لشدّة ظهوره، ولا يُعْرَف إلاّ بالقياس لغيره . فلو لم يَخلُقِ اللهُ المرضَ لم يُعْرَفْ حسنُ الصحّة ؛ وكذا الفقرُ والغنى، والمرارةُ والحلاوة، ونحو ذلك . ولو لم يُخْلَقِ الليلُ لما عُرفت فائدةُ النهار، كما قال حبيب :

بيَّن البَيْنُ فَقْدَهَا قَلَّمَا تَعرِفُ فَقداً لِلشَّمسِ حَتَّى تَغيبا

ولهذا ورد في الخبر أنّه يرى المؤمن النار وما أبْدله به الجنة ؛ وكذا الكافر بالعكس .

وشاع في ألسنة العامّة قولهم : **لا تَمْدَحْنِي حَتَّى تُجَرِّبَ غَيْرِي**، كما قال حبيب :

وإساءَاتُ ذي الاساءَةِ يُذكِرْ نَكَ يوما إحسانَ ذي الاحْسانِ

وقال أيضا :

إساءَةُ دهرٍ أذكَرتْ حُسنَ فِعلِهِ إليّ ولَولا الشَّرْيُ لَم يُعرَفِ الشَّهْدُ

وأمّا قول أبي الطيب :

زانَتِ اللّيلَ غُرّةُ القَمرِ الطّا لِعِ فيه ولَم يَشِنْها سَوادُهْ

فمراده به المبالغة في الثناء، وأنّ طلعة الممدوح تكشف الظلماء مع غلبتها الأنوار، ولو أضاف إشراق طلعته الى النهار لم يكن لذلك كبيرُ فضل، من حيث إنّ الشيء يظهر بالنهار ولو ضعيفا . ولم يعتبر هو ما مرّ، وإنّما اعتبر ما اعتبره النابغة حيث اعترض على حسّان قوله : **يَلْمَعْنَ بِالضُّحَى** . وكان النابغة تُضرب له قبّةٌ بسوق عُكاظ، فيَعْرِضُ عليه الشعراء أشعارهم . فدخل عليه يومًا حسّان بن ثابت وعنده الأعشى، وقد كان أنشده شعرا له فاستحسنه، وإذا بالخنساء فأنشدت :

ياصَخرُ ورّادَ ماءٍ قَد تَناذرهُ أهلُ المِياه وما في وِرْدِه عارُ
مَشيَ السَّبَنْتَى الى هَيجاءَ مُعضلةٍ لها سِلاحان : أنيابٌ وأظفارُ
فما عَجولٌ على بوٍّ تَحنُّ لَه لهَا حنينان : إعلانٌ وإسرار

فإنّمـا هي إقبـال وإدبـار
ترتعُ ما غَفلت حتّى إذا ذكرتْ
صخـرٌ وللدّهـر إحلاءٌ وإمـرارُ
يومًا بأوجع منّي يوم فارقني
وإنّ صخرا إذا نَشتُو لَنحّارُ
وإنّ صخْـراً لَوالينـا وسيّدُنـا
كأنّهُ عَلَـمٌ في رأسِهِ نـارُ
وإنّ صخرا لتأتـمُّ الهُـداةُ به
عقّـادُ ألويَـةٍ للجَـيْشِ جرّارُ
جوّابُ قَـاصيَـةٍ جزّارُ ناصِـيَـةٍ
حامي الحَقيقَـةِ مَحمودُ الخَليقَـةِ مَهـديُّ الطّريقةِ نفّـاعٌ وضرّارُ
لِريبةٍ حينَ يُخْلِي بيتَهُ الجارُ
لَم تَرَهُ جارةٌ يَمشي بساحَتها
فقال لها النابغة : لولا أنّ أبا بصير - يعني الأعشى - أنشدني قبلك لقلت إنّك أشعر الانس والجنّ فقال حسّان : أنا أشعر منك ومنها ومن أبي بصير، حيث أقول :
وأسيافُنا يقطُرن مِن نَجدةٍ دَمَا
لنا الجفناتُ الغرُّ يلمَعْن بالضُّحى
فأكرم بنا خالاً وأكرم بنا ابْنَما !
ولَدْنا بَني العَنقاءِ وابْنَ مُحرقٍ
فقال له النابغة : إنّك لشاعر لولا أنّك قلت الجَفَنَات فقلّلت العدد، ولو قلت الجِفَان كان أكثر ؛ وقلت يَلْمَعْنَ بِالضُّحَى، ولو قلت يُشْرِقْنَ بِالدُّجَى كان أبلغ، وقلت يَقْطُرنَ، ولو قلت يَجْرِينَ كان أبلغ ؛ وفخرت بما ولَدْتَ ولم تَفْخَر بِمَنْ ولَدَك على أنّك يا بنيّ لا تحسن أن تقول :
وإنْ خِلتُ أنّ المُنْتَأَى عَنك واسعُ
فَإنّك كالّليلِ الّذي هُوَ مُدركِي
فقام حسّان خجِلا منكسرا .

فائدتان : الأولى قول النابغة : أشعر الانس والجنّ، أو الجنّ والانس، خطأ في العربية . فإنّ المعطوف في حكم المعطوف عليه واسم التفضيل إنّما يضاف الى ما هو بعض منه، غير أنّه إن كانت الرواية تأخير الجنّ أمكن أن يستسهل في التابع مالا يَسُوغُ في المتبوع.

الثانية : بيت النابغة الذي تبجّح به وفَخَر به على حسّان هو من جيّد الشعر، وقد اعترضه الأصمعيّ في انتصاره للرشيد على البرامكة . فإنّ النهار سواء هو والليل في الادراك واللحاق، ولا مزيّة للّيل حتى يخصّ بالذكر . وقصّة محاضرتهم مشهورة.

قلت : وأنت إذا علمت وأنصفت عرفت أن ليس لحاق النهار كلحاق الليل الذي تنقطع

الحركات لإقباله، ويَستكِنُ كل أحد لغِشْيانه، ويخضع تحت أطنابه : فتشبيه المَلِك به أحقّ . ولْيَتَنَبَّهِ الأديب الى كلام النابغة وانتقاداته ليعرف مبلغ شعراء الجاهليَّة في معرفة الشعر والغوص على المعاني، ويقدّرهم حقَّ قدرهم في هذا الباب، ويعرف أنَّ البلاغة طوع أيْمَانِهم وأنَّها تدبّ على ألْسِنَتِهم دبِيبَ النمل، وتجري منهم مَجْرَى الدم، وتسري في أفكارهم سَرَيَان العذب السلسال، حتَّى يَعْرِفَ مقدارَ مَنْ تَحَدّاهم ربُّ العزّة بكلامه فأعجزهم، وأنَّهم لأَمْرٍ [مَّا] عجزوا وأذعنوا . فلا يغترّ الفتى الجاهل اليوم ويتوهَّم، إذا سمع شقاشق أهل أعصاره أنَّ أولائك أغمار . وقولهم للانسان غير المستوطن : **بَيْتُهُ عَلَى ظَهْرِهِ** . وأصله في السلحفاة . ومثله قول الشاعر:

حَيثُما كُنتُ لا أُخَلِّفُ رحلاً مَن رآني فَقَدْ رآني ورَحْلِي

وقد آن أن أذكر ما يتيسَّر من الأمثال الشعريَّة في هذا الباب، وما يَجْرِي على نَمَطِها، وينخرط في سَفَطِها . قالوا :

ومَنْ يَكُن الغُرابُ لَه دليلاً يُدلُّ به على جِيَفِ الكِلاَبِ

يريدون أنَّ من اتخذ الدنيء مرتادا، واللئيم قوّادا، فهو يسوقه الى سُخْفِه، أو يقعُ به على حَتْفِه . وقال الآخر :

ومن لَم يَكُن عَقْربًا يُتَّقى مَشَتْ بَينَ أثْوابِه العَقْربُ

وهو مثل قول العامَّة : **مَنْ لَمْ يَكُنْ ذِئْبًا أكَلَتْهُ الذّئَابُ** . وقول ابن دريد :

مَنْ ظَلَم النَّاس تَحامَوْا ظُلمهُ وعزَّ فيهِم جانباهُ واحْتَمى

وَهُم لِمَن لانَ لَهُم جانِبُهُ أظْلمُ من حيَّاتِ أنْباثِ السَّفا

وقال مِسكينٌ الدّارِمِيُّ :

رُبَّ مَهزولٍ سَمينٌ عِرضُهُ وسَمين الجِسمِ مَهْزولُ النَّسَبْ

أي ربَّ مهزول البدن والجسم كريمُ الأب رفيعُ النسب صيّنُ الحسب، وبالعكس . وقال رجل من مَذْحِج :

إنَّ السَّويَّة أنْ إذا اسْتَغْنَيتُمْ[20] وأمِنتُمُ فأنا البَعيد الأجْنَبُ

وإذا تَكون كَريهَةٌ أُدعى لَها وإذا يُحاسُ الحَيسُ يُدعى جُندَبُ

20) في لسان العرب : هَلْ في القَضِيَّةِ أن إذا اسْتَغْنَيتُمُ.

هذا وجَدّكمُ الصَّغارُ بِعَينِهِ لاَ أمَّ لِي إن كان ذاك ولا أبُ !

والمثل هو البيت الوسط . وفي معناه مثل من أمثال النساء يقلن : **الطَّرِيَّةُ لِلهَاتِي، والقَسِيَّةُ لأُخَواتِي** . وقال النابغة :

ولَستَ بِمستبقٍ أخا لا تلُمُّهُ على شَعَثٍ أيُّ الرِّجال المُهذَّب ؟

ومثله قول الآخر :

وإن كُنتَ لم تَصْحبْ سوَى ذي كمالة فأين مِن الاخوانِ مَن هُو كامِلُ ؟

وقولي من قصيدة :

وإذا تَبْتغِي صديقًا بِلا ذا مٍ فَعش مُفرداً عَنِ الخُلاّنِ

وقال أبو عبد الله بن شرَف في معنى بيت النابغة :

ولا تُعاتِب على نَقصِ الطِّباع أخًا فإنَّ بَدر الدُّجى لم يُعط تَكميلا

وقال لَبِيد :

ذهَب الّذينَ يُعاشُ في أكنافِهم وبَقِيتُ في خَلفٍ كَجلدِ الأجْربِ

وقال ابن شرف في معناه :

كَم خانَني الدَّهر في أوفى الورى فمضى به وخلَّف مرذولاً فمرْذُولاَ

وقال الآخر :

ألا إنَّما الدُّنيا غَضارةُ أيْكَةٍ إذا اخْضرَّ مِنها جانبٌ جفَّ جانبُ

الغَضَارة : الطينُ اللاّزِبُ الأخضر، وتطلق أيضا على الخِصْبِ والنِّعمة .

وقال ابن شرف في معنى البيت :

ولَم يزلْ ثَمرُ الدُّنيا لقاطفهِ رطبًا ويبسًا وماجوجًا ومعسولاَ

وقال الآخر :

وإنَّ امرءا قد سار تِسعين حِجَّةً على منهَلٍ مِن وردِهِ لَقَريبُ

وقال الآخر :

وأجرأُ مَن رأيْتُ بظَهرِ غيبٍ على عيبِ الرِّجالِ ذَوُو العُيوبِ

وقال ابن شرف في معناه :

ولم تَجِد قطُّ عيَّابًا ومُفتَخرا إلاَّ على العيب والعَوراءِ مجبولاَ

وقيل للأحنف بن قيس : دُلَّني على رجل كثير العيوب ! فقال : اطلبه عيَّابا فإنَّه لا يعيب الناس إلاَّ بفضل ما فيه ! وقال امرؤ القيس :

وإنَّك لم يفخَر عليكَ كَفاخِرٍ ضَعيفٍ ولم يغلِبكَ مِثلُ مُغلَّبِ

وفي البيت مثلان سيأتيان إن شاء الله تعالى . ومثله قول أبي تمَّام :

وضَعيفَةٍ فإذا أصابتْ قُدرةً قَتَلَتْ : كذلِكَ قُدرةُ الضُّعفاءِ

وقال الآخر :

راحتْ مُشرِّقةً ورُحتُ مُغرِّبًا : شتَّانَ بين مُشرِّقٍ ومُغرِّبِ !

ومثله ما أنشده الأصمعيّ من قول الشاعر :

أذكُرُ مجالِس مِن بني أسَدٍ بَعُدوا فَحنَّ إليهِمُ القَلبُ
الشَّرقُ منزِلُهم ومنزِلُنا غربٌ : وأينَ الشَّرقُ والغَربُ ؟
مِن كلِّ أبيَضَ جلٍّ زينَتِهِ مِسكٌ أحَمُّ وصارمٌ عَضْبُ
ومُدجَّجٍ يُدعى بِشكَّتِهِ[21] وعَقيرةٌ بِفِنائِهِ تَحبُو

وقال أبو تمَّام حبيب بن أوس الطائيّ :

السَّيف أصْدقُ إنْباءً مِن الكُتبِ في حَدِّه الحَدُّ بين الجِدِّ واللَّعِبِ
بيضُ الصَّفائح لا سودُ الصَّحائف في مُتونِهِنَّ جَلاءُ الشَّكِّ والرِّيبِ
والعِلم في شهُبِ الأرْمَاحِ لامِعَةً بينَ الخَميسَينِ لا في السَّبعَة الشُّهب

وقال أيضا :

إذا المرءُ لم يستخلصِ الحزمُ نفسَهُ فذِرْوتُه للحادثاتِ وغاربُهْ
أعاذلتا ما أخْشَنَ اللَّيلَ مركبًا وأخشَنَ مِنه في المُلمَّات راكِبُهْ
دعيني وأهوالَ الزَّمانِ أُفانها فأهْوالُه العُظمى تَليها رغائِبُهْ
فإنَّ الحُسامَ الهُنْدُوانِيَّ إنَّما خُشونتُه ما لَم تُفلَّلْ مضاربُهْ

وقال :

لأمْرٍ عَليهم أن تَتمَّ صُدورُهُ ولَيس عَليهم أن تَتمَّ عَواقِبُه

وقال أيضا :

---

21) في زهر الآداب : (1029:2) ومُدجَّجٍ يَسعَى لِغارَتِهِ.

سَلي هَلْ عَمَرتُ القَفرَ وهْو سباسبٌ وغادَرتُ رَبعي من ركابي سباسِبا
وَغرَّبتُ حتَّى لم أجِد ذكرَ مَشْرِقٍ وشَرَّقْتُ حتَّى قَد نسيتُ المغاربا
خُطوبٌ إذا لاقَيتُهنَّ ردَدْنَني جريحًا كأنّي قَد لقيتُ الكتائبا
ومَن لم يُسلِّم للنَّوائبِ أصبحَتْ خَلائقُه طُـرًّا علـيه نَـوائِبـا
وقَد يكْهَم السَّيفُ المُسمَّى مَنيَّةً وقَد يَرجِعُ المرءُ المُظفَّرُ خائبا
فآفَةُ ذا ألاّ يُصادفَ مَضْرِبًا وآفَةُ ذا ألاّ يُصادفَ ضارِبًا

وقال أيضـا :

كانَت لنا ملعبًا نلهو بِزُخرفِه وقَد يُنفِّسُ عن جِدٍّ الفتى اللَّعبُ
وعاذلٍ هاج لي بالعَذلِ مأربَةً باتَت عليه هموم الصَّدر تصطخِب
لمَّا أطال ارتجال العذلِ قُلت له : الحزمُ يثني خطوبَ الدَّهر لا الخُطبُ

وقـال :

مالي أرَى جَلَبًا فَعمًا ولست أرَى سوقًا ومالي أرى سَوقًا ولا جَلبُ ؟
أرضٌ بها عُشُبٌ جرفٌ وليسَ بِها ماءٌ وأخرَى بِها ماءٌ ولا عُشُبُ

وقال أيضا في [أبي] دلف :

يَرى أقْبحَ الأشياءِ أوْبَةَ آمِلٍ كَسَتْهُ يَدُ المأمولِ حُلَّةَ خائبِ
وأحسنُ مِن نورٍ تُفتِّحه الصَّبا بَياضُ العَطايا في سَوادِ المآرب[22]

وقـال :

ولو كان يفني الشِّعر أفْناه ما قَرتْ حِياضُك مِنه في العصور الذواهبِ
ولكنَّه صَوبُ العُقول إذا انْجلت سحائبُ منه أُعقِبت بسحائب

وقال أيضا :

وما الأسَد الضِّرغامُ يومًا بعاكسٍ صريمته إن أنَّ أو بَصبَصَ الكلبُ

وقال أيضا :

لَو رأى الله أنَّ للشَّيبِ فضلاً جاورته الابرارُ في الخُلد شِيبا

وقال أيضـا :

22) في الديوان (1:212) بَياضُ العَطايا في سَوادِ المَطالِبِ.

فمَضَتْ كُهولُهمْ ودبَّر أمرَهُمُ أحداثُهم تَدبيرَ غَيرِ صَوابِ
لإرقة الحَضَرِ اللَّطِيف غَذتهُم وتَباعَدوا عَن فِطنة الأعرابِ
فإذا كَشفتهمُ وجَدتَ لَديهمُ كَرمَ النفوس وقِلَّة الآدابِ
ليسَ الغَبيُّ بِسيِّدٍ في قومِه لكنَّ سيِّدَ قومه المُتغابي
والسَّهمُ بالرِّيش اللُّؤامِ ولن تَرى بيتًا بِلا عَمدٍ ولا أطْنابِ

وقال أيضـا :

والحرُّ يَسلُبُه جَميلَ عَزائِه ضِيقُ الفِناءِ فكيفَ ضيقُ المَذهبِ ؟

وقال أيضـا :

رُبَّ خَفضٍ تَحتَ السُّرى وغَناءٍ مِن عَناءٍ ونَضرةٍ من شُحوبِ

وقـال :

لَستُ أُدلي بِحُرمةٍ مُستزيدًا في ودادٍ مِنكم ولاَ في نَصيبِ
لا تُصيبُ الصَّديقَ قارعَةُ التَّأْ نِيبِ إلاَّ مِن الصَّديقِ الرَّغِيبِ
غَير أنَّ العَليلَ لَيسَ بمَذمو مٍ عَلى شَرحِ ما بِه للطَّبيبِ
لَو رأينا التَّوكيدَ خُطَّةَ عَجزٍ ما شَفعنا الأذانَ بالتَّثويبِ

وقال أيضا في عُمر بْنِ طَوقٍ :

يُعطي عَطاءَ المُحسن الخَضِلِ النَّدى عَفوا ويَعتذرُ اعتذارَ المُذنِبِ
ومُرحِّبٌ بالزَائرين وبِشرُه يُغنيك عَن أهلٍ لَديه ومَرحبِ

وقـال :

والشَّولُ ما حُلبتْ تَدفَّقَ رِسلُها وتَجفّ دِرَّتُها إذا لم تُحلَبِ

وقـال :

أولى المَديحِ بأنْ يَكون مُهذَّبًا ما كان مِنه في أغرَّ مُهذَّبِ

وقال أيضا يخاطب محمَّد بن الهيثم :

كَتبتُ ولو قَدرتُ هَوًى وشَوقًا لكُنتُ إليكَ سطرًا في الكِتابِ

وقال أيضـا :

نِعَمٌ إذا رعيتْ بِشُكرٍ لَم تزل نُعمى وإن لم تُرعَ فَهْي مصائبُ

وقال أيضا :

والحظُّ يُعطاهُ غَيرُ طالبِه ويحرزُ الدُّرَّ غَيرُ مُحتلِبهْ

وقال أيضا :

فاض اللّئامُ وغاضتِ الأحسابُ واجْتُثَّت العَلياءُ والآدابُ

فكأنَّ يومَ البَعثِ فاجأهُم فلا أنساب بينهُم ولاَ أسْبابُ

وقال :

ما إن سَمعتُ ولا أراني سامعًا أبدا بِصحراء عَليها بابُ

مَن كان مَفقودَ الحَياء فوجْهُه مِن غَيرِ بوّابٍ لَه بوّابُ

ما زالَ وسْواسي لِعَقْلي خادعًا حتّى رجا مَطرا ولَيسَ سَحابُ

ما كُنتُ أدري لا دريتُ بِأنَّهُ يَجري بِأفنِية البُيوتِ سَرابُ

وقال أيضا يهجو يوسف السرّاج :

سمِعتُ بكلّ داهيةٍ نَآدٍ ولَم أسْمَع بِسرّاج أديبِ

أمَا لَوْ أنَّ جَهْلَكَ عادَ عِلمًا إذاً لنَفَذتَ في عِلمِ الغُيوبِ

ومالَكَ بالغَريبِ يَدٌ ولَكِن تَعاطيكَ الغَريبَ مِن الغَريبِ

فَلو نُشِرِ المَقابِرُ عَن زُهَيرٍ لَصرّحِ بالعَويلِ وبالنّحيبِ

مَتى كانَت قَوافيه عِيالاً عَلى تَفسيرِ بُقْراطَ الطّبِيبِ ؟

وقال أيضا :

هُو الدّهر لا يُشوِي وهُنَّ المصائبُ وأكثر آمالِ الرّجالِ كَواذِبُ

وقال :

وقلت : أخِي قالوا : أخٌ ذُو قَرابةٍ فَقلتُ لَهم : إنَّ الشُّكول أقاربُ

نَسيبي في عزمي ورأيي ومَذهبي وإن باعدتنا في الأصول المناسِبُ

وقال :

على أنها الأيامُ قَد صرنَ كلُّها عجائبَ حتّى ليس فيها عجائبُ

وقال أيضا :

إن ريب الزمان يحسُنُ أنْ يُهدي الرّزايا الى ذَوِي الأحْساب

فلِهَذا يجِفُ بَعد اخْضِرارٍ   قَبل روضِ الوهَادِ روضُ الرَّوابي

وقال أيضــا :

ومَن يَكُن طيِّبًا فَلا عَجَبٌ   أن يأكُل النَّاسُ مِن أطايِبهِ

وقال أيضـا :

غَيرُ مُستَأْنِسٍ بشَيْءٍ إذا غِبت   سِوَى ذِكْرِكَ الَّذِي لا يَغيبُ

أنْتَ دونَ الجُلاَّس أُنْسِي وإن كنت   بعيدًا فَالأُنْسُ مِنْكَ قَريبُ

وقال أيضــا :

لعَمرٌ مَع الرَّمْضاءِ والنَّارُ تلتظي   أرقُّ وأحفى منكَ في ساعة الكَربِ

مَتى أبتغي النصف من قلب صاحبٍ   إذا لم يكن قلبي شفيقًا على قلب

وقال أيضا يعاتب أبا دلف :

أقمت شهورا في فنائك خَمسةً   لَقًى حيث لا تَهْمِي عليَّ جنوبُ

فإن نِلت ما أمّلتُ فيكَ فإنَّني   جديــرٌ وإلاَّ فالرَّحــيلُ قريبُ

وقال أيضــا :

يأيُّها الـملكُ النَّـائي برؤيــته   وجـــوده لمـــراعي جوده كثبُ

ليسَ الحِجابُ بمُقصٍ عنكَ لي أملاً   إنَّ السَّماء تُرَجَّى حِين تُحتجَبُ

وقال أيضـــا :

لعمرُك لليأسُ غَيرُ المُـريبِ   خَيــرٌ من الطَّمَـعِ الكــاذبِ

ولَلــرَّيثُ تَحفِــزُه بالنَّجـــاحِ   خَيــرٌ مِـــن الأَمَلِ الخَــائبِ

وقال أيضا يصف غيثًا :

لم أرَ عيــرا جمَّةَ الـــدُّؤُوبِ   تُـــواصلُ التَّهجِيــرُ بالتّــأويبِ

أبـعدُ مِن أيْنٍ ومِنْ لُغُوبِ   مِنها غَداة الشَّارِ والمَهضوبِ

نجائبًــا ولَسنَ مِـــن نجــيبِ   شَبـائِهُ الأعْنــاقِ بالعُجُــوبِ

كالتَّليلِ أوْ كالتُّلوبِ أو كالنُّوبِ   مُنقـــادةً لعــــارضٍ غريبِ

كالشيِّعةِ التفتَتْ علَى النَّقِيبِ   آخِــــذةً بطــــاعةِ الجنــــوبِ

ناقضَةً لِمِــــرَرِ الخُطُــــوبِ   تَكُفُّ غَربَ الزَّمانِ العَصِيبِ

مَحْوَ اسْتِلامِ الرُّكْنِ لِلذُّنُوبِ — محتَاعةً لِلأزْمَةِ الَلزُوبِ
لمَّا دَنت للأرضِ مِن قَرِيبٍ — تَشَوَّفتْ لِوبْلِها السَّكُوبِ
تَشَوُّفَ المَرِيضِ لِلطَّبِيبِ — وطَرِبَ المُحِبِّ لِلحَبِيبِ
وفَرحَةَ الأدِيبِ بالأديبِ — وخَيَّمَتْ صادقَةَ الشُّؤبُوبِ
وقام فِيها الرَّعدُ كالخَطِيبِ — وحنَّتِ الرِّيحُ حَنِينَ النِّيبِ
فالشَّمسُ ذاتُ حاجِبٍ مَحجُوبِ — قَد أغربَتْ مِن غَيرِ مَا غُروبِ
والأرْضُ في رِدائِهَا القَشِيبِ — في زاهِرٍ مِن نَبتِها رطِيبِ
بَعد اشْتِهابِ الثَّلجِ والضَّرِيبِ — كالكَهْلِ بعْدَ السِّنِّ والتَّحْنِيبِ
تَبدَّلَ الشَّبابَ بالمَشِيبِ — كَم أنَّسَتْ مِن جانبٍ غَرِيبِ
وغَلَّبَت مِن الثَّرى المَغْلُوبِ — ونَفَّستْ مِن بارضٍ مَكرُوبِ
وسكَّنتْ مِن نافِرِ الجُبُوبِ — وأقْنَعتْ مِن بَلَدٍ رغِيبِ
يحْفَظُ عَهدَ الغَيثِ بالمَغِيبِ — لَذيذةُ الرِّيقِ والصَّبِيبِ

كَأنَّهَا تَهْفِي عَلى القُلُوبِ

وتقدَّم استيفاء هذا المعنى في الباب الأول .

وقال أيضا :

الصَّبرُ كاسٍ وبَطنُ الكَفِّ عَارِيَةٌ — والعَقلُ عارٍ إذا لم يُكْسَ بالنَّشَبِ
ما أضيعَ العقلَ إن لم يرعَ ضَيعَتَهُ — وفْرٌ وأيُّ رحًى دارت بِلا قُطبِ ؟

وقال :

بأيٍّ وخدِ قِلاصٍ واجتِنابِ فَلاً — إدراك رزقٍ إذا ما كَانَ في الهَربِ

وقال :

إذا قَصَدتُ لِشاوٍ خِلتُ أنِّيَ قَد — أدركتُهُ أدركتْنِي حِرفَةُ الأدبِ

وإنما قال ذلك لِما يزعم من أنّ حرفة الأدب مشؤومة حليفة الفقر، حتّى قال قائلهم :

الضَّبُّ والنُّونُ قَد يُرجى اجْتماعُهما — ولا يُرجَّى اجتماعُ المَالِ والأدبِ

وستاتي في هذا الباب حكايات ظريفة في هذا المعنى للأدباء.

وقال أيضا :

إنّ الأسودَ أسودَ الغابِ همّتُها يومَ الكريهةِ في المَسلوبِ لا السَّلَبِ

وكانوا يرون أنّ الفضيلة عند اللقاء إنّما هي في الاهتمام بضرب الهام، دون جمع الحطام .

ومنه قول عنترة :

هلاّ سألتِ القومَ يا ابنةَ مَعبدٍ إن كُنتِ جاهلةً بِما لَم تَعلمِ

إذ لا أزالُ على رحالةِ سابحٍ نَهدٍ تَعاورَهُ الكُماةُ مُعلَّمِ

طَورا يُعرَّضُ لِلطِّعانِ وتارةً يأوي الى حَصد القِسيِّ عَرمرَمِ

يُخْبركِ مَن شَهد الوقيعةَ أنّني أغْشَى الوغَى وأعِفُّ عِند المَغْنَمِ

وهذا المعنى هو الذي نبّه عليه الأوّل وأوضحه . وقد أكثر الشعراء من هذا المعنى . ولما سيق الى المعتصم المازيارُ أسيرا فأمر بصلبه، قال له : مُنّ عَليَّ ولك أموالٌ جليلةُ الخطر! فأبى، وأنشد :

إنّ الأسُودَ أسُود الغَاب هِمّتها يَومَ الكَريهَة في المَسلوبِ لا السَّلبِ

وقال أيضـا :

إذا ما شُبْتَ حُسْنَ الدّين مِنْكَ بِصَالِحِ الأدَبِ

فَمَنْ شِئْتَ كُنْ فَلَقَدْ فلجت بِأكْرَمِ النَّسَبِ

فَنَفْسكُ قَطُّ اصلحْهَا ودَعْنِي مِنْ قَدِيمِ أبِ

أصله قوله تعالى : **إنّ أكْرمَكُمْ عِندَ اللّهِ أتْقاكُمْ** . وقال أبو الطيّب :

ومَن سَرَّ أهلَ الأرضِ ثمّ بَكى أسىً بَكى بِعيونٍ سرّها وقُلُوبِ

وقـال :

وقد فارقَ النّاس الأحبّة قَبلنا وأعْيى دَواءُ المَوت كلَّ طبيبِ

سُبِقْنا الى الدُنيا فَلو عاشَ أهلُها مُنعنا بِها مِن جَيئةٍ وذهوبِ

تملّكها الآتي تملُّك سالبٍ وفارقَها المَاضي فِراقَ سَلِيبِ

ولا فَضلَ فِيها لِلشّجاعة والنّدَى وصَبْرِ الفَتى لَولاَ لِقاءُ شَعوبِ

وأوفَى حَياةِ الغَابرينَ لصاحبٍ حَياةُ امرىءٍ خانتهُ بَعد مَشيبِ

وقـــال :

وما كُلُّ وجْهٍ أبيَضٍ بِمُباركٍ ولا كُلُّ جَفنٍ ضَيّقٍ بِنَجِيبِ

وقـال :

كأنَّ الرَّدى عادٍ على كُلِّ ماجدٍ إذا لَم يُعوّذْ مجدَهُ بِعُيوبِ

ولولا أياديِ الدّهر في الجَمعِ بيننا غَفلنا فلم نَشْعر لَه بذنـوبِ

وللتَّركُ للاحْسانِ خَيرٌ لِمُحْسِنٍ إذا جعل الاحْسانَ غَيرَ ربِيبِ

وقـــال :

فربَّ كئيبٍ ليس تَندى جُفونه وربَّ كثير الدّمعِ غَيرُ كئِيبِ

وقـــال :

إذا استقبَلَت نَفسُ الكَريمِ مُصابها بِخُبثٍ ثَنَت فاستَدبَرتهُ بطيب

وللواجِـد المَكروب مِـن زفَـراتِـه سُكُونُ عَزاءٍ أو سُكُونُ لُغُوبِ

وقـــال :

وفي تَعَب مَن يَحْسُدُ الشَّمس نورها ويجهَـد أن يأتي لهـا بضريبِ

وقال أيضا يمدح سيف الدولة :

وكَيف عَرفنا رسم من لم يَدع لنا فُؤدا لِعرفان الرُسوم ولا لُبًّا ؟

نزلنا عَن الأكوارِ نمشي كَـرامةً لِمن بانَ عَنه أن نُلمَّ به ركبا

وتمثّل به أحد الفضلاء حيث أقبل على المدينة المشرفّة، على ساكنها أفضل الصلاة وأزكى السلام !

وقـال :

ومن صَحب الدُنيا طويلاً تقلَّبتْ عَلى عينه حتَّى يَرى صدقها كِذبا

وقـــال :

ومَن تَكُن الأسْدُ الضَّواري جُدودَهُ يَكن لَيلُه صُبحًا ومَطعمُه غَصبا

ولست أُبالي بَعد إدراكيَ العُلاَ أكان تُراثًا ما تناولت أم كَسبا

وقـــال :

تُهاب سُيوفُ الهِند وهْي حدائدُ فكَيفَ إذا كانـَت نِزاريَّةً عُرْبَا ؟
ويُرهَب نابُ اللَّيث والَّليثُ وحدهُ فكَيف إذا كان الَّليوثُ لَه صَحبا ؟
ويُخشى عُباب البَحر وهْو مكانَهُ فكَيف بِمن يغْشَى البِلاد إذا عبَّا ؟

وقـــال :

أرى كلـَّنا يَبغي الحَياة لِنفسِه حريصًا عَليها مُستهامًا بها صبًّا
فحبُّ الجبانِ النـَّفسَ أوردَه التـُّقى وحبُّ الشُّجاع النـَّفس أورده الحربا
ويختلف الرِّزقان والفِعلُ واحدٌ إلى أن تَرى إحسان هَذا لذا ذنبا

وقال أيضـــا :

وإن كان ذنبي كلَّ ذنبٍ فإنـَّه محا الذَّنبَ كلَّ المحوِ مَن جاء تائبا

وقال أيضا يستعطف سيف الدولة على بني كلاب :

تَرفـَّقْ أيـُّها المَـولى عَليهـم فإنَّ الرِّفـق بالجـاني عِتـابُ
وإنـَّهم عَبيـدُك حيثُ كانـُوا إذا تَدعـو لِنائـبَةٍ أجابُـوا

وكأنـَّه من قول ابن [أبي] عُيينة :

جلبنا الخَيل مِن بغدادَ شُعثًا عَرائسَ تَحملُ الأسْدَ الغِضابا
بكُلِّ فتـًى أغـرَّ مُهلـَّبيٍّ تخالُ بضَوءِ صُورتِهِ شِهابا
ومِن قَحطانَ كلَّ أخي حِفَاظٍ إذا يُـدعى لِنائـبةٍ أجَابَـا

وقوله أيضـــا :

بأخـوالي وأعمـامي أقـَامَتْ قـُريشٌ مُلكَهـا وبِهـا تـُهـابُ
مَـتـَى مَاأدعُ أخْواليِ لِحَـربٍ وأعْمـامي لِنائِـبَةٍ أجَابـُوا

وقـــال :

وعينُ المُخطِئين هُـمْ ولَيسُوا بأوَّل معشَرٍ خَطِئـوا فَتَابـُوا
وكَـم ذنبٍ مُولـِّـدهُ دلالٌ وكَم بُعـدٍ مُولـِّدُهُ اقـْتِـرَابُ
وجُـرمٍ جرَّهُ سُفـَهَـاءُ قَـومٍ وحلَّ بِغَيرِ جارمِهِ العَذابُ

وقـــال :

ومَن في كفّهِ مِنهُم قَنَـاةٌ ... كَمَنْ في كَفّهِ مِنهُم خِضَابُ

وهو معنى قول الآخر :

فَلا يَمْنَعْكَ مِن أربٍ لِحاهُمْ ... سَواءٌ ذُو العِمامَةِ والخِمـارِ

وقال أيضـا :

وإن تَكُن تَغلِب الغَلباءُ عُنصرها ... فإنّ في الخَمر معنًى لَيس في العِنبِ

وقـال :

فَلا تَنلكَ اللّيالي إنّ أَيْدِيَها ... إذا ضربنَ كَسرنَ النَّبعَ بالغَربِ

ولا يُعنّ عَـدُوّاً أنت قاهرُه ... فإنّهنّ يصِدنَ الصَّقْرَ بالخَربِ

وإن سَرَرن بِمحبوبٍ فجعنَ بِهِ ... وقَد أتينكَ في الحالَين بالعَجبِ

وربّما احتَسَب الاحسانُ غايتَها ... وفاجأتْهُ بأمرٍ غَيرِ مُحتَسبِ

وما قَضى أحدٌ مِنها لُبانَته ... ولا انتَهى أربٌ إلاّ الى أرَبِ

تخالَفَ النّاسُ حتّى لا اتّفاق لَهم ... إلاّ على شَجَبٍ والخُلف في الشجَبِ

فقيلَ تخلُصُ نفْسُ المَرءِ سالمةً ... وقِيلَ تُشركُ جِسمَ المرءِ في العَطب

ومَن تَفكّر في الدُنيا ومُهْجَتِه ... أقامهُ الفكرُ بين العجزِ والتّعبِ

وقال أيضـــا :

ومَن ركِب الثّورَ بَعد الجَوادِ ... أنْكَـــــر أظلافَهُ والغَـــبَبْ

وقـال :

ويستَنصِرَانِ الّذِي يَعْبُدانِ ... وعِندهُمـا أنّهُ قَـد صُلِبْ

ويَدفَـــعُ مانـــالَه عنهمَـــا ... فَيا لَلرّجالِ لِهَذا العَجبْ

وقال أيضــا :

لأيّ صُروفِ الدّهرِ فِيهِ نُعاتِبُ ... وأيّ رزاياهُ بِوِتْرٍ نُطالِبُ ؟

وقال أيضـا :

فالمَوتُ أعْذرُلِي والصَّبْرُ أجْمل بي ... والبَرُّ أوسَعُ والدُنيا لِمَن غَلَبا

وقوله : والدُّنْيَا لِمَن غَلَبَا هو مثلٌ مشهور، ووقع في قول الآخر : والمُلْكُ بَعْدَ أبِي لَيْلَى لِمَن غَلَبَا . وأنشد ابن الخطيب لبعض الأعراب :

مَنْ كانَ أبصَرَ شيئًا أو رأى عجبًا فإنَّني عِشتُ دهرًا لا أرى عجبا
النَّاس كالنَّاس والأيَّامُ واحِدةٌ والدَّهرُ كالدَّهر والدُّنيا لِمن غَلَبا

فلا أدري أوَارَدَهُ فيه أبو الطيِّب أم أخذه منه، وهو في بيت الأعرابيِّ أقعد، وبسياقِه أنسب . وتمام البيت المذكور ما أنشده المصعب الزبيري في أنسَاب قُريش لبعض الشعراء في معاوية بن يزيد بن معاوية وهو :

إنِّي أرَى فِتنةً تَغلي مَراجِلُها فالمُلك بَعد أبي لَيلى لِمن غَلبا

وأراد بأبي ليلى معاوية بن يزيد المذكور، وفيه يقول عبد الله بن هَمَّامٍ السَّلُوليُّ :

تَلَقَّفها يَزيدُ عَن أبِيهِ فخُذْها يا مُعاوِيَ عَن يَزيدا
فإنْ دُنياكُمُ لَكُمُ اطمأنَّتْ فَأَوْلُوا أهْلَها خُلُقًا سَديدًا

وقال أيضا :

أظمتْنيَ الدُّنيا فَلمَّا جِئتُها مُستسقيًا مَطرتْ عليَّ مَصائبَا

وقال في وصف علي بن منصور :

كالبَدر مِن حَيثُ التفتَّ وجَدتَه يُهدي إلى عَينيكَ نُورًا ثاقبًا
كالبَحر يقْذفُ لِلقَريبِ جَواهرًا جُودا ويَبعَثُ لِلبَعيدِ سَحائبا
كالشَّمس في كَبد السَّماء وضَوءُها يَغشَى البِلاد مشارقًا ومغاربًا

وقال أيضا :

ليس بالمُنكَر إن برَّزْتَ سَبقًا غَيرُ مدفوعٍ عَن السَّبقِ العِرابُ

وقال أيضا :

إذا لَم تَكُن نفسُ النَّسيب كأصله فماذا الَّذي تُغني كِرامُ المَناصب ؟
وما قَرُبَت أشْباهُ قَومٍ أباعدٍ ولا بَعُدت أشباهُ قَومٍ أقاربِ
إذا عَلويٌّ لم يَكن مِثلَ طاهرٍ فما هو إلاَّ حجَّةٌ للنَّـواصبِ

وقال أيضا :

ما أوجُه الحَضَرِ المُستحسَنات بِه كأوجُه البَدويَّاتِ الرَّعَابيبِ
حُسن الحضارةِ مَجلوبٌ بِتَطْرِيةٍ وفي البَداوةِ حُسنٌ غَير مِجلوبِ

وقـال :

أفْدي ظِباءَ فَلاةٍ ما عَرفنَ بِها مَضغَ الكَلامِ ولا صبغَ الحواجِيبِ
ولا بَرزنَ مِن الحمَّامِ مائِلَةً أوراكُهُنَّ صَقيلاتِ العَراقِيبِ

وقـال :

فَما الحَداثَةُ مِن حِلمٍ بمانعَةٍ قَد يُوجد الحِلمُ في الشُبَّان والشِّيب

وقال أيضـا :

وكم لظَلام اللَّيل عِندكَ مِن يدٍ تُخبِّر أنَّ المانَويَّة تكذِبُ
وقاكَ ردَى الأعداءِ تَسري إليهمُ وزارك فيه ذو الدَّلالِ المُحجَّبُ

وقـال :

وما الخَيلُ إلاَّ كالصَّديقِ قَليلةٌ وإن كثُرت في عَين مَن لايُجرِّبُ
إذا لم تُشاهِد غير حُسن شِياتِها وأعضائها فالْحُسْنُ عَنكَ مُغيَّبُ
لحا اللَّهُ ذي الدُّنيا مُناخًا لراكب فكلُّ بَعيد الهمِّ فيها مُعذَّبُ
ألا ليتَ شعري هَل أقُول قَصيدةً فَلا أشتكي فِيها ولا أتعتَّبُ

وقال يخاطب كافورا :

وهَبتَ على مِقدار كفَّيْ زمانِنا ونَفسي عَلى مِقدار كفَّيك تَطلُب

وقـال :

يُضاحكُ في ذَا العِيدِ كلٌّ حبيبَه حِذائي وأبكي مَن أحِبُّ وأنْدبُ
أحِنُّ إلى أهلي وأهوى لِقاءهُم وأين مِن المُشتاقِ عَنقاءُ مُغربُ ؟

وقـال :

وكلُّ امرىءٍ يولي الجَميل مُحبَّبٌ وكلُّ مكانٍ يُنبتُ العِزَّ طَيِّبُ

وقـال :

وأظلَمُ أهلِ الظُّلمِ مَن بَات حاسدًا لِمن بات في نَعمائِه يتقلَّبُ

قال صاحب الرسالة الحِكْمِيَّة، وهو قول أرسطاطاليس : أَقْبَحُ الظُّلْمِ حَسَدُكَ لِعَبْدِكَ ومَنْ تُنْعِمُ عَلَيهِ . قلت : وهو غلط . إن كانت رواية هذه الحكمة هكذا، فإنَّ أبا الطّيب إنَّما أراد عكسها، وهو أنَّ أقبح الظلم أن يَحْسُدَكَ من تُنْعِمُ عليه وتُحسِنُ إليه بدليل سياق كلامه .

وقـــال :

وقَد يَترُكُ النَّفس التي لا تَهابُه ويخْترِم النَّفس الَّتي تتَهَيَّبُ

وقال أيضـا :

وما العِشقُ إلاَّ غِرَّةٌ وطماعةٌ يُعرِّضُ كلٌّ نَفسَهُ فَتُصابُ

وقـــال :

أعزُّ مكانٍ في الدُّنا سَرجُ سابحٍ وخير جليسٍ في الزَّمان كِتابُ

وقال يخاطب كافورا :

وهل نافِعي أن تُرفع الحُجبُ بيننا ودُون الَّذي أمَّلتُ مِنكَ حِجابُ ؟

وقـــال :

وفي النَّفس حاجاتٌ وفيك فطانةٌ سكوتي جوابٌ عِندها وخطابُ

وما أنا بالباغي على الحُبِّ رِشوةً ضَعيفٌ هَوًى يُبغى عَليه ثواب

وقال يخاطبه :

إذا نِلتُ منكَ الودَّ فالمالُ هيِّنٌ وكلُّ الَّذي فوقَ التُّرابِ تُرابُ

وينشد العارفون ـ رضوان الله عليهم ـ والخطاب للملك الحق هكذا :

فَليتَكَ تَحلو والحَياة مريرةٌ وليتَكَ ترضَى والأنَامُ غِضابُ !

ولَيت الَّذي بيني وبينَكَ عامرٌ وبيني وبين العَالمِين خَرابُ !

إذا صحَّ مِنكَ الودُّ فالكُلُّ هيِّنٌ وكلُّ الَّذي فوق التُّراب تُرابُ

وأذكرني هذا المعنى حكاية عن الأصمعيّ قال : بينما أنا أسير في طريق اليمن إذا أنا بغلام واقف في الطريق في أُذنيه قُرطَان، في كلّ قُرطٍ جَوهرةٌ يُضيءُ وجْهُه من ضوء الجوهرة، وهو يمجّد ربّه بأبيات من الشعر وهي :

يا فاطِرَ الخَلق البَديعِ وكافلاً رزقَ الجَميع سحابُ جودِك هاطلُ
يا مُسبِغَ البِرِّ الجَزيلِ ومُسبِلَ السِّترِ الجميلِ عَميمُ طَولِكَ طائلُ
يا عالمَ السِّرِّ الخفيِّ ومُنجِزَ الوَعد الوفيِّ قضاءُ حُكمِك عادلُ
عَظُمَتْ صفاتُك يا عَظيمُ فجلَّ أنْ يُحصي الثَّناءَ عَليكَ فيها قَائِلُ
الذَّنبُ أنت له بمنِّكَ غَافِرٌ ولِتوبَة العاصي بِحلمِكَ قابِلُ
ربٌّ يَبرُّ العالمينَ فَبِرُّهُ ونَوالُه أبدًا إليهِمُ واصلُ
تَعصيه وهْو يَسوقُ نَحوكَ دائمًا مالا تَكونُ لِبعضِه تستَأهِلُ
مُتصدِّقٌ أبدا وأنت لِجودهِ بقبائح العِصيان مِنك تُقابِلُ
وإذا دجَى لَيلُ الخُطوبِ وأظلمَت سُبلُ الخَلاصِ وخاب فيه الآمِلُ
وأيِستَ من وجه النَّجاة فما لَها سببٌ وما يدنو بِها مُتَناوِلُ
يأتِيكَ مِن ألطافِه الفرجُ الَّذي لَم تَحتسِبه وأنت عَنه غَافلُ
يا موجِد الأشياء مَن ألقي إلى أبْواب غَيركَ فَهو غِرٌّ جاهِلُ
ومَن استراح بغَير ذكركَ أو رجا أحدا سواكَ فَذاكَ ظِلٌّ زائِلُ
رأيٌ يُلمُّ إذا عَرته مُلمَّةٌ بِسوى جنابِكَ فَهْوَ رأيٌ فائِلُ
عملٌ أُريدَ به سواكَ فإنَّهُ عملٌ وإن زعمَ المُرائي باطِلُ
وإذا رَضِيتَ فكُلُّ شَيءٍ هيِّنٌ وإذا حصلتَ فكُلُّ شَيءٍ حاصِلُ
أنا عَبدُ سُوءٍ آبقٌ كَلٌّ عَلى مَولاهُ أوزارَ الكَبائِر حامِلُ
قَد أثْقَلَت ظَهرِي الذُّنوبُ وسوَّدت صُحُفي العُيوبُ وسِترُ عَفوك شاملُ
ها قد أتيتُك حُسنُ ظنِّيَ شافعٌ ووسائلي نَدمٌ ودمعٌ سائلُ
فاغفِر لعَبدكَ ما مضَى وارزقهُ تَو فيقًا لِما تَرضى فَفضلُك كاملُ
فافعَل به ما أنتَ أهلُ جَميلِهِ والظَّنُّ كلُّ الظَّنِّ أنَّك فاعلُ

قال : فدنوت منه وسلّمت عليه، فقال : ما أنا برادٍّ عليك حتى تُؤَدّي من حقّي الذي يجب عليك . قلت : وما حقّك ؟ قال : أنا غلام على دين إبراهيم الخليل، عليه السلام ! لا أتغدّى كلَّ يوم ولا أتعشّى حتّى أسير المِيل والمِيلَيْن في طلب الضيف . فأجبته

فرحَّب بي، وسرت معه حتَّى وافينا الخيمة، فصاح : يا أُخْتَاه ! فأجابته جارية من الخيمة : يا لَبَّيْكَاه ! فقال : قومي الى ضيفنا ! فقالت الجارية : حتَّى أبدأ بشكر المولى الذي ساقه إلينا . فصلَّت ركعتيْن شكرا لله تعالى . قال : فأدخلني الشابُ الخيمة وأجلسني وأخذ شفرة فقام الى عَنَاقٍ فَذَبَحَها . قال : فلمَّا جلست في الخيمة نظرت الى الجارية، فإذا هي أحسن الناس وجهًا . فكنت أسارقها النظر ثمَّ فَطِنَتْ لي فقالت لي : مَهْ ! أما علمت أنَّه نُقِلَ عن صاحب طَيْبَةَ عليه الصلاة والسلام أنَّه قال : زِنَى العَيْنَيْنِ النَّظَرُ.أمَا إنّي ما أردت بهذا أن أُوَبِّخك، ولكني أردت أن أُؤَدِّبَك لئلاَّ تعود الى مثل هذا . فلمَّا كان النوم بتُّ أنا والغلام خارج الخيمة، وباتت الجارية داخلها . فكنت أسمع دَويَّ القرآن الى السَّحَرِ بأحسنِ صوت وأرقّه . ثمَّ سمعت أبياتا من الشعر بأعذب لفظ وأشجى نغمة، وهي :

أبَى الحَبُّ أن يخفى وكم قد كتمته   فأصبح عِندي قَد أناخ وطنَّبَا
إذا اشتدَّ شَوقي هام قَلبي بِذكرهِ   وإن رمت قربًا من حبيبي تَقَرَّبَا
ويبدو فأفنى ثمَّ أحيا بِهِ لَهُ   ويُسعدُني حتَّى ألذَّ وأطْربَا

فلما أصبحت قلت للغلام : صوتَ مَن سَمِعْت ؟ قال : صوت أختي، وذلك دأبُها كلَّ ليلة . فقلت : أنت أحقّ بهذا منها، إذ أنت رجلٌ وهي امرأة . فتبسَّم ثمَّ قال : أما علمت أنَّه مُوفَّقٌ ومخذول، ومُقَرَّبٌ ومُبْعَد ؟ فودَّعتهما وانصرفت . ولا يخفى أنَّ محلّ الاستشهاد قوله :

وإذا رضِيتَ فكلُّ شيءٍ هيِّنٌ   وإذا حَصَلَت فكُلُّ شيءٍ حاصِلُ

وهذا الشعر الأخير يتمثَّل به الصوفيةُ كثيرا . وقال أيضا :

ومـا يَشُـقُّ على الـكَلبِ   أن يكُـونَ ابـنَ كَلْـبَه

وقال أيضـًا :

لابُـدَّ للانسان مِـن ضَجعَةٍ   لا تَقلِبُ المُضجَعَ عَن جَنبِهِ
يَنسَى بِهَا ما مرَّ مِن عُجبِهِ   وما أذاقَ المَوتُ مِـن كَـربِهِ
نَـحنُ بنُـو الموتَـى فما بالُنـا   نَـعافُ مالاَبُدَّ مِن شُـربِهِ ؟

تَبخَلُ أيدينا بأرْواحِنَا عَلى زمانٍ هِيَ مِن كَسبِهِ
فَهَذهِ الأرواحُ مِن جوِّهِ وهَذِهِ الأجْسامُ مِن تُربِهِ
لَو فكَّر العَاشِقُ في مُنتهَى حُسنِ الّذي يَسبِيه لَم يَسبِهِ

وهو معنى قول أرسطاطاليس : النَّظَرُ في عواقب الأشياء يُزهِّدُ في حقائقها، والعِشقُ عَمى النفسِ عن دَرَكِ رؤية المعشوق . والذي قبله هو معنى قوله أيضا : اللطائفُ سَمَاويَّة، والكثائف أرضِيَّة، وكلّ عنصرٍ عائدٌ الى عنصره الأوّل.

وقـال :

يَموتُ راعي الضَأنِ في جهلِه مَوتَةَ جالِينُوسَ في طِبِّه

ونحوه قول بعضهم في ابن سيناء :

وكان ابْنُ سِينا يُداوي الرِّجالَ وفي السِّجنِ ماتَ أخسَّ المَماتْ
فَلم يَشفِ ما قالهُ في الشّفَا ولَم يُنجِ ما قالهُ بالنّجَاتْ

وقـال :

وغَايةُ المُفرِط في سِلْمِه كغايَةِ المُفْرِطِ فِي حَربِهِ

وهو قريب من قول أرِسْطَاطَالِيسَ : آخرُ إفْرَاطِ التَّوقّي أوّلُ مَواردِ الحِذرِ.

وقـال :

يَدخُل صَبْرُ المرء في مَدحِهِ ويَدخُل الاشْفاق في ثَلْبِهِ
ولم أقُل مِثْلُكَ أعْنِي بِهِ سِواكَ يا فرداً بِلا مُشبِهِ

وقال أيضـا :

إذا اكتَسَب الانسانُ مِن هَنِ عِرسِهِ فَيا لُؤمَ إنسانٍ ويا لُؤمَ مَكسَبِ !

وقال الحماسيّ سَعْدُ بْنُ نَاشِب :

سَأغْسِلُ عنّي العَار بالسَّيف جالبًا عليّ قَضاء اللّهِ ما كان جالِبا
وأذهَلُ عَن داري وأجعَلُ هَدمَهَا لِعرضيَ مِن باقِي المذلّة حاجِبا
ويصغُرُ في عيني تلادي إذا انثنت يميني بإدراك الّذي كُنت طالبا

وقـــال :.

إذا همَّ ألقَى بينَ عَينيهِ عَزمَهُ ونَكّبَ عَن ذِكرِ العَواقِبِ جانبَا

ولم يستَشِرِ في أمرهِ غَيرَ نفسِهِ ولَم يَرضَ إلاَّ قائمَ السَّيفِ صاحبا

وقال موسى بن جابر :

لا أشتهي ياقَـومُ إلاَّ كارهًـا باب الأمِير ولا دِفاعَ الحَاجِبِ

ومِـن الرِّجـال أسنَّةٌ مَـذرُوبَةٌ ومُزنـَّدونَ شُهودُهُـم كالغـائِبِ

مِنهم لُيوثٌ ما تُرامُ وبَعضُهم ممَّا قَمشْتَ وضمَّ حبلُ الحاطبِ

وقال بعض بني مازن :

وما قَتْلُ جارٍ غائبٍ عَن نصيرهِ لطـالبِ أوتـارٍ بِـمسلكِ مَـطلبِ

وقـال :

وقَد ذُقتمونـا مرّةً بعـد مرّةٍ وعِلمُ بيانِ الأمرِ عِنـد المجرِّبِ

وقال القتّالُ الكِلابي :

نُعرِّضُ للطّعـان إذا التقيْنـا وجوهًـا لا تُعـرَّضُ للسِّبَـابِ

ومثله قول الهمداني :

لَقَد عَلمتْ نِسوانُ هَمدانَ أنَّني لهُنَّ غَداةَ الرَّوعِ غَيرُ خَذُول

وأبذُلُ في الهَيجاء وجْهي وأنّني لَه في سِوى الهَيجاء غيرُ بذُولِ

ومن هذا قول أبي مَخزوم النَّهشَلِيّ الدَّارمِيِ، من شعراء الحماسة :

إنّا لنُرخِصُ يومَ الرَّوعِ أنفُسَنا ولَو نُسامُ بِها في الأمنِ أغلَينا

وقال بعض الفَقْعَسيّين :

رأيتُ بني عمّي الأُلَى يخذُلُونَني علَى حَدَثانِ الدّهر إذ يتقلّبُ

فهلاّ أعدّوني لمِثلي تفاقَـدوا وفي الأرضِ مبثوثًا شُجاعٌ وعقربُ

وقـال :

كأنّك لَم تَسبَق مِن الّليل لَيلَةً إذا أنتَ أدركتَ الّذي كُنتَ تَطلُبُ

وقال ربيعَةُ بْنُ مَقْرُوم الضّبّيُّ :

إذا ما المَرءُ لَم يُحبِبكَ إلاّ مُغالِبَ نَفسِه سئِمَ الغِلابَا
ومَن لا يُعط إلاّ في عِتابٍ يُخافُ يَدعْ بِه النّاسُ العِتابا
أخوكَ أخوكَ مَن يَدنو وترجُو مَودّتَه وإن دُعِيَ اسْتَجابا
إذا حاربتَ حاربَ مَن تُعادِي وزَاد سِلاحُه مِنكَ اقترابَا
يُواسي في كَريهَتِهِ أخَاهُ إذا ما مُضْلِعُ الحَدَثَانِ نَابَا

وقال قُراد بن عتّاب الحماسي أيضا[23] :

إذا المرءُ لم تَغضَب لهُ حين يغضَبُ فوارسُ إن قيل اركَبوا الموتَ يركبوا
ولم يَحْبُهُ بالنّصر قومٌ أعِزّةٌ مقاحيمُ في الأمر الّذي يُتهيّبُ
تَهضّمهُ أدنى العدوّ ولم يزل وإن كان عِضًّا بالظّلامة يُضربُ

المقَاحِيمُ جمع مِقْحَام، وهو المتقحم في الأمور الجريءُ عليها ؛ ويُتَهيّبُ يُتخوّف ؛ وتَهَضّمَهُ : تَنَقّصَهُ ؛ وأدنَى العَدُوّ : أخَسُّهُمْ ؛ والعِضُّ بالكسر الرّجُلُ الداهية كما تقدّم في الهمزة ؛ والظّلامَةُ : الظّلْمُ . أي لا يزال يُضرب، أي يُقابَلُ ويُرمَى بالظلم، وان كان عِضًّا، إذا لم يكن له أنصار.

وقال الاخنس بن شهاب :

إذا قَصرت أسيافُنا كان وصلُها خُطانا الى القَومِ الّذين نُضاربُ

يَقُول : إذا ضاق مَجَالُ الحرب عن مُضاربة الأقران بالسيوف، خطونا إليهم وأقدمنا عليهم جرأةً حتى نصل إليهم فنضربهم.

ومثله قول الآخر :

نَصِلُ السُّيوف إذا قَصرن بخطونا قُدمًا ونُلحقها إذا لم تَلحقِ

وقال محمد بن بشير :

وكلُّ امرِىءٍ يوما سيركَبُ كارهًا على النّعش أعناقَ العِدى والأقاربِ

وقال نَهشَل الدارسي :

23) في الحماسة (1:273) قراد بنُ عَبّاد. وفي الشرح : قال أبو هلال : وقع هكذا في الاصل، وهو خطأ، وانما هو قراد بن العيار... وأبو العيار أحد شياطين العرب وقراد شاعر اسلامي مقل.

وهوّن وجدي عَن خَليلي أنَّني ... إذا شِئت لاقَيتُ امرءاً ماتَ صاحبُهْ
ومن ير بالأقوام يومًا يروا به ... مَعرَّةَ قومٍ لا تُوارَى كواكبُهْ

ومثل بيته الأول قول الخنساء :

ولولا كثرةُ الباكيـنَ حولِي ... عَلى إخوانهم لقتلتُ نفسِي

وقال الغَطَمَّشُ الضَّبِّي :

ألا ربَّ مَن يَغتابُني ودَّ أنَّني ... أبوه الَّذي يُعزَى إليه ويُنسَبُ
عَلى رَشْدَةٍ مِن أمّه ولِغَيَّةٍ ... فيغلبُها فَحلٌ عَلى النَّسلِ مُنجبُ
فبالخير لا بالشَّر فارْجُ مودَّتي ... وأيُّ امرىءٍ يُغتال مِنه التَّرهُّب ؟
أقولُ وقَد فاضت مِن العَين عبرةٌ ... أرَى الأرضَ تبقى والأخِلاَّءَ تذهبُ
أخِلاَّي لو غَيرُ الحِمامِ أصابَهُم ... عَتَبنا ولِكن ما عَلى الدَّهرِ معتَبُ

الرَّشْده : النّكاح ؛ والغَيَّةُ : الزّنى . ويقال : أنْجَبَ الرجلُ إذا ولد نجيبا.

وقال الحَكَمُ بْنُ عَبْدَلٍ الأسَدِيّ :

أطلبُ ما يَطلُبُ الكَريمُ مِن ... الرِّزقِ لنفسي وأجمِلُ الطَّلَبا
وأحْلُبُ الثَّرَّةَ الصَّفِيَّ ولاَ ... أجْهَدُ أخلافَ غيرِها حَلَبَا
إنِّي رأيتُ الفَتى الكَريمَ إذا ... رغَّبتَه في صَنِيعةٍ رَغِبَا
والعَبْد لا يَطلُبُ العَلاءَ ولاَ ... يُعْطِيكَ شَيئًا إلاَّ إذا رهِبَا
مَثل الحِمار الموقَّعِ السَّوءِ لاَ ... يُحسِن مَشْيًا إلاَّ إذا ضُرِبَا
ولَم أجِد عُروةَ الخَلائقِ إلاَّ ... الدِّينَ لمَّا اعتبرتُ والحَسبَا
قَد يُرزقُ الخَافضُ المُقِيمُ وما ... شدَّ بِعَنسٍ رحْلاً ولاَ قَتَبَا
ويُحرَمُ المالَ ذو المَطِيَّةِ ... والرَّحلِ ومن لا يزالُ مُغتربَا

الثَّرَّةُ : النَّاقة الغزيرةُ اللبن، ومثلها الصَّفِيّ، ولذا وصفها بها . والأخْلاَفُ جمع خلف وهو حَلَمة الضَّرعِ . يقول : إني أحلب الكثيرة الدرّ، وآخذ منه عفواً، ولا أجْهَد غيرها لأستخرج النزر وأستَنزِلَ العسير، وهذا تمثيل . والمراد أني أجْمِل في الطلب، ولا أكِدُّ نفسي في استحصال الرزق، علما منّي بأنَّ ما قدّر من الرزق إليَّ واصل، وما قُسِم لا

محالة حاصل.

وقالت أمّ ثَواب الهِزّانيّة في ابن لها عاق :

رَبَّيتُه وهْو مِثل الفرخِ أعْظَمُه ... أمُّ الطّعام تَرى في ريشِهِ زغبا[24]
حتّى إذا آضَ كالفُحّال شذّبَهُ ... أبّارُهُ ونفى عَن مَتنِهِ الكَرَبا
أنشا يُمَزّقُ أثوابي ويضربني[25] ... أبَعد شيبَى عندي يبتغي الأدبا ؟

أمُّ الطَّعامِ : الحَوصَلَة ؛ والفُحّال : ذكر النّخل، وهي أطولُها ؛ وتشذيبه : تجريده وتنقيته من فُضُول الشّوْك والسَّعَف، وبذلك يطول في السماء ؛ والكَرَبُ : أصولُ السَّعَف تبقى متّصلة بالجِذْع.

وقال حاتم :

وما أنا بالسّاعي بفَضْل زمامِها ... لتَشرب ماء الحوضِ قَبل الرّكائبِ
وما أنا بالطّاوي حقيبة رحْلِها ... لأبعَثَها خفّا وأترك صاحبي
إذا كُنتَ ربّا لِلقَلوصِ فلا تَدع ... رفيقَك يَمشي خلفها غيرِ راكِبِ

وقال الأحْوص، وقد ضَربَ بنو عمٍّ له مولاه :

لَئن كُنت لا أرمَى وتُرمَى كِنانتي ... تُصِبْ جانحاتُ النّبل كشْحي ومَنكبي

وهو مثلٌ أصله أنّ رجلا رمى آخر متقلّدا كنانة، فقال له المَرميُّ : ما هذا ؟ فقال له : لم أرمِكَ، إنّما رمَيتُ كِنانَتك . فيضرب مثلا لمن نِيلَ وليُّه بسوء.

وقال أبو النّشْناش :

إذا المَرءُ لم يَسرح سوامًا ولم يُرح ... سوامًا ولم تَعطف عَلَيه أقاربُه
فلَلْموتُ خيرٌ للفتى مِن قعُوده ... عديمًا ومِن مولى تَدبُّ عقاربُه

وقــال :

فَلم أرَ مِثل الهمّ ضاجَعه الفَتى ... ولا كَسواد اللّيل أخْفقَ صاحِبُه
فَعِش مُعدِمًا أو مُتْ كريمًا فإنّني ... أرَى الموتَ لا ينجو مِن الموتِ هاربُه

وقال قَيس بنُ المُغيرة :

---

24) في الحماسة (316:1) في جِلْدِهِ زغَبًا، وهْو أنسب.
25) وفي الحماسة أيضا : يُؤدّبني.

جفاني الأميرُ والمُغيرةُ بَعدهُ   وأمسى يزيدٌ لِي قَد ازْورَّ جَانِبُهُ
وكُلّهم قد نال شبعًا لبَطنه   وشِبْعُ الفتى لُؤمٌ إذا جاعَ صاحبُه

وتقدَّم هذا الشعر وقصَّته قبل.

وقال بعض بني أسد :

وما أنا بالنِّكس الدَّنيّ ولا الّذي   إذا صدَّعنِّي ذُو المودَّة أحربُ
ولكنَّني إن دام دمتُ وإن يكن[26]   لَه مذهبٌ عنِّي فَلِي عَنه مذهب
ألا إنَّ خير الودّ ودٌّ تَطوَّعت   بِه النَّفس لا ودٌّ أتى وهو متعبُ

ومعنى أحربُ أغضبُ ؛ ومعنى إن دمتُ دام أي إن دمتُ فقد دَامَ، إذْ لو لم يَدُم ما دُمْتُ بدليل ما بعده، وإن شئت جعلته على القلب . وتقدَّم هذا المعنى مُستَوْفّى.

وقال خَالدُ بنُ نَضلَةَ الأسَديُّ :

لَعَمري لَرهطُ المرءِ خيرُ بقيَّةٍ   عَليه وإن عالَوْا بِه كلَّ مركَبِ
مِن الأبْعَدِ النَّائي وإن كان ذاغنًى   جزيلٍ ولَم يُخبرك مثلُ مُجرِّب
إذا كُنت في قومٍ عدًى لَستَ منهمُ   فكُلْ ما علفتَ مِن خَبيثٍ وطيِّب
وإن حدَّثَتكَ النَّفسُ أنَّك قادرٌ   على ما حَوتْ أيدي الرِّجال فكذِّب

وتقدَّم في الاغتراب ولزوم الأوطان من الشعر مالا بدَّ منه.

وقال عبدُ اللهِ بنُ الدُّمَيْنَة :

وإنِّي لأستَحْيِيكِ حتَّى كأنَّمَا   عليَّ بظَهر الغَيبِ مِنكِ رقيبُ

وقال قيسُ بنُ ذَرِيحٍ :

وكلُّ مُصيباتِ الزَّمان وجدتُها   سِوى فُرقَةِ الأحبابِ هيِّنَةَ الخَطبِ

وقال إيَاسُ بن الأرتّ :

إذا ما تراخت ساعةٌ فاجعَلنَّها   بخَير فإنَّ الدَّهر أعصَلُ ذُو شَغْبِ
فإن يَكُ خيرٌ أو يكُن بعضُ راحة   فانَّك لاقٍ مِن غُمومٍ ومِن كربِ

---

26) روى اليوسي هذا الشطر مقلوبًا هكذا : ولكنَّنِي إنْ دُمْتُ دَامَ.... وتكلَّف تأويله في الشرح بما لا حاجة إليه . والتصحيح من الحماسة، (106:1).

الأعْصَلُ : المُعْوَجُّ الملتوي، وأصل العصل اعوجاجٌ في أنياب البعير إذا أسنَّ ؛ والشَّغْب : الشرّ .

وقال أيضـــا :

وما دهري بحبٍّ تُرابِ أرضٍ ولكن مَن يحُلُّ بها حَبِيبُ

وهو مثل قول قيس :

وما حُبُّ الدّيار شَغَفنَ قلْبي ولكن حُبُّ مَن سَكَن الدّيارا

وقال ابنُ مُفَرّغ :

يقولون : هَل بَعد الثّلاثين ملعبُ ؟ فقُلت : وهل قَبل الثّلاثين ملعب ؟

لقد جلَّ قدرُ الشَّيب إن كان كلّما بَدت شَيبةٌ يُعرى من اللّهْوِ مركبُ

وسياتي فصل في مدح الشيب وذمّه بعد إن شاء الله تعالى.

وقال ابن ميّادة :

فواللّهِ ما أدري أيَغلبُني الهَوى إذا جدَّ جدُّ البَين أمْ أنا غالبُه

فإن أستطع أغلب وإن يَغْلِبِ الهَوى فمِثلُ الّذي لاقَيتُ يُغلبُ صاحبُه

وقال فُرعانُ بنُ الأعرف في ابن له عاق ويُسمّى مُنازلا :

جزت رحِمٌ بيني وبين مُنازلٍ جزاءً كما يستَنزلُ الدَّينَ طالِبُه

لربَّيتُه حتّى إذا آضَ شَيظمًا يكادُ يُساوي غَاربَ النَّخل غَاربُه

وربَّيـــته حتّى إذا ما تركـتُه أخا القَوم واستغْنى عن المسْح شاربه

فلمّا رآني أحْسِب الشّخص أشخُصًا قريبًا وذا الشَّخصِ البعيد أقاربُه

تغمَّد حقّي ظالمًا ولَوى يَدي لَوى يَدهُ اللّهُ الّذي هُو غالبُه

وكان لَهُ عِندي إذا جاع أو بكى مِن الزّاد أحلى زادِنا وأطايِبُه

وجمّعتُها دُهمًا جِلادًا كأنّهَا أشاءُ نخيلٍ لم تُقطّع جوانِبُه

فأخرجني مِنهـا سليبًـا كأنّنِـي حُسامٌ يمانٍ فارقَتْهُ مضَاربُه

أيظلِمُني مالي ويُحنثُ ألْوَتِي ؟ فسوفَ يُلاقِي ربّه فيُحـاسبُه

الدُّهمُ : الابل الوُرْقُ تَضْربُ الى السوادِ . والأشَاءُ : صِغارُ النَّخْل، شبّه بها الابل في

عـظـَمها ؛ والالـْوَةُ : اليمين .

فقال منازل ابنه يجيبه :

وكُنت كَمن ولَّى بأمرِ كَتيبَةٍ فعيَّ بها فارفَضَّ عَنهُ كَتائِبُه
وماذاكَ مِن جرَّى عُقوقٍ تَعُدُّهُ ولا خُلُقٌ منّي بَدا أنتَ عائِبُه

يقول : إنَّك أضرَرْتَني ففارقتُك كمن تَولَّى أمرَ جيشٍ فأساء فيهم السيرةَ فتفرَّقوا عنه، وما ذاك منّي من جرَّى عقوق، أي من أجله. ومن عجيب الاتفاق ما ذكر الشَّنْتَمَرِيُّ في شرحه على هذا المحلّ من الحماسة أنَّ مُنَازِلاً هذا ولد له ابن يقال له خَلِيعٌ فعقَّه كما كان هو فعل بأبيه، فاستَعْدَى عليه الوالي . فلمَّا حضر ليضربه قال قائل للوالي : أتعرف - أصلحك الله - مَن هَذا ؟ قال : لا . قال : هذا مُنَازِلٌ الذي يقول فيه أبوه، وأنشد الأبيات السوابق .

فقال الوالي : يا هذا :

فَلا تجزَعَنْ مِن سيرةٍ أنت سِرتَها فأوَّلُ راضٍ سِيرَةً مَن يَسيرُها

ثمَّ أمر بإطلاق ابنه خليع.

وفي نواد العامَّة أنَّ رجلا كان له ابن، ولمَّا أسنَّ وعجز عن العمل أخذه ابنه ذاك وذهب به الى فلاة من الأرض، فطرحه تحت شجرة وتركه هناك حتى هلك . فلمَّا كبر هذا الابن وبلغ مبلغ أبيه كان له ابن له وهو لا يعلم بالقصَّة، فأخذ أباه أيضا وذهب به الى فلاة وطرحه تحت شجرة كما فعل هو بأبيه.فلمَّا تولَّى عنه التفت إليه فرآه يتبسَّم.فتعجَّب من ذلك ورجع إليه وقال له : ممَّ تضحك، وقد أيقنت بالهلاك ؟ فقال له أبوه : والله ما ضحكت إلاَّ لأنَّني تذكَّرت ما فعلت بأبي، وقصَّ عليه القصَّة . فقال الولد حينئذ : لئن أنا تركته حتى مات ليفعلَّن بي عَقِبِي مثلَ هذا . فأخذه وردَّه الى بيته . ومثل هذا ما قيل في آخر الرؤوس المحمولة الى الولاة التي أوّلها رأسُ الحُسَيْن، جمع الله شمله في الفردوس الأعلى، وجمع أعداءه في مَصَبِّ الحميم المُغْلَى ! والقصَّة مشهورة وستأتي .

وقال الآخـر :

إن يَعلموا الخَيرَ يُخفوه وإن عَلموا شرًّا أذيعَ وإن لم يَعلَموا كذبوا

وقال أبو مُسلم الخراسانيُّ :

محا السَّيفُ أسطار البلاغة وانتحَى عَليك لُيوثُ الغاب من كلّ جانب

وكان أبو مسلم لمَّا ثار على بني أميَّة كتب إليه مروان، وكاتِبُهُ إذ ذاك عبدُ الحميد، فلمْ ير شيئًا أطنب فيه عبد الحميد مثل ذلك الكتاب، حتى قيل إنّ الكتاب من عِظَم جرمه حُمِل على بعير . فلم يلتفت أبو مسلم الى ذلك وأجابهم بالبيت المذكور.

وقال بعض الأعراب :

إذا كانَ الطّبَاعُ طِبَاعَ سوءٍ فَلَيس بنافعٍ فيها الأديبُ

حكى الأصمعيّ قال : دخلت البادية فأتيت على عجوز، فإذا بين يديها جِرْوُ ذِئب مُقَطَّع وشاةٌ مقتولةٌ . فقالت : أتدري ما هذا ؟ قلت : لا . قالت : جِرْوُ ذئبٍ أخذناه وأدخلناه في بيتنا . فلمَّا كبِر قتل شاتَنا، وقلت في ذلك شعرا . قلت : ما هو ؟ فأنشدت :

بقرتَ شُويهَتي وفجَعت قومي وأنت لِشاتِنا أبدًا ربيبُ

غُذِيتَ بدرّها ورُبيتَ فينَا فمن أنْباك أنّ أباكَ ذِيبُ ؟

إذا كان الطّباعُ (البيت)

وقال الآخر :

لا تَمدحنّ امرءًا حتّى تُجرّبه ولا تذُمّنّه من غَير تجريبِ

فربّ خِدنٍ وإن أبدَى بشاشتَهُ يُضحي على خِدنِه أعْدى من الذّيبِ

وقال آخر :

وإنّ مَدحكَ من لم تَبْلُهُ صَلَفٌ وإنّ مَدحكَ بَعد الذّمّ تَكذيبُ

وقال الآخر :

كلّ يومٍ قَطيعةٌ وعِتابُ يَنقَضِي دهرُنا ونَحنُ غِضَابُ

لَيتَ شِعري فَهَل خُصصْتُ بِهَذا أنا وحْدي أمْ هَكذا الأحباب ؟

وما أحسن قول بشّار :

إذا كُنتَ في كلّ الأمُورِ مُعاتبًا صديقَكَ لَمْ تَلق الّذي لا تُعَاتبُه

فَعِش واحدًا أو صِل أخاك فإنّه مُقارفُ ذنبٍ مرّةً ومُجانِبه

إذا أنت لم تشرب مرارًا على القَذا ظَمِئت وأيُّ النّاس تصفو مشاربُه ؟

وقول الآخــر :

إلبَسِ النّاسَ ما استَطَعْتَ عَلى النّقْصِ وإلاّ لَمْ تَستَقِمْ لَكَ خُلّةْ
عِشْ وحيدًا إنْ كنتَ لا تَقبَلُ العُذْرَ وإن كُنتَ لا تُجــــاوزُ زلّةْ

وتقدّم هذا المعنى، ويأتي كلام ممّا يتعلّق بالعتاب بعدُ إن شاء الله تعالى.

وقال الأعشى : وهُنّ شرُّ غالِبٍ لِمَن غَلَبْ، يعني النساء. زعموا أنّه ذهب يمتار لأهله في شهر رجب فهربت امرأتُه مُعاذَةُ ناشزًا، ولاذت برجل عزيز من قومه. فلمّا رجع الأعشى طلبها فتمنّعت منه وأبى الذي لاذت به أن يدفعها إليه، وكان أعزّ منه.فأتى الأعشى النبيّ صلّى الله عليه وسلّم فاشتكى إليه وأنشأ يقول :

يا سَيّد النّاس وديّانَ العَرَبْ أشكُو إليكَ ذِرْبةً من الذِّرَبْ
كالذّئبَةِ الغَبشاءِ في ظلّ السَّرَبْ خرجتُ أبغيها الطّعامَ في رجَبْ
فخلفَتْنْي بِنِــزاعٍ وهَــرَبْ وقَذفَتني بين عِيصٍ مُؤتَشَبْ
أخلَفَتِ الوعدَ ولطّت بالذّنَبْ وهُــنّ شرُّ غالبٍ لِمــن غَلبْ

فقال النبي صلّى الله عليه وسلّم عند ذلك : هُنّ شرُّ غالبٍ لِمن غَلَب فكتب له أن تَردّ إليه.الذِّربَةُ : السّلِيطَةُ اللّسَانِ ؛ والعِيصُ : أصل الشجرة ؛ والمُؤتَشَبُ : المُلتَفُّ . وقوله : لَطّتْ بالذّنَبِ، يريد : مَنَعت نفسها، وأصله في الناقة . يقال : لَطّت بِذَنَبِها، إذا ضربت به على فرجها فسدّت به على نفسها وامتنعت من الفحل.

وقال الآخــر :

أحبُّ بلادِ اللّهِ ما بَين مَنعِجٍ إليّ وسَلمَى أن يَصوبَ سحابُها
بِلادٌ بها حلّ الشّبابُ تمائمي[27] وأوّل أرضٍ مسّ جِلدي تُرابُها

ذكر بعض الأدباء عن بعض أهل نَصيبِين قال : أتاني ابنُ الرومي بقصيدته التي يمدح بها سليمان بن عبد الله بن طاهر وقال : أنصفني ! أيّهُمَا أحسنُ : قولي في الموطن :

27) المعروف المشهور : بلادٌ بِهَا نِيطَتْ عَليّ تَمَائِمِي . وذلك أيضا ما يوجد في زهر الآداب، (682:2).

ولي وطنٌ آليتُ ألاّ أبيعَهُ   وألاّ أرى غيري لَه الدَّهرَ مالكا
عمرتُ به شرخَ الشَّباب ونِعمةً   كَنعمةِ قومٍ أصبحوا في ظِلالِكَا
وحبَّبَ أوطانَ الرِّجالِ إليهِمُ   مآربُ قضَّاها الشَّبابُ هُنالِكا
إذا ذكروا أوطانهُم ذكَّرتهُمُ   عُهودَ الصِّبا فيها فَحنُّوا لذلكا

أم قول الاعرابي : أحبُّ بِلادِ اللّهِ (الأبيات) ؟ قال . فقلت : بل قولك، لأنّه ذكر الوطن ومحبَّته، وأنت ذكرت العلّة في ذلك .

ومثلُ هذا قولُ ابن الرُّومي أيضا :

بلدٌ صحبتُ به الشَّبيبَةَ والصِّبا   ولَبستُ ثوب العَيش وهْو جديدُ
فإذا تمثَّل في الضَّمير رأيتُه   وعَليه أغصان الشَّباب تَميدُ

ومثله قول آخر :

ذكرتُ بلادي فاستَهَلَّت مدامِعي   بشَوقٍ الى عَهد الصِّبا المُتقادمِ
حَنَنْتُ إلى أرضٍ بها اخْضرَّ جانبي   وقُطِّع عنّي فيها عقد التَّمائم

وقال ابن غَالِبٍ الرُّصافي :

بلادي الّتي ريشَت قُويدِمَتي بها   فُريخًا وآوتْني قرارتُها وكْرا
مبادىء لينِ العَيش في ريِّق الصِّبا   أبى اللّه أن أنسى اغترابي بها غرًّا
لبسنا بِها ثوبَ الشَّبابِ لِباسَها   ولكِن عَرينا من حُلاهُ ولم نَعرا

وقال العَسْكَرِيّ :

إذا أنا لا أشتاق أرضَ عشيرتي   فلَيس مكاني في النُّهى بمَكينِ
مِن العَقل أن أشتاق أوّل منزلٍ   غَنيتُ بخفضٍ في ذَراهُ ولِينِ
وروَضٍ رعاهُ بالأصائِل ناظِري   وغُصنٍ ثناهُ بالغَداةِ يَميني
وإنّيَ لا أنسَى العُهودَ إذا أتت   بناتُ النَّوى دونَ الخَليط ودوني
إذا أنا لم أرْعَ العُهود على النَّوى   فَلستُ بمأمونٍ ولا بِأمِينِ

وقال رَجَاءُ بنُ هارون :

أحِنُّ إلى وادِي الأراكَ صَبابَةً   بعَهد الصِّبا فيه وتذكار أوّل

كأنَّ نسيمَ الرّيح في جَنَبَاتِه نَسيمُ حبيبٍ أو لِقاءُ مُؤمَّلِ

ومثل قول الأعرابي قولُ ابن ميادة :

ألا لَيتَ شِعري هَل أبِيتَنَّ ليلةً بِحَرَّةِ ليلى حيثُ ربَّينني أهلي

بلادٌ بها نِيطت عليَّ تمائمي وقُطِّعن عنّي حيث أدركني عقلي

ومن الحنين الى الوطن على الجملة قولُ الطّائِيّ :

سَقى الّله أطلالاً بأخيِلة الحِمى وإن كنَّ قَد أبدينَ للنَّاس ما بيا

منازل لو مرَّت بهنَّ جنازتي لقال صَدايَ : حامِليَّ انزلاَ بِيا

وقول الآخــــر :

طيب الهواءِ بِبغدادٍ يُؤرّقني شوقًا إليها وإن عاقَت مقادِيرُ

فكيف أصْبِرِ عنها الآنَ إذ جَمعَت طِيب الهَوائَين : مَمدودٌ ومَقصور ؟

وقولــــي :

سَقى الّله أطلالاً بأكثِبة الحِمَى مِن العَارِض الهتَّان صَوبَ عِهاد

بلادٌ بها حلَّت سُلَيْمى ودارُها فحلَّ فُؤادي عندهــا وودَادي

وإنّي إذا أسقيتُها أو بَكيتُها هُيامًا فما أسقيتُ غير فُؤادي

وما أعلم أحداً سبقني الى هذا المعنى، مع تداول هذا الغرض بين الشعراء كثيرا . وسياتي في أمثال الحنين الى الوطن زيادة على ما ذكرنا . إن شاء الله تعالى.

وقال راشد بن عبد ربّه رضي الله عنه ! : لَقَدْ هَانَ مَن بَالَتْ عَلَيهِ الثَّعَالِبُ .

وكان اسمه في الجاهليّة غَاوِي بن عبد العُزّى، وكان سَادِنَ صنمٍ لقومه بَنِي سُلَيم

فبينما هو عنده ذات يوم إذ أقبل ثعلبان يشتدَّان حتى طلعا عليه فبالا عليه، فقال :

أربٌّ يَبول الثَّعلبانِ برأسِه ؟ لَقد هان مَن بالَت عَليه الثَّعالبُ ؟

ثمَّ كسره وقال : يا معشر سُلَيْم، والله ما يَضُرُّ ولا ينفع، ولا يُعطِي ولا يَمْنَع !

ولحق بالنبي صلّى الله عليه وسلّم، فقال : ما اسمك ؟ قال : غَاوِي بنُ عَبْدِ العُزّى .

قال : بل أنت راشدُ بنُ عَبْد ربّه، والثَّعلَبانُ في البيت، بضمّ الثاء واللام، وهو ذكر الثعالب . هذا قول جماعة من اللغويّين منهم الجوهري . وقال آخرون، ومنهم صاحب

القاموس : ذاك غلط، وإنّما هو بفتحهما على أنّه تثنية ثعلب . وتمسّكوا بالقصّة السابقة وأنّه أقبل ثعلبان وبالا معًا على الصنم . وقال بعضهم : كان لرجل صنم وكان يأتي بالخبز والزبد، فيضعه على رأسه ويقول اطْعَم ! فجاء ثعلبان فأكلا الخبز والزبد . وقال آخرون : هذا خطأ في التفسير والرواية، وإنّما الحديث : فجاء ثُعْلُبَان"، وهو الذكر من الثعالب لا مُثَنّى، فأكل الخبز والزبد ثمّ فعل . فقام الرجل الى الصنم فكسره وقال في ذلك شعره . قلت : والحقّ أنّ القصّة بعد صحّتها على ما قال أهل التثنية من أنّها ثعلبان لا تفيد أنّ الواقع في البيت مثنّى على التعيين، إذ لا يلزم من وقوع البول من الثعلبين أن يذكرهما الشاعر، وإنّما المعوّل الرواية : فإن وردت بالافراد كان حسنًا، وكان المقصود الجنس والنداء على هوان الصنم ببول الثعلب عليه، لا شرح القصّة . وإذا رُدّ الأمر الى النفس وُجد فيها للمفرد حلاوة ، وعن التثنية كَزَازَة، والله أعلم.

وقال الآخـــر :

فَقَعدت كالمُهريقِ فَضلَة مائِه   في ظلّ هاجرةٍ لِلمْعِ سَرابِ

ومثله قول الآخـــر :

وكُنت كمُهريق الّذي في سِقائه   لرقراق آلٍ فوق رابيةٍ صَلدِ

وهذان البيتان تضمّنا معنى المثل السابق في صاحب النّعامة.

وقال أبُو الغَرِيب :

إنّ اللّئيمَ الارْسَ غَيرُ نازعٍ   عَن وذءِ جارةِ الغَريب والجُنب

الارْسُ هو الأصل، أي اللّئِيمُ الأصل والوذء : الشتم . والجُنُبُ : الأجنبي الغريب.

وقال أعرابيّ :

كِلابُ النّاس إن فكّرت فيهم   أضرُّ عَليك مِن كَلب الكِلابِ

لأنّ الكَلب لا يُؤذِي صَديقًا   وإنّ صديقَ هذا في عَذَابِ

ويأتي حين يأتي في ثِيابٍ   وقَد جُزِمَت عَلى رجلٍ مُصابِ

فأخزَى اللّهُ أثوابًا عَليه   وأخزَى اللّه ما تَحت الثّياب

ومثل هذا ما يحكى عن بعضهم قال : وجدت إبراهيم بن أدهم ـ رضي الله عنه ـ أو غيره من

نُظَرائِه مُضْطَجِعًا، وعند رأسه كلبٌ نائم . فأردت أن أقيم الكلب فقال : دعْهُ فإنَّه خيرٌ من الجليس السوء.

وقال الشيخ [القطب] العارف أبو محمد عبد القادر الجيلاني فيما ينسب إليه، وكان يُنْشِدُهُ على الكُرسيّ :

أنا بُلبُلُ الافراحِ أملأُ دَوحَها طربًا وفي العَلياءِ بازٌ أشْهبُ

وقال الآخــر :

أتطلُبُ صاحبًا لا عَيبَ فيه وأيُّ النَّاس لَيس له عُيوبُ ؟

وتقدَّم نحو هذا قبل .

وقال الآخــر :

إذا رُمتُمُ قَتلي وأنتُم أحِبَّتي إذا فالأعادي واحدٌ والحبائبُ

وقال الآخــر :

إذا الخِلُّ لم يَهجرك إلاَّ ملامةً فَليس لَه إلاَّ الفِراقَ عِتابُ

وقال الآخــر :

إذا أنتَ جازيتَ المُسيءَ بفِعلِه فَفعلُك مِن فِعل المُسيءِ قَريبُ

وقال الآخــر :

إذا الغُصن لَم يُثْمِر وإن كان أصله مِن المُثمراتِ اعتادَه النَّاس للحطب

وقال الآخــر :

إذا المَرءُ لَم يُحبِبكَ إلاَّ تَكلُّفًا فَذلك من أفعاله ما يُغالبُ

ومثله قول الحماسي السابق :

إذا ما المَرءُ لم يُحبِبكَ إلاَّ مُغالب نَفسه سَئِم الغِلابَا

وقال الآخــر :

إذا جَفاني بَنو الدُّنيا وضِقتُ بهم طالَعتُ كُتبي ونادمتُ الألَى ذهبوا

ومثله قول الآخــر :

لنا جُلساءٌ لا يُملُّ حديثُهُم ألِبَّاءُ مأمونون غيبًا ومَشهَدًا

وقال عليّ بن الجهم :

أعاتِب ذا المُروءةِ مِن صَديقٍ إذا ما رابني مِنه اجْتِنابُ
إذا ذهب العِتابُ فَلَيس وُدٌّ ويَبقى الوُدُّ ما بَقِيَ العِتابُ

ومثله من هذا الباب قول الآخر :

أعاتبُ مَن أجببتُ في كلّ زلّةٍ ليحتَميَ الأمر الّذي مَعه العَتبُ
فإنّي أرَى التّأديبَ عِند وجوبِه بمنزلَة الغَيثِ الّذي قَبلَه الجدْب

وسيأتي في الحِكم تمامُ هذا المعنى إن شاء الله تعالى.

وقال الآخر :

إذا شِئتَ أن تُقلَى فَزُرْ متواتِرا وإن شِئتَ أن تزداد حُبًّا فزر غِبًّا

وسيأتي تمامه .

وقال الآخر :

إذا عِبتَ أمرًا فَلا تأتِهِ فَذو اللّبّ مُجتنبٌ ما يَعيبْ

وقال الآخر :

إذا قُلتُ للعذّال : لستُ بعاشقٍ يَقول لَهم فيضُ المَدامع : يَكذِبُ

وقال الآخر :

تَعالوا نَصطلحْ وتكون منّا مُصافاةٌ بلا عَدٍّ الذّنوبِ

وقال الآخر :

تقاربَت الجسومُ وأيُّ نَفعٍ يَكونُ إذا تباعدتِ القُلُوبُ ؟

وقال الآخر :

تكلّفْتَ لي هَذا الوداد فلم يدم وكلُّ ودادٍ بالتّكلّفِ يَصعُبُ

وتقدّم نحوه.

وقال الآخر :

تِيهٌ بِلانَسبٍ كِبْرٌ حَسبٍ فَخْرٌ بِلا أدبٍ هذا مِن العَجَبِ !

وقال الآخر :

جَهلُ الشَّريفِ يَشِينُ مَنصِبَهُ وابْنُ الوضِيعِ يَزينُهُ أدَبُهْ

وسيأتي تمام هذا المعنى .

وقال الآخــر :

حبيبٌ غابَ عَن نَظري وسَمعي ولَكن عَن فُؤادي ما يَغِيبُ

وقال الآخــر :

طَبعُ الفَتى يَسرِقُ مِن طَبعِ مَن يَصحَبُهُ فانظُر لِمن تَصحَبُ

ومثله قول المراكشي في أرجوزته في الطريقة :

اخْتَر لِصُحبَتك مَن أطَاعَا إنَّ الطّباعَ تَسرِقُ الطّبَاعَا

وقال الآخــر :

قَد قَنعنا مِنكُم بِردٌ جَوابِ دُونَ إسعافِنا بِما في الكِتابِ

وقال الآخــر :

قَد يُلامُ البَريءُ مِن غَير ذَنبٍ ويُغَطّى على المُريبِ ذُنُوبُ

وقال الآخــر :

كأنّك لَم تَتعَب وإن كُنت مُتعبًا إذا أنتَ لا قَيتَ الّذي فِيه تَتعبُ

وقال الآخــر :

كَعُصفورةٍ في كفٌ طفلٍ يَسومُها حِياضَ المَنايا وهْو يَلهو ويَلعَب

وقال الآخــر :

كلُّ امرىءٍ لا بُدَّ يَقضِي نَحبَهُ إن كَرِهَ المَوتَ وإنْ أحَبَّهُ

وقال الآخــر :

كُن للغَريب إذا رأيت مُساعدًا فَعَساكَ يومًا أن تَصيرَ غريبا

وقال الآخــر :

لَئن غابَ عَن إنسانِ عيني شَخصُهُ فما هُو عَن فِكري وقَلبي بغائِب

وقال الآخــر :

لَحى اللّه دُنيا ألجأتنا لمعشرٍ فِراقُهمُ أشْهى الأمور الى قَلبي

وقال الآخـــر :

لُحومُ أهل العِلـم مَسْمـومةٌ ومَن يُعاديهِم سَريعُ العَطَبِ

وقال الآخـــر :

لَيس الرَّزيَّة في أيَّامنا عَجَبًا بَل السَّلامَةُ فيها أعْجبُ العَجبِ

ومثله قول أبي بكر بن دُرَيْد :

لا تَعجَبَنْ مِن هالكٍ كَيفَ هَوى بَل فاعجَبَنْ مِن سالمٍ كَيف نَجا

وقال الآخـــر :

لَيس التَّقيُّ بمُتَّقٍ في دينِهِ حتَّى يَطيب طعَـامُه وشَـرابُهُ

وقال الآخـــر :

لَيسَت الأحلامُ في حَالِ الرِّضى إنَّما الأحلامُ في حالِ الغَضَبْ

وقال الآخـــر :

لَيس يَصْفو إلاَّ بقُربِك عَيشِي كَيفَ لي أن تَكونَ منِّي قَريبًا ؟

وقال الآخـــر :

ما أصعَب الشَّيءَ تَرجوهُ فتُحْرمُه لا سيَّما بَعد طول الجَهد والتَّعب !

وقال الآخـــر :

ما صاحبي مَن ودَّنِي حَاضِرًا بَل صاحِبي مَن ودَّنِي غَائِبًا

ومثله قول الحماسي من هذا الباب :

ولَيسَ أخِي مَن ودَّني رأيَ عَينِه ولَكن أخي مَن ودَّني وهْو غَائبْ

وقال الآخـــر :

ما يَفتَح اللّهُ باب الرِّزقِ من أحدٍ إلاَّ ويُفتحُ غيرَ البابِ أبوابُ

وقال الاخـــر :

مَتى تَكُ معْ صديقٍ أو عَدوٍّ تُخبِّرْكَ الوُجُوهُ عَنِ القُلُوبِ

وقال الآخـــر :

من النَّاس من يغْشى الأباعِدَ نَفعُه ويُحرمُ مِنه صحبُه وأقارِبُه

وقال الآخـــر :

مَن ذمَّ مَن كان كلُّ النَّاس يَحمَدهُ ... فإنَّما يربَح التَّكذِيبَ والكَذبَا

وقال الآخـــر :

مَن عوَّد النَّاس إحسانًا ومَكرمةً ... لا يَعتبنَّ على مَن لجَّ في الطَّلبِ

وقال الآخـــر :

نَحنُ نَدعو الالَه في كلِّ كَرْبٍ ... ثمَّ ننساهُ عِند كَشفِ الكُرُوبِ

وقال الآخـــر :

نَفسُك لا تُعطِيكَ كلَّ الرِّضَى ... فَكيف ترجُو ذاكَ مِن صَاحبٍ ؟

وقال الآخـــر

نَوائِبُ هذا الدَّهر شتَّى وإنَّني ... أرَى فُرقَة الأحباب أدْهى النَّوائبِ

وهو مثل [قول] قيس السابق . وقال الآخر

وأحزمُ النَّاس مَن لم يرتَكِبْ سببًا ... حتَّى يُدبِّرما تَجني عَواقِبُهُ

وقال الآخـــر :

وإذا الزَّمان كَساك حُلَّةَ مُعدمٍ ... فالبَس لَه حُلَل النَّوى وتَغرَّب

وتقدَّم مع ما يشاكله . وقال الآخر

وإذا تُصِبْك خَصاصَةٌ فارْجُ الغِنى ... والى الَّذي يَهَبُ الرَّغائبَ فارغبِ

وقال الآخـــر :

وأطلُبُ قُربي من حماكُم وأنتُمُ ... إلى ناظِري والقَلبُ في غايةِ القُرب

وقال الآخـــر :

وإن كُنت مُسترعىً ونَحن رعيَّةٌ ... فكُلٌّ سَيَلقى ربَّه فَيُحاسِبُهُ

وقال الآخـــر :

وإنَّك إنْ أهْديْتَ لي عيبَ صاحبٍ ... لَمُهدٍ إلى غَيري جَميعَ عُيوبي

وقال الآخـــر :

وإنِّي بِكم في كلِّ حالٍ لواثقٌ ... ولكنَّ سُوء الظَّنِّ مِن شدَّة الحبِّ

وقال الآخــر :

وبالنَّاس عاش النَّاسُ قِدْمًا ولم يزل   من النَّاس مرغوبٌ إلـيه وراغبُ

وقال الآخــر :

وتشتُّتُ الأعـداءِ في آرائِهِـــمْ   سَبَبٌ لِجمعِ خَواطِرِ الأحبابِ

وقال الآخــر :

وخَيرُ عُمْرِ الفتى عُمْرٌ يَعيشُ بِه   مُقسَّمَ الحال بَين الجدِّ والَّلعِب

وقال الآخــر :

ودَعِ العِتابَ إذا استَربتَ بصاحبٍ   لَيست تُنالُ مودَّةٌ بِعتـابِ

وقال الـآخـــر :

ورث النَّجابة كابِراً عَـن كابـرٍ   كالـرُمح أنبوبًـا على أنبــوبِ

وقال الآخـــر :

وسائلٍ : ما المُلكُ ؟ قِيل : الغِنى   فَقلتُ : لا بَل راحَةُ القَلبِ

وقال الآخـــر :

وعَهــدُ المَشِـــيب كأنَّي بِهِ   يَمُـرُّ كما مرَّ عَصرُ الصِّبَـا

وقال الآخـــر :

وقَد كُنتُ لا أخْشَى مَع الذَّنب جفوةً   وقَد صِرتُ أخشاها ومالِيَ مِن ذنبِ

وقال الآخـــر :

وقد نَثَر التَّودِيعُ من كلِّ مقلةٍ   على كلِّ خدٍّ لُؤلُؤاً لم يُثقَّبِ

وقال الآخـــر :

وقطعتُ في الدُّنيا العَلائقَ لَيس لي   ولدٌ يموتُ ولا جِـدارٌ يَخـربُ

وقال الآخـــر :

وكنَّـا نستَـطِبُ إذا مرضنـا   فجاء الدَّاءُ مِن قِبل الطَّبيبِ

وتقدَّم ما يشاكل هذا في حرف الهمزة، فيمن يَغَصُ بالماء . وقال الآخر :

وكُنت أرى أنَّ التَّجاريبَ عُدَّةٌ   فخانت ثِقات النَّاس حتَّى التَّجاربُ

وقال الآخـــر :

ولا خَير في قُربٍ لغيركَ نفعُهُ   ولا في صديقٍ لا تزالُ تُعاتِبُهْ

وقال الآخـــر :

ولا خَير فِيمَن لا يُوطّنُ نَفسَهُ   على نائباتِ الدّهر حِين تَنوبُ

وقال الآخـر :

ولربّما بخِل الكَريمُ وما بِه   بُخلٌ ولكن سوءُ حظّ الطّالب

وقال الآخـــر :

ولَو أنّ مابي بالحَصا فُلِقَ الحصا   وبالرّيح لم يُسمَع لهُنّ هبوبُ

وقال الآخـــر :

ولو أنّني أستَغفر اللّهَ كلّما   ذكرتُك لَم تُكتَب عليّ ذنوبُ

وقال الآخـــر :

وليس بتقدير الكَواكِب ما تَرَى   ولـكنّه تقديرُ ربّ الكَواكِب

وقال الآخـــر :

ولَيس بِحاكمٍ مَن لا يُبَالِي   ألخَطأ في الحُكومة أمْ أصابا

وقال الآخـــر :

ولَيس عِتابُ النّاس لِلمرءِ نافعًا   إذا لم يَكن للمرءِ لُبٌّ يُعاتِبْه

وقال الآخـــر :

ولَيلٍ أردنا أن يدبّ عِذارُهُ   فما اختَلطَ حتّى صار بالصُبْحِ شائِبا

وقال الآخـــر :

وما المرءُ إلاّ حيثُ يجعَلُ نفسَهُ   فَكُن طالبًا للنّفس أعلى المراتبِ

وقال الآخـــر :

وما شَرفُ الانسانِ إلاّ بنفسِه   وإن عدّ آباءً كرامًا ذوي حَسَبْ

وقال الآخـــر :

وما كان لي ذنبٌ فأخْشى جَزاءَهُ   وعَفوك مرجوٌّ وإن كان لي ذنبُ

وقال الآخـــر :

ومـا لقُلـوب العاشِقيـنَ مزيَّةٌ إذا نَظَرتْ أفكارها في العوَاقِب

وقال الكُمَيْت

ومالِيَ إلاّ آلَ أحمدَ شيعَةٌ ومالِيَ إلاّ مذهَبَ الحقّ مذهَبُ

وقال الآخـــر :

ومالي ذنبٌ أستَحقُّ به الجَفا وإن كان لي ذنبٌ فإنّي تائبُ

وقال الآخـــر :

وما هي إلاّ غَلطةٌ قد غَلطتُها وقَد يَغلطُ الانسان ثمّ يتُوبُ

وقال الآخـــر :

ومِن عادةِ الأيَّام أنَّ صُروفَهَا إذا ساءَ مِنها جانبٌ سرَّ جانبُ

وقال الآخـــر :

ومِن مذهَبي حبُّ الدّيار وأهلِها وللنَّاس فيما يعشقونَ مَذاهِبُ

وقال الآخـــر :

ومَن ربَط الكَلب العَقور ببابه فَعقرُ جَميع النَّاس مِن رابِط الكلب

وقال الآخـــر :

ويوهِمُني أنَّهُ نَاصِحٌ وفِي نُصْحِهِ حُمَةُ العَقْرَبِ

وقال الآخـــر :

هَنيئًا لَكم ماءُ الفُرات وطِيبُه إذا لم يَكُن لي في الفُرات نصيب

وقال الآخـــر :

لا تَجزعنَّ مِن المِدادِ ولَطْخِهِ إنَّ المِدادَ خَلوف ثوبِ الكَاتبِ

وقال الآخـــر :

لا تَكونَنَّ للأمورِ هَيوبًا فإلى خَيبةٍ يصيرُ الهَيوبُ !

وقال الآخـــر :

لا تَنكِحَنَّ لئِيمةً لِمَحاسِنٍ فاللُّؤمُ يَبقى والمحاسِنُ تَذهَبُ

ومِصْدَاقُه قولُه صلّى اللّه عليه وسلّم : إيّاكُم وخَضْراءَ الدِّمَنِ، وسيأتي.

وقال الآخـــر :

لا تَيأسنَّ وإن عزَّ الوصَالُ فَقدْ ... تَجفو أُناسٌ وهُمْ في الغَيبِ أحبابُ

وقال الآخـــر :

لا يُقْبَلُ الصِّدقُ مِن الكذّابِ ... ولَو أتَى بِمَنطقٍ عُجابِ !

وقال الآخـــر :

يا بصيــرًا إلاّ بإبصار كُتــبي ... وجــوادًا إلاّ بردِّ جَــوابِ !

وقال الآخـــر :

يخِيبُ الفَتى مِن حيثُ يُرزقُ غَيرُهُ ... ويُعطَى الفتى من حيثُ يُحرمُ صاحبُهْ

وقال الآخـــر :

يذُمُّون دنياهُم وهُم يَطلُبونَها ... ولَم يُرَ كالدُّنيا تُذمُّ وتُطلب

وهو مثل قول الآخــر :

قَد أجْمعَ النّاسُ على ذمِّهَا ... وما أرى مِنهُم لَها تاركَا

وهذا من توهيمات[28] الخيال وأغاليط الشعراء، وإلاّ فليس لهذا التعجب موقع، ولا للالغاز محلٌّ، إذ العقول السليمةُ كلها بلاشك ذامّةٌ للدنيا وليست بطالبة لها، ومتى وقع منها طلب فمطلوبها غير المذموم، كما أنّ مذمومها غير المطلوب . فإنّ الدنيا من حيث إنّها مزرعةٌ للآخرة، وقنطرةٌ يُعبَرُ منها إليها، وزاد يُبلّغ إليها، لابدّ منها وهي محمودة غير مذمومة، ومن حيث إنّها فتنةٌ وعائقة عن الفوز ومبعدة عن النجاح، وموجبة للعقاب أو العتاب، مذمومة عند كلّ بصير غيرُ مطلوبة، بل مهروبٌ منها غايةَ الهرب، ومنفور منها غاية النفور، ولا يطلبها على هذا الوجه إلاّ أعمى البصيرة، وهذا ليس بذمّها . وقد يذمُّها بلسانه وهو يحبّها سرًا، وهو غير ذامّ لها بالحقيقة . وعلى مثل هذا الذي خالف قولُه فعلَه يَحْسُنُ من جهة الظاهر إنشادُ الشعر السابق، ولا يصحّ الاتفاق، ولكن الأكثر والأغلب هذا، نسأل اللّه السلامة من فتنة المَحيا والمَمات.

---

28) في ب : توهمات.

وقال الآخـــر :

يَرحَـــــمُ اللّهُ صَديقـــــا جاءَ يُهْــدِي لِي عُيُــوبِي

وقال الآخــر :

دعِ المُزاحَ فَقد يُزري بِصاحِبِه وربّما آل في العُقبى الى الغَضَب

وقال الآخــر :

رأيتُ تباعُــدَ الاخــوانِ قُربــا إذا اشْتَمَلتْ على الوُدّ القُلُوبُ

وقال الآخـــر :

رأيتُ الوُدّ لَيسَ يَكادُ يَبقَى إذا كثُــر التّـغضُّبُ والعِتَــابُ

وقال الآخــر :

رُبَّ لَحظٍ يكُون أبلغَ مِن لَفظٍ وأبـــدى لِمُضمَـــراتِ القُلُـــوب

وقال الآخــر :

سأرعاكَ في البُعد المُفَرّقِ بَينَنا كما كُنتُ أرعَى والمَزَارُ قَريبُ

وقال الآخـــر :

سَأُصفيكَ الهَوى مِن كلّ وجهٍ وأمْنحُكَ الرّضَى من كلّ بَابِ

وقال الآخــر :

سَتعلَم هَل ربِحنا أم خَسِرنا إذا فكّـرتَ في أمرِ الـحِسابِ

وقال الآخــــر :

سَقى اللّهُ أيّام التّواصُل بَيننا وردّ إلى الأوطان كلّ غَــريبِ

وقال الآخــر :

سَل الخَيرَ أهْلَ الخَير قِدْمًا ولا تَسلْ فتًى ذاق طعم العَيش مُنذ قريب

وقال الآخــــر :

سَمعتُ عِتابًا يُستطابُ فَليتني أطَلتُ ذنوبي كَي يَطول عِتابُ

وقال الآخـــر :

سَيُغني اللّهُ عن بَقرات زيدٍ ويــأتي اللّهُ بالّلبــن الحَلــيبِ

وقال الآخــــر :

شَهِدنـا وجرَّبنـا أمورًا كَثيـرةً فَلا تـُهملوا نـُصح الصَّديق المُجرَّب

وقال أحد القدماء :

صاح أبصَرتَ أو سَمِعتَ بِراعٍ(29) ردَّ في الضَّرع ما قَرا في الحِلاب ؟

وقال الآخــر :

صُروف اللّيالي أحوَجَتنَا إلَيهِمُ كما احتاجَ صيَّادٌ الى صُحبَة الكَلب

وقال أبو العلاء المعريّ :

والسَّمهَـريَّةُ ليس يشرُف قدرها حتَّى يُسافر لدنُها عَن غابِهِ

والعَضبُ لا يَشفِي امرءًا مِن ثأره إلاَّ بفَقـد نِجادِهِ وقِـرابِهِ

والنَّلهُ يَرعى سَرحَ كلّ فَضيلَةٍ حتَّى يُـروِّحَه الى أربـابِهِ

وقال أيضـا :

وهَجيرةٍ كالهَجر موجُ سرابِها كالبَحر لَيس لمائِها مِن طُحلُب

أوفى بها الحرباء عودى مِنْبرٍ للظّهرِ إلاَّ أنَّه لَـم يَخْطُب

فكـأنَّه رامَ الـكَلامَ فَـمَسَّهُ عِيٌّ فأسْعَدَهُ لِسانُ الجُندُبِ

وقال الآخــر :

وما رحِمُ الأهْلينَ إن سالَموا العِدى بمُجْديَةٍ إلاَّ مُضاعَفَةَ الكَربِ

ولَكن أخو المَرءِ الّذين إذا دَعا أجابوا بما يُرضِيه في السّلم والحَرب

وقال الآخــر :

ما المرءُ أخوُكَ إن لم تُلفِه وزراً عِند الكَريهة مِعوانًا على النُّوبِ

وأعلم أن لفظ الأخ فيه لغاتٌ : يقال أخٌ، وهي اللغة المشهورة، وأخْوٌ بسكون الخاء على مثال فَرْو، وهو الواقع في البيت المذكور، ويقال في الجمع إخْوَة وأخُون، وهذا الثاني هو الواقع في البيت الثاني من البيتَيْن قبل هذا، وحُذفت نونه للاضافة الى المرء، وليس مفردا بدليل الاخبار عنه بالذين.

29) في لسان العرب : صَاحِ هَلْ رَيْتَ أو سَمِعْتَ بِراعٍ....

وقال الآخـــر :

لَعمرُك ما حقُّ امرىءٍ لايعُدُّلي على نفسِه حقًّـا عليَّ بواجِبِ
وما أنـا للنـَّائـِي عليَّ بودِّهِ بوُدِّي وصافي خُلَّتي بمُقـاربِ
ولـكنَّه إن مال يومًـا بجـانبٍ مِن الصَّدقِ والهِجرانِ مِلتُ بجانبِ

وتقدم نحو هذا . وقال جرير، وقد كان اشترى جارية من رجل من أهل اليمامة يقال له زيد، ففـركَـتْه وحنَّت الى بائعها :

تُـكلِّفني مَعيشَةَ آلِ زَيْـدٍ ومَنْ لي بالمرقَّـق والصِّنَـابِ ؟[30]
وقالت : لا تَـضُمُّ كضمِّ زَيْدٍ وما ضمِّي ولَـيسَ مَعي شَبابي ؟

فقال الفرزدق :

وإن تفركْكَ عِلجَةُ آلِ زيْـدٍ ويُعـوزُكَ المرقـق والصِّنـابُ
فقِدْمًا كان عَيشُ أبيكَ مُرًّا يَعيشُ بما يَعيشُ به الكِلابُ

والصِّناب بكسر الصاد . قال المبرد : هو صِباغ يُتَّخذ من الْـخَرْدَلِ والزبيب، ومن ذلك قيل للفرس صِنابِيّ إذا كان في ذلك اللون.

وقال الآخـــر :

ويَأخذ عَيب المر من عيب نفسه مرادٌ لَـعمـــري ما أراد قريبُ

قيل وهذا البيت مبنيٌّ على كلام الأحنف، وقد قال له رجل : دُلَّني على رجل كثير العيوب! فقال : اطلبه عيَّابًا، فإنما يعيب الناسَ بفضل ما فيه !

وقال الآخـــر :

بلَّ المنابِرَ من خَوفٍ ومن وهَلٍ واستَطعَم الماءَ لمَّا جدَّ في الهرب
وألحَنُ النَّاس كلُّ النَّاس قاطبةً وكان يولعُ بالتَّشديقِ في الخُطَب

وهذا الشعر قاله بعض الشعراء في خالد بن عبد الله القَسْرِيّ، وكان من الخطباء البلغاء ؛ فصعد المنبر ذات يوم فخرج عليه المُغيرَةُ بنُ سَعْدٍ بالكوفة في عشرين رجلا، فَعَطْعَطُوا به، فَعَيِيَ خالدٌ وقال : أطْعِمُونِي ماءً ! وهو على المنبر، فعُيِّر

30) في لسان العرب (مادة صنب) : ومَنْ لِي بالصَّلائِقِ والصِّنَابِ.

بذلك، وكتب هشامٌ إليه رسالة وبّخه فيها، وقيل فيه ما تقدّم وقال فيه أيضا يحيى بن نَوْفل :

لأعْلاجٍ ثمَانيةٍ وعَبدٍ لئيمِ الأصْلِ في عَددٍ يَسيرِ
هَتَفتَ بكُلٌ صَوتِكَ أطعِموني شَرابًا ثمَّ بُلتَ على السَّرير !

وسيأتي في الحِكم إن شاء الله ذكرُ كثيرٍ ممَّن أُرتِجَ عليه في الكلام.

وقال محمد بن أبي عُيَيْنَة يعاتب بعض الأشراف :

أتَيتُك زائرًا لقضاءِ حقٍّ فحال السِّترُ دونك والحِجَابُ
وعِندك مَعشرٌ فِيهم أخٌ لِي كأنَّ إخاءَهُ الآلُ السَّرَابُ
ولَستُ بِساقِطٍ في قِدر قَومٍ وإن كَرِهُوا كما يَقَعُ الذُّبابُ
ورائِي مَذهبٌ عَن كلّ ناءٍ بِجانبِهِ إذا عزَّ الذَّهابُ

وقال آخر :

فَلِلّهِ منّي جانبٌ لا أُضيعُه ولِلّهو منّي والبِطالة جانبُ

وقال الآخر :

ويَعرف وجْهَ الحزمِ حتّى كأنّما تُخاطبُه من كلّ أمرٍ عواقِبه[31]

وقال الآخر :

أخٌ لي كأيّام الحَياة إخاؤُهُ تَلَوّن أحيانًا عليَّ خُطُوبُها
إذا عِبتُ مِنه خَلّةً فهجَرتُهُ دعَتني إلَيه خلّةٌ لا أعِيبُها

وقال الآخر :

ماليَ عَقلي وهِمّتي حَسْبِي ما أنا مولًى ولا أنا عَربِي
إن انتَمى مُنْتَمٍ الى أحَدٍ فإنّنِي مُنْتَمٍ إلى أدَبِي

وهذا مثل قول عامر بن الطفيل :

وإنّي وإن كُنتُ ابْن سيّد عامرٍ وفي السرِّ منها والصَّريحِ المُهذَّب
فما سوّدتني عامرٌ عن وراثةٍ أبى اللّهُ أن أسْمو بأمٍّ ولا أبِ

31) سقط هذا البيت من أ.

ولكنَّني أحْمي حِماها وأتَّقي أذاها وأرْمي من رمَاها بمَنكِبِ

وقول بعض الأشراف الطالبيّين :

لَسنا وإن أحسابُنَا كَرُمَت يومًا على الأحسَابِ نتَّكِلُ
نَبْني كما كانت أوائِلُنَا تَبْنِي ونَفْعَلُ مِثْلَ ما فَعَلُوا

وقول الحُسيْن رضي الله عنه، وقد أجزل صلة شاعر فَلِيمَ على ذلك فقال : أتراني خفت أن يقول لست من فاطمة بنت النبي صلّى الله عليه وسلّم ولا عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه ؟ ولكنني خفت أن يقول لست كمِثْلِهِما فيُصَدَّقَ ويُحْمَلَ عنه، ويبقى مخلَّدًا في الكتب على ألسنة الرواة . فقال ذلك الشاعر حينئذ : أنت والله يا ابن رسول الله أعرف بالمدح والذمّ مني !

ويحكى أنَّ رجلا تكلَّم بين يدي عبد الملك بكلام ذهب فيه كلَّ مذهب . فقال له، وقد أعجبه : ابن من أنت يا غلام ؟ قال : ابن نفسي، يا أمير المؤمنين، التي نلت بها هذا المقام منك . وأخذه بعض الشعراء فقال :

كُنِ ابن مَن شِئتَ واتَّخذ أدبًا يُغنيك مأثُورُهُ عن الحَسَبِ
إنَّ الفتى مَن يَقولُ ها أنا ذَا لَيس الفَتى مَن يَقول كان أبي

وآخر في قوله :

كُن ابن من شِئت وكن مؤدَّبًا فإنَّما المرء بفَضل حسِّهِ
وليس مَن تُكرِمُهُ لِغَيرِهِ مِثلَ الَّذي تُكرِمُه بنَفسِهِ

وحكى عن يحيى بن أكثَمَ قال : بينما أنا يوما جالس مع المأمون إذ دخل الدار، فتى أبْرَعُ الناس زيًّا وهيبةً ووقارًا، وهو لا يلتفت إعجابا بنفسه . فنظر إليه المأمون فقال : يا يحيى، هذا لا يخلو أن يكون هاشميًّا أو نحويًّا . ثمَّ بعث من يتعرَّف ذلك منه، فإذا هو نحويّ . فقال المأمون : يا يحيى، أعلمت أن علم النحو قد بلغ بأهله من عزَّة النفس وعلوّ الهمَّة منزلة بني هاشم في شرفهم ؟ يا يحيى، مَنْ قَعَدَ بِه نَسَبُه، نَهَضَ بِه أدَبُه !

ومثله قول أبي العلاء المعري :

لَــو يَعلـمُ الانسانُ مِقــدارَهُ   لَم يفْخرِ المَولى عَلى عَبدهِ
لَـــــولاَ سجايـــــاهُ وأخْلاَقُهُ   لَكان كالمَعْـدومِ في لَحْـدِهِ
ومَجْـدُهُ أفْعَــالُهُ لا الّــذِي   مِنْ قَبلِهِ كَانَ ولا بَعْـدِهِ

وقول أبي محمد الحريري رحمه الله :

لَعَمركَ ما الانسانُ إلاّ ابنَ يومِه   عَلى ما تجلّى يومَه لا ابنَ أمسِه
وما الفَخرُ بالعَظمِ الرّميم وإنّما   فخارُ الّذي يبغي الفخار بنفسه

وقول أبي الطيب :

ما بقَومي شَرُفتُ بل شَرفوا بي   وبنفْسي فخـرت لا بِجُـدُودي

والشعر في هذا المعنى كثير، وأصل هذا كله قولُه تعالى وجلّت كَلِمتُه : **إنّمَا المُؤمِنُونَ إخْوةٌ**، وقوله تعالى : **إنّ أكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللّهِ أتْقَاكُمْ**، وقوله صلّى اللّه عليه وسلّم في حِجّة الوداع : **أيُّهَا النّاسُ، إنّمَا النّاسُ إخْوةٌ، ولَيْسَ لِعَربيٍّ عَلَى عَجَميٍّ فَضْلٌ إلاّ بالتّقْوَى . أيُّهَا النّاسُ، إنّ ربّكُمْ واحدٌ وإنّ أباكُم واحدٌ، كُلُكُمْ لِآدَمَ وآدَمُ مِن تُرابٍ، وأكْرمُكُمْ عِنْدَ اللّهِ أتْقَاكُمْ** . وهو قطعٌ لما كانت فيه العرب من الافتخار بالآباء.

ولعلي كرّم اللّه وجهه :

النّاس من جِهةِ التّمثِيل أكفاءُ   أبوهُــــــم آدمٌ والأمُّ حوّاءُ(32)

ويُنسب إليه :

ما الفَخر إلاّ لأهْلِ العِلمِ إنّهُمُ   عَلَى الهُدى لِمنِ استَهدَى أدلاّءُ
وقَدرُ كلٌ امرىء ما كان يُحسِنُه   والجاهِلون لأهْل العِلم أعـداءُ

وقال الآخــر :

لَئن فخَرتَ بآباءٍ لَهُم كَرمٌ   لَقَد صَدقْتَ ولكن بِئس ما ولَدوا

وقال الكُمَيْت :

ومَا استُنزلَت في غَيرنا قِدر جارنا   ولا ثفئَت إلاّ بنَا حِين تُنصَبُ

---

32) سقط هذا البيت من ب.

وقال أبُو الطّمحان :

وإنّي مِن القَوم الّذين هُمُ هُمُ ... إذا ماتَ مِنهم ميّتٌ قام صاحبُه

نُجوم سَماءٍ كلّما انفضّ كَوكبٌ ... بَدا كَوكبٌ تَأوي إليه كَواكِبُه

أضاءت لَهم أحسابُهم ووجوهُهُم ... دجى اللّيل حتّى نظّم الجزعَ ثاقِبُه

وما زالَ مِنْهم حيثُ كان مسوّدٌ ... تَصيرُ المنايا حيثُ صارت كتائبُه

قوله : نظّم الجَزْعَ ثاقِبُهُ، يريد أنّهم لو استضاء بضيائهم في غياهب الظلام من يَثْقُب الخَرزَ الذي هو أشدّ شيء لأبصر ذلك، فكيف بما هو أظهر ؟ وهذه غاية المبالغة في تنزيل المعقول منزلة المحسوس.

وقال الآخــر :

شَربنا شرابًا طيّبًا عِند طيّبٍ ... كذاكَ شَرابُ الطّيّبين يَطيبُ

شَربنا وأهرقنا على الأرضِ فَضلةً ... فللأرضِ من كأس الكِرام نصيبُ

وقال السّلاَمي :

تَبسّطنــا على الآثــامِ لمّــا ... رأينا العَفو مِن ثَمر الذّنوبِ

وهو كقول المأمون :

لَوْ عَلِمَ أرْبَابُ الجَرَائِمِ تَلَذُّذَنَا بِالعَفْوِ لَتقَرّبُوا إلَيْنَا بالذُّنُوبِ

وهو مأخوذ من قول أبي نواس :

تَعضُّ نَدامةً كفّيكَ ممّــا ... تَركْتَ مخَافَةَ النّـار السُّرُورَا

وقال ضَابِىءُ بن الحَارثِ :

فمن يَكُ أمسى بالمدينة رحْلُه ... فإنّي وقيّــارٌ بهــا لَغَــريبُ

وما عاجِلاتُ الطّير تُدني من الفَتى ... نجاحًا ولا عَن ريثهِنّ يخِيبُ[33]

وربّ أمورٍ لا تضيرُكَ ضَيرةً ... وللقَلب مِن مَخشاتهِنّ وجِيبُ

ولا خَير فِيمَن لا يُوطّنُ نَفسَه ... عَلى نائبات الدّهر حِين تَنوبُ

وقال الغنوي :

33) في زهر الآداب (479:1)

وما عَاجِلاتُ الطّيْـر تَـدري من الفَـتى ... نجاحًـا ولا عـنْ ريثهِـنّ تُجـيبُ

وهَلكُ الفَتى أن لا يُراح على النَّدى   وأن لا يرى شيئًا عجيبًا فيعجبا

وقال جرير بنُ الخَطَفَى :

فغُضّ الطَّرفَ إنَّك من نُميرٍ   فلا كعبًا بَلغتَ ولا كِلابًا !

وبعده :

ولَو وُضعَتْ شُيوخُ بني نُميرٍ   عَلى الميزانِ ما عَدلَت ذُبابًا

وكانت بنو نُمَير من جَمَرات العرب، لم يُحالفوا أحدا لعزّتهم وقوّتهم . فكان الواحد منهم إذا سئل يقول : من بني نُمَير، ويُفخّم صوته إدلالاً بعزّته، حتّى هجا جريرٌ عُبَيْدَ بنَ حُصَيْنٍ منهم بما تقدّم من قصيدة، فوقعت فيهم الموقع، ولم يرفعوا بعدها رأسًا، حتّى كانوا يفرّون من الانتساب الى نُمَير لما وُسِم به . فكان أحدهم إذا قيل له : ممّن أنت ؟ قال : من عامر بن صَعْصَعَة، وهو الجدّ الأكبر.

وممّا يُحكى أن مولىً لبعض باهلة كان يَرِدُ سوق البصرة، فسخر منه بنو نُمَير، فذكر ذلك لمواليه فقالوا له : إذا نَبَزَكَ أحد منهم فقل له :

فَغُضّ الطَّرفَ إنَّك من نُميرٍ   فَلا كَعبًا بَلَغتَ ولا كِلابًا !

فلمّا رجع، سخروا منه ونَبَزوه، فأراد أن يقول البيت فنسِيه فقال : غَمِّضْ وإلاّ جاءَكَ مَاتَكْرَهُ ! فكفّوا عنه عند ذلك وعلموا أنه عرف قول جرير فيهم.

وروي أنّ امرأة مرّت بقوم من بني نُمَيْر، فأخذوا ينظرون إليها ويتواصفونها، فقالت : قَبّحكم الله يا بني نُمَير ! ما امْتَثَلْتم واحدةً من اثنتين : لا قولَ الله تعالى حيث يقول :قُل لِلمُؤمنِين يَغُضُّوا مِن أبصَارهِم، ولا قول جرير حيث يقول : فَغُضَّ الطَّرفَ (البيت) . فأفْحِموا بذلك وذهبوا.

وأجاب بعض بني نمير جريرا عن شعره فقال :

نُميرٌ جَمرةُ العَرب الَّتِي لَمْ   تَزَل في الحَرب تَلتهبُ التِهَابَا

وإنّي إذ أسُبُّ بها كُلَيبًا   فتَحتُ عَليهمُ للخَسف بابًا

ولَولا أن يُقَالَ هَجا نُميرا   ولَم نَسمع لشاعرهم جوابا

رغبْنا عَن هِجاءِ بَني كُلَيبٍ   وكَيف يُشاتِمُ النَّاسُ الكِلابَا ؟

فما ضَرَّ ذلك كليبًا ولا جريرًا ولا نفع نُمَيْرًا. وقصيدة جرير المذكورة هي التي سمَّاها الدَّامِغَة. ولاستمرار الضعة في بني نمير بهجاء جرير قال ابن مناذر يهجو ثَقِيفًا :

وسَوفَ يَزيدُكم ضَعَةً هِجائي كما وضَع الهِجاءُ بنِي نُمَيرِ

وقال عَنترة العبسي يخاطب امرأته :

لا تَذكُري مُهري وما أطْعَمتهُ فَيكون جِلدكِ مِثلَ جِلد الأجْربِ
إنَّ الغَبوقَ لَه وأنتِ مَسُودةٌ فتأوَّبي ما شِئتِ ثمَّ تَحَوَّبي
كَذبَ العَتِيق وماء شن بارد إن كُنتِ سائلتي غَبوقًا فاذهبي !

قوله العَتِيق، يجوز نصبه ورفعه، ومعناه على الجملة الاغراء، أي : عليك بالعتيق، وهو التمر القديم، ولاعرابه تحقيق في علم النحو مشهور.

وقال الآخر :

خُذ مِن أخيكَ العَفو واغْفِر ذنوبه ولاتَكُ في كلّ الأمور تُعاتِبه
فإنَّك لَن تَلقى أخاكَ مُهذَّبا وأيُّ امرىءٍ ينْجو من العَيب صاحبه ؟
أخوك الَّذي لا ينقُضُ النَّأيُ عهدَه ولا عِند صَرف الدَّهر يَزورُّ جانبه
ولَيس الَّذي يلْقاك بالبِشر والرِّضى وإن غِبتَ يومًا لَسَعتكَ عَقاربُه

وقال رجل من بني ضَبَّةَ لعبد الملك :

واللَّهِ ما ندري إذا ما فاتَنا طَلبٌ إليكَ من الَّذي نَتَطلَّبُ
فَلقد ضَربنا في البِلاد فَلم نَجد أحدًا سواكَ الى المَكارِمِ يُنسبُ
فاصبِر لعادتنا الَّتي عوَّدتنا أولا فأرشِدنا الى مَن نَذهَبُ

فقال له عبد الملك : اليَّ ! إليَّ ! وأكرمه وحباه.

وقال ضَمْرَةُ بنُ ضَمْرَةَ :

بَكَرتْ تَلومك بعد وهنٍ في النَّدى بَسلٌ عليكِ ملامَتي وعِتابي !
ولَقد عَلمت فَلا تظُنِّي غَيرهُ أن سَوف تَخلِجُني سَبيلُ صِحابي
أأصرُّها وبُنيُّ عمِّيَ ساغبٌ ؟ فكَفاك مِن إبةٍ عليَّ وعابِ
أرأيتِ إن صرخَتْ بَليلى هامتي وخَرجتُ مِنها باليَ الأثوابِ

هَل تخمُشن إبِلِي عليّ وجوهَها أم تَعصبنّ رؤُوسَها بِسِلابِ ؟

قوله بَسْلٌ، أي حَرَامٌ، كقول زهير :

بِلادٌ بِها نادَمتُهم وألِفتُهُم فإنْ تَقويا مِنهُم فإنّهُم بَسلُ

وقوله تَخْلِجُني، أي تجْذِبُني، والخَلْج الجَذْب، ومنه خَلِيج الماء لانْجذابه الى ناحية ؛ والسَّاغِبُ الجائِعُ ؛ والابَةُ : الحَيَاءُ.

وقال الآخر :

تودُّ عَدُوِّي ثم تزعُم أنّني صَديقُكَ إنّ الرّأيَ مِنك لَعازِبُ

ولَيس أخِي مَن ودّني رأيَ عَينِهِ ولَكِنْ أخي مَن ودّني وهْوَ غائبُ

وقال الآخـــر :

إذا ما عُلوا قالوا أبونا وأمّنا ولَيس لَهم عالينَ أمٌّ ولا أبُ

أي إذا غُلبوا انتسبوا وتحبَّبوا وتقرَّبوا، وإن كانوا هم الغالبين تعظّموا وتبرّؤوا وتبرّموا، وهذا فعل اللئيم.

ذكر أبو علي البغدادي عن ابن الكلبي عن أبيه قال : كان مَرثَد الخير بن ينكف[34] قَيْلاً من أقْيال اليمن، وكان حدبًا على عشيرته محبًّا لصالحها. وكان سُبيع بن الحارث ومَيْثَم بن مَثْوب بن ذي رُعَين تنازعا الشرف حتى تشاحنا، وخيف أن يقع بين حيَّيهما شرٌّ فيتفانَيا. فبعث إليهما مَرثَدٌ فأحضرهما ليُصلح بيهما فقال لهما : إن التّخَفُّطَ وامتطاءَ الهَجَاج، واستِحْقَابَ اللّجَاج، سيَقِفُكما على شَفَا هُوّة في تَورُّدِها بَوارُ الأصيلة، وانقطاعُ الوسِيلة. فتَلافَيَا أمْرَكُما قبل انتِكَاثِ العَقْد، وانحِلالِ العَهْد، وتَشَتُّتِ الألفَة، وتبايُن السُّهْمَة ! وأنتما في فُسحة رافِهة، وقدم واطِدَة، والمودّةُ مُثْرِيَة، والبُقيا مُعْرِضَة. فقد عرفتم أنباء من كان قبلكم من العرب ممّن عَصَى النَّصِيح، وخالف الرشيد، وأصغى الى التقاطع. ورأيتم ما آلت إليه عواقبُ سوءِ سَعْيِهم، وكيف كان صَيورُ امْرِهِمْ قبلاً، فتَلاَفَوا القَرْحَةَ قبل تفَاقُمِ الثَّأيِ واستِفْحَال الدّاء وإعْوَازِ الدّواء ! فإنّه إذا سُفِكَتِ الدّماء،

34) لعله يَنُوف فهو المعروف من ملوك حمير في الجاهلية

استَحْكَمَتِ الشَّحْنَاء، وإذا استَحْكَمَتِ الشَّحْنَاء، تَقَصَّبَتْ عُرَى الابقاء، وشَمِلَ البلاء. فقال سُبَيْع : أيها الملك، إنَّ عَدَاوةَ بَنِي العَلاَّت، لا تُبْرِئها الأسَاة، ولا تَشْفِيها الرُّقَاة، ولا تستقِلُّ بها الكُفَاة ؛ والحَسد الكامن، هو الداء الباطن. وقد علم بنو أبينا هؤلاء أنَّا لهم رِدءٌ[35] إذا رهِبُوا، وغَيْثٌ إذا أجْدَبُوا، وعضُدٌ إذا حاربوا، ومَفْزَعٌ إذا نُكِبوا ؛ وانَّا وإيَّاهم كما قال الأول :

إذا ما عَلوا قالوا أبونا وأمُّنا ولَيس لَهُم عالِين أمٌّ ولا أبُ

فقال مَيْثَم : أيها الملك، إنَّ مَن نَفسَ على ابنِ أبيه الزَّعامة، وجَدبَهُ في المَقَامة، واستكثر له قليلَ الكرامة، كان قَرفًا بالملامة، ومُؤنَّبا على ترك الاستقامة. وانَّا والله ما نعتدُ لهم بِيَدٍ إلاَّ وقد نالهم منا كِفَاؤُها، ولا نذكر لهم حسنةً إلاَّ وقد تطلَّع إليهم مناجزاؤها، ولا تفيَّأ لهم علينا ظلُّ نعمة إلاَّ وقد قوبلوا بِشَرواَها. ونحن بنو فَحْلٍ مُقْرمٍ لم تغدُ بنا الأمهات ولابهم، ولم تنزعنا أعراقُ السوء ولا إياهم. فَعلامَ مَطُّ الخدود، وخَزرُ العيون، والجَخِيفُ والتَّصَعُّر، والبَأوُ والتكبّر ؟ ألِكَثْرةِ عدد، أم لفَضْل جَلَد، أم لطول مُعْتَقَد ؟ وإنَّا وإيَّاهم لكما قال الأول :

لاهِ ابْن عمِّك لا أفضَلتَ في حَسبٍ عنِّي ولا أنت ديَّانِي فتخزوني[36]

ومَقَاطِعُ الأمور ثلاثةٌ : حربٌ مُبيرة، أو سِلْمٌ قريرة، أو مُداَجَاة غَفِيرة. فقال الملك: لا تُنْشِطوا عَقْل الشَّوَارد، ولا تلقحوا العُونَ القَواعد، ولا تُورِّثُوا نيران الأحقاد ! ففيها التلفةُ المستأصلة، والجائحة والأليلة ؛ وعفُّوا بالحِلم، أبْلاد الكَلْم، وأنيبوا الى السبيل الأرشد، والمنهج المقْصَد ! فإنَّ الحرب تُقْبِل بِزبرجِ الغُرُور، وتُدبِر بالويْل والثُّبُور. ثم قال الملك :

ألا هَل أتىَ الأقوال بَذلي نصيحةً حَبَوتُ بها منِّي سُبيعًا ومَيثَما ؟
وقُلت اعلما أنَّ التَّدابُر غادرتْ عَواقبُه للذُلِّ والقُلِّ جُرهُما
فلا تَقدَحا زنْد العُقوق وأبقيا على العزَّةِ القَعساءِ أن تَتهدَّما
ولا تَجنِيا حربًا تَجرُّ عَلَيكُما عَواقِبُها يومًا من الشَّرِّ أشأما

35) في أ وب : أنّ لهم رِدْءًا....
36) البيت لذي الاصْبَع العَدوانِيّ.

فإنَّ جُناةَ الحرب للحيْنِ عُرضةٌ   تُفوِّقُهم مِنها الزُّعافَ المُقسَّما
حَذار فَلا تَستنبثوها فإنَّهَا   تُغادرُ ذا الأنْفِ الأشَمِّ مُكشَّما

فقالا : أيها الملك، بل نَقْبَلُ نصحك، ونُطِيعُ أمْرَك ؛ ونُطفِيءُ النَّائِرة، ونَحُلُّ الضَّغائن، ونَثُوبُ الى السِّلم.

قال أبو بكر بن دريد : التَّخَفُّطُ ركوبُ الرجل رأسَه في الشرّ خاصّة. قال أبو علي : ولم أسمع هذه الكلمة من غيره. فأمَّا التَّخَمُّط بالميم فالتَّكَبُّر. انتهى . وكذا مَن رأينا من اللغويّيين لم يذكروا تلك المادة أصلا. وركب الرجل هَجَاجة : لجَّ ومحك. قاله ابن دريد . وفي الصحاح : ركِبَ هَجَاجِ غير منصرف، وركِبَ هَجَاجِ كَقَطَامِ : ركِبَ رأسه، وأنشد :

وقَد ركِبوا علَى لَومي هَجَاجِ

واستحقاب اللجاج استفعال، إمَّا من حَقِيبَةِ الرَّحْلِ، وهو ما يكون وراء الرحل يُمْلأُ حشيشًا أو تبنا، وإمَّا من الحِقَاب، وهو بريم تَشُدّ به المرأةُ وسطها. وعلى الأول يكون استحقاب اللَّجَاج معناه جعلُه في الوعاء ؛ وعلى الثاني يكون معناه الاضرارُ به على المجاز فيهما ؛ والهُوَّة : الحُفْرة. والبَوار : الهَلاك ؛ والأصِيلَة : الأصل : والانتكَاث : الانتقاض. ورافهة : ناعمة. وواطِدَة : ثابتة. ومُثْرية : مُتَّصلة، من الثَّرَى وهو التراب النَّدِيّ. والمعرضة : المُمْكِنة، من أعْراضَ الصيدُ إذا امْكَن من عَرْضِه، أي جَنْبِه ليُرمَى. وصَيُور الأمر : ما يؤولُ إليه . واسْتِفْحَالُ الداء : اشتدادُه. وتَقَصَّبت : تَقَطَّعت. والأسَاةُ : الأطبَّاء. والزَّعامة : الرِّئاسة : وجدبه في المقامة، أي عابه، والمقامة: المجلس، وقد يُراد به الجُلاَّس، ويحتملهما قول زهير :

وفِيهم مَقاماتٌ حِسانٌ وجوهُهم   وأنْدِيةٌ يَنتابُها القَولُ والفِعْلُ

وقرفًا بالملامة، أي خليقًا لها. وشَرواهَا : مثلُها. والخَزْرُ : النظرُ بمؤخَّر العين، وهو معروف عند العامَّة اليوم. والجَخِيفُ : التكبّر. والمداجاة : المساترة. والغَفِيرة : الغفران. ولا تُنْشِطوا : لا تَحُلّوا. ولا تُلْقِحُوا العُونَ : لا تسعروا الحرب، وأصله في الابل ؛ يقال : لقحت الناقة إذا حمَلت وألقحها الفحل. والعُونُ جمع عَوان، وهي الثَّيِّب،

وتستعار للحرب التي قوتل فيها مرّة أخرى. وتُورِّثوا : تُذْكُوا . والاليلَة : الثَّكْل. والابلاد : الاثار، واحدها بلد.والقعساء : الثّابتة. وتُفوّقهم : تَسْقِيهم الفُواقَ، أي ما بَيْن الحَلْبَتَيْن. وتَسْتَنْبِثُوهَا : تَسْتَخْرِجُوا نَبِيثَها، والنَّبيثة في الأصل ما يُخْرجُ من البئر إذا حفرت. ومُكَشَّم : مقطوع.

وقال الآخــر :

يَرى الحاضِرِ الشَّاهِد المُطمَئِنُ مِن الأمْـر مالا يَـرَى الغَـائبُ

وقال الأحوص :

قَــالت وقُلتُ تَحـرَّجي وصِلِي حَبل امرىءٍ بوصَالِكُمْ صبٌ

صَاحِبْ إذا بَعلي فَقُلتُ لها الغَدرُ شيءٌ لَيسَ من ضَربي

ثِنتَـانِ لا أدنــو لوصْلِهمَــا: عِرسُ الخَليل وجَارةُ الجَنبِ

أمَّا الخَلـيلُ فَلستُ فاجِـعَهُ والجـــارُ أوصَـــاني بِهِ ربِّي

عوجَـا كَـذا نَذكُـرْ لغَانِـيَةٍ بَعضَ الحَديث مَطيَّكُم صَحبِي

ونَقُلْ لَها فِيم الصُّدُود ولَم أذنِـب بَل أنتِ بَدأتِ بالذَّنبِ

إن تُقـبلِي نُقـبل ونُنزلكُــمُ منَّـا بِـدارِ السَّهْلِ والـرُّحبِ

أو تُدبِـرِي تَكـدُرْ مَعِيشتُنـا وتُصَـدَّعِي مُتَلائِـمَ الشَّعْبِ

ولما سمع أبو السائب هذا الشعر قال : هذا المحبّ عينـًا لا الذي يقول :

وكُنتُ إذا حَبيبٌ رَامَ صَرمِي وجَدتُ ورَايَ مُنْفَسحًا عَرِيضَا

اذهب، فلا صَحِبَك اللّهُ ولا وسَّع عليك !

قلت : وإنمَّا قال ذلك لأنَّهم يَروْنَ أنّ فضيلة المحبّ وكمال العاشق أن يتطبَّعَ بِلَواعج البَلْبَال، ويستديمَ الصَّبَابة على كلّ حال.

وحدَّث بعض الأدباء قال : قال عروة بن عبد الله : نزل ابنُ أذَيْنة في دارنا بالعقيق، فسمعتُه يُنشد :

إنَّ الَّتي زعَمَت فُؤادَكَ ملَّهَا خُلِقَتْ هواكَ كما خُلِقْتَ هوىً لها

كَيف الَّذي زعَمت بِهِ وكِلاهُما أبدى بِصاحبِهِ الصَّبابَة كلَّها ؟

ولَعمرها لَو كان حبُّكَ فَوقَها يومًا وقَد ضَحيتَ إذا لأظلَّها !
وإذا وجَدت لَها وساوسِ سَلوةٍ شَفَعَ الضَّميرُ الى الفُؤاد فَسَلَّها
بَيضاء باكَرها النَّعيم فَصاغَها بلَطافةٍ فأدقَّها وأجلَّها
لمَّا عَرضت مُسلِّمًا لِي حاجةٌ أخْشى صُعوبَتها وأرجُو ذَلَّهَا
مَنَعَت تَحيَّتَها فَقلتُ لصاحبِي ما كان أكثرها لَنا وأقلَّها !
فَدنا وقَال لَعلَّها مَعذورةٌ في بَعضِ رقْبتِها فَقُلت لعلَّها

قال وبلغ ذلك أبا السَّائِبِ المَخْزومي، فأتاني وقال : أنشِدنِي ما سمِعتَ من عُروةَ أذيْنة، فأنشدته إيَّاها، فلما بلغت البيت الأخير طرب وقال: هذا والله الدائم الصبابةِ الصادق، لا الذي يقول :

إن كان أهْلُكِ يَمنعونَكِ رغْبَةً عَنِّي فأهْلي بِي أضنُّ وأرغَبُ

ثم قلت : هلمَّ الى الطعام ! فقال : والله ما كنت لأخْلِطَ بلذَّة هذه الأبيات طعامًا الى الليل ! وانصرف.

قلت : ووقع ما يشبه العيب المذكور في قول امرىء القيس :

أأسْمَاءُ أمْسَى ودُّها قَد تَغَيَّرا سَنُبدلُ إن أبْدلتْ بالودِّ آخرا

ومن نمط المحمود في استدامة الحبِّ والصبابة قول بعضهم :

إذا مَا صَديقٌ أسا مرَّةً وقَد كانَ فِيما مَضَى مُجمِلاَ
ذكَرتُ المُقَدَّمَ مِن فِعلِه فَلا يَنْقُضُ الآخِرُ الأوَّلاَ

وقول الآخر، ويُنسب للمجنون أو إبراهيم بن العبَّاس :

تَطَلَّعَ مِن نَفسي إلَيكَ نوازعٌ عَوارفُ أنَّ اليَأس مِنك نَصيبُها
وزالت زوالَ النَّفسِ عَن مُستقرِّها فَمن مُخْبري في أيِّ أرضٍ غروبُها ؟
حَلالٌ لِليلَى أن تَرُوع فُؤادهُ بهَجرٍ ومغفورٌ لَليلى ذنوبُها

وقال الآخر :

ومِن شَغَفي فيكُم ووجدِيَ أنَّني أهونُ ما ألقاهُ وهُو هَوانُ
ويَحسُن قُبح الفِعل إن جاء منكُم كما طاب ريحُ العُودِ وهو دُخانُ

وقال الآخـــر :

إن أمُت وجْـدا فَلي قَـدمٌ بـِي الى حتْفِ الهَوى سَعَتِ
أو تُـرقْ تِلكَ الّلحاظُ دمِي فَهْـيَ في حلٍّ وفي سَـعَةِ

وقال الآخـــر :

أبدا أزيدُ مَع الوصَالِ تَلهُفّا كالعِقد في جِيد المَليحَة يقلقُ
ويَزيـدُني كلفـّا فأذكـر فِـعلَهُ كالمِسكِ تَسحقُه الأكُفُّ فَيَعبَقُ

وقال الآخـــر :

فرّقت بينَنـا الحَـوادثُ لَكِـن فيَّ نفسٌ إليكُـمُ أدنيهـَا
وكأنـّي في الودّ فَأرَةُ مِسْكٍ أفرغوها ونَفْـحَةُ الطّـيبِ فيهَا

وقال الآخـــر :

وإذا المَليحُ أتى بذنبٍ واحدٍ جَاءتْ مَحاسِنُه بألفِ شَفِيعِ

وقال بعضهم فيه :

ما ذلـّتي في حُبّكُم وخُضوعِي عارٌ ولا شَغَفي بِكم ببَديعِ
دينُ الهَوى ذلٌّ وجِسمٌ ناحلٌ وسُهادُ أجْفانٍ وفَـيضُ دموعِ
كَم قَد لحاني في هَواكُم لائِمٌ وثَنيتُ عِطفي عَنه غَير سَميعِ
ما يُحدثُ التَّقبيحُ عِندي سَلوةً لَكم ولَو جِئتُم بكُلِّ فظيعِ
وإذا المَليحي أتى بذنبٍ واحدٍ جاءت مَحاسنُه بألْـفِ شَفِيـعِ

وقال الحكيـم :

مُستقبل بالّذي يَهوى وإن كَثُرت مِنه الذُنوب ومَعذُورٌ بما صَنعا
في وجهِهِ شافعٌ يمحو إساءتَه مِن القُلوب وجيهٌ حيثُما شَفَعا

وقول أبي فِراس الحَمدانيّ :

أسَـاء فَـزادتْه الاساءةُ حُظْـوةً حَبيبٌ عَلى ما كان مِنه حَبيبُ
تَعُدُّ عليَّ الوشِيـاتُ ذُنـوبَه وأين من الوجه المَليحِ ذنوبُ ؟

وقال الآخـــر :

وكلَّمـــــا رُمتُ أن أقـــــابِلَه عَلى تَمــاديهِ في تَعــدّيهِ
جاءتْ عَلى غَفلةٍ مَحـــاسِنُه تُلـزمُني الصَّفح عَـن مَساويهِ

وقال الآخـــر :

كُلَّمــا أذنَب أبــدى وجْهُهُ حُجَّةً فَهـوَ مليٌّ بالحُـجَجْ
كَيف لا يُفـرطُ في إجـرامِه مَن مَتى شَاء مِن الذّنبِ خَرَجْ

وقال الآخـــر :

عفَّت محاسنُه عِنـدي إساءَتَه حتَّى لَقَد حَسُنَت عِندي مَساويهِ

وقال الآخـــر :

لي حبيبٌ كالظَّبي غرٌّ ولَكِن بِعَذابي في الحُبِّ ما أغْراهُ !
وإذا كرَّر الذُّنــوبَ فَيكْفــيهِ اعتِـذارًا ممَّــا جَنى أن أرَاهُ

وقال الآخـــر :

ومُستنصرٍ في العُذر مُستَعجِل القلى بَعيدٍ من العُتبَى قريبٍ من الهجر
لَه شافعٌ في القلبِ مَعْ كلِّ زلَّةٍ فَليس بِمحتاج الذُّنوب الى العُذر

وقول أبي الطيب :

فإن يَكن الفِعل الَّذي ساء واحدًا فأفعالُه اللَّائي سَــرَرن ألــوفُ

وقال حَاتِم أو عَمْرو بن الأهْتَم :

أضاحِك ضَيفي قَبل إنزالِ رحله ويخصُب عِندي والمحلُّ جديبُ
وما الخِصب للأضيافِ أن يكثُر القرى ولكنَّما وجْهُ الكَريـمِ خَصيبُ

وسنذكر ما في هذا النزع من الشعر بعد إن شاء الله تعالى. وقال رجل من عَبْسٍ :

إذا راحَ ركبٌ مُسرعونَ فَقلبُه مَع الرَّائحين المُسرعِين جَنيبُ
وإن هبَّ عُلويُّ الرِّياح رأيتَني كأنّي لِعُلْويَّاتِهِنَّ نَسيبُ
فَلا خيرَ في الدُّنيا إذا أنت لم تزر حَبيبًا ولم يَطرَب إليك حبيبُ

وقال آخـــر :

مَن كان يزعُمُ أنْ سَيكتُمُ حُبَّه حتَّى يَشكّكَ فيه فَهو كَذُوبُ

الحبُّ أغلبُ للفؤادِ بقهرِهِ   من أن يُرى للسّتر فيه نصيبُ
وإذا بَدا سرُّ اللّبيبِ فإنّه   لم يبْدُ إلاّ أنّهُ مَغلوبُ
إنّي لأبغِضُ عاشقًا مُتستّرًا   لم تتّهِمهُ أعيُنٌ وقلُوبُ

وقال ذُو الرُّمّةِ :

إذا هبّتِ الأرواحُ مِن نحو جانبٍ   بِه أهلُ ميٍّ هاج قَلبي هُبوبُها
هوى تَذرفُ العَينان منهُ وإنّما   هوى كلّ نفسٍ حيثُ حلّ حبيبُها

وقال المجنون :

يقولون لي يومًا وقَد جئتُ حيّهم   وفي كَبدي نارٌ يشُبُّ لَهيبُها
أما تختشي من أسدِنا ؟ فأجَبتُهم   هَوى كلّ نفسٍ حيث حلّ حبيبُها

وقال بعض الأعراب :

شَكوتُ فقالت كلُّ هذا تبرُّمًا   بِحبّي أراح اللّهُ قَلبَك من حبّي !
فلمّا كَتمتُ الحُبّ قالت لشدّما   صبرتَ وما هذا بفعل شجي القَلب
وأدنو فَتُقصيني وأبعُدُ طالبًا   رضاها فتعتدُّ التّباعُد من ذنبي
فَشكوايَ تؤذيها وصَبري يسوؤها   وتجزعُ من بُعدي وتنفُر من قُربي
فَيا قَومُ هل من حيلةٍ تعرفونها ؟   أشيروا بها واستَوجِبوا الشّكر من ربّي !

وتقدّم هذا المعنى في حرف الهمزة، وقريب منه، وإن عاكسه في الترديد، قولُ امرىء القيس :

وقالت مَتى يُبخَل عَليك ويُعتَلل   يَسُؤْكَ وإن يُكشَفْ غرامُك تَدربِ

وقال الامام العارف بالله تعالى أبو بكر الشّبْلِيُّ - رضي الله عنه - وقد دخل على شيخه الامام أبي القاسم الجُنَيْد - رضي الله عنه - فوقف بين يديه وصفّق بيده وقال :

عوّدوني الوصالَ والوصْلُ عذبُ   ورمَوني بالصّدّ والصّدُّ صعُبُ
زعموا حِين أزمَعوا أنّ ذنبِي   فَرطُ حُبّي لَهُم وما ذاكَ ذنبُ
لا وحقّ الخُضوعِ عِند التّلاقِي   ما جزا مَن يُحبُّ ألاّ يُحَبُّ

فأجابه الشيخ فقال :

وتمنَّيتُ أنْ أراكَ فلمَّا رأيْتُكَا
غلَبَتْ دَهْشَةُ السُّرورِ فلَمْ أمْلِكِ البُكَا

وقال أبو عليٍّ الفارسيُّ النحويُّ :

خَضَبْتُ الشَّيبَ لمَّا كان عيبًا وخَضْبُ الشَّيبِ أولى أن يُعابا
ولَم أخضِب مخافَةَ هجرِ خلٍّ ولا عيبًا خَشيتُ ولا عِتابا
ولكنَّ المَشيبَ بَدا دَميمًا فَصيَّرت الخِضَابَ لَه عِقابَا

وسيأتي ذكر ما في الشّيب والخِضَاب مُسْتَوفيً بعدُ إن شاء الله تعالى :

وقال عبدُ الله بنُ سَعْدٍ المَوصِلِيُّ الشّافعيّ :

قَالُوا سَلاَ، صَدَقُوا عَنِ السُّلْوَانِ لَيْسَ عَنِ الحَبِيبِ
قَالُوا : فَلِمْ تَرْكُ الزِّيَارَةِ ؟ قُلْتُ : من خَوفِ الرَّقيبِ
قَالُوا : فَكَيفَ يَعيشُ مَعْ هَذَا ؟ فَقُلْتُ : مِن العَجيبِ

وقال أبو العَربِ الصِّقِلّيُّ :

لا تَعجبَنَّ لرأسِي كَيف شاب أَسَىً واعجَبْ لأسودِ عيني كيف لم يَشِبِ
البَحرُ للرُّومِ لا تَجري السَّفينُ به إلاّ على خطرٍ والبَرُّ للعربِ(37)

وسبب قوله ذلك أن المعتمد بن عبّاد بعث إليه بخمسمائة دينار وأمره أن يتجهَّزَ بها ويقدم عليه، فكتب إليه الحُصْريُّ :

أمرتَني بِركوبِ البَحرِ أقْطعُه غَيري لك الخَير فاخْصُصه بذا الداء
ما أنت نوحٌ فتُنجِيني سَفينَتُه ولا المسيحُ أنا أمْشي على المَاءِ

وقال أبُو الوفَاءِ(38)

ومن كان في المَسْعى أبوه دليلُه تَدانى لَه الشّأوُ الّذي هُو طالِبه

وقال يحيى بن خالدِ بنِ بَرْمَكَ :

انصَبْ نهارًا في طِلاب العُلى واصْبِرِ على فَقد الحَبيب القَريبْ
حتّى إذا اللّيلُ أتى مُقبلا واستَتَرت فيه وجُوه الغُيُوبْ

---

37) في ب : إلاّ عَلى غَرَرٍ والبرُّ لِلعَرَبِ
38) حرف في النسختين فكتب فيهما أبو الوفاة.

فَكابِـد الـلَّـيلَ بمـا تَـشتهِي   فإنَّمـا الـلَّـيلُ نَـهـارُ الأريبْ
كَم مِن فَـتىً تَـحسِبه ناسكًا   يستَقبِل الـلَّـيلَ بأمرٍ عَـجيبْ
غطَّى عَلَـيه الـلَّيلُ أستَـارَهُ   فَباتَ في لَـهوٍ وعيشٍ خَـصيبْ
ولَـذَّةُ الأحمـقِ مَـكشوفةٌ   يَـسْعَـى بها كُـلُّ عَـدوٍّ رَقِيبْ

وسبب هذا الشعر أنَّ ابنه الفضل بن يحيى كان الرشيد قد ولاَّه عمل خراسان، فأقام بها مدَّة، ثم وصل كتاب صاحب البريد إلى الرشيد، ويحيى بين يديه جالس، مضمَّنه أنَّ الفضل اشتغل بالصيد واللذات عن النظر في أمور الرعيَّة. فلمَّا قرأ الرشيد الكتاب رمى به الى يحيى وقال له : يا أبي ! اقرأ هذا الكتاب واكتب إليه ما يردُّه عن هذا. فكتب إليه يحيى على ظهر كتاب صاحب البريد : حفظك الله يا بنيَّ وأمتع بك ! قد انتهى إلى أمير المؤمنين ما أنت عليه من التشاغل بالصيد ومداومة اللَّذات عن النظر في أمور الرعيَّة فأنْكَرَه، فعاوِدْ ما هوأَزْيَنُ بك، فانه مَن عاد إلى ما يَرِيبُه ويَشِينُه لم يعرفه أهل دَهره إلا به، والسلام. وكتب في أسفله الأبيات المذكورة، والرشيد ينظر الى ما يكتب. فلمَّا فرغ قال : أبلغت يا أبي ! فلمَّا ورد الكتاب على الفضل، لم يفارق المسجد نهارا إلى أن انصرف عن عمله.

وقال الامام الشافعي رضي الله عنه : تزوجتُ امرأةً بمكة من قُرَيْش، وكنت أمازحها فأقول :

ومِـن البَلـيَّةِ أنْ تُـحِبَّ   فَلاَ يُحِـبُّكَ مَـنْ تُحِـبُّهْ

فتقول هي :

ويَصُـدُّ عَنْكَ بِـوجْهِهِ   وتَـلَجُّ أنتَ فَلا تغـبّه

وقال الشريف الرضي :

ولَقَد وقَفْتُ عَلى طُلولِهِـمُ   وربُوعُها بِيَـدِ البِلَـى نَـهبُ

ومن أعجب الاتفاق أنَّ بعض الأدباء مرَّ بدار الشريف هذا التي ببغداد، وقد خَرِبَتْ وذهبتْ بهجتُها، ولم يبق منها إلاَّ آثار تشهد لها بالحسن والنَّضارة. فوقف وتمثَّل بالبيت المذكور وهو لا يعرف لِمَن الدارُ . فمرَّ به شخص وسمعه يُنشد البيت فقال له : أتعرف هذه الدار ؟ قال : لا . قال : هي دار الشريف صاحب هذا البيت . وهذه تشبه حكاية

عُبَيْدَةَ الجُرهُمِي، وكان دخل على معاوية فقال له : حدّثْنِي بأعجبِ ما رأيتَ . فقال : مررت ذات يوم بقومٍ يدفنون ميتًا لهم، فاغرورقت عيناي بالدموع، وتمثّلت بقول الشاعر :

يا قَلبُ إنّكَ من أسْماءَ مغرورُ فاذكُر، وهَل ينفَعَنْكَ اليوم تذكيرُ؟
فاستَقدر اللّه خيرًا وارضينّ به فبينما العُسر إذْ جاءت مياسيرُ
وبينما المَرءُ في الأحياءِ مُغتبطٌ إذا هو الرَّمس تَعفوه الأعاصيرُ
يَبكي الغَريبُ عَليه لَيس يَعرفُه وذُو قَرابَتِه في الحَيِّ مَسرورُ

فقال لي رجل : أتعرف من يقول هذا الشعر ؟ فقلت : لا . فقال : إنّ قائله هو الذي دفنّاه الساعة، وأنت الغريب الذي تبكي عليه، وهذا الخارج من قبره أمَسُّ الناسِ رحِمًا وأسرُّهم بموته . فقال له معاوية : لقد رأيتَ عجبا ! وقال صرُّ دُرّ :

إنّ الهِلال يُرتَجى طُلُوعُه بَعد السِّرار لَيلَةَ احْتِجابِه
والشَّمس لا يُويَسُ مِن طُلُوعِها وإن طَواها اللّيلُ في جَنابِه

وقال :

كَم عَودةٍ دلّت عَلى دوامِها والخُلد للانسَانِ في مآبِهِ !
لَو قَرُبَ الدُّرُّ عَلى جالِبه ما لجَّجَ الغائصُ في طِلابِه
ولَو أقامَ لازمًا أصْدافَه لَم تَكُنِ التِّيجانُ في حِسابِهِ
ما لُؤلُؤُ البَحر ولا مَرْجَانُهُ إلاّ وراَء الهَولِ من عُبابِه

وقال الآخر :

جُروحُ اللّيالي ما لَهُنَّ طَبيبُ وعَيش الفَتى بالفَقر لَيسَ يطيبُ
وحَسبُكَ أنَّ المَرءَ في حالِ فَقره تُحمِّقُه الأقوامُ وهْوَ مُصِيب
ومَن تَعتَورُهُ الحادثاتُ بِصَرفِها يَمُتْ وهْو مغلوبُ الفؤاد سليب
وما ضرّني أن قال أخْطأتَ جاهلٌ إذا قال كلُّ النّاس أنتَ مُصِيب

وقال عليُّ بنُ الجَهْمِ :

سَقى اللّهُ ليلاً ضمّنا بَعد هَجعةٍ وأدنَى فُؤادا مِن فُؤادٍ مُعذَّب

فَبتْنا جميعًا لَو تُراقُ زجاجةٌ   مِن الخَمر فيما بَيننا لم تسرَّبِ

وهذا معنىً بليغٌ في العناق، أخذه من قول بشَّار :

فَبتنا معًا لا يخلُص الماء بينَنا   إلى الصُّبح دوني حاجبٌ وسُتورُ

وأبلغ منه في هذا المعنى قول عبد الله بن المعتزّ :

ما أقْصَر اللّيلَ علَى الرّاقِد   وأهْونَ السُّقْمَ على العائِدِ !

يَفديكَ ما أبْقَيتَ مِن مُهجَتي   لَستُ لما أولَيتَ بالجاحِد

كأنَّني عانَقتُ ريْحانَةً   تَنفَّسَتْ في لَيْلِها البَارِدِ

فلَو تَرانَا فِي قَميصِ الدُّجَى   حَسِبتَنا مِن جَسَدٍ واحِدِ

وهو مأخوذ من قول الآخر :

خَلَوتُ فَنادَمتُها سَاعَةً   عَلى مِثلِها يَحسُدُ الحاسِدُ

كأنَّا وثَوبُ الدُّجَى مُسْبَلٌ   عَلينا لِمُبْصِرِنَا واحِدُ

وأبلغ من هذا عندي قولُ ابن الرُّوميّ :

أعَانِقُها والنَّفسُ بَعدُ مَشوقَةٌ   إليها وهَل بَعدَ العِناق تَدانِ ؟

وألْثِم فاها كَيْ تموتَ حرارَتي   فَيشتدُّ ما ألقَى من الهَيَمانِ

ولَم يَكُ مِقدارُ الَّذي بي من الهَوى   لِيشْفيَه ما ترشُفُ الشَّفَتانِ

كأنَّ فُؤادِي ليس يَشفي غَليلَه   سِوى أن يُرى الرُّوحانِ يمتزجانِ

فإنَّ الامتزاج أخَصُّ مُطْلَق الوحدة، وأصْرَحُ في قطع العدة، وذلك في الأرواح أبلغ وأبدع منه في الأجسام، غير أنَّه في الشعرين السابقين إخبارٌ عن أمر هو واقع أو كالواقع، بخلاف هذا.

ولابن عَبْدُوس الفارسيّ في العناق أيضا :

لاَ والمَنازِلِ مِن نَجدٍ ولَيلتِنا   بِفَيْدَ إذ جَسَدانا بيننا جَسَد

كَم رَام فينا الكَرى من لُطف مسلَكِه   نومًا فما انْفكَّ لا خدٌّ ولا عَضُدُ !

وهو نحو ما للأوَّلين وأبلغ من حيث الجَزْم[39]

---

39) في ب : الحزم.

ولصالح بن موسى :

لي سَيِّدٌ ما مِثلُه سيِّدٌ تَصَدَّتِ الحُمَّى لَه فاشْتَكَا
عانقـتُه عِنـد مُوافاتِهـا والأفْقُ باللّيلِ قَد احْلَو لَكا
فجاءَتِ الحُمَّى لِعادتِها فَلم تَجِد ما بَينَنا مَسلَكا

وهو نحو ما لابن الجهم وأبلغ منه، لانّ عدم نفوذ المعنى أغرب من عدم نفوذ الجسم.

ولابن رشيق أيضا :

ومُهَفهَفٍ يَحمِيه عَن نَظر الوَرى غيرانُ سُكنَى المَوتِ تَحتَ قِبابِه
فَلَثَمت خداً مِنه ضرَّمَ لوعَتي وجَعَلت أطفيءُ حرّها بِرضابِه
وضَمَمتُه للصَّدر حَتّى استَوهَبت منّي ثيابي بَعض طيب ثيابه
فكأنَّ قَلبي من وراء ضُلُوعه طربًا يُخبرُ قَلبَهُ عمّا به

ولابن المعتز :

يارُبَّ إخوانٍ صَحِبتُهُمْ لا يَرفَعونَ لسَلوةٍ قَلْبَا
لَو تَستَطِيعُ قُلوبُهم خَرقَتْ أجسامَهُم فَتَاعانقَت حُبَّا

وهذا أبلغ ما سمعنا في الباب، وتركنا ما قيل في مُطْلَقِ العِناقِ. وهو كثيرٌ خشيةَ الاطناب.

وقال أبُو فِتْيَان المِصريّ في باب المدح :

رَغِبتُ لِنَفسي أن أكُونَ مُصاحبًا أناسًا إذا قِيدُوا الى الذُّلّ أصحبوا
فجاوَرتُ ملكًا تَستهلُّ يَمينُهُ ندىً حين يرضى أو ردىً حين يغضَبُ
تَدور كُؤوس الحَمد طورًا فَينتشي وطورا تُغنّي المُرهفاتُ فيطربُ
عُرِفتَ فكانَ الانتِسابُ زيادةً وغيركَ يُخفيهِ الخُمولُ فَيُنسَبُ
وفِي بَعضِ ذا المَجد الّذي ظفِرتَ به يَداكَ غِنىً عمّا بَنى الجَدُّ والأبُ
قَضَى اللّهُ أن يزداد بيتُك رفعَةً على أنّه فوقَ النُّجومِ مُطَنَّب

وقال أبو العلاء :

ردَّت لَطافَتُه وحِدَّةُ ذهنِه وحْشَ اللُّغاتِ أوانسًا بخِطابِه

كالنَّحل يجني المُرَّ من نورِ الرُّبى فيعُودُ شهداً في طريف رضابِهِ

وقال أبو المظفر :

يَا من يُساجلُني ولَيس بمُدركٍ شَأوِي وأينَ لَه جَلالَةُ مَنصبِي ؟

وسيأتي تمامُهذا الشعر بعد، إن شاء الله تعالى :

وقال مالكُ بْنُ المُرحَّلِ :

وبَيداءَ كَانت لي ضُلوعًا تُكِنُّني كأنّيَ فيها لَوعَةٌ ووجِيبُ
وتَحت قَميص اللّيل منّيَ مِجْمرٌ وفَوق رداءِ الصُّبحِ منّيَ طِيبُ
وفي مُقلَة الظّلماء منّيَ مورِدٌ لَه بَين أهدابِ السَّحاب دبِيبُ
وفي مَبسَم الإصباحِ مِسواكُ إسحِلٍ ولَكنَّه مَهما عَجَمتَ صَلِيبُ
فَيَقضي عليَّ اللّيلُ واللّيلُ أدعَجٌ ويَفصِمُ عنّي الصُّبح وهْوَ شَنيبُ

وقال الآخــر يرثي صديقًا له نصرانيًّا :

أخي بوِدادٍ لا أخي بِدِيانَتي ورُبَّ أخٍ في الوُدّ مِثلُ نَسيبِ
وقالوا أتَبكي اليَومَ من لَستَ صاحبًا غداً ؟ إنَّ هذا فِعلُ غَير لَبيبِ
ومن أين لا أبْكي حبيبًا فَقدتُه إذا خاب مِنه في المَعادِ نَصيبي ؟

وقال بعض الأعراب :

أحُجَّاج بيت اللّه في أيِّ هَودجٍ وفي أيِّ بيتٍ من بيوتِكُم حِبِّي ؟
يقولون هَذا آخر العَهد منكُم فَقلت وهَذا آخِرِ العَهد من قَلبي

وقال الآخــر :

لَيس ليَوم البَين عِندي سِوى مَدامِــعٍ يَجمعُهــا سَــكْبُ
كأنَّمـــا فُضَّ بأجْفانِهَـــا رُمَّـــانةٌ فانْتَثَــرَ الــحَبُّ

وقال الآخــر :

والغُصنُ قَد مال نَحو النَّهر فالتَقيا على هَوىً حين غنَّى الطَّائر الطَّرب
فَقبَّل النَّهر غُصنًا ثَغرُه زَهَرٌ وقبَّل الغُصنُ نَهراً ثَغرُه حَبَبُ

وقال الآخــر :

قُم أدِرْهَا فاللّيلُ رقَّ دُجاهُ وبَــدا طَيلَسَــانُه يَنجــابُ

وكأنَّ الصَّباحَ في الأُفْقِ بَازٌ والدُّجَى بَين مِخْلَبَيهِ غُرابُ
وكَأنَّ السَّماءَ لُجَّةُ بَحرٍ وكَأنَّ النُّجومَ فِيه عُبَابُ

وسيأتي ما قيل في هذا المعنى من مختار الشعر :

وقال محمدُ بنُ حُسَامِ الدِّين :

ألا إنَّ أرضَ الغَربِ أفْضَلُ موطنٍ تُساقُ إليه الوَاخِداتُ النَّجائبُ
ولَو لم تَكن في الغَرب كلُّ فضِيلةٍ لمَّا حُرِّكت شوقًا إليه الكَواكبُ

وقال الآخــر :

قَوِّض خِيامَك عَن أرضٍ تُهانُ بها وجانب الذُّلَّ إنَّ الذُّلَّ مُجتَنَبُ
وارحَلْ إذا كانت الأوطانُ مَضْيَعَةً فَالمنْدَلُ الرَّطبُ في أوطانه حَطَبُ

وتقدَّم هذا المعنى مستوفى . وفي معناه أيضا قول سَهْل بن مَالِك :

مُنغَّص العَيش لا يأوي إلى دعةٍ مَن كان ذا ولدٍ أو كان ذا بلَدِ
والسَّاكنُ النَّفسِ مَن لم تَرضَ همَّتُه سُكنى مكانٍ ولم يَسكُن الى أحَدِ

وقال ابن الخطيب :

وإذا تنغَّصَكَ الزَّمان بِبَلدةٍ فاطو المَراحِل كَي تَحوزَ كمَالاَ
لمَّا توغَّل في السُّرى بَدرُ الدُّجى أبْصرتَه بَدرًا وكان هِلالاَ

وقال الآخــر :

مَلِلتُ حِمصَ وملَّتني فَلو نَطَقَت كما نَطَقْتُ تَلاحَينا على قَدر
وسوَّلت ليَ نَفسي أن أفارِقَها والماءُ في المُزنِ أصفى منه في الغُدر

وقول القاضي عبدِ الوهَّاب بنِ نَصْر :

بَغدادُ دارٌ لأهْلِ المالِ واسعَةٌ وللصَّعاليكِ دار الضَّنكِ والضِّيق
أصبَحتُ أمشي مُضاعًا في أزقَّتِها كأنَّني مُصحفٌ في بيتِ زِنْديقِ

وقال الآخــر في ضِدِّه :

لا يَعدمُ المَرءُ ركنًا يَستكنُّ بِه وشُعبةً بَين أهْلِيهِ وأصحابِهِ
ومَن نأى عَنهُمُ قَلَّت مهابَتُه كالَّليثِ يُحقَر لمَّا غاب عن غابِهِ

ومتله قول الآخـــر :

إنَّ الهِزبْرَ إذا نَـأى عن غـَيضِـهِ   ضَربَـت لَـه الأيْـدي عَـلى تَـرقِـيصِـهِ

وكذا الغـَريبُ إذا نـَأى عـَن دارهِ   أدَّتهُ غـُربَـتـُه الى تـَنقِـيصِـهِ

[ومثله] قول الآخـــــر :

وقالوا اضْطرب في الأرض فالرِّزق واسعٌ   فقلت ولكن مَسلكُ الرِّزق ضَيّقُ

إذا لم يـَكـُن في الأرض حرٌّ يُـعينـُني   ولـَم أكُ ذا مالٍ فمن أين أنفِقُ ؟

وقال ابن المهدي :

وأحْسن أيّام الهَوى يومُك الّذي   تـُروَّعُ بالهجران فيه وبالعـَتبِ

إذا لم يـَكـُن في الحُب سُخطٌ ولارضىً   فأين حـَلاواتُ الرَّسائل والكـُتـْبِ ؟

وقال الآخـــر :

شَيئان لـَو بـَكتِ الدّماءَ عـَليهِما   عـَينـاي حتّى تـُؤذنـا بذهـابِ

لم تـَبلـُغا المعشار من حقّيهما :   فـَقدُ الشَّبـاب وفـُرقةُ الأحْبـابِ

وسيأتي ما في هذا المنزع من الشعر بعد إن شاء الله تعالى :

وقال مالك بن المرحّل :

مَذهـبي تـَقبـِيلُ خدٍّ مُـذْهَبِ   سيِّدي ماذا تـَرى في مَذهبي ؟

لا تـُخالِـف مالكـًـا في رأيـِهِ   فـَـبِـهِ يأخُــذُ أهْلُ المغـــرب

وسيأتي ما قيل في التَّوْجِيه بعدُ إن شاء الله تعالى .

وقال عبدُ الجَليلِ المُرْسِيِ :

ما لِلعِذار وكان وجْهُك قِبلةً   قـَد خطَّ فيه من الدُجَى مِحرابا ؟

وأرى الشَّباب وكان لـَيس بخاشعٍ   قـَـد خـَرَّ فيه راكعـًـا وأنابـا

ولـَقد عـَلمتُ بكـَونِ ثـَغركَ بارقـًا   أن سَوفَ يـَرمِي لِلعِذار سَحابـًا

وقال نجمُ الدّين بن بِطـْريق :

أعاذكَ الّله من همٍّ ومن نـَصَبٍ   ولا لـَقِيت الّذي ألقـَى من الحـَربِ

هذا زماني أبو جهلٍ وذا جـَربي   أبو مُعـَيطٍ وذا قـَلبي أبو لـَهَـبِ

وقال الآخــــر :

قال حِمار الطَّبيب تُومَى ... لَو أنْصفوني لَكُنت أركَبُ

لأنَّني جاهلٌ بَسيــــــطٌ ... وصاحِــبي جاهلٌ مُــــرَكَّبُ

وقال أبُو الفَتْح البُسْتِيّ :

إذا غَدا ملكٌ بالَّلهْو مُشْتغِلاً ... فاحْكُم عَلى مُلكِه بالويْل والحَرَبِ

أما تَرى الشَّمس في الميزانِ ساقطَةً ... لمَّا غدا وهْو بيتُ الَّلهو والطَّرب ؟

وقال أبو الحسن الورّاد :

يَقولون : لاح الشَّيبُ فالْهُ عَن الصِّبا ... وعَن قَهوةٍ تَصبو لها وتُنيب !

فَقلت : دعوني نصطبِحها سُلافَةً ... على صُبح شَيبي فالصَّبوحُ عجِيبُ

[ومثله قول الآخــــر] :

وقالوا : أتَلهو والشَّبابُ قَد انقَضى ... وعُمْرك قَد ولَّى ولم يبق طائِلُ ؟

فَقلت : أصيلُ العُمر ما قَد بَلَغتُه ... وأطيبُ أوقاتِ الزَّمان الأصائِلُ

[وقال الآخــر] :

وقائلةٍ : خلِّ الهوى لرجالِه ... فإنَّ الهَوى بَعد المَشيبِ جُنونُ

فَقلت لها : إنَّ الهوى فيه راحةٌ ... ألذُّ الكَرى عِند الصَّباح يكُونُ

[وقال الآخــــر] :

ولائِمةٍ لي إذْ رأتني مُشمِّراً ... أهرولُ في سُبْلِ الصِّبا خالعَ العُذرِ

تقول : انتَبهْ من رقْدةِ الَّلهو والصِّبا ... فَقد دبَّ صبح الشَّيب في غسق الشَّعرِ

فَقلت لها : كُفِّي عن الَّلوم واعلمي ... بأنَّ الذَّ النَّوم إغفاءةُ الفَجرِ !

وقول ابنُ السَّاعاتِيِّ في ضدِّه :

لا تَعجَبن لطالب نال العُلَى ... كهلاً وأخفَق في الزَّمان المُقْبِل !

فالخَمر تَحكُمُ في العُقول مُسنَّةً ... وتُداسُ أوَّل عَصرِها بالأرجُلِ

وقال كُشَاجِم في نَتْفِ الشَّيْب :

إذا ما مَضَى المِنقاشُ يأتي بها أتت ... وقَد أخَذت من دونِها جارةَ الجَنبِ

كَجانٍ على السُّلطان يُجزى بذنْبِه ... تَعلَّق بالجيران مِن شدّة الرُّعبِ

ومثله قول ابن النَّبِيه :

أقْتطِفُ البَيضاءَ مِن لِمَّتي ... دأْبًا مَع السَّوداء إذ تُشرِفُ

فتُخلِفُ البِيضُ بأمثالِها ... وتَعضَب السَّوداءُ فَما تُخْلِفُ

حَمامة السُّودانِ مَعْروفَةٌ ... يَعْرِفُها مَن كَانَ لا يَعْرِفُ

وقال ابن الخطيب :

أنَّى لِمثليَ بالهَوى مِن بَعد مَا ... للوخْط في الفَوديْنِ أيُّ دبيبِ ؟

لَبسَ البَياض وحلَّ ذِروةَ مِنْبرٍ ... منِّي وَوالَى الوعْظ فِعل خَطيبِ

وقال أيضا :

وقَد كُنتُ يَهوى الرَّوض طِيب شمائِلي ... ويَمرح غُصنُ البان بَين قِبابي

فَمُذ كَتَب الوخْطُ المُلمُّ بِعارضي ... حُروفًا أتى فيها بِمَحْض عِتابي

نَسختُ بما قَد خطَّهُ سُنَّةَ الهَوى ... وكَم سُنَّةٍ مَنسوخَةٍ بكتاب !

وقال أيضا :

وما كان إلاّ أن جَنى الطَّرف نَظْرَةً ... غَدا القَلبُ رهنًا في عُقوبة ذنبِهِ

وما العَدل أن ياتي امرؤٌ بجريرةٍ ... فَيؤخَذَ في أوزارها جارُ جَنْبِهِ

وقال الآخــر :

قَد قُلت إذ سار السَّفينُ بهم ... والبَينُ يَنهبُ مُهجتي نَهْبًا :

لَو أنَّ لي مُلكًا أصولُ بِه ... لأخَذتُ كلَّ سَفِينةٍ غَصْبًا .

وقال الآخــر :

رِضاكَ شَبابٌ لا يَليهِ مَشيبُ ... وسُخطُك داءٌ لَيس مِنه طَبيبُ

كأنَّك من كلّ النُّفوس مُركَّبٌ ... فأنت إلى كلِّ النَّفوس حَبيبُ

وقال ابن أبِي العافِيَة :

ودَّعتُها ووداعُها مُتضمِّنٌ ... لِوداعِ لذَّات الحَياة وطيبِها

واصْفرَّ منها وجْهُها فَفهمتُ ما ... مَعنى اصْفِرار الشَّمس عِند غُروبِها

وسيأتي ما في هذا المَنزَع بعدُ إن شاء الله تعالى .

وقال الآخـــر :

عجبتُ لطَيفٍ زار في اللّيلِ مَضجعِي وآبَ ولم يَشفِ الفؤاد المُعذَّبا
فأوهَـمني أمـرًا وقُلت لَـعلّهُ رأى حالةً لَم يرضَها فتجنَّبَا
وماذاكَ مِن أمرٍ يُريبُ وإنّما رآني قَتيلاً في الدُّجى فَتهيَّبا

وسيأتي هذا أيضا بعد إن شاء الله تعالى .

وقال أبو محمد المِصرِيّ :

سلامٌ على الشَّيب الّذي لا أريدهُ ولا قُلتُ أهلاً حِين جلّى ومرحَبا
ولكنّه ضَيفٌ كَرهتُ قُدومَهُ وأكرمتُه إذ لم أجِد عَنه مَذهبَا

وقال الميكاليّ :

عيَّرتني تَركَ المُدام وقالتْ : هَل جَفاها من الكِرامِ أديبُ ؟
هيَ تَحتَ الظّلامِ نورٌ وفي الأكباد بَـردٌ وفي الخُـدودِ لَهَـيبُ
قُلت : يا هَذه عَدلتِ عَن النُّصح ومـا للـرَّشاد مِنكِ نَصيبُ
إنَّها للسُّتورِ هَتكٌ وللألبـاب قَـتْلٌ وفي المَعـاد ذُنـوبُ

وقال الآخـــر :

دعَتني إلى لَهو التَّصابي وبادرتْ بأنّ زمانَ اللّهـو عَنّيَ ذاهبُ
فَقُلت لَها : مالي وللّهْو بَعد ما تَولّى الصِّبا وازورَّ للغِيد جانبُ
وقَد وخَطتْ بيضٌ من الشَّعر لمَّتي تُخبِرُ أنَّ البِيضَ عنِّي رواغِبُ
أألْهو وفجْر الشَّيب قَد لاحَ نُورُهُ بفَودي ، فقالت : أولُ الفجر كاذبُ

وقال الآخـــر :

إن استحسنتْ مُقلَتي غَيركُمْ أمَـرتُ السُّهـاد بتَعذيبِهَـا
وعاقَبتُهـا بالبُكـا دائِمًـا لِما استَحسَنَتْ غَيرَ مَحْبوبِها
فَما تَنظرُ العَينُ إلاّ إلَـيكَ لأنّكَ غَـايَةُ مَطْلُوبِهَـا

وقال أبو محمد بنُ عبدِ البَرّ [رحمه الله] :

قُلْ للوزير وقَد قَطَعتُ بِمَدحِهِ   عُمْري فَكان السِّجنُ منهُ ثَوابي :
لم تَعدُ في أمري الصَّوابَ مُوفَّقًا   هَذا جَزاءُ الشَّاعِرِ الكَذَّاب !

وقال بعض الأدباء في طريق التَّورية :

ومُعطَّرِ الأنْفاسِ يَبْسِمُ دائمًا   عَن درٍّ ثَغرٍ زانَهُ تَرتيبُ
من لم يُشاهِدْ مِنه عِقدَ جَواهِرٍ   لم يَدرِ ما التَّنقيحُ والتَّهذيبُ

ومثله أيضا في هذا المعنى :

قُلت والشَّعرُ يَشْيِي في خدِّهِ   لامَ حُسنٍ سهَّلَتْ لَومي عَليْ
بِحياة الحُبِّ كُوني للرِّضَى   لامَ جرٍّ لا تكوني لامَ كَيْ !

وقال الآخر على هذا الطريق :

هبَّت مَع الفَجرِ لِميعادِها   فافتَضَحَ الشَّارقُ والغَاربُ
فَجرانِ ذاك الوجْهُ أسْناهُما   هَل يَستوي الصَّادقُ والكاذبُ ؟

وقال آخر على قريب من هذا :

دهْرٌ يمرُّ وآمالٌ مُخيِّمةٌ   ولا احْتِقابَ سِوى وزرٍ على الحِقَبِ
تَمضي الفُروعُ على حُكم الأصُول ولاَ   استِذكار قَلبٍ ولا تَمهيد مُنقلَب
خطَّ المشيب على فَوديكَ تذكرةً   بأن تُنيبَ وحتَّى الآن لم تُنِبِ
وقَد نَضَى سيفَه فاحذَرْ صَرامَته   فالسَّيف أصْدقُ إنباءً من الكُتب !
سلَّت عَليك اللَّيالي منه ذا شُطبٍ   في حدِّه الحدُّ بين الجدِّ واللَّعِبِ

وكتب المُعتَصِمُ بالله الى ابن عمَّار على وجْهِ العَتْبِ فيما بَلَغَه عنه :

وزهَّدني في النَّاس مَعرفتي بِهم   وطولُ اختباري صاحبًا بَعد صاحبِ
فَلم تُرني الأيَّامُ خِلاًّ تَسرُّني   مَباديهِ إلاَّ ساءَني في العَواقِبِ
ولا قُلتُ أرجوهُ لَدفعِ مُلمَّةٍ   من الدَّهر إلاَّ كان إحدَى المصائبِ

فأجابه ابن عمَّار بقطعة منها :

فَديتُك لا تَزهَدْ وثمَّ بقيَّةٌ   سَيُرغبُ فيها عن وقوع النَّوائبِ !
وأبقِ على الخُلصان إن لَديهِمُ   على البَدءِ كرَّاتٍ بِحسنِ العَواقبِ

وقال بعضهم، وقد زاره إخوانٌ له :

أهلاً وسهلاً بساداتٍ لنا نُجُبٍ كالذُبَّلِ السُمر أو كالأنْجُم الشُهُبِ !
أجمَلتُمْ وتفضَّلتُمْ بزورَتِكُمْ ولَيس يُنكَر فضلٌ من ذوي حَسبِ
أضاء منزلُنا من نور أوجُهِكُمْ وطاب من عيشنا ما كان لم يَطبِ

وقال ابنُ الرُّوميّ :

أرى الصَّبر مَحموداً وعَنه مَذاهبٌ فكَيف إذا ما لم يكن عَنه مذهبُ ؟
هُناك يحقُّ الصَّبر والصَّبرُ واجبٌ وما كان مِنه كالضَّرورة أوجَبُ
هـو المَهربُ المنْجى لمن أحدقَت به مكارهُ دهرٍ ليس عَنهنَّ مَهربُ

وقال القَاضِي الفَاضِلُ في معناه :

لا تَلِنْ للخُطوبِ واصلُب فَمن لانَ تَوالَى عَليه قَرعُ الخُطوبِ !
إنَّ ضَربَ الحَديد ما كان إلاَّ حين أبْدى ليناً لحرِّ التَّلهيب

وتقدَّم ما في هذا المَنزَعِ وهو كثير.

وقال بعض الأعراب :

لا يُقنِعُ الجاريةَ الخِضابُ ولا الوشاحانِ ولا الجِلبابُ
من دونِ أن تَلتَقيَ الأركابُ ويَقعُد الأيْرُ لَهُ لُعَابُ

الأركاب جمع رَكَب بفتحتَيْن، وهو ظاهر الفَرْج، أو هو العانَة أو مَنْبِتها ؛ ويَقْعُد معناه هنا يَصِيرُ، أي يصير الأيْرُ وهو الذَّكَر ذا لُعَاب.

وقال الآخـر :

عَجبتُ لمُبتاعِ الضَّلالَةِ بالهُدى ولَلمُشتري دُنْياه بالدِّين أعْجَبُ
وأعجَب من هَذين مَن بَاع دينَه بدنيا سِواه فَهْو من ذينِ أخْيَبُ

وقال الحماسيّ :

وإن أتَوك فقالوا إنَّها نَصفٌ فإنَّ أطيَب نِصفَيها الَّذي ذَهَبَا

ويُنشَدُ هذا الشعر على ضرب آخر وهو :

لا تنكحنَّ عجوزاً أو مطلقةً ولا يسُوقنَّها في حبلك القَدرُ
وإن أتوك وقالوا إنها نَصَفٌ فإن أطيب نِصْفَيْها الذي غبرا

وفيه عيب القافية . والنَّصَفُ من النساء بفتحتَيْن : المُتَوسِّطَة . وقوله : اخْلَعْ

ثِـيَـابَـكَ يحتمل أن يريد به : انـْزِعْ محبـّتك منها وتسلَّ عنها ولا تلتفت إليها والثياب تـُطلق على القلوب، فتـُطلق على المحبـّة باعتبار أنـّها فيها. ومن الأوّل قول عنترة :

فَشَكَكْتُ بالرُّمحِ الأصمِّ ثيابَـه   لَيس الكَرِيمُ على القَنا بمُحرَّمِ

أي شَقَقْتُ قَلْبَـهُ . ويَصِحَّانِ معـًا في قول امرىءِ القَيْس :

وإن كُنتِ قَد ساءَتْكِ منِّي خَليقةٌ   فَسُلِّي ثِيابي من ثِيابِكِ تنسَلِ

أي سَلِّي قَلْبِي مِن قَلْبِكِ، أو مَحبـّتِي مِنْ قَلْبِكِ . وقيل في قوله تعالى : وثِيابَكَ فَطهِّرْ، أي طَهِّرْ قَلْبَكَ، وقد يُكنَّى بالثياب عن الأعمال أيضا . ورد أنَّ الميـّت يُبعث [في أثوابه] أي أعماله.

فائدة : ذكر أبو العبَّاسِ أحمدُ بنُ عَطَاءِ الـلّه أنَّ الشيخ أبا الحسن الشَّاذِلِيَّ - رضي الـلّه عنهما - بات ليلة، وأظنـّها ليلة سبع وعشرين، بالمسجد الجامع وافتتح الصلاة، فجعل الأولياء يتساقطون عليه من كل ناحية . فلمَّا أصبح قال : ما كانت البارحة إلاَّ ليلة مباركة ! سمعت النبيَّ صلـّى الـلّه عليه وسلـّم يقول : يا عليُّ طهِّرْ ثيابك من الدَّنَس، تَحْظَ بِمَدَدِ الله تعالى في كلِّ نَفَس ! فقلت : يا رسول الـلّه، ما ثيابي ؟ قال : كذا، وفسَّرها له بأخلاق قَلْبِه ومَقَامَاتِه ؛ ونَسِيتُ اللفظ لطول العهد به . قال أبو الحسن : فعرفت حينئذٍ معنى قوله تعالى وثِيَابَكَ فَطَهِّرْ .

وقال الآخــــر :

فإنْ تَكنِ الأيـّام أحْسنَّ مرّةً   اليَّ فَقَد عادتْ لهُنَّ ذنوبُ

وهذا البيت من قصيدة، اضطُرب في قائلها، رُثي بها رجلٌ يقال له أبو المغوار، ورأيت أن أثبتها هنا مع طولها، لحسنها واشتمالها على أمثال وهي :

تقول سَليمى : ما لِجِسمك شاحبـًا   كأنـّك يَحميكَ الطَّعامَ طَبيبُ ؟

فَقلت، ولم يَعيَ الجوابُ لقولها   وللدَّهر في صُمِّ السِّلام نصيبُ :

تتابُع أحداثٍ تخرَّمْنَ إخوتي   وشيَّبن رأسي والخُطوب تُشِيبُ

لَعَمري لئن كانت أصابت منيـّةٌ   أخي والمنايا للرِّجال شُعُوبُ،

لَقد عجمت منـّا الحوادثُ ماجدًا   عروفـًا لريب الدَّهر حين يُريب

وقَد كان أمَّا حِلمُه فَمروّحٌ   علينا وأمَّا جَهلُه فَعَزيبُ
فَتَى الحَرب إن حاربت كان سهامها   وفي السّلم مِفضال اليَدين وهُوبُ
هَوتْ أمّه ماذا تَضمَّن قَبرُهُ   من الجود والمعروف حِين يَؤُوبُ ؟
جَموعٌ خِلال الخير من كلّ جانبٍ   إذا جاء جيَّاءٌ بهنَّ ذهوب
مُفيدٌ مُفيتَ الفَائداتِ مُعوَّدٌ   لِفعل النَّدى والمكرماتِ كَسيبُ
فتَى لا يُبالي أن يكون بجِسمِه   إذا نال خَلاّتِ الكِرامِ شُحوبُ
غَنِينا بخَيرٍ حقبةً ثمَّ جلَّحت   عَلينا الّتي كلَّ الأنامِ تُصيبُ
فأبقت قليلاً ذاهبًا وتجهَّزتْ   لآخرَ والرّاجي الخُلودَ كَذُوبُ
وأعلَمُ أنَّ الباقيَ الحيَّ منهُمَا   إلى أجلٍ أقصَى مَداهُ قَريبُ
فَلو كان حيٌّ يُفتَدى لَفَديتُهُ   بما لم تَكُن عَنهُ النّفوس تَطيبُ
بِعَينيَّ أو يُمنى يَديَّ وإنّني   بِبذلِ فِداهُ جاهدًا لَمُصيبُ
فإن تَكنِ الأيَّامُ أحْسنَّ مرّةً   إليَّ فَقد عادت لهُنَّ ذنوبُ
أخي كان يكفيني وكان يُعينُني   على نائبات الدّهر حين تَنوبُ
عَظيمُ رمادِ النّار رحْبٌ فِناؤُه   إلى سَندٍ لم يَحتجِنهُ غُبوبُ
قريبٌ ثَراه ما ينالُ عدُوُّهُ   لَه نبطًا آبِي الهَوانِ قَطوبُ
لقَد أفْسد الموتُ الحَياة وقَد أتى   على يومِه عِلقٌ إليَّ حَبيبُ
حليمٌ إذا ما الحِلمُ زيَّنَ أهْلَهُ   مَع الحِلم في عَين العَدوِّ مَهيبُ
إذا ما ترا آهُ الرّجالُ تَحفَّظوا   فَلم تنطِق العَوراءَ وهْو قَريبُ
أخي ما أخي لا فاحشٌ عند بيتِه   ولا ورعٌ عنـد اللّقاء هَيُوبُ
على خير ما كان الرّجالُ نَباتُه   وما الحظُّ إلاّ طُعمةٌ ونصيبُ

ويروى :

على خير ما كان الرّجال خِلالُه   وما الخيرُ إلاّ قِسمةٌ ونصيبُ
حليفُ النّدى يدعو النّدى فَيجيبُه   قريبًا ويدعوهُ النَّدى فيُجيبُ
هُو العَسل الماذيُّ لينًا وشيمَةً   وليثٌ إذا يلقى العَدوَّ غَضوبُ

حليمٌ إذا ما سورةُ الجَهل أطلقت ... حُبَى الشّيب للنَّفس اللّجوجِ غَلوبُ
هوت أمُّه ما يبْعث الصُّبح غاديًا ... وماذا يردُّ التّليل حين يؤوبُ ؟
كعالية الرُّمح الرُّديني لَم يَكُن ... إذا ابْتَدر الخَيرَ الرِّجالُ يخيبُ
أخو شَتَواتٍ يَعلمُ الحيُّ أنَّه ... سَيَكثُر ما في قِدره ويَطيبُ
ليبْكِكَ عارٍ لم يجد من يُعينُه ... وطاوي الحَشى نائي المزارِ غريبُ !
تروَّح تزهاه صبىً مُستطيفَةٌ ... بكلِّ ذرًى والمُستزادُ جَذيبُ
كأنَّ أبا المغوار لم يُوفِ مرقبًا ... إذا ربأ القَوم الغُزاةَ رقيبُ
ولم يَدعُ فتيانًا كرامًا لميسرٍ ... إذا هبَّ من ريح الشّتاء هبوب
إذا حلَّ لم تُقصر مقامةُ بيته ... ولكنَّه الأدنى بحيثُ يُجيبُ
حبيبٌ إلى الزُّوّار غِشيانُ بيتِه ... جميلُ المُحيَّا شبَّ وهْو أديبُ
يبيت النَّدى يا أمَّ عَمرٍو ضجيعَه ... إذا لم يَكن في المُنقيات حَلوبُ
كأنَّ بيوت الحيِّ ما لم يَكن بها ... بسابسُ لا يُلفى بهِنَّ غريبُ
إذا شهِدَ الأيسار أو غاب بَعضُهم ... كَفى ذاك وضَّاح الجبينِ نجيبُ

ويروى :

وإن شَهدوا أو غاب بَعضُ حُماتهم ... كَفى ذاك وضَّاح الجَبين أريبُ
وداعٍ دعا : يا من يُجيب الى النَّدى ؟ ... فَلم يَستجبه عِند ذاك مُجيبُ
فَقلت : أدعُ أخرى وارفع الصَّوت جهرةً ... لعلَّ أبي المغوار منك قَريبُ !

ويروى :

يُجبكَ كما قَد كان يفعَل إنَّه ... نجيبٌ لأبواب العَلاء طَلوبُ
فإنّي لباكِيهِ وإنّي لَصادقٌ ... عَليه وبَعضُ القائلين كَذوبُ
فتىً أريَحيٌّ كان يَهتزُّ للنَّدى ... كما اهتزَّ ماضي الشَّفرتين قَضيبُ
وخبَّرتُماني أنَّما الموتُ بالقُرى ... فكيف وهاتا روضةٌ وكثيبُ ؟

وقال جَميلُ بْنُ مَعْمَر بن عبد الله العُذْريُّ :

وقالوا : يا جميلُ أتى أخوها ... فَقلتُ : أتى الحبيب أخو الحبيبِ

أحبُّك إن نزلْت جِبال حِسمَى وأن ناسبَتْ بَثْنةٌ من قَريبِ
وكانت حَفْصَةُ بنتُ عِمْرانَ ماتَ عنها زوجُها ، فَخطبها عبد الله بن حُسَيْن بن حَسَنِ بن علي، وإبراهيمُ بنُ هشام. فكان أخوها محمد بن عمران إذا دخل على إبراهيم أنشد إبراهيم متمثّلا : وقَالُوا : يا جَميلُ أتَى أخُوهَا البيت وقال أبو محمد الحريريُّ رحمه الله :

وقْعُ الشَّوائبِ شيَّبْ والدَّهْرُ بالنَّاسِ قُلَّبْ
إن دَانَ يومًا لِشَخْصٍ فَفِي غَدٍ يَتَقَلَّبْ
فَلا تَثِقْ بِوَمِيضٍ مِنْ بَرْقِهِ فَهْوُ خُلَّبْ !
واصْبِرْ إذا هُوَ أضْرَى بِكَ الخُطُوبَ وألَّبْ
فَما عَلى التِّبْرِ عَارٌ فِي النَّار حِينَ يُقَلَّبْ

وقال أيضا :

لَجَوبُ البِلاد مَعَ المَتْرَبَه أحبُّ إليَّ مِن المَرْتَبَه
لأنَّ الوُلاَةَ لَهُم نَبْوَةٌ ومَعْتَبَةٌ يا لَهَا مَعْتَبَه !
وما فِيهِمُ من يَرُبُّ الصَّنيعَ ولاَ مَن يُشَيِّدُ ما رَبَّبَه
فَلا يَخدعَنْكَ لُموعُ السَّرابِ ولا تَأتِ أمْرًا إذا ما اشْتَبَه !
فَكم حالِمٍ سرَّهُ حُلمُهُ وأدركَهُ الرَّوعُ لمَّا انْتَبَه !

وقال أيضا :

فاليَومَ مَن يَعلقُ الرَّجاءُ بِهِ أكْسَدُ شَيءٍ في سُوقِه الأدبُ
لا عِرضُ أبنائِه يُصانُ ولاَ يُرقَبُ فِيهِمْ إلٌّ ولا نَسَبُ
كأنَّهُم في عِراصِهِم جِيَفٌ يُبعَدُ من نَتْنِها ويُجْتَنَبُ

وهذا مَنْزَعٌ سيأتي ذكر ما فيه إن شاء الله تعالى.[وقال أيضا]:

سلَّ الزَّمانُ عليَّ عَضْبَه لِيَرُوعَنِي وأحَدَّ غَرْبَه
واستَلَّ من جَفْني كَراهُ مُراغِمًا وأسَالَ غَرْبَه
وأجالَني في الأُفْقِ أطْوِي شَرقَهُ وأجُوبُ غَربَه

فَبِــــــكُلٍّ جوٍّ طَلْـــــــعَةٌ فِي كُلِّ يَوْمٍ لِي وغَرْبَهْ
وكَــــذا المُغَـــرِّبُ شَـــخْصَهْ مُتَغَـــرِّبٌ ونَـــواهُ غــــربَهْ

الغَرْبُ الأوَّل : حَدُّ السيف، والغَربُ الثاني : مَجْرَى الدَّمْع ؛ والثالث : ضِدُّ الشَّرْق ؛ والرابع : فَعْلَةٌ من الغروب، يقال : غَرُبَ غَربَةً، وطَلَعَ طَلْعَةً، والخامس : البُعْدُ، يقال : نَوَى غربَةٍ، أي بَعيدَة.

قال طرفة :

أخبِّركَ أنَّ الحيَّ فرَّق بينَهُم نَوى غُربةٍ ضرَّابةٍ لي كَذلكِ

وفُسِرَت هنا أيضا بالحِدَّة، وهي من معانيها، وغُرْبَة النوى بُعْدُها.

وقال أيضـا :

لا تَيأسَــنْ عِنْـــد النُّـــوَبْ مِـن فَـرجَةٍ تَجْلُـو الكُــرَبْ
فَلَكَــم سَمُـــومٍ هبَّ ثُــمَّ جَـــرَى نَسيمًـــــا وانْقَلَبْ
وسحــــابِ مَكْـــرُوهٍ تَنَشَّى فَاضْمَــحَلَّ ومَــــا سَــكَبْ
ودُخَـانِ خَـطْبٍ خِيفَ مِنْهُ فَمَــا اسْتَبَــانَ لَهُ لَهَبْ
ولَطَالَمَـــــا طَلَـــــعَ الأسَى وعَلَى تَفِيئَـــتِهِ غَـــــرَبْ
فاصْبِـــر إذا مَـــا نَـــابَ رَوْ عٌ فَالزَّمَـانُ أبُـو العَـجَبْ
وتَـــرَجَّ مِـــنْ رَوْحِ الالَـهِ لَطَائِفَـــــا لاَ تُحْــــتَسَبْ

وقال أيضا :

لَعَمركَ ما تُغْني المَغانِي ولاَ الغنا إذا سَكَنَ المرءُ الثَّرى وثَوى بِهِ
فَجُد في مراضي الَّله بالمال راضيًا بما تَقْتني من أجره وثَوابهِ
وبادر به صَرف الزَّمان فإنَّهُ بِمخلَبه الأشقَى يَصولُ ونَابِهِ
ولا تأمَنِ الدَّهر الخَؤُونَ ومَكْره فَكَم خاملٍ أخنَى عَليه ونابِهِ
وعاصِ هَوى النَّفس الذي ما أطاعه أخو ضِلَّةٍ إلاَّ هَوى من عقابِهِ
ولا تَلهُ عَن تذكار ذنبك وابْكِه بدمْعٍ يُضاهي الوبْلَ حالَ مصابِهِ
ومَثِّل لَعَينَيك الحِمامَ ووقْعَهُ وروعَةَ مَلقاهُ ومُعظَم صابِهِ

وأنَّ قُصارى مَسكَنِ الحيِّ حُفرةٌ سَينزلُها مُستنزلًا عَن قِبابهِ
فواهًا لِعَبد ساءَهُ سوءُ فِعلِه وأبْدى التّلافي قَبل إغلاقِ بابِهِ

وقال أيضا :

اصرفْ بِصرفِ الرّاحِ عنك الأسى وروّحِ القَلب ولا تَكتَئِبْ
وقُل لِمن لامَك فيما بِهِ تَدفَعُ عَنك الهمَّ : قَدكَ اتَّئِبْ!

وهذا ممّا يتمثّل به أهل المجون، لكنه بصدد أن يستعمل في الجدّ وخمر المحبّة والعرفان والأنس الرّحْماني، يعرف ذلك [ذوو] البصائر. وقال أيضا :

فإن فَطنتُم للحْن القول بان لَكم صِدقي ودلَّكُمُ طَلعي على رُطَبي
وإن شُدهتم فإنّ العار فيه عَلَى مَن لا يُميِّز بين العُود والخَشب

وقال الآخــر :

ومن لا يُغمِّض عينَهُ عن صَديقه وعَن بعض ما فيهِ يَمتْ وهْو عاتبُ
ومَن يتتبّع جاهدًا كُلَّ عثرةٍ يَجِدْها ولا يَبقى لَه الدّهرَ صاحبُ

وتقدّم هذا المعنى وما فيه.

ويحكى أنَّ يَزيدَ بنَ عبدِ المَلِك بلغه، أيام خلافته، أنّ أخاه هشامًا يَنْتَقِصُهُ. فكتب إليه معاتبا له : مَثَلِي ومَثَلُكَ كما قال الأوّلُ :

تَمنَّى رجالٌ أن أموت فإن أمُت فَتِلك طريقٌ لَست فيها بأوحَدِ
لَعلَّ الّذي يبغي ردَائِي ويرتجي(40) به قبل موتي أن يكون هو الرَّدِي

فكتب إليه هشام إنّما مَثَلِي ومَثَلُك كما قال الأوّل :

ومَن لا يُغمِّض عينه عن صَديقه وعن بعض ما فيه يمتْ وهو عاتب

فكتب إليه يزيد : نحن مُغتَفِرون لك ما كان منك، حفظًا لوصيّة أبينا فينا، وحضّه إيّانا على إصلاح ذات البَيْنِ، وأنا أعلم، كما قال مَعْنُ بنُ أوْسٍ :

لَعمرُك ما أدري وإنّي لأوْجَل على أيِّنا تَعدو المنيّة أوّلُ
وإنّي على أشياءَ منك تُريبني قديمًا لذو صفحٍ على ذاك مُجمِلُ

40) في أ ردائي، وفي ب رجائي. ولعل الصواب رَدَايَ.

ستُقطع في الدُّنيا إذا ما قطعتني يمينُك فانظُر أيَّ كفٍّ تُبدّلُ !
إذا سُؤْتَني يومًا رجعتُ الى غَدٍ لِيُعقب يومًا منك آخر مُقبِلُ
ويَركَب حدَّ السَّيف من أن تَضيمه إذا لم يكن عن شفرة السَّيف مزحَلُ
وفي النَّاس إن رثّت حِبالُك واصلٌ وفي الأرض عن دار القِلى مُتحوَّلُ
إذا انصرفت نفسي عن الشَّيء لم تكن إليه بوجهٍ آخرَ الدَّهر تُقبِلُ

فلمَّا جاء الكتاب هشامًا رحل إليه، فلم يزل في جواره حتَّى مات خوفـًا من شرّ الوُشَاة.

وقال المولى أبو حَمُّو موسى بن يوسف الملكُ الزَّيَّانـيُّ :

الحبُّ أضْعفَ جسمي فوق ما وجبا والشَّوقُ ردَّ خيالي بالسَّقام هَبا
والبين أشْعلَ نار الوجْد في كَبِدي والدَّمع يُضرمُها في القلب واعجبا !
ماءٌ ونارٌ وأكبادي لها حَطبٌ لكنْ عذابي به للحُبِّ قَد عذُبا
ما كُنت أدريهما حتَّى صَحبتُهما كُرهًا وقَد يكرهُ الانسان من صَحبا

وقال الآخــــر :

كلَّ يومٍ قطيــعةٌ وعِتــابٌ ينقضي دهرُنـا ونَحن غِضاب
ليتَ شِعري فَهل خُصِصتُ بِهذا أنا وحدي أمْ هكذا الأحْبابُ ؟

وتقدَّم هذا الشعر، إلاَّ أنَّ له حكاية تذكر.

قال الجاحظ : بعث إليَّ المتوكّل لتأديب ولده . فلمَّا رآني اسْتَبْشَعَ مَنْظَري وأمر لي بعشرة آلاف درهم، وصرفني . فلمَّا خرجت من عنده لَقِيتُ محمد بن إبراهيم يريد الانحدار في سفينة الى مدينة السَّلام، فركبت معه. فأمر يوما بِنَصْبِ أستاره، وأمر عَوَّادَةً عنده أن تُغنّي، فأخذت العود وغنَّت : كُلَّ يومٍ قَطيعةٌ وعِتابٌ (البيتين) ثمَّ سكتت . فأمر طُنْبوريَّة كانت عنده أن تغنّي، فأخذت الطنبور وغنَّت :

وارحْـــــمَةً لِلْعَاشِقِيـــــنَ مَـا أرَى لَهُـمُ مُعِينَـا !
كَـم يُظْلَمُــونَ ويُهْجَــرُو نَ ويُقْطَعُونَ فَيَصْبِرُونَ !

فقالت العوَّادة : وماذا يصنعون ؟ فقالت : يصنعون هكذا ! فهتكت السّتارة ورمت بنفسها في الماء . وكان على رأس محمد غلام مثلها في الجمال، بيده مُدْيَة . فلمَّا رأى ما

صنعت، ألقى المدية وجاء الى الموضع الذي رمت بنفسها منه فقال :

أنتِ الَّتي غرّقْتِنِي بعدَ القَضَا لَوْ تعْلَمِينَ
لاَ خَيْرَ بَعْدكِ فِي البَقَا والمَوتُ زَيْنُ العَاشِقِينَ

ثمَّ رمى بنفسه في أثرها، وعانقها في الماء، فكان آخر العهد بهما . فعظم الأمر على محمد، والتفت إليَّ وقال : يا عمرو، حدّثني بحديث تسلّيني به عن هذَيْن، وإلاَّ لحقتُ بهما ! فقلت : جلس سليمان بن عبد الملك يومًا للمظالم، فعُرِضَتْ عليه بطاقةٌ فيها : إن رأى أمير المؤمنين أعزّه الله أن يخرج إليَّ جاريته فلانة حتّى تغنّي لي ثلاثة أصوات، فعل . فاغتاظ وأمر باحضاره . فلمَّا حضر قال : ما حملك على ماصنعت ؟ قال : الثقة بحلمك . فَسُرّي عنه، وأمره بالجلوس، وأمر الناس بالانصراف . ثمَّ أمر بإخراج الجارية، فجاءت بعودها، وجلست . فقال لها الفتى : غنّي لي :

تَعلَّق روحي روحَها قَبل خَلقِنا ومن بعد ما كنَّا نطافًا وفي المَهد
وزاد كما زِدنا وأصبَح ناميًا وليس وإن مُتنا بمُنتقِضِ العَهد
ولكنَّه باقٍ على حالِه (كذا) وزائِد ما في ظُلمة القَبر والَّلحد

فلمَّا غنَّته طرب طربًا شديدا وقال : فداؤك أبي وأمّي ! قال : غنّي لي :

إذا قُلت : مابي يابُثينة قاتلي من الحبِّ قالت : ثابتٌ ويزيدُ
وإن قلت : ردّي بعض عقلي أعشْ به مع النَّاس قالت : ذاك منك بعيد
يموت الهوى منّي إذا ما لقيتُها ويحيا إذا فارقتُها ويَعُودُ

فلمَّا غنَّت طرب [طربا] أعظم من الأول وقال : غدتك نفسي ! ثمَّ قال : غنّي لي :

منّي الوصالُ ومنكُم الهَجرُ حتَّى يُفرّق بيننا الدّهرُ
والَّله لا أنساكُمُ أبدًا ما لاح نجمٌ أو بَدا بَدرُ

فما أتمَّتها حتَّى زَجَّ بنفسه في الهواء، ثمَّ انعكس على دماغه وسقط بالأرض، فإذا هو ميّت . فقال سليمان : عجّل على نَفْسِه . والله ما أخرجتُها إلاَّ على مِلْكِه ! يا غلام، خذ بيدها وانطلق بها ، فإن كان له أهل، وإلاَّ بِيعتْ وتُصُدّقَ بثمنها عليه . فانطلق بها، فلمَّا توسَّطت الدار رأت حفرة أعدَّت لماء المطر، فقالت :

من ماتَ عِشقًا فَلْيَمُتْ هَكَذا لا خَيرَ في عِشقٍ بِلا مَوتِ !

ثمَّ جذبت بيدها من يد الغلام، وألقت بنفسها في الحفرة على دماغها فماتت . قال : فسُرِّي عن محمدٍ وصلني وكساني . قال ثمَّ حدَّثت بهذا الحديث محمد بن جعفر الاخباريّ فقال : كان محمد بن حَميدٍ الطّوسِيّ يومًا مع نُدمائه، فغنَّت جاريةٌ له :

يا قَمرَ القَصرِ مَتى تَطلُعُ ؟ أشْقى وغَيري بِكَ يَستمتِعُ

إن كان ربِّي قد قَضى ما أرَى منك عَلى رأسي فما أصنَعُ ؟

وكان على رأس [محمد] بن حميدٍ غلامٌ بيده قَدَحٌ يسقيه به . فرمى بالقدح من يده وقال : تصنعين هكذا ! ورمى بنفسه من الدار الى دِجْلَة . فلمَّا رأت ذلك الجاريةُ قامت ورمت بنفسها على أثره، فكان آخر العهد بهما . وقال آخر من الطُّفيْليِّين :

كلَّ يومٍ أدور في عَرصَةِ الدّارِ أشمُّ القُتارَ شمَّ الذُّبابِ

فإذا ما رأيتُ آثارَ عُرسٍ أو دخانًا أو دعوةَ الأصحابِ

لم أعرِّج دونَ التَّقحُّمِ لا أرهَبُ شتمًا ولَكزةَ البَوّابِ

مُستهينًا بمن دخَلتُ عَليه غَيرَ مُستأذنٍ ولا هيَّابِ

فتَراني ألُفُّ بالرَّغمِ منهُم كلَّ ما قَدَّمُوهُ لفَّ العُقابِ

ذاكَ أهْنا من التَّكلُّفِ والعَزْمِ وشَتمِ البقّالِ والقصَّابِ

وكان هذا الطفيليّ أتى وليمة، فاقتحم الدار وأخذ مجلِسَهُ من الناس، فأنكره صاحب المنزل وقال له : لو صَبَرْتَ حتّى يُؤْذَنَ لك لكان أحسنَ [لأدبك] فقال : إنّما اتُّخِذَتِ البيوتُ ليُدخل إليها، والموائدُ ليُؤكَلَ عليها، والحِشْمَةُ قَطيعَةٌ واطِّراحُها صِلَةٌ . وجاء في الأثر : صِلْ مَن قَطَعَكَ، وأحْسِن الى مَن أساءَ إلَيكَ ! ثمَّ إني أجْمَعُ فيها خِلالاً : أدخل مُجالسا، وآكل مُوانسا، وأبْسُطُ [ربّ الدار وإن كان] [41] عابسا، وأنشد ما تقدَّم.

وقال الآخــر :

كنّا نُعاتبُكم لياليَ عُودكُمْ حُلوُ المَذاقِ وفيكُمُ مُستعتَبُ

41) سقط من أ و هـ.

فالآن حينَ بَدا التّنكّرُ منكُمُ ... ذهب العِتابُ وليس عنكم مذهَبُ

يحكى أنّ قَيْنَةً اجتمع عندها أربعةٌ من عُشّاقها، وكلّ يُخفي أمره عن الآخرين . وكان أحدهم غائبا فقدم، والثاني عزم على السفر، والثالث قد انقضت أيامه، والرابع كما ابتدأ . فضحكت الى الأوّل، وبكت الثاني، وأبعدت الثالث، وأطمعت الرابع . وأنشدها كلّ منهم ما يشاكل حاله، وأجابته بمثل ذلك . فقال لها القادم : جُعِلْتُ فِداك أتُحْسِنِين :

ومن ينأ عن دار الهوى يُكثر البُكا ... وقولَ لعلّ أو عَسى ويَكُونُ
وما اختَرتُ نأيَ الدّار عنك لسلوةٍ ... ولكن مَقاديرٌ لَهُنّ شُجونُ

فقالت : نعم ! وأنا أحْذَقُ بقول مطارحه، ثمّ غنّت :

وما زلتُ مذ شَطّت بك الدّارُ باكيًا ... أُؤمّلُ منك العَطف حين تَؤُوبُ ؟
فأضعفَ ما بي حين أُبْتَ وزدتني ... عذابًا وإعراضًا وأنت قريبُ

وقال الذي عزم على السفر : جُعلتُ فِداك! أتُحسنين :

أزفَ الفِراقُ فأعْلني جَزعًا ... ودَع العِتاب فإنّما سَفَرُ
إنّ المُحبّ يُصدُّ مُقْتربًا ... فإذا تباعد شفّهُ الذّكْرُ

فقالت : نعم ! وأحسن من شكله . ثمّ غنّت :

لأُقيمَنّ مأتمًا عن قريبٍ ... لَيس بَعد الفِراق غيرُ النّحِيب
رُبّما أوجَع النّوى لِلقلوبِ ... ثمّ لا سِيّما فِراق الحَبيبِ

وقال الذي انقضت أيّامه : جُعلت فداك ! أتُحسنين : كُنّا نُعاتِبُكُمْ لَيَالِي عودُكُمْ (البيتَين السابقين) . فقالت : لا، ولكن أحسن في معناه، ثمّ غنّت :

وصَلتُك لمّا كان ودُّكَ خالصًا ... وأعْرضتُ لمّا صِرتَ نهبًا مُقسّما
ولَن يلبثَ الحَوضُ الجَديدُ بِناؤُه ... على كَثْرة الوُرّاد أن يتهدّما

وقال الذي أقبلت أيامه [جعلت فداك ! أتحسنين][42] :

إنّي لأعظَم أن أبوح بحاجتِي ... فإذا قرأتِ صحيفتي فَتَفَهّمِي
وعَليك عَهد اللّهِ إن أبْثِتِه ... أحدًا وإن آذَنْتِه بِتَكلّمِ

42) سقط من ب.

فقالت : نعم ! وأحسن في معناه . ثمّ غنّت :

لَعَمرُك ما استودعَتْ سرّي وسرّها سوانا حِذارَ أن تُذاعَ السّرائِرُ !
أكاتمُ ما بالقَلب بُقْيَى على الهَوى مخافَةَ أن يُغرى بذلك ذاكِرُ

فانصرفوا، وكلٌ قد لَوَّحَ بحاجته، وأخذ جوابه.

وقالت امرأة كان زوجها غائبا عنها فذكرته :

تَطاول هذا اللّيلُ واسودَّ جانبُهْ وأرّقني ألاّ خَليلَ ألاعِبُهْ
فوالله لولاَ اللهُ تُخشى عَواقِبُهْ لزُعزعَ من هذا السّرير جوانبُهْ
وبتُّ ألاهي غير بدعٍ مُنعمًّا لطيف الحَشا لا يحتويه مُصاحِبُهْ
يُلاعبني فوق الحَشَايا وتارةً يُعاتبُني في حُبّه وأعاتِبُهْ
ولكنّني أخشى رقيبًا موكّلاً بأنفُسنا لا يفْترُ الدّهرَ كاتِبُهْ
مخافةَ ربّي والحَياءُ يَصونُني وحِفظًا لبعلي أن تُنالَ مراكبُهْ

ويروى أنَّ أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه خرج ليلاً فسمع هذه المرأة تنشد، فلمّا فرغت من الشعر المذكور، تنفّست الصعداء وقالت لَهَانَ[43] على ابن الخطّاب وحْشَتي وغَيْبَةُ زوجي عني . فتأوّه عمر لذلك ووجّه في إقبال زوجها، وسأل النساء كم تصبر المرأة عن الزوج، فقُلْنَ أربعةَ أشهر، فجعل ذلك غاية الغيبة في المَغَازي كما في الايلاءِ . وقيل ستة أشهر . وفي الشعر المذكور اختلافاتٌ كثيرة.

وقال الآخر :

رُبَّ ليلٍ أمدَّ من نَفَسِ العَا شِقِ طولاً قَطعتُه بانتحابِ
وحديثٍ ألذَّ من نَظَرِ الوَا مِقِ بدّلتُه بسُوءِ العِتابِ

يحكى عن خالد الكاتب قال : دخلت دَيْرًا فإذا أنا بشابٍّ جميل مُوثَق، فسلّمت عليه فردَّ عليَّ وقال : من أنت ؟ فقلت : خالد بن يزيد . قال : صاحب الشعر الرقيق؟ فقلت : نعم ! قال : إن رأيت أن تفرّج عنّي بعض ما أنا فيه بانشاد شيء من شعرك، فافعل ! فأنشدته :

43) في أ و ج :لها بدون نون.

ترشَّفتُ من شَفَتيهـا عُقـارًا وقـبَّلتُ من خَدّهـا جُلنَّـارًا
وعـانقتُ منهـا كثيبًـا مهـيلاً وغُصنـًا رطيبًـا وبَـدرًا أنـارًا
وأبْصرتُ من نُورِهَا في الظّلا مِ بكُلّ مكانٍ بلَـيلٍ نهَـارًا

فقال : أحسنت، لا فضَّضَ اللهُ فاك ! ثمّ قال : أجِزْلي هذين البيتين، وأنشد : رُبَّ لَيلٍ أمدَّ مِن نَفْسِ العَاشِقِ (البيتين) . قال خالد : فوالله لقد أعملتُ فكري وحاولت في الزيادة عليهما فلم أقدر !

وقال ابنُ بَسَّامٍ في الورد :

أما تَرى الورْدَ يَدعو لِلوُرُودِ على حَمراءَ صافيةٍ في لَونها صَهَبُ ؟
مَداهنٌ من يواقـيتٍ مُركّـبةٍ على الزَّبَرجَد في أجوافها ذهَبُ
خاف المَلاَلة إذ طالتْ إقامَـتُه فصار يظْهر حينًا ثمَّ يحتَجِبُ

وسيأتي ذكر ما في هذا المَنْزَعِ بعدُ إن شاء الله تعالى .

وقال الآخـــر :

إذا مَلكٌ لَـم يَكـن ذاهِـبَه فَـدعْه فَدولَـتُه ذاهِـبَهْ

أي إذا لم يكن صاحب هِيبَة وعطيَّة فدولته ذاهبة لابقاء لها.

وقال التَّنَسِيُّ :

إنَّ أهْلَ العِلمِ قَومٌ سَادَةٌ ما عَلى نُورِ سَناهُم مِن حِجابْ
من غَدا يَجْحَدُ جَهْلاً حقّهُم حاقَ في الأخرى بِه سُوءُ العَذابْ

وقال أيضـا :

من يكـن بأبِيـهِ والأمّ بَرًّا فَهْو من ربِّهِ بوصْفِ اقْتِرابِ

وقال إبراهيم بن حسَّان :

يَشينُ الفتى في النَّاس قلّةُ عقلِه وإن كَـرُمَت أعـراقُه ومناسِـبُه

وقال الآخــر :

ألم تر أنّ العَقل زينٌ لأهلِه ولكن تمامُ العَقلِ طولُ التَّجاربِ

وقال الآخــر :

وما سمّي الانسان إلاّ لأنْسِهِ ... ولا القَلبُ إلاّ أنّه يتَقَلَّبُ

وقال الآخــر :

علـيك بأوساط الأمــور فإنّهَــا ... نجاةٌ، ولا تركَبْ ذلُولاً ولا صَعْبًا !

وسيأتي هذا المعنى.

وقال ابن المعتزّ :

لُحومهمْ لَحمِي وهـم يأكُلـونَه ... وما داهيـاتُ المَـرءِ إلاّ أقـاربُه°

ومن كلام الكِنْدِيّ في هذا : الأب ربّ، والجَدّ كَدّ، والولَد كَمَد، والأخ فَخّ، والعَمّ غَمّ، والخال وبَال، والأقارب عقارب وإنّما المرء بصديقه . ولبعضهم فيه :

أقـاربُك العقـاربُ في أذاهَـــا ... فَلا تركَـنْ إلى عَـمٍّ وخَـالِ

فَكَم عمٍّ أتَاكَ الغَمُّ مِنْهُ ... وكَم خالٍ مِن الخَيْراتِ خَالِ !

وقال ابن الرومي :

عَدوُّك من صَديقِك مُسْتَفَادٌ ... فَلا تَسْتَكثِرَنَّ مِن الصِّحابِ !

فإنّ الـدّاءَ أكْثَـر ما تَـراهُ ... يكُـونُ من الطَّعـامِ أوالشَّـراب

وهذا منزع يتّسع فيه القول، استوفيتُه في غير هذا الموضع.

وقال الآخـــر :

ومن ذا الّذي تُرضَى سجاياه كُلُّها ؟ ... كفى المَرءَ نُبلاً أن تُعدّ معايِبُه

وقال ابن الرومي :

ومن قلّة الانصاف أنّكَ تبْتَغِي ... مُهذّبَ أخْلاقٍ ولَستَ مُهذَّبـا

وقال ابراهيم بن هَرمَة :

فإنّك واطّراحكَ وصْلَ سَلمَى ... لِأُخْرى في مودّتِها نَكُــوبُ

كَثاقِـبةٍ لِـحليٍ مُسْتَعَــارٍ ... لِأذْنيْهَـا فَشَانَهُـمـا الثُّقُـوبُ

فأدّت حلِيَ جارتِهَـا إليهـا ... وقَـد بَقيت بأذنَيها نُدُوبُ

وحاصل هذا الشعر وفحواه أنّه لا ينبغي لك أن تَطّرِحَ صاحبك الى صاحبٍ آخر، وأنت لا تجد فيه إلاّ مثل ما في الأوّل، أو شرّ منه. فعليك بالصفح والغفران، والاستبقاء على

الخلاّن.

وقالَ صَالحُ بنُ عبدِ القُدُّوس :

إذا وتَرْتَ امرءاً فاحْذر عَداوتَه ... من يَزرَعِ الشَّوكَ لا يَحصُدْ به عِنَبا

إنَّ العَدوَّ وإن أبْدى مُسَالَمةً ... إذا رأى مِنْكَ يومًا فُرصةً وثَبا

وتقدَّم هذا في الباب الأوَّل. وقال الآخـر :

قَد يَنفَع الأدبُ الأحداثَ في مهَلٍ ... ولَيسَ يَنفَعُ بَعد الكِبرةِ الأدبُ

إن الغُصونَ إذا قوَّمْتَها اعْتَدلَتْ ... ولَن تَلين إذا قوَّمتَها الخُشُبُ

وقال الآخـــر :

فَما خَلَقَ اللّه مِثل العُقول ... ولا اكْتَسَب المَرءُ مثلَ الأدبْ

وما كَرمُ النَّفس إلاَّ التُّقَى ... ولا حَسَبُ المَرءِ إلاَّ النَّسَبْ

وفي العِلم زينٌ لأهْلِ الحِجى ... وآفَةُ ذي الحِلم طَيْشُ الغَضَبْ

وقال كُشاجِمُ :

لَم أرضَ عَن نفسي مخافة سُخطها ... ورضى الفَتى عن نَفسه إغضابُها

ولَو أنَّني عَنها رضِيتُ لَقصَّرت ... عمَّا تَزيدُ بِمثلِه آدابُها

وتَبيَّنَتْ آثار ذاك فأكثَرتْ ... عَذلِي عَليه وطال فيه عِتَابُها

وقال الآخـــر :

أحِبُّ مَكارمَ الأخْلاقِ جُهْدي ... وأكْرهُ أن أعِيبَ وأن أعَابَا

وأصْفَحُ عن سِبابِ النَّاس حِلمًا ... وشَرُّ النَّاس مَن يَهوَى السِّبابا

ومَن هابَ الرِّجالَ تَهَيَّبوهُ ... ومن حَقَر الرِّجالَ فَلَن يُهابَا

وقال الآخـــر:

فَيا رُبَّ ألْسِنةٍ كالسُّيُوفِ ... تُقَطِّعُ أعناقَ أرْبَابِهَا !

وقال عبدُ الله بن سُلَيْمان بْنِ وهْبٍ :

نَوائِبُ الدَّهْرِ أدَّبَتْنِي ... وإنَّما يُوعَظُ الأدِيبُ

فَذُقْتُ حُلْواً وذُقْتُ مُراً ... كَذاكَ عَيْشُ الفَتَى ضُرُوبُ

لَم يَمْضِ بؤسٌ ولا نَعيمٌ   إلاّ ولِي مِنْهُما نَصيبُ
كَذاكَ مَن صاحَبَ اللّيالي   تَعرُوهُ في مَرِّها الخُطُوبُ

وقال أبو الأسود :

وما كُلُّ ذي لُبٍّ بِمُؤتيكَ نُصحَهُ   ولا كُلُّ مُؤْتٍ نُصْحَهُ بِلَبيب

وقال الفضل بن عبّاس بن عتبة :

وقَد تَرفَعُ الأيّامُ من كان جاهلاً   ويُردي الهَوى ذا الرّأي وهْو لَبيبُ
ويُحمَدُ في الأمر الفَتى وهو مُخطئٌ   ويُعذلُ في الاحْسان وهْو مُصيبُ

وقال النّمِرُ بني تَولَب :

لا تَغْضبنَّ على امْرئٍ في مالِه   وعلى كرائِم صُلب مالِكَ فاغضَب

وقال النابغة :

فإن يَكُ عامرٌ قَد قال جهلاً   فإنَّ مَظِنّةَ الجَهْلِ الشَّبابُ

وقال عَبيدُ بنُ الأبْرَصِ :

وكُلُّ ذي غَيبَةٍ يَؤُوبُ   وغَائِبُ المَوتِ لاَ يَؤُوبُ

وقال الآخر :

لَعَمرُك ما وُدُّ اللّسانِ بنافعٍ   إذا لم يكن أصلُ المودّةِ في القَلب

وقال الآخر :

وما الدّهرُ والأيّامُ إلاّ كما تَرى :   رزيّةُ مالٍ أو فِراقُ حَبيبِ

وقال الآخر :

ولا أتَمنّى الشَّرَّ والشَّرُّ تاركي   ولَكن مَتى أُحمَلْ على الشَّرِّ أركَبِ

وقال الكُمَيْتُ :

إذا لم يَكُن إلاّ الأسنّةَ مَركَبٌ   فلا رأيَ لِلمُضْطَرِّ إلاّ ركُوبُها

وقال أيضا :

أيا موقِدًا نارًا لغَيركَ ضَوْءُها   ويا حاطبًا في حَبلِ غيركَ تَحطُبُ !

وقال ابن المعتز :

وإنْ فُرصَةٌ أمْكَنَتَ في العِدى فَلا تبد فِعْلَكَ إلاّ بِهَا !

وقال محمود :

كَم من حَريصٍ على شيءٍ لِيُدركَهُ وإنَّ إدراكَه يُدْنِي إلىَ عَطَبِهْ !

وقال السري الموصلي :

إذا الحِملُ الثَّقِيلُ توزَّعَتهُ أكُفُّ القَومِ خَفَّ على الرِّقابِ

وقال أعرابيٌّ يهجو بَنِيهِ :

إنَّ بنيَّ كلَّهُم كالكَلْبِ أبَرُّهُمْ أولاَهُمُ بِسَبٌّ

لَم يُغْنِ عَنْهُمْ أدَبِي وضَربي ولا اتّساعي لَهُمْ وحَربي

فَليتَني بِتُّ بغَيْرِ عَقْبِ أوْ لَيتَني كُنتُ عَقِيمَ الصُّلبِ !

وقال النابغةُ يمدح غَسَّان :

ولا عَيبَ فيهمْ غَيرَ أنَّ سُيوفَهُم بهِنَّ فُلولٌ من قِراعِ الكَتائبِ

ويُروى أنَّ عروة بن الزبير ـ رضي الله عنهما ـ قال لعبد الملك بن مروان : أريد أن تُعطيني سيف أخي عبد الله بن الزبير. فقال له : هو بين السيوف، ولا أميِّزه. فقال : إذا أُحضِرَتْ ميَّزته أنا. فأمر عبد الملك بإحضاره. فلمَّا أحضرت أخذ عروة سيفًا مفلول الحدّ وقال : هذا سيف أخي . فقال عبد الملك : أكنت عرفته قبل اليوم ؟ قال . لا . قال : فكيف عرفته ؟ قال: عرفته بقول النابغة : ولاَ عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أنَّ سُيُوفَهُمْ (البيت) .

وقال بعض المتأخّرين قبل عصرنا بقريب :

وهَبْني جَهِلتُ النَّحو يُزْرِي بقِسطه فَفيمَ أُرزَّى في المَعاني الغَرائب ؟

وكان هذا القائل مُزْجَى البِضَاعةِ في النحو، وله قريحةٌ لا بأس بها.يُحكَى أنَّه مدح بعض ملوك مراكش بقَصيدة، فكأنَّه رأى غضاضةً من قِبَلَ الاعراب، فقال ذلك . وهذا البيت ممَّا يتعلَّق به في وقتنا البطَّالون الأغبياء عند الاعتذار عن التقصير في دَرْكِ الأشياء . وكان هذا الرجل شبيهًا بالمعمار في زمنه، وكان المعمار أحد الأدباء له شعر رائق ذكر كثيرا منه أبو بكر بن حجَّة الحموي في كتابه تقديم أبي بكر، غير أنَّه يقع في شعره أمورٌ لا تساعدها العربيَّة.

وقال سحيم الفقعسي :

ولاَ أكتُم الأسرارَ لكِن أبُثُّهَا ... ولاَ أدَعُ الأسرار تَغْلي عَلى قَلبي

وإنَّ قَليلَ العقل مَن باتَ ليلَةً ... تُقلّبُه الأسرارُ جَنبًا الى جَنبِ

وهذه سَخَافة وسَقَاطة . ولولا أنَّ الكِتَابَ بِصَدَدِ أن يُذكَرَ فيه ما يُتَمَثّل به أيًّا كان ما عرَّجنا على مثل هذا الكلام، لمنافاته الخُلُقَ الجميل. وقلت أنا معارضا له على هذا الأسلوب :

لعَمرُك ما من بثَّ سرًّا بذي لُبٍّ ... ولا من حَشاهُ مِنه أمْسى على كَربِ

ولَكن أخو الحِلم الّذي ما أذعتَه ... تنساهُ حتَّى لَيْس يَهجسُ بالقَلبِ

وفي الخبر : مَن أسَرَّ إلى أخِيهِ سرًّا لَم يَحِلَّ لَه أن يُفْشِيَهُ . وقال عمر رضي الله عنه : مَنْ كَتَمَ سِرَّهُ كَانَ الخِيَارُ بِيَدِهِ .

وقال أكْثَمُ بن صَيْفِيّ : سِرُّكَ مِن دَمِكَ، فانْظُرْ أيْنَ تُرِيقُهُ !

وقال بعضهم :

ولَو قَدرتُ على نِسْيانِ ما اشْتَملت ... منّي الضّلوعُ مِن الأسْرار والخَبَر

لَكُنتُ أوّل من يَنسى سَرائِره ... إذ كُنتُ مِن نَشرهَا يومًا على خَطَر

ويقال : مَنْ ضَاقَ صَدْرُه، اتَّسَعَ لِسَانُه . وسيأتي ما قيل في كِتمان السرّ مُسْتَوْفيً.

وقال آخـر في طبيب :

لأبِي العيصِ ألفُ ألْفِ قَتِيلِ ... كلَّ يومٍ ولَيسَ ذَا بِعَجِيبِ

أيُّها النَّاسُ إنَّ ذَا لغَريبٌ ... مَلَكُ المَوتِ في ثِيَابِ طَبِيبِ !

وقال آخـر :

عَذِّ عَنّيَ لَسْتُ مِن أربِي ... كان هَذا حِينَ كُنتَ صَبِي

وَجْنَةٌ كَانتْ أبَا لَهَبٍ ... فَغَدتْ حَمَّالَةَ الحَطَبِ !

وقال ابن المعتزّ :

شَهْرُ الصِّيامِ مُبَارَكٌ ... لَو لَم يَكُنْ فِي شَهْرِ آبْ

خِفْتُ العَــذابَ فَصُمْــتُهُ فَوَقَـعْتُ في عَيْـنِ العَذابْ

وقلت أنا معارضا على هذا الاسلوب :

شَهْــرُ الصِّيَــامُ مُبَــاركٌ لاَ سِيمَــا في شَهْــرِ آبْ
إنَّ الصَّــدَى في حَــرِّهِ يَشْفِي صَدَى يَومِ الحِسَابْ
ويُنِــيلُ وِردَ السَّلْسَبِــيلِ ورَشْـفَ مَعْسُــولِ الرُّضَــابْ

وقال أبو الغَريب :

سُقْيًا لعَهْدِ خَلِيلٍ كان يَأدِمُ لِي زادي ويُذهِبُ عن زوجاتي الغَضَب
كان الخَليلَ فأضْحى قَد تَخَوَّنَه مرُّ الزَّمان وتَطْعَانِي به الثُّقَب
يا صاحِ بلِّغ ذوي الزَّوجاتِ كلَّهمُ أن لَيس وصلٌ إذا انحلَّت عُرى الذَّنب!

كان أبو الغريب هذا شيخا، فتزوَّج ولم يُولم . فاجتمع الفتيان حول خبائه، فصاحوا به : أوْلِمْ ولو بيَرْبُوع، ولو بقِرْدٍ مَجْدوع، قَتَلْتَنَا من الجوع ! فأوْلَم . فلمَّا عَرَّسَ غَدَوا عليه فقالوا :

يا لَيتَ شِعْرِي عن أبي غَرِيبِ إذْ باتَ في مساحبٍ وطِــيبِ
مُعانِقًــا للــرَّشإِ الرَّبِــيبِ أأخْمَدَ المِحفارَ في القَلِيبِ
أمْ كَانَ رِخْوًا يَابِسَ القَضِيبِ ؟

فصاح : يابس القضيب والّله ! ثمَّ أنشأ يقول : سُقْيًا لعَهْدِ الخَلِيلِ (الأبيات) . يريد قضيبه.

وقوله عُرَى الذَّنَبِ يريد عُرَى الذَّكَر، وهو العَصَب.

وقال الحماسي

أنِخْ فاصطَنِع قُرصًا إذا اعتادك الهوى بزيتٍ لِكي يَكْفيكَ فَقْدَ الحبائب
إذا اجتَمَع الجوع المُبرِّحُ والهَوى نَسيتَ وصالَ الغانياتِ الكَواعِبِ
فَدَع عَنْكَ أمْرَ الحُبِّ لا تَذْكُرَنَّهْ وبادِرِ إلى تَمْرٍ مَعَدٍّ ورَائِبِ

وفي هذا الكلام خلل وتدافع يُغتفر في جانب الهزل والتمليح .

ومن معنى هذا ما رُوي أنَّ حُمَيْد المُهَلَّبِي، وكان من النُّعَمَاءِ، جلس يوما إلى

قَـيْنَـةٍ كازيهواها، فجعلت تحدّثه . فلمّا طال المجلس وغلب عليه الجوع قال لها : مالي لا أسمع للغَـدَاء ذِكْرًا ؟ فقالت له : أما تستحي ؟ أليس في وجهي ما يشغلك عن هذا ؟ فقال لها : جُعِلْتُ فداك ! لو أنَّ جَمِيلًا وبُثَـيْنَـةَ جلسا ساعةً يتحدّثان ولم يأكلا فيها شيئا لَـبَصَقَ كلٌّ منهما في وجه صاحبه وافترقا !

ولعلَّ هذا القدر يكفي في هذا الباب، فلْنُمْسِكِ العنان خشيةَ الطول، واللّه يَـقُولُ الحَقَّ وهُوَ يَـهْدِي السَّبِيلَ .

بـاب التّـاء [المثنّـــاة]

تَـتَـابَـعِـي بَـقَـر !

يقال تَـبِعْـتُ الرجل بالكسر أتْبَـعُه إذا مَـشَـيْـتَ وراءَه ؛ وكذا اتَّبَـعْـتُـهُ، وتَـتابَـعُـوا : اتَّـبَـعَ بعضُـهم بعضًا، والبقر معروف، يُـطلق على الانسية المعروفة وعلى الوَحْشِيّة، كقول الشاعر يصف نساء :

أشْبَـهن من بَـقَـر الخَـلساء أعيُـنَـها وهُـنَّ أحْسنُ مِن صِـيرانِـها صُـوَرا

وهنَّ أربعة أصناف : المَـها، والأيـّل، واليَـحْمور، والتيتل.

وأصل المثل أنَّ بشر بن الحارث الأسدي خرج في سنة جهد وجدب، فمرّوا ببقر فَـنَـفَـرَتْ منهم، فقام على رأس الجبل ورماها بقوسه، فجعلت تلقي نفسها وهو يقول : تَـتَـابَـعِـي بَـقَـر !، حتى تكسَّرت ثمَّ رجع إلى قومه فأعلمهم بها فأخذوها . يُـضْرَب عند تتابع الأمر وسرعته .[و] على هذا فَـبَـقَـر مُـنادًى، أي تَـتَـابَـعِـي يَـابَـقَـرُ . وحذف منه حرف النداء وإن كان اسم جنس، وهو جائز على قـلة، كقوله : ثوبي حجر !

وقال الشاعر :

فَـقَـلَت لَـه : عطَّارُ هَـلاَّ أتَـيتَـنا بريحِ الخُزامَـى أو بخوصة عَـرْفَـجِ ؟

أتْـبِـعِ الفَـرسَ لِـجَـامَـهَـا، والنّـَاقَـةَ زِمَـامَـهَـا، والدّلْـوَ رِشَـاءَهَـا.

ويقال أيضا : أتبع المُـهْرَةَ لجامها إلخ . وتقول اتَّـبَـعْـتُ زَيْـدًا إذا سبَـقك فلحِقْـتَـه، وأتْـبَـعْـتَـه كذا إذا جعلتَ ذلك تَـابِعًا له : والفرس معروف، يقع على الذكر والأنثى . والمُـهْـرُ ولد الفرس، وقيل أوّل ما ينتج منه ومن غيره ؛ والأنثى مُـهْـرَة .

قال عنترة :

لّما تَـذكُـرِي مُـهري وما أطْـعَـمتِـه فَـيكونَ جِـلدُكِ مثلَ جِـلدِ الأجْـرب !

وقالتْ حُـمَـيْـدَةُ بنت النُّعمان بن بشير :

ومـا أنـا إلاَّ مُـهْـرةٌ عَـربـيَّـةٌ سَـليـلَـةُ أفراسٍ تجلّـلَـهـا بَـغْـلُ

والنَّاقَةُ معروفة، جمعها نَاقٌ، ونُوقٌ، وأنُوقٌ، ويهمز، وأوْنُقٌ، وأيْنُقٌ على القلب، وأنْوَاقٌ ؛ والزِّمَام بكسر الزاي : ما يشدّ به، جمعه أزِمَّة ؛ والدَّلْوُ معروف، مؤنَّث وقد يذَكَّر، جمعه أدْلٍ، ودِلاَء ، ودُلِيّ ؛ والرِّشَاءُ بكسر الراء والمدّ : الحبل، وهمزته مقلوبة عن واو، جمعه أرْشِيَةٌ . قال زهير :

فَشَجَّ بها الأماعِزَ وهْيَ تَهوِي هُوِيَّ الدَّلْوِ أسْلَمَهَا الرِّشَاءُ

أي شجّ هذا الحمار المذكور، يعني علابها، أي بالأتان، الأماعز، وهي الأمكنة الغليظة، وهي تهوي أي تسرع إسراع الدَّلْو أسْلَمَهَا الرِّشاء، أي انقطع عنها حبلها، فهوت الى قعر البئر، ولا أسرع منها حينئذ . ومعنى جملة المثل ظاهر، وهي عند التفصيل ثلاثة أمثال، ومقصدها واحد، تُضرب عند الأمر باستكمال المعروف وإتمام الصنع . وسببه أنّ ضرار بن عمرو أغار على حيّ عمرو بن ثعلبة وعمرو غير حاضر . فلمّا حضر تبعه فلحقه قبل أن يصل إلى أرضه فقال له : « رُدَّ عليَّ أهلي ومالي ! » فردّهما عليه، فقال له : « رُدَّ عليَّ قياني ! » فردّ عليه القينة الرابعة، وحبس ابنتها سلمى . فقال له حينئذ : « يا أبا قبيصة، أتْبِعِ الفَرَسَ ! » إلخ . وفي معنى الجملة الأخيرة قول الحماسي قيس بن الْخَطِيم :

إذا ما شَرِبْتُ أربعًا خطَّ مِئْزرِي وأتْبَعتُ دَلوِي في السَّماح رِشَاءَها

يقول : إذا شربت من الراح أربعا - يعني أربع أكؤس خط مئزري، أي جررت ردائي خيلاء، وأتبعت دلوي في السماح رشاءها، أي تخلّقت بالسماحة والفضل، فأعطيت البذل وأوسعت الطَّوْل . وهم يفتخرون بالسَّماح حال السُّكر، لأنّ ذلك من مكارم الأخلاق التي يحركها الثمل والنشوة، كما قال طرفة :

لا تَعِزُّ الخَمْرُ إن طافوا بِهَا بِسِباءِ الشَّوْلِ والكُومِ البُكُرْ
فإذا ما شَرِبوها وانْتَشَوا وهَبُوا كلَّ أمُونٍ وطِمِرْ
ثمّ راحوا عَبَقُ المِسْكِ بِهِم يُلحِفونَ الأرضَ هُدّابَ الأُزُرْ

والأمُون، كصَبُور، التي يؤمن عثارها من النوق ؛ والطمر الوثّاب من الخيل . يقول : إذا سكروا جادوا بالنجائب من الابل والعتاق من الخيل . وقوله يُلْحِفونَ الأرْضَ هُدّابَ

الأزُر، أي يجرّون هداب الازر على الأرض . هو كصدر بيت ابن الخطيم . وأبلغ من هذا في الافتخار وأشمل للوصف بالسَّماح حالتي السكر والصحو معًا قول عنترة :

فإذا انتَشَيتُ فإنَّني مُستَهْلِكٌ مالي، وعِرضي وافرٌ لم يُكْلَم
وإذا صَحوتُ فما أقصِّرُ عَن نَدى وكما عَلمتِ شمائلي وتَكَرُّمي

وكقول امرىء القيس يمدح أخاه سعد بن الضباب :

وتَعرفُ فيه من أبيه شمائلاً ومن خالِه ومن يَزيدَ ومن حُجرْ
سماحَةَ ذا وبِرُّذا ووفاءُ ذا ونائِلَ ذا إذا صحا وإذا سَكِرْ

وهذا من الشعر الذي يوضع على كرائم الأحداق، وترصَّع به نفائس الأطواق ؛ غير أنَّ فيه ثلبا خفيفا هو توالي القبض ! ومن ذا الذي يسلم من الاعتراض عند العرض ؟

وقول طرفة : « لا تَعِزُّ الخَمرُ إن طافُوا بِهَا » يريد : لا يعجزون عن شرائها لغلائها إن جاؤوا مريدين لها، بل يبذلون فيها الشوك والكوم البكر، أي التي بكرت بالنتاج، وهي أحبّ أموالهم . وهو كقول عنترة :

ربِذٍ يَداهُ بالقِداحِ إذا شَتا هتّاكِ غاياتِ التِّجار مُلَوَّمِ

وتقدَّم تفسيره . وهذا الوصف مدح عندهم، لكن مادام باقيا على سنن الاقتصاد والعدل . وقد يمتدحون بانفاق المال في النوائب واقتناء المحامد، وترك إنفاقه في الشهوات، كقول زهير في حصن بن حُذَيفة :

أخٌ ثِقةٌ لا تُتلِفُ الخَمرُ مالَهُ ولكنَّهُ قَد يُتلفُ المالَ نائِلُهْ

وهو محتمل لأن يكون نفيا للوصف الخاصّ وهو الاتلاف في الخمر، أو الفعل من أصله وهو الانفاق فيها المؤدي الى ذلك.

أتْبَعُ مِنَ الظّلِّ .

الاتْبَاعُ تقدَّم . والظلّ معروف . قيل وهو الفيء، وقيل الظلّ بالغداة ، والفيءُ بالعشي . وقد يُستعمل في سواد الليل . قال ذو الرمَّة :

قَد أعْرِفُ النَّازِحَ المَجهولَ مَعْسِفَهُ   في ظلٍّ أخْضَرَ يدعو هامَةَ البومِ[1]

قال في الصحاح : وهو استعارة، لأنَّ الظلَّ في الحقيقة إنَّما هو ضوء شعاع الشمس دون الشعاع . فإذا لم يكن ضوء فهو ظلمة، وليس بظلّ . والمقصود من المثل أنَّ ظلَّ الحيوان ونحوه تابع له أينما تحرّك، وملاصق له أينما تقلّب، لا يفارقه ولا يتلكأ عنه . فضرب به المثل لذلك في كلّ تابع . ويسمّى الظلّ تُبّعًا على مثال سُكَّر، إمَّا لهذا المعنى، وإمَّا لأنَّه يتبع الشمس كما قيل . وأحسن بعض الشعراء في ذكر الظلّ حيث قال :

مَثَلُ الرِّزقِ الَّذي تَطلُبُه   مَثَل الظّلِّ الَّذي يَمشي مَعَكْ
أنتَ لا تُدركُه مُتَّبِعًا   فإذا ما مِلتَ عَنهُ اتَّبَعَكْ

أتْجَرُ مِنْ عَقْرَب.

يقال : تَجَر في الشيء يَتْجُرُ، على مثال كَتَبَ يَكْتُبُ، فهو تاجر، والتَّاجر من يبيع ويستري في كلّ شيء، وجمعه تِجار وتَجْر . وقد يُطلق على بائع الخمر خاصَّة، وهو الكثير الاستعمال عند الأعراب في الجاهليَّة.

قال امرؤ القيس :

كأنَّ التجَارَ أصْعَدُوا بِسَبِيئَةٍ   من الخص حتَّى أنْزلوهَا على يُسر

وقال أيضا :

إذا ذُقتَ فاها قُلت طَعم مُدامةٍ   مُعتَّقةٍ ممَّا تجيءُ به التَّجرُ

والعقرب معروف، يذكَّر ويؤنَّث . وعقرب في المثل اسم رجل كان بالمدينة[2] وكان من أكثر الناس تجارة وأشدّهم مطلا وتسويفا حتى ضربوا بمطله المثل . ويحكى أنَّه اتَّفقت له معاملة مع الفضل بن العبَّاس بن عُتبة بن أبي لهب، وكان هو من أشدّ الناس اقتضاءً . فقال الناس : ننظر الآن ما يصنعان . فلمَّا حلَّ الأجل لزم الفضل باب عقرب، وقيَّد حماره بالباب وقعد يقرأ القرآن . فأقام عقرب على المطل غير مكترث به . ثمَّ إنَّ الفضل ترك ملازمة بابه واشتغل بهجائه . فممَّا اشتهر عنه فيه قوله :

---

1) جاء هذا البيت في لسان العرب هكذا :
قد أعْسِفُ النَّازحَ المجهولَ مَعسِفه   في ظلّ أغْضَفَ يَدعُو هامَهُ البُومُ
قال : ويُروى في ظلّ أخضر.
2) في أ و ج : اسم رجلٍ قالوا كان تاجرا....

قَد تَجرتْ في سوقِنا عَقْربٌ لا مَرحبًا بالعَقربِ التَّاجِرَهْ !
كلُّ عدوٍّ كَيدهُ في استِهِ فَغَيرُ مَخْشيٍّ ولا هَائِرَهْ
كلُّ عَدوٍّ يُتَّقَى مُقْبِلاً وعَقربٌ يُخشَى من الدَّابِرَهْ
إنْ عادتِ العَقربُ عُدنا لَهَا وكانتِ النَّعْلُ لَها حاضِرهْ

وحُكي أنَّ الشيخ تقي الدين بن دقيق العيد كان في صِباهُ هو وزوج أخته الشيخ تقي الدين بن الشيخ ضياء الدين يلعبان الشطرنج، فأذَّن العشاء فقاما فصلَّيا . فقال الشيخ تقي الدين : أما نعود ؟ فقال صهره :

إن عادتِ العَقْربُ عُدنا لَها وكانتِ النَّعْلُ لها حاضِرهْ

فأنف الشيخ من ذلك ولم يعد الى أن مات، رحمه الله تعالى.

تُحْفَةُ المُؤْمِنِ المَوْتُ.

هو حديث . والتُّحْفَةُ : البِرّ والصلة والطرفة من الفاكهة ونحوها، وتاؤه أصليَّة . يقال: أتْحَفْتُه . وحكى ابن الأثير عن الأزهري أنَّ أصل التُّحْفة وحْفَة، فأبدلت الواو تاء . وعليه يكون موضعه الواو . والمعنى أنَّ المؤمن إنَّما ينجو من أذى الدنيا وأهوالها وأحزانها وأكدارها، ويصل إلى ما أُعِدَّ له عند الله من الخير وهُيِّىء له من الكرامة بالموت . كما قيل :

قَد قُلت إذ مَدحوا الحَياة وأسرفوا : في الموتِ ألفُ فضيلةٍ لا تُعرفُ
منها أمانُ عَذابه بلقائه وفراق كلِّ مُعاشرٍ لا يُنصِفُ

أتْخَمُ مِنَ الفَصِيلِ .

التُّخَمَة بفتح الخاء كهُمَزة . وتُسكَّن في الشعر : داء يصيب من أكل الطعام معروف، الجمع تُخَم وتُخْمات . يقال : تَخِمَ بفتح الخاء وكسرها، واتَّخَم : أصابه ذلك ، وأتْخَمَه الطعامُ . وهذا الطعام مَتْخَمَةٌ يُتَّخم به . وأصل التُّخَمة وُخَمَة، من قولك : وخُمَ الطعامُ والنبات، فهو وخِيم إذا لم يوافق . وتَوَخَّمَهُ واستَوْخَمَه إذا لم يَسْتَمْرِه . وذكرناه في هذا الباب نظرا الى ظاهر اللفظ : فإنَّ الواو مستهلكة بالابدال، حتى وقع تصرّف الفعل . والفَصِيل، بصاد مهملة : ولد الناقة إذا فُصل عن

أمّه، ويوصف بالتخمة . قالوا لأنّه يفرط في الرضاع أكثر ممّا يطيق.

فائدة في ذكر أسنان الابل . قال أهل اللغة : إذا وضعت الناقة، فقبل أن يعلم أذكر ولدها أم أنثى، ولدها سَليل ؛ فإذا عُلم، فإن كان ذكرا فهو سَقْب، بفتح السين المهملة وسكون القاف، وأمّه مِسْقَب ؛ وإن كانت أنثى فهي حَائِل، وأمّها أمّ حَائِل، كما قال الهذلي :

فَتِلْكَ التي لا يَبْرحُ القَلبَ حُبُّها ولا ذِكْرُها ما أرْزَمَتْ أمُّ حائِل

ومتى جاءت الناقة بذكر قيل أذْكَرَتْ، فهي مُذْكِر ؛ وإن جاءتَ بأنثى قيل آنَثَتْ، فهي مُؤنِث . فإن كان من دأبها أن تلد الذكور قيل هي مِذْكَار . قال النابغة على وجه التمثيل :

لم يُحرَمُوا حُسنَ الغِذاء وأمُّهم طَفَحَت عَليك بناتِقٍ مذْكَارِ

وإن كان دأبها الأناث فهي مِئْنَاث ؛ فإذا اشتدّ ولدها ومشى معها فهو رَاشِح وهي مرشح ؛ فإذا حمل في سنامه شحما فهو مجد ومكعد، ثمّ هو رُبَع، على وزن صُرَد. والذي يقوله الكثيرون إنّ الرُّبَع ما نُتِجَ في أوّل النّتاج، كما أنّ الهُبَع - بوزنة - ما نُتِج في آخره؛ ثمّ هو حُوار، بضمّ الأوّل ؛ فإذا فُصل عن أمّه، أي فُطم عنها، فهو فَصِيل ؛ فإذا أتى عليه حَوْل فابن مخاض، ولذلك قيل :

وجَدنا جَعْفراً فَضَلَت فقيماً كَفَضلِ ابن المخاض على الفَصيلِ

والأنثى بنت مخاض . وسمّي ابن مخاض لأنّ أمّه لحقت بالمخاض من النوق، أي الحوامل وإن لم تكن حاملا ؛ فإذا استكمل السنة الثانية ودخل في الثالثة فصار لأمّه لبن وكانت لبونا، فهو ابن الّلبُون ؛ فإذا دخل في الرابعة فهو حِقّ والأنثى حِقّة . وسمّي بذلك لاستحقاقه أن يُحمل عليه ويُركب ؛ فإذا دخل في الخامس فهو جَذَع والأنثى جَذَعَة ؛ فإذا دخل في السادسة فهو ثَنِيّ والأنثى ثَنِيّة ؛ فإذا دخل في السابعة فهو رَبَاع والأنثى ربَاعِيَة ؛ فإذا دخل في الثامنة فهو سَدِيس وسَدَس بفتح الدال للذكر والأنثى، وقد يقال للأنثى سَديسة ؛ فإذا دخل في التاسعة فهو بَازِل للذكر والأنثى ؛ فإذا دخل في العاشرة فهو مُخْلِف . ولا سِنّ بعد هذا، وإنّما يقال بَازِل عَامٍ، وبازِلُ عامَيْن، ومُخْلِفُ عامٍ وعامَيْن . وما ذُكرنا في أوائل الأوصاف هو طريقة بعض

اللغويّين، وليس هذا محلّ بسط اللغة.

تَرَكْتَ الرَّأي بِبَقَّةَ .

ويُروى : بِبَقَّةَ تَرَكْتَ الرَّأيَ . وهو مثل قاله قَصِير بن سعد لجَذيمة لمَّا صار في بلد الزَّبَّاء . وتقدَّم هذا مستوفى . وفيه قال عَدِيُّ بن الرّقاع :

دعا بالبقَّةِ الأمَنَاءَ يَوْمًا جَذيمَةُ ينتحي عصبا ثمينا[2]
فطاوعَ نفْسَهُ وعصَى قَصيرًا وكان يَقول : لَو نَفَعَ اليَقينا !

وقال نَهْشَل بن ضَمْرة :

ومَوليّ عصاني واسْتَبدَّ بأمرِهِ كما لم يُطَع بالبقَّتَين قَصيرُ

تَرَكَ الخِدَاعَ مَنْ أجْرَى مِنَ المائَةِ.

التَّرك معروف، والخِداع : الختل والمكر؛والخداع والمخادعة المخاتلة ؛ والمائة حُذِف مميّزه، أي مائة غَلْوة، والغَلْوة بالفتح : ما بين موقف الرامي ومسقط سهمه . يقال : غَلَوتُ بالسّهم غَلْوًا وغُلُوًّا، وغاليْتُهُ، وغَالَيْتُ بِهِ : رَفَعْتُ به الى أقصى الغاية . وكلّ مَرْمَاة فهي غَلْوة . وكان أصل المثل أنّ الرهان، لمَّا وقع بين قيس بن زُهير وحُذَيفة بن بدر الفزاري،أو أخيه حمل بن بدر، قال حذيفة : خدعتك يا قيس، تَرَكَ الخِدَاعَ مُنْ أجْرَى مِن المائَةِ ! يريد أنَّ مَنْ أجرى فرسه وأرسله من مائة غَلْوة، فقد كشف أمره ولم يبق معه خداع . وقيل إنَّ أحد المتخاطرين في الرهان المذكور قال لصاحبه : الغاية على حكمي . فقال : الغاية مائة غَلْوة . قال : أتخدعني ؟ فقال : ترك الخِداعَ مَن أجْرَى مِنَ المائة . يُضْرَبُ للرجل الذي قد حنَّكته السنُّ مع العقل والحزم.

تَرَكْتُ فُلاَنًا بِمَلاَحِسِ البَقَرِ أولاَدَهَا.

ويقال : تركته بمَلْحَس البقر . والمَلاحِس جمع مَلْحَس، وهو مفعل من اللحس . يقال : لَحِسَ القَصْعةَ ونحوها بالكسر، يلحَسها لَحْسًا ؛ والمَلْحَس يكون مصدرًا

---

2) ورد هذا البيت في لسان العرب هكذا :
دعَا بالبَقَّة الأمَراءَ يومًا جَذيمَةُ يَستَشِيرُ النَّاصِحِينا
قال : ومنه المَثل : خَلَّفْتَ الرأي بِبَقَّة . وبقة : موضع بالعراق قريب من الحيرة كان به جَذيمةُ الأبرش.

بمعنى التَّلحْس، ومكانـًا له، كما في نظائره . والمعنى : تركته بمكان ملحس البقر أولادها، أي بحيث تلحس البقر أولادها، يعنون به المكان القفر.

تَـرَكْـتُـهُ تَـرْكَ الظَّـبْـيِ ظِـلَّهُ.

الظبي معروف، وجمعُه أظْبٍ وظِـبـاءٌ وظُـبـِيّ ؛ وظِـلـّه، بكسر الظاء المشالة : ما يأوي إليه ويستظلّ به من حرّ الشمس . وهو إذا تركه لا يعود إليه أبدا . فيُضرب للرجل عند نفوره . وعبارة صاحب القاموس : أتـرْكـُه تـرْكَ الظَّـبْـيِ ظِـلـَّه، وهو نحو ممَّا كتبنا نحن . وفعل ذلك لبيان أنَّ الراء في تـرْك ساكنة، وهو مصدر أضيف إلى فاعله وكمل بمفعول، أي تـرْكـًا يشبه تـرْكَ الظبي لظلـّه، وقال : إنَّ فتح الراء من ترك، كما عند الجوهري، وهْم .

قلت : وهو كذلك في صحاح الجوهري مضبوطا بالقلم مفتوحا في النسخة . ولعلَّ الرواية كذلك عنه، وإلاّ فهو محتمل لأن يكون مسكّنا . وهو مصدر عامله مقدَّر، وهو الذي أظهرناه أو ما يشبهه . ثمَّ على الفتح لا مانع من صحَّته ان تكلَّمت به العرب كذلك . ويكون فعلا ماضيا والظبي فاعله . فإذا نفر أحد من شيء نفرة عزما حسُن أن يـُقال : ترك الظبيُ ظلَّه، أي أنه ذهب مذهبا لا مرجع فيه، كأنه ظبي ترك ظلَّه.

تَـرَكْـتُـهُ كَـجَـوْفِ حِـمَـارٍ .

ويقال : هـُو كَـجَـوْفِ حِـمَـارٍ، ويقال كجَـوْفِ عَـيْـرٍ، ومعناه خالٍ لا خير فيه . واختلف [العلماء] فيه فقيل : المراد الحمار المعروف، وجوفه ليس فيه شيء يـُنتفع به، فلا خير فيه. وقيل : المراد حمار ابن مويلع، وهو رجل من عاد وله موضع يقال له جوف كان يزدَرعـُه، أحرقه الله تعالى وأحرق ما فيه لمَّا كفر بالله تعالى . وفيه يقال **أكْـفَـرُ مِـنْ حِـمَـارٍ**، كما سيأتي . قال امرؤ القيس :

وخَـرْقٍ كَـجَـوفِ العَـيرِ قَـفْـرٍ مَـضَلـَّةٍ قَـطعتُ بسامٍ ساهِـمِ الوجْه حسَّان[4]

قال شارح ديوانه عاصم بن أيـّوب : قوله كجوف العير، قال ابن الكلبي : هو وادٍ باليمن

3) سقط من ب .
4) يـُروى هذا البيت أيضا : وَوَادٍ كَـجَـوفِ العَـيْـرِ...

قَفْرٌ لا شيء به . قال : وقال القتبيّ : أراد كجوف الحمار . والحمار، وإن كان ذكيًّا لا يُنْتَفَع به ولا بشيء من حشاه، فكأنّه خالٍ من كلّ خير . وقيل : هو رجل من بقايا عاد كان يقال له حمار بن مويلع، وكان على التوحيد، فأصابت بنين له عشرة صاعقة فأحرقتهم، فغضب وقال : لا أعبد ربًّا فعل بي هذا ! ومال إلى عبادة الأوثان ومنع الضيافة. فأرسل الله عليه نارا فأحرقته وأحرقت جوفه، وهو موضع كان يزدرعه،من جميع ما كان فيه وجميع مَن دخل معه في عبادة الأوثان، فأصبح الجوف كأنه الليل المظلم . فضربت العرب المثل قالوا : وادي الحمار وجوف العير . وقال ابن دُرَيْد : إذا قالت العرب : كأنّه جوف حمار فإنّما يريدون وصف الموضع الخريب الوحش . وقال : أمّا جوف حمار فكان لحمار بن مالك ابن نصر بن الأسد، وكان جبّار عاتيا . فبعث الله عليه نارا فأحرقت الوادي بما فيه، وصار مثلا.

تَرَكْتُهُمْ لَحْمًا عَلَى وَضَمٍ.

اللحم معروف، بسكون الحاء، ويجوز فتحها ؛ والوضَم بفتحتَيْن : ما وُقِيَ به اللحمُ من خشب وحصير ونحوهما . قال الشاعر :

لَيسَ براعِي إبلٍ ولاَ غَنَمْ ولا بِجزّارٍ على ظَهْرِ وضَمْ[5]

جمعه أوْضَام وأوضِمَة . تقول وضَمْتُ اللحم، بفتح الضاد، إذا عمِلْتَ له وضَمًا، أو ووضعتَه على الوضَم، وأوضمته، وأوضمت له إذا عملت له وضما ؛ وتقول : تَرَكْتُهم لحمًا على وضَم، أي مثل اللحم المجعول على الأوضام، وذلك إذاأوْقعت بهم وأوجعت فيهم . قال الحماسي :

وتَركتَنا لحمًا علَى وضَمٍ لَو كُنتَ تسْتَبْقِي مِن الّلحْمِ

وقال البوصيري في معناه :

ما زَالَ يلْقاهُم في كلّ مُعتَركٍ حتّى حَكوا بالقَنا لحمًا على وضَمِ

وقال صفي الدين الحلّيّ :

أبيتُ والدّمعُ هامٍ هاملٌ سربٌ والجِسمُ في إضَمٍ لحمًا على وضَمِ

5) في لسان العرب : لَسْتُ بِراعِي إبلٍ ....، وحكى نسبة هذا البيت الى أبي زُغْبة الخزرجيّ، أو الى الحُطَم القَيْسيّ، أو إلى رُشَيد بن رُمَيض العنزي.

تَـرْكُ الوَطَـنِ أحَـدُ السِّبَـاءَيْـنِ .

الوَطَـن بفتحتَـيْـن معروف ؛ والسِّبَـاء بالكسر والمدّ : الأسْر . يقال : سَبَـى عدوَّه يَـسْبِيه سَبْـيًا وسِبَـاءً، واسْتَـبَـاه[6] إذا أسره . والمعنى أنَّ الخروج من الوطن ، ومفارقة الأهل والسكن، شبيه بالسِّباء ، حتى كأنَّ السباء نوعان : أحدهما الأسر، والآخر السفر، فسار السفر أحد السِّباءَيْـن، وهذا ذمّ له . وتقدَّم في ذمّ السفر ومدحه من الآثار والأشعار ما أغنى عن الاعادة . وسيأتي ذكر ما في هذه التثنية الواقعة في السباء، إن شاء الله تعالى.

اتَّـقِ مَـأْثُـورَ القَـوْلِ !

التَّـقْـوَى معروف ؛ والمأثور : المَـرْوِيّ المَـحْـكِـيّ . والمثل لِـحَـمَـل بْـنِ بَـدْرٍ، قاله يوم الهَـبَـاءَة، وهو أكبر أيَّام حرب داحس بين عَـبْـس وذُبْـيان، وسبب الحرب كلّها . وصدور المثل، على ضرب من الايجاز والاختصار، أنَّ قيس بن زهير- فيما يزعمون-وهو من بني عبس، كان اشترى من مكَّة درعا تُـسمَّى ذات الفضول، فاغتصبها منه عمّه الربيع بن زياد، وكان سيّد عَـبْـس . فغضب قيس وتحوَّل عنهم، ونزل على بني ذبيان، وسيَّدهم إذ ذاك حُـذَيْـفَـة بن بدر وأخوه حَـمَـل بدر، فأكرموه وأحسنوا جواره . ثمَّ إنَّ قيس بن زُهَـير وحُـذَيفة بن بدر تراهنا يومًا على خطر عشرين بعيرا، وجعلا الغاية مائة غَـلْـوَة، والمِـضْـمار أربعين ليلة، والمجرى من ذات الإِصَـاد . فأجرى قيس داحسًا والغبراء، وأجرى حذيفة الخَـطَّـار والحَـنْـفَـاء . فوضعت بنو فزاره[7] رهط حذيفة كمينًا في الطريق . فلمَّا جاءت الغبراء ـ وكانت سابقة ـ لطموها وردّوها . فقال قيس : سبقت ! فدفعوه عن ذلك حتى وقع بينهم الشرّ . فطلب منهم قيس بعيرا واحدا، فقال جذيمة : ما كنَّا لنقرَّ لكم بالسبق ! فلمَّا رأى قيس ذلك ترحَّل عنهم وفارقهم . ثمَّ إنَّه أغار فلقي عوف بن بدر أخا حذيفة فقتله وودَاه مائة ناقة عشراء . ثمَّ خرج مالك بن زهير أخو قيس فلقيه حَـمَـل بنُ بدر فقتله . فأرسل قيس إلى حذيفة أن أردد علينا إبلنا ! فقد قتلت مالك بن زهير بعوف بن

---

6) في ا و ج : « واسْبَاهُ » وهو تصحيف.
7) حرفت الى « نزارة » في بعض المخطوطات.

بدر . وكانت الابل قد تناتجت عند حذيفة، فدفعها دون أولادها . وامتنعت عبس إلاّ أن يقبلهم إبلهم بأولادها : فهاجت الحرب بين الفريقين، ودامت أربعين سنة ـ فيما يزعمون ـ إلى أن أصلح بينهم الحارث بن عوف وهرم بن سنان المرّيّان، كما سنذكر. وكانت بنو عبس وتروهم، فاجتمعت القبائل وحلفاؤها وتعاقدوا وتحالفوا، فسار حذيفة الى عبس في جموع لا تُحصى . فلمّا رأت عبس ذلك اجتمعوا الى قيس بن زهير فقالوا له : ما الرأي ؟ فقال : خلّوا الأموال والظعن وادخلوا في الشعب، فإنّ الجموع إذا رأت الظعائن لا رجال فيها أمنوا فغنموا وتفرّقوا، فتدركوا منهم حاجتكم ! فلمّا أشرفت جموع حذيفة على أموال بني عبس ظنُّوا أنّهم فرّوا، فأمنوا وغنموا، وجعل الرجل يطرد ما قدر عليه من الأموال . فلمّا تفرّقوا كرّت عليهم خيل عبس فوضعت فيهم السلاح وانهزموا . وأسرفت في القتل حتّى ناشدهم بنو ذبيان البقيّة، وكان يوما شديد الحرّ . فمضى حُذَيفة وأخوه حَمَلٌ حتّى استغاثا بجفر الهباءة، فنزلا ومعهما وَرْقَاءُ بنُ بلال، ونزعوا سلاحهم وسرجهم وأقعدوا رَبِيئَةً يتطلّع، ولم يكن لعبس همٌّ إلاّ في حذيفة . فبعثوا الخيل تقصّ أثره . فنظر الربيئة فقال : إني أرى شخصا كالنعامة، فلم يكترثوا به وجعلوا يتحدّثون،فإذاهم بخيل عبس قد لحقتهم، وحالت بينهم وبين خيلهم . فلمّا حملوا عليهم وهم في الجفر، قال حذيفة : يا بني عبس، فأين الأحلام ؟ فضربه أخوه حَمَلٌ بين كتفيه وقال : اتَّقِ مَأْثُورَ القَوْلِ !فأرسلها مثلا . يريد : إنّك تقول قولا تتذلّل فيه وتخضع، وتُقتل ولا يَنْفع، فتشتهر عنك أخبارُه، ويبقى عليك عاره . فقتلوا حذيفة ومن معه، وتمزّقت بنو ذبيان.

ولا يخفى أنّ هذا المثل حقّه أن يذكر في غير هذا الباب، لكن الواو لمّا استهلكت بالابدال اعتبرنا الظاهر تقريبا . ودَاحِس بالدال المهملة ـ على وزن فَاعِل ـ من الدّحس، وهو الدفع . وسمّي بذلك لأنّ أباه ذا العقال ـ وهو فرس ـ كان لرجل يُسمّى حوطا، خرجت به جاريتان له يوما تقودانه، فمرّتا به على فرس أنثى لقرواش اليربوعي تَسمّى جلواء، وهي إذذاك ودِيقٌ ـ والوديق، بالدال المهملة : المشتهية الفحل، ومنه المثل الآتي : ودَقَ العَيْر الى الماء ـ فلمّا رآها ذو العقال ودَقَ . فضحك شباب منهم، فاستحيت الجاريتان، فأرسلتا مقوده، فنزا عليها . فلمّا جاء حوط ـ وكان رجلا سيّء الخلق ـ عرف النزو

في عين ذي العقال، فغضب وقال : اعطوني ماء فحلي ! فلمَّا رأوا الخطب قد عظم قالوا : دونك وماء فحلك ! فأخذ الفرس وجعل يده في ماء وتراب، وأدخل اليد في رحمها حتَّى ظنَّ أنَّه استخرج الماء . وقد اشتملت الرحم على ما فيها فنتجها قرواش مُهراً أسماه دَاحِسا، لدحس حوط إياه، وخرج كأنَّه ذو العقال أبوه . ثمَّ إنَّ قيس بن زهير أغار على بني يربوع، فغنم، فرأى داحسا قد ركبه فتيان فقطعا الخيل ونجوا . فأعجب به قيس، ودعا إلى أن يجعله فداء المغنم كلّه . فأعطوه إياه، وكان سبب الحروب، حتَّى قيل : أشْأمُ مِنْ دَاحِس، وسيأتي . والخَطَّار بفتح الخاء المعجمة وتشديد الطاء المهملة بعدها ألف فَراءٌ، وهو فرس لحذيفة ؛ والحنْفَاء : فرس له أيضا، تأنيث الأحنف . والحنف قيل هو الاعوجاج في الرِّجْلِ، وقيل أن يقبل إحدى إبْهَامَي الرجل على الأخرى، وقيل ميل في صدور القدم، وقيل المشي على ظهر القدمين من شقّ الخنصر .

ويذكر في هذه القصَّة أيضا أنَّ حذيفة أجرى قُرْزُلاً - والقُرْزُل بالقاف والراء والزاي، على وزن جُحْذُب، وهو فرس لحذيفة أيضا - ويحتمل أنَّه الخطَّار المذكور . وقد قيل في هذه القصَّةِ إنَّ الصحيح أَنَّ الرهان إنَّما [وقع] بين قيس وحَمَل بن بدر، لا حذيفة ؛ وأنَّ فرس قيس داحس وفرس حَمَل الغبراء . وفي القصَّة اضطرابات كثيرة أضربنا عنها . والهَبَاءة، بفتح الهاء ثمَّ باء موحَّدة وبعد الألف همزة مقلوبة عن واو ثمَّ هاء تأنيث، وهي أرض لغَطَفَان فيها ماء . وفي الفرسَيْن يقول عنترة بن معاوية بن شدَّاد العبسي يرثي مالك بن زهير :

لِلّهِ عَينا مَن رأى مِثل مالكٍ عَقيرَةَ قومٍ إن جَرى فَرسان !
فَلَيتَهما لم يجريا نصْفَ غَلْوةٍ ولَيتَهما لم يُرسَلا لِرهَانِ !
ولَيتهُما ماتا حميعًا بِبَلْدَةٍ وأخْطاهُما قَيسٌ فَلا يريَانِ !
لَقد جَلبا حينًا وحربًا عَظيمةً تُبيد سَراة الحيّ مِن غَطفانِ
وكان لَدى الهَيجاء يحْمي ذِمارهُ ويَضْربُ عِند الكَربِ كلَّ بَنانِ

وقال الربيع بن زياد أيضا، عمّ مالك المذكور يرثيه :

إنّي أرِقْت فَلم أغمّضْ حارِ ! مِن سيّءِ النَّبإ الجَليل السَّاري

مِن مِثلِه يمشي النّساءُ حَواسراً وتَقوم مُعولةٌ مَع الأسْحارِ
أفَبَعد مقْتَل مالك بن زُهَير تَرجُو النّساءُ عَواقبَ الأطهار ؟
ما أن أرى في قَتْلِه لذوي النُّهى إلاّ المَطيَّ تُشدُّ بالأكوارِ
ومُجنَّباتٍ مَا يَذُقْنَ عذُوقةً يقْذفْنَ بالمُهراتِ والأمْهارِ
ومساعراً صَدأُ الحَديد عليهِمُ فكأنَّما طُلِي الوجُوهُ بِقَارِ
من كان مسروراً بمَقتَل مالكٍ فَليأتِ نِسوتَنا بوجْهِ نهارِ :
يجِد النّساءَ حواسراً يَندُبنَه قَد قُمن قَبلَ تبلُّج الأسْحارِ
قَد كنَّ يخْبَأن الوجوهَ تستُّراً فالآن حينَ بَدَوْنَ للنُّظَّارِ
يَضْربنَ حُرَّ وجوههنَّ على فَتى عفٍّ الشَّمائِل طيِّبِ الأخبارِ

قوله : حار، أراد يا حارث ! قوله : ترجو النّساء عواقب الأطهار يريد أنَّ النساء لا يأتين بمثله، وفي عَروض هذا البيت عيبُ القطع، وهو لا يجوز إلاّ مع التصريع . والمجنبات : خيلٌ يركبون الابل فيقودونها هي لا يركبونها إلى موضع الغارة لتجم . ويقال : ما ذقت عَذُوقًا، بالذال المعجمة، وتُهمل [في لـغة] ربيعة، وبالفاء أي شيئا . ويقال عَذُوفًا وعَذُوفَةً ؛ فإن كانت الرواية بغير هاء التأنيث، ففي هذه العروض أيضا العيب السابق . والمَساعِر جمع مِسْعَر، وهو الذي يَسْعَر الحَرْب . قوله : قَدْ قُمْنَ قَبْلَ تَبَلُّجِ الاسحار هكذا في رواية . والجملة حال، أي يجد النساء، عند وصوله، يندبنه وقد كنَّ قمن إلى ذلك من الليل قبل تبلّج الاسحار، واستمررن على البكاء إلى وقت مجيئه . ويُروى : يَنْدُبْنَهُ بِالصُّبْحِ قَبْلَ تَبَلُّجِ الأسْحار . وقالوا : يعني بالصبح هنا الحَقّ، والأمر الجليّ، وليس بظرف . ولابدَّ فيه مع ذلك من التقدير الذي في الرواية الأولى، ويصحّ أن يكون الصبح أطلق على آخر الليل لقربه منه مجازًا، أو يكون على بابه . وقوله قَبْلَ تَبَلُّجِ الأسحار معمول لفعل مقدَّر، كما في الرواية الأولى، أو معمول لِيَنْدُبْنَهُ . ويكون بِالصُّبْحِ معمولاً، لِحَوَاسِرَ على اللف والنشر، مع تكلّف . وأفاد بالبيتَيْن أنّهم أدركوا ثأرهم، لأن القتيل عند العرب لا يُبكى حتى يُؤخذ بثأره . وقال قيس بن زهير يرثي حَمَلَ بْنَ بَدْر، وهو أوّل من رثى مقتوله :

تعلَّمْ أنَّ خيرَ النَّاس مَيْتٌ على جَفْرِ الهَبَاءَةِ لا يَرِيمُ
ولَو لا ظُلْمُه مازِلْتُ أبْكِي عَليه الدَّهْرَ ما بَدتِ النُّجومُ
ولكنَّ الفَتى حَمَلَ بْنَ بَدْرٍ بَغَى، والبَغْيُ مرتَعُه وخِيمُ
أظُنُّ الحِلم دلَّ عليَّ قَومي وقَد يُسْتَجْهَلُ الرَّجُلُ الحَلِيمُ
وما رسْتُ الرِّجال وما رسُونِي : فَمُعْوجٌّ عليَّ ومَسْتَقِيمُ

وفي ذلك قال أيضا :

شَفَيتُ النَّفسَ من حَمل بْن بدرٍ وسَيفِي مِن حُذيفةَ قَد شَفاني
قَتَلتُ بإخوتي سادات قومي وهُمْ كانوا لَنَا حَلْيَ الزَّمَانِ
فإنْ أكُ قَد بَردتُ بهم غَليلي فَلم أقْطَع بِهم إلاَّ بنَاني

فائدة : حَمَلُ بنُ بَدْرٍ المذكور بفتح الحاء المهملة وفتح الميم، على لفظ ولَد الضَّأن. وفيه قال الشاعر :

لَبِثْ قليلاً يلحَق الهَيْجَا حَمَل ما أحْسن الموتَ إذا حانَ الأجَل !

وتمثَّل بهذا الشعر ـ فيما يذكر ـ سعد بن معاذ، رضي الله عنه، يوم الخندق . قال البكري : وفي همدان حَمُل بن زياد بن حسَّان، بفتح الحاء وضمّ الميم ؛ وفي مَدْحِج جَمَل بن كنانة، بفتح الجيم والميم، كلفظ واحد الجمال ؛ وفي كنانة خُمْل بن شق، يعني بالخاء المعجمة مضمومة، وتسكين الميم، والله أعلم.

وأمَّا سبب الصلح بينهم على الحارث بن عوف، فهو أنَّ الحارث قال يوما لخارجة بن سِنان : أتراني أخطب إلى أحد من العرب، فيردّني ؟ قال : نعم . قال : ومن هو ؟ قال : أوس بن حارثة [بن لام الطائيّ . فقال الحارث لغلامه : اركب ! فركبا حتى أتيا أوس بن حارثة][8] في بلاده . فلمَّا رأى الحارث قال : مرحبًا بك يا حَارِ ! قال : وبك ! قال : وما حاجتك ؟ قال : جئتك خاطبا . قال : ليست هناك ! فانصرف ولم يكلّمه . ودخل أوس إلى امرأته مغضبا، وكانت من عبس فقالت : من الرجل الذي وقف عليك ؟ قال : ذالك سيّد العرب، الحارث بن عوف . قالت : فما لك لم تَسْتَنْزِلْه ؟ قال : انه استحمق . قالت : وكيف ؟ قال : جاءني

8) سقط ما بين معقوفتين من أ.

حاطبا . قالت : أفتريد أنْ تزوّج بناتك ؟ قال : نعم ! قالت : فإذا لم تزوّج سيّد العرب، فمَنْ ؟ قال : قد كان ذلك . قالت : فتدارك ما كان منك ! قال بماذا ؟ قالت : بأن تلحقه فتردّه . قال : وكيف، وقد فرط منّي ما فرط إليه ؟ قالت : تقول إنّك لقيتني مغضبا بأمر . فانصرف، ولك عندي ما تحبّ : فإنّه سيفعل فركب حارثة في أثره . قال خارجة : فوالله إنّا لنسير إذ حانت منّي التفاته فرأيته، فأقبلت على الحارث وما يكلّمني غمّا . فقلت : هذا أوس بن حارثة ! قال : وما نصنع به ؟ امض ! فلمّا رآنا لا نلتفت، صاح : يا حَارِ، اربع عليّ ! فوقفنا له فكلّمه بذلك الكلام، فرجع مسرورا . ودخل أوس منزله، فقال لامرأته : ادعي لي فلانة ! كبرى بناته . فأتته، فقال : يا بنيّة، هذا الحارث بن عوف، سيّد من سادات العرب، وقد جاء خاطبا . فأردت أن أزوّجك منه، فما تقولين ؟ قالت : لا تفعل ! قال : ولِمَ ؟ قالت : لأنّي امرأة في وجهي رِدّة، وفي خلقي بعضُ الحدّة، ولست بابنة عمّه فيرعى رحمي، وليس بجارك في البلد فيستحي منك ؛ ولا آمن أن يرى منّي ما يكره، فيطلّقني فيكون عليّ وصمة . فقال : قومي، بارك الله فيك ! ثمّ دعا الوسطى، فأجابته بنحو ذلك ؛ ثمّ دعا الصغرى فقال لها فقالت : أنت وذاك . فقال : إنّي عرضت ذلك على أختيك فأبتاه . فقالت : لكنّي الجميلةُ وجهًا، الصَّنَاعُ يدًا، الحسيبة أبًا . فإن طلّقني فلا أخلف الله عليه . قال : بارك الله عليك ! ثمّ خرج إلينا فقال : قد زوّجتك بهنسة بنت أوس . قال : قد قبلت . فأمر أمّها أن تهيّئها وتصلح من شأنها . ثمّ أمر ببيت فضرب له وأدخله إياه . فلمّا أدخلت إليه لبث هنيئة، ثمّ خرج إليّ، فقلت : أفرغت من شأنك ؟ قال : لا والله لمّا مددت يدي إليها قالت [مَهْ][9] أعند أبي وإخوتي ؟ هذا لا يكون ! قال : فأمر بالرحلة فارتحلنا بها معنا، فسرنا ما شاء الله، ثمّ قال لي : تقدّم ! فتقدّمت، فعدل بها عن الطريق، فما لبث أن لحقني، فقلت : أفرغت ؟ قال : لا والله ! قالت لي : أكما يُفْعَلُ بالأمَة الجليبة، والسَّبِيَّة الأخِيذة ؟ لا والله حتّى تنحر الجَزُور، وتذبح الغنم، وتَدْعُوَ العرب، وتعمل ما يعمل لمثلي . قال خارجة : فقلت : والله لأرى هيئة عقل ! وإنني لأرجو أن تكون المرأة النجيبة . ثمّ سرنا حتّى دخلنا بلادنا . فأحضر الابل والغنم، ثمّ

9) سقط من أ.

دخل إليها وخرج . فقلت : أفرغت ؟ قال : لا والله ! قلت : ولِمَ ذلك ؟ قال : دخلت عليها أريدها فقلت : قد أحضرنا من المال ما ترين . قالت : والله لقد ذُكِرْتَ لي من الشرف بما لا أراه فيك ! قلت : كيف ؟ قالت : أتتفرَّغ لنكاح النساء والعرب يَقْتُلُ بعضُها بعضا ؟ - تعني عبسًا وذبيان - قلت : فتقولين ماذا ؟ قالت أخْرُج إلى هؤلاء القوم فأصْلِحْ بينهم ثمَّ ارجع إلى أهلك، فلن يفوتك ! قلت : والله إنّي لأرى عقلا وهمّة، ولقد قالت قولا ! فاخرج بنا ! فخرجنا حتّى أتينا القوم، فمشينا بينهم بالصلح، فاصطلحوا على أن يحسبوا القتلى من الفريقيْن، ثمَّ يؤخذ الفضل ممَّن هو عليه . فحملنا عنهم الديات وكانت ثلاثة آلاف بعير . وفي هذا الصلح يقول زهير يمدحهما :

سَعى ساعِيا غَيظ بن مرّة بعدما تبزّلَ ما بين العَشِيرةِ بالدَّمِ
فأقسَمتُ بالبيتِ الّذي طافَ حولَه رجالٌ بَنَوه من قُريشٍ وجُرهم
يمينًا لنِعم السَّيِّدان وُجِدتُما على كلّ حالٍ من سحيلٍ ومُبرمِ
تَداركتُما عبسًا وذُبْيان بَعْدما تَفانوا ودقّوا بينهُم عِطر مَنشَم

وعاش الحارث حتّى أدرك النبيَّ صلّى اللّه عليه وسلّم، فأسلم رحمه الله تعالى.

تِلْكَ التّجَارَةُ لا انْتِقَادُ الدِّرْهَمِ.

هذا في قول القائل :

وإذا شَكا مُهْري اليَّ حَرارةً عِند اخْتلافِ الطّعن قُلت لَهُ : اقْدمِ
إنّي بِنَفسي في الحُروب لَتاجرٌ تِلكَ التّجارةُ لا انتِقادُ الدِّرهم !

ومعناه ظاهر.

تَمْرَةٌ خَيْرٌ مِنْ جَرَادَةٍ.

التَّمْرُ، بالمثناة الفوقانية وسكون الميم، معروف، وهو ما يبس من حمل النخيل . الواحدة تَمْرة، والجمع تَمْرات وتُمُور وتُمْران ؛ والتَّمَّار بائع التمر، والتَّمْرِيّ مَنْ يُحبّه . وأمَّا الثمر بالمثلّثة وفتح الميم فهو حمل الأشجار كلّها . والجراد معروف، الواحدة جَرَادَة . والمثل ظاهر مشهور.

التَّمْرُ في البِئْرِ عَلَى ظَهْرِ الجَمَلِ.

التَّمْرُ تقدَّم، والبئر معروف، وكذا الجمل . وأصل المثل أنَّ المنادي كان يقوم في الجاهلية على أُطُم مِنْ آطام المدينة فينادي بذلك الكلام حتَّى يدرك التمر، أي : من سقى نخيله بمياه الآبار على ظهور الجمال بالسواني وجد التمر، وحمد عاقبة الأمر، وأدرك غاية السقي، ونجاح الرأي . وهذا كما تقول : الزرع في تحريك الأرض وتزبيلها، والعنب في زَبْر الكرم وسقيها . وهذا كلّه تحضيض على إحكام الأسباب، والاعتناء بالوسائل، وتنبيهٌ على أنَّ المقاصد منوطة بها، ومرتبط صلاحها بصلاحها . وقريب من هذا المثلُ الآخر، وهو قولهم : عِنْدَ الصَّباحِ يَحْمَدُ القَوْمُ السُّرَى، وقول القائل :

إذا أنتَ لم تزرَع وأبْصَرت حاصداً ... نَدمتَ على التَّفريطِ في زمن الزَّرعِ

أتَمِيمِيًّا مرَّةً وقَيْسِيًّا أُخْرَى ؟

يضرب لمن يتلوَّن ويختلف كلامه ولا يقف على حال، أي : أتَنْتَسِبُ إلى تَمِيمٍ مَرَّةً، وإلى قَيسٍ مَرَّةً أخْرَى ؟ وتميم وقيس قبيلتان عظيمتان من قبائل العرب . أمَّا تميم فهو تميم بن مُرّ بن أدّ بْنِ طابِخة، بالباء الموحَّدة والخاء المعجمة، بن إلياس بن مُضَر بن نِزَار ؛ وأمَّا قيس فهو قَيْسُ عَيْلان، بفتح العين المهملة، واسمه إلياس بن مُضر بن نِزار، وقيس لقب له . وقد قيل إنَّ عيلان هو أبو قيس . ويدلّ لصحَّته قول الحماسي :

لَحى الّله قيساً قيس عيلانَ إنَّها ... أضاعت ثُغور المُسلمينَ وولَّتِ !

فَشاول بقيسٍ في الطّعان ولا تَكُن ... أخاها إذا ما المَشرفيَّة سُلَّتِ

ألا إنَّما قيس بنُ عيلانَ بقَّةٌ ... إذا شَربَت ماء العَصير تَغنَّتِ !

فصرَّح بأنَّه ابنُ عَيْلان . وبين القبيلتَيْن أبدا منافرات ومكافحات ومقاتلات . ومن ثَمَّ اشتهر بينهما التقابل، كما في هذا المثل، وشاع عند البيانيّين في باب القصر التمثيلُ بقولهم : فلانٌ تميميٌّ، مراعاة لهذا الأمر . وفي بعض الأخبار قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم : يَا أبَا الدَّرْداء ! إذا فاخَرْتَ فَفَاخِرْ بِقُرَيْشٍ، وإذا كَاثَرتَ فَكَاثِرْ بِتَمِيمٍ، وإذا حَارَبْتَ فَحَارِبْ بِقَيْسٍ ؛ ألاَ إنَّ وجُوهَهَا كِنَانَةُ،

ولِسَانُـهَا أسَدٌ، وفُرْسَانُـها قَيْسٌ ؛ ألاَ إنَّ لِلَّهِ فُرْسَانًا فِي سَمَائِهِ وهُمُ المَلاَئِكَةُ، وفُرسَانًا فِي الأرْضِ وهُمْ قَيْسٌ ! وإنَّ آخِرَ مَنْ يُقَاتِلُ عَنِ الاسْلامِ، حِينَ لاَ يَبْقَى إلاَّ ذِكْرُهُ ومِنَ القُرآنِ إلاَّ اسْمُهُ، لَرَجُلٌ مِنْ قَيْسٍ. قُلْتُ : يَا رسُولَ اللَّه، مِنْ أيِّ قَيْس ؟ قال : مِنْ سُلَيْم.

وسار معاوية يوما، فإذا هو براكب، فقال لبعض أصحابه : عليَّ به من غير ترويع ! فأتاه وقال : أجِبْ أمير المؤمنين ! فقال : إيَّاه أردت . فلمَّا دنا حسر اللثام وأنشد :

مُعاوِيَ لم أزل آتيكَ تَهْوِي ... بِرِحْلِي نحو ساحَتِكَ الرِّكَابُ
تجُوب الأرضَ نحوكَ ما تأبَّى ... إذا ما الأكْمُ قَنَّعَهَا السَّرابُ
وكُنتَ المُرتَجَى وبِكَ اسْتَغَاثَتْ ... لِتُنعِشَهَا إذا بَخِلَ السَّحَابُ

فإذا ليلى الأخيليَّة، فهشَّ لها معاوية، وأمر لها بخمسين بعيرا . ثمَّ سألها عن مُضَرَ فقالت : « فاخِرِ بقريش، وحارب بقيس، وكاثِرْ بتميم، وناطِقْ بِأسَد ! » وتقدَّم أنَّ هذا في الحديث، وسيأتي تمام حديث ليلى في الأعيان . ويُسمَّى أولاد إلياس خِنْدِفًا، وهي اسم إمّهم، ومُضر كلّها راجعة الى خِنْدِف وقيس.

ومن أظرف ما يتَّفق في هذا النسب، ويزيد بصيرة في هذا المقام . ما ذكر أبو علي البغدادي يرفعه الى أبي عبيدة أنَّ يزيد بن شيبان بن علقمة خرج حاجًّا فرأى، حين شارف البلد، شيخا يحفّه ركب على إبل عتاق برحال ميس ملبَّسة أدما . قال : فعدلت فسلَّمت عليهم وبدأت به فقلت : مَنِ الرجلُ ومَنِ القوم ؟ فإنَّ القوم ينظرون الى الشيخ هيبة له، فقال الشيخ:رجل من مَهرة بن حَيدان بن عمرو بن الحاف من قضاعة.فقلت:حيَّاكم الله ! وانصرفت . فقال الشيخ : قف أيّها الرجل ! استنسبتنا فانتسبنا لك، ثمَّ انصرفت ولم تكلّمنا - ويُروى : شَامَمْتَنا مُشَامة الذئب الغنم، ثمَّ انصرفت - قال . قلت : ما أنكرت سوءًا، ولكنَّني ظننتكم من عشيرتي فأناسبكم، فانتسبتم نسبا لا أعرفه ولا أراه يعرفني . قال : فأمال الشيخ لثامه وحسر عمامته وقال : لعمري ! لئن كنت من جِذْم من أجذام العرب لأعْرِفَنَّك . قلت : فإنني من أكرم أجذامها . قال : فإنَّ العرب بنيت على أربعة أركان : مضر، وربيعة، واليمن، وقضاعة ؛ فمن أيهم أنت ؟ قلت : من مضر . قال : أمن

الأرجاء أم من الفرسان ؟ فعلمت أنّ الأرجاء خِنْدِف، وأنّ الفرسان قيس . قلت : من الأرجاء . قال : فأنت إذن من خِنْدِف ؟ قلت : أجل ! قال : أفمن الأرنَبة أم الجُمْجُمة ؟ فعلمت أنّ الأرنبة مُدْرِكَة، وأنّ الجُمْجُمة طابخة . فقلت : من الجمجمة . قال : فأنت إذن من طابخة؟ قلت : أجل ! قال : أفمن الصميم أم من الوشيط ؟ فعلمت أنّ الصميم تميم، وأنّ الوشيط الربَّاب . فقلت : من الصميم . قال : فأنت إذاً من تميم ؟ قلت : أجل ! قال : أفمن الأكرمين أم من الأحلمين أم من الأقلّين ؟ فعلمت أنّ الأكرمين زَيْدُ مَنَاة، وأنّ الأحلمين عَمْرو بنُ تميم، وأنّ الأقلّين الحارث بن تميم . قلت : من الأكرمين . قال : فأنت إذاً من زيد مناة ؟ قلت : أجل ! قال : أفمن الجدود أم من البحور أم من الثماد ؟ فعلمت أنّ الجدود مالك، وأنّ البحور سعد بن زَيْدِ مَنَاة، وأنّ الثماد بنو امرىء القيس بن زيد مناة . قلت : من الجدود . قال : فأنت إذاً من بني مالك ؟ قلت : أجل ! قال : أفمن الذُرَى أنت أم من الأرداف ؟ فعلمت أنّ الذرى حنظلة، وأنّ الأرداف ربيعة ومعاوية وهما الكرد وساق . قلت : من الذرى . قال : فأنت إذاً من بني حنظلة ؟ قلت : أجل ! قال : أفمن البدور أم من الفرسان أم من الجراثيم ؟ فعلمت أنّ البدور مالك، وأنّ الفرسان يَرْبُوع، وأنّ الجراثيم البَراجم . قلت: من البدور . قال : فأنت إذاً من بني مالك بن حنظلة ؟ قلت : أجل ! قال : أفمن الأرنبة أم من الّلحْيَيْن أم من القفا ؟ فعلمت أنّ الأرنبة دَارِم، وأنّ الّلحيين طهيَّة والعدرية، وأنّ القفا ربيعة بن حنظلة.قلت:من الأرنبة.قال: فأنت إذا من دارم ؟ قلت : أجل ! قال: أفمن اللباب أم من الهضاب أم من الشهاب ؟ فعلمت أنّ اللباب عبد الله، وأنّ الهضاب مجاشع، وأنّ الشهاب نهشل . قلت : من اللباب . قال : فأنت إذاً من عبد الله ؟ قلت : أجل! قال : أفمن البيت أم الزّوافر ؟ فعلمت أنّ البيت بَنُو زُرَارة، وأنّ الزوافر الأحلاف . قلت: من البيت . قال : فأنت إذا من بني زرارة ؟ قلت : أجل ! قال : فإنّ زرارة ولد عشرة : حاجبا، ولَقِيطا، وعَلْقَمة، ومَعْبَداً، وخُزَيْمة، ولَبِيداً، وأبَا الحارث، وعمْراً، وعَبْد مَنَاة، ومالكًا . فمن أيّهم أنت ؟ قلت : من بني علقمة ولد شيبان، لم يلد غيره فتزوّج ثلاث نسوة : مهدد بنت حمران بن بشر بن عمرو بن مرثد، فولدت له يزيد ؛ وتزوّج عِكْرِشة بنت حاجب بن زرارة بن عدس، فولدت له المامور ؛ وتزوّج عَمْرةَ بنت بِشر بن عمرو بن عدس، فولدت

له المقعد . فلأيّهنّ أنت ؟ قلت : لمهدد . قال : يا ابن أخي ! ما افترقت فرقتان بعد مُدركَةَ إلاّ كنت في أفضلهما حتّى زاحمك أخواك، فإنّهما أن تلدني أمًّا هما أحبّ إليّ من أن تلدني أمّك . يا ابن أخي ! أتراني عرفتك ؟ قلت : إي وأبيك أتمّ معرفة ! قال أبو علي : الميس ضرب من الشجر، تُعملُ منْهُ الرحال ؛ [وارم القوم : سكنوا ؛ والوشيط : الخسيس من الرجال][10] والصميم : الخالص . وفي معنى هذا المثل الذي نحن فيه قول زفر ابن الحارث لعمران بن حطان : أأزْدِيًّا مَرّةً وأوزاعِيًّا أخْرى ؟ ومن التلوّن قول عمران المذكور :

فاعذرْ أخاك ابنَ زنباعٍ فإنّ له   في النّائباتِ خُطوبًا ذاتَ ألوانِ !

يومًا يَمانٍ إذا لا قَيتُ ذا يَمنٍ   وإن لقيتُ مَعدِّيًّا فَعدنانِي

وقول الآخـــر :

أفي الولائِـم أولادٌ لِواحِـدةٍ   وفي المفاخِرِ أولادٌ لِعلاّتِ ؟

تِيسِي جَعَارِ .

تِيسِي، بكسر التاء الفوقانية المثناة بعدها مثناة تحتانية ساكنة بعدها سين مهملة . وجَعَارِ ، على مثال حَذَامِ، وهي الضّبُع، ويقال لها جَعَار وأمّ جَعَار وأم جعور ؛ ويقال أيضا : عِيثِي جَعَار . أمّا تيِسي فهي من مادّة التّيس، ولم يذكروالها فعلا، بل قالوا إنّها كلمة تقال في معنى إبطال الشيء ؛ وأمّا عِيثِي فمن العَيْث وهو الافساد، وأصله : عِيثِي يَاجَعَار ! قال الشاعر :

فَقلت لها : عيثي جَعَار وجرّرِي   بلحْم امرىءٍ لم يحضُرُ اليوم ناصره !

وسيأتي تمامه في محلّه وممّا يلتحق بهذا الباب قولهم :

تَحْتَ طَرِيقَتِكَ عِنْدَاوَةٌ.[11]

والطريقة، على مثال سكينة، الرخاوة واللين ؛ والعنداوة : الخديعة والمكر، أي تَحتَ إطْراقِكَ مَكْرٌ . وهو مِثْلُ المثَلِ الآتي : مُخْرنْبِقٌ لِيَنْبَاعَ، وسيأتي وقولهم:

---

10) سقط ما بين معقوفتين من أ.

11) أورد في لسان العرب هذا المثل في باب « عند » نقلاً عن أبي زيد بصيغة : « إنّ تَحْتَ طَرِيقَتِكَ لَعِنْدَاوَةً ». قال وهو من العَداء، وهَمَزَهُ بعضهم « عِنْدَ أوَه » فجعل النون والهمزة زائدين.

تَـرَكْـتُـهُ بـِاسْتِ الأرضِ. أي تركته عديمًا فقيرا . وقولهم :

تَـرَكْـتُـهُ عَـلَـى أنْـقَـى مِنَ الرَّاحَـةِ.

وممَّا يتمثّل به تارة قوله صلّى الّله عليه وسلّم : لَـتَـتَّـبِـعُـنَّ سُنَـنَ مَـنْ قَـبْـلَـكُـمْ شِبْـرًا بِـشِبْـرٍ وذِراعًا بِـذِراعٍ.

ومن أمثال العامّة الحكميّة في هذا الباب قولهم : اتْـرُكِ الحَـبَّ تُـحَـبَّ ! أي لا تَـطْـمَـعْ فِـيمَـا فِـي أيْـدِي النَّـاسِ يُـحِـبُّـوكَ ! وإنْ تُـكْـثِـرْ غِشْيانَـهُـمْ يَـمَـلُّـوكَ . قال زهير :

ومن لا يَـزَل يستَـحمِـلُ النَّـاس نفسَهُ ولا يُـغْـنِـهَا يومًا من الدَّهر يُـسأمِ

وفي الأثر المرويّ : ازْهَـدْ فِـي الدُّنْـيَـا يُـحِـبَّـكَ الّـلهُ، وازْهَـدْ فِـيمَـا فِي أيْـدِي النَّـاسِ يُـحِـبَّـكَ النَّـاسُ . ويشبه هذا المثل مسألة الطائر، إن ترك الحَـبَّة المعلّقة في الفخّ نجا، وان اقتحمها هلك . ومن أمثالهم أيضا قولهم :

اتْـرُكْ صَاحِـبَ الغَاسُولِ يَـسْكُـتْ !

زعموا أنّ شخصين اصطحبا في طريق، لأحدهما حِـمْـلٌ من حديد أو شبهه، وللآخر حِـمْـلٌ من الغاسول ـ وهو طين تغسل به الرؤوس ـ فأصابهما مطر في منزل، فجعل صاحب الحديد يتوجّع ويتخوّف على سلعته من البلل . فقال له صاحب الغاسول ما ذُكِـرَ . ومعلوم أنّ الحديد وشبهه لا يضرّه البلل شيئا، وأمّا الغاسول المذكور فأدنى شيء من البلل خلُص إليه يُـحلّله ويفسده . فيضرب فيمن يتوجّع ويتألّم، أو يشتكي ويتظلّم، أو يتأسّف ويتندّم، وثمّ من هو أجدر منه.

وقد حان أن نذكر من الشعر ما تيسّر . قال الشاعر :

كَـم مِن فتًـى تُـحمدُ أخْلاقُـهُ ويَـسكُـنُ العَـافونَ في ذمَّتِـهِ !
قَـدْ كثّـرَ الحَـاجِبُ أعْـداءَهُ وأحْـقَـدَ النَّـاس عَلى نِـعْـمَـتِـهِ

وسبب هذا الشعر أنّ أعرابيًا دخل البصرة، فسأل عن دار عبد الله بن عامر بن كُـرَيز ـ وكان عبد الله من فتيان قريش جودًا وسخاء، وكرما وحياء ـ فدُلّ على الدار، فأناخ راحلته بالباب. فاشتغل عنه الحاجب والعبيد وبات طاويا . فلمّا أصبح ركب راحلته ووقف على الحاجب فأنشأ يقول :

كأنّي ونِضْوِي عند باب ابن عامرٍ من الجودِ ذئبًا قَفْرةٍ هَلعانِ
وقفت وصُنبورُ الشّتاء يلُفُّني وقَد مسّ بردٌ ساعِدي وبَناني
فما أوقَدوا نارًا ولا بَذلوا قرىً ولا اعتَذروا من عسرةٍ بلسانِ

فقال بعض شعراء البصرة ما تقدّم . فلمّا بلغ الشعر ابن عامر، عاقب الحجّاب وأمر أن لا يُغلق بابه ليلا ولا نهارا.

وقال الآخر :

لا تَنظرنّ إلى عقلٍ ولا أدبٍ إنّ الجدود قريناتُ الحَماقاتِ
واسْترزِقِ اللّهَ ممّا في خزائِنه فكُلُّ ما هُوَ آتٍ مرّةً آتِ

ومثله قول الصابىء :

إذا جَمَعَت بين امرأيْنِ صناعةٌ فأحْبَبت أن تَدري الّذي هُو أحذقُ
فلا تتأمّل منهُما غير ما به جَرت لَهما الأرْزاق حين تُفرّقُ :
فَحيث يكونُ النُّوكُ فالرّزقُ واسعٌ وحيثُ يكونُ الحِذقُ فالرّزق ضيّقُ

وقال صالح بن عبد القدوس :

ولَيس رزقُ الفَتى من حُسن حيلته لكن جُدودٌ بأرزاقٍ وأقسامِ
كالصّيد يُحرمُه الرّامي المُجيد وقَد يرمي فيُرزقُه من لَيس بالرّامي

وقال الآخر :

متى ما يرى النّاس الغنيّ وجارُه فقيرٌ يقولوا : عاجزٌ وجَليدُ
وليس الغِنى والفَقرُ من حيلة الفتى ولكن أحاظٍ قُسّمت وجُدودُ

وقولي، من قصيدة :

والحظُّ والمقدار ما حُصرا في ذي الذّكاءِ يبيتُ يَستَمْري
بَل قِسمةٌ أزليّةٌ نَشأت بيَدَي مُدَبّرِهَا عَلى قَدرِ
وإذا نَظَرتَ رأيْتَ في قَرنٍ غمر الغِنَى وجَهالَة الغُمْرِ
وتَرى اللّبيبَ يَبيتُ في ضَفَفٍ بهُمومِه مُتقسّم الفِكْرِ
ليَكون فضلُ حِجى الفَتى عوضًا عن فَضلِ مالِ الأنوكِ الكَثْرِ

وتكـــون أحكامُ الالَـهِ جـَــرتْ في الخَلقِ عن غـَلَبٍ وعَن قَسرِ
وسيأتي ذكر ما في هذا المعنى من الشعر عند ذكر الجَدّ، إن شاء الله تعالى.
وقال الحماسي عمرو بن مَعْدِي كَرب :
وجاشَت اليَّ النَّفسُ أوَّل مرَّةٍ فَردَّت على مَكروهِها فاستَقَرَّت
ومنه قول الآخـــر :
صَبرت على اللّذّات حينَ تولَّتِ وألزمْتُ نفسي هجْرها فاستَقلَّتِ
وكانت مَدى الأيّامِ نفسي عزيزةً فلمَّا رأت صبري على الذُّلِّ ذلَّتِ
والسّادات الصوفية، رضوان الله عليهم، يتمثّلون به كثيرا في نجحم الرياضة.
وقول الحماسي أيضا سيَّار بن قَصير الطائي :
عَشيَّةَ أرمي جَمعَهُم بلبانِـها ونَفسيَ قَد وطَّنتُها فاطمأنَّتِ
وقول كثيّر :
فقلت لها : يا عزّ كلُّ مصيبةٍ إذا وطّئت يومًا لها النَّفس ذلَّت
قال المبرِّد : وكان عبد الملك يقول : لو كان هذا البيت في صفة الحرب لكان أشعر الناس.
وقوله أيضا :
فيا عجبًا للقلب كيف اعتزامُه وللنَّفس لمَّا وُطّئت كيف ذلَّتِ !
وقول ضَابِيء بن الحارث :
ولا خيرَ فيمن لا يُوطّنُ نفسه على نائبات الدَّهْر حين تنوبُ !
وقال الآخـــر :
تمتَّعْ إذا ما أمْكن الدَّهر واغتنِم زمانَك واعْلم أنَّه سَيَفوتُ !
وقال الآخـــر :
داءٌ قديمٌ وأمرٌ غير مُبتَدعٍ : جَورُ الزّمان عَلى أهْل المُروآتِ
وقال الآخـــر :
سكتُّ عَن السَّفيهِ فظنَّ أنّي عيِيت عَن الجواب، ومَا عَيِيتُ
وقال الآخـــر :
سُروراَنِ ما لَهُمَا ثَـالِثٌ : حَياةُ البَنيـنَ ومَـوتُ البَنَـاتِ

وهذا من قول الأعراب : مَوتُ البَناتِ، منَ المَكْرُمَاتِ . وقال الآخـــر :

كانتْ سُلَيمى تُنادي يا أُخَيَّ وقَد صارتْ سُليمى تُنادي اليوم يا أبَتِ !

وقال الآخـــر :

كلامُ النَّـــاسِ [أشْتَـــاتُ] ومَــعْنى كُلِّه : هَاتُــوا !

وقال الآخـــر :

كم عائدٍ رجُلاً وليسَ بعائدٍ إلاَّ ليعلمَ هل يَراهُ يمُوتُ !

وقال الآخـــر :

كَم مات قومٌ وما ماتتْ مكارمُهم وعاش قومٌ وهُم في النَّاس أمْواتُ !

وقال الآخـــر :

وأنـطقت الدَّراهِــمُ بَعــد عيٍّ أُناساً بعد ما كانوا سُكوتَا !

وقال الآخـــر :

وما تنفع الآدابُ والحِلمُ والحِجى وصاحبُها عند الكمال يموتُ !

وقال الآخـــر :

ويحسُن إظهارُ التَّجلُّدِ للعِـدى ويقبُـح غير العَجزِ عند الأحبَّةِ

وقال الآخـــر :

لا تتَّهِمْ من شقَّ فاكَ فإنَّهُ أعـطى الحَيـاة وقَــدَّر الأقواتـا

وقال أبو الطيِّب :

إنَّ الكِـرامَ بلا كِـرامٍ منهُـمُ مثلَ القُلـوب بِـلا سُويْداواتِـهَـا

وقال أبو العلاء المعري :

فالأرضُ تَعلمُ أنَّني من فَوقِـها مُـتصرِّفٌ وكـأنَّني من تحتِـهَـا

غَدرتْ بني الدُّنيا وكلَّ مُصاحبٍ صاحبتُه غَدر الشِّمال بأخْتِـهـا

شَغُفت بوامقِها الحَريصِ وأظهَرت مَقتي لما أظهَرتُه من مَقتِـهـا

لابُـدَّ للحسنـاء من ذَامٍ ولاَ ذامُ لنفسي غَيرُ سِّيءِ بَخْتِـهـا

وقال الآخـــر :

إنَّ الصُّروف كما علمْتَ صَوامِتٌ عنّا وكلُّ عِبارةٍ في صَمْتِهَا
مُتفقّهٌ للدَّهر إن تَستَفْتِه نَفسُ امرىءٍ عَن جُرمِه لَم يُفتِها
وتَكون كالورقِ الذُّنوبُ عَلى الفَتى ومُصابُه ريحٌ تَهُبُّ لِحتّهَا

وقال أيضـا :

رُويْدا عَلَيهَا إنَّهَا مُهَجَاتُ وفي الدَّهْرِ مَحْيًى لامْرىءٍ ومماتُ
أرى غَمراتٍ ينجَلينَ عن الفَتَى ولَكِنْ تُوافِي بَعْدَهَا غَمَرَاتُ
ولابُدَّ للانْسانِ مِن سُكر ساعةٍ تَهونُ عَليه بَعدها السَّكَراتُ
ألاَ إنَّما الأيَّام أبْناءُ واحِدٍ وهَذِي الَّليالي كُلُّها أخَواتُ
فَلا تَطلُبا من عِند يومٍ وليلةٍ خِلافَ الَّذي مرَّت به السَّنواتُ !

وقال أيضـا :

والمَوتُ أحْسن بالنَّفسِ الَّتي ألفت عزَّ القناعة من أن تسأل القوتا
بَتَّ الزَّمانُ حبالي من حِبالِكُم أعْزِز عليَّ بِكونِ الوصْلِ مَبتوتَا

وقـال :

أحْسنتَ ما شِئتُ في إيناس مُغتربٍ ولو بَلغتُ المُنى آحسَنتُ ما شِيتَا

وقال القاضي التنوخي :

الْق العَدوَّ بوجهٍ لا قُطوبَ بِه يكادُ يقطر من ماءِ البَشَاشات !
فأحزَمُ النَّاس من يلقي أعاديَهُ في جِسم حِقدٍ وأثواب المودَّات

وقال الآخـر :

إذا نَطق السَّفيهُ فَلا تُجِبه فخيـرٌ من إجابَـتِهِ السُّكـوتُ

وهو مثل قول الآخـــر :

أوكُلَّما طَنَّ الذُّبابُ طَردتُه ؟ إنَّ الذُّباب إذًا عليَّ كريمُ !

ويُحكى أنَّ رجلا أسمع ابن هُبَيْرة، وهو مُعرض عنه، فقال له الرجل : إيَّاك أعني ! فقال : وعنك أنا أُعرض !

وقال الآخر، ويُنسب لعثمان بن عفَّان، رضي الله عنه :

خَليلي لاَ والَّله ما من مُلمَّةٍ ... تَدومُ على حيٍّ وإن هِيِ جلَّتِ

فإن نَزلَت يومًا فَلا تَخضَعَنْ لها ... ولا تُكْثر الشَّكوى إذا النَّعل زلَّت

فكم من كريمٍ قد بُلِيِ بنَوائبٍ ... فَصابَرها حتَّى انْجلَت واضْمحلَّت

وقال أبو محمَّد الحريري :

يَا من تظُنُّ السَّرابَ ماءً ... لمَّا رَوَيْت الَّذيِ رويتُ !

وقَال :

فمهِّد العُذر أوْ فَسامِح ... إن كُنت أجْرمتُ أو جَنيتُ !

وقال أيضا :

لا تَحقِرنَّ أبيتَ الَّلعْن ذا أدبٍ ... لان بَدا خَلَق السِّربال سُبروتا

ولا تُضع لأخي التَّأميل حُرمَته ... أكان ذا لَسنٍ أم كان سكّيتا

وانْفح بعُرفك من وافاكَ مُخْتَبطًا ... وانْعَش بغَوثِك من أ لْفَيتَ منكوتا

فخير مالِ الفَتى مالٌ أشاد لَه ... ذكرًا تناقله الرُّكبان أو صيتا

وما على المُشتريِ حمدًا بموهبةٍ ... غبنٌ ولو كان ما أعطاه ياقوتا

لولا المُروءة ضاقَ العُذر عَن فَطنٍ ... إذا اشْرأبَّ إلى ما جاوز القُوتا

لكنَّه لابتناء المجد جدَّ ومن ... حُبٌ السَّماحِ ثَنى نحو الغِنى ليتا[12]

وما تنشَّق نشر الشُّكر ذُو كَرَمٍ ... إلاَّ وأزرى بنشْر المسْكِ مفْتوتَا

والحَمد والبُخل لم يُقْضَ اجتماعُهُما ... حتَّى لَقد قيلَ ذا ضبًّا وذا حوتا

السَّمح في النَّاس مَحمودٌ خَلائِقه[13] ... والجامِد الكَفٌ ما يَنفكُّ مَمقوتَا

ولِلشَّحيح على أمْوالِهِ عِلَلٌ ... يُوسِعْنَهُ أبدًا ذمًّا وتَبكيتَا

فجُد بما جَمَعت كفَّاكَ من نشَبٍ ... حتَّى يُرى مُجتديِ جَدواكَ مبهوتَا

وخُذ نَصيبك منه قَبل رائعةٍ ... من الزَّمانِ تُريك العُود مَنحوتَا

فالدَّهر أنْكر من أن تستمرَّ به[14] ... حالٌ تكرَّهتَ تلك الحال أم شيتا

---

12) في المقامات : نحو العُلَى لِيتا.
13) في المقامات أيضا : محبوبٌ خلائقُه.
14) وفيها أيضا : فالدهرُ أنكَدُ

قوله : أشَادَ لَهُ ذِكْرًا، أي رفعه، وهذا محمود مطلوب . ففي الحديث : إذَا أرَدْتُمْ أنْ تَعْلَمُوا مَا لِلْعَبْدِ عِنْدَ اللّهِ، فانْظُرُوا مَا يَتْبَعُهُ مِنَ الذِّكْرِ الحَسَنِ! وقيل لبعض الحكماء : ما أحمد الأشياء ؟ قال : أن يبقى للانسان أحْدُوثَةٌ حسنة ! وقال أكثم بن صَيْفِي : إنما أنتم خبر، فطيّبوا أخباركم ! وأخذه حبيب فقال :

وما ابنُ آدَمَ الاذِكْرُ صالِحةٍ ... وذِكْرُ سيّئةٍ تَسري بها الكَلِمُ

أما سَمِعتَ بِدَهْرٍ [ ](15) ... جاءت بأخبارها من بَعْدها الأممُ ؟

وأبو بكر بن دُرَيْد حيث قال :

وإنّما المَرءُ حديثٌ بَعدَهُ : ... فكُن حديثًا حسنًا لِمن وعَى !

وقال الأحنف [بن قيس : و](16) ما ادّخرت الآباء للأبناء، ولا أبقت الموتى للأحياء، أفضل من اصطناع المعروف عند ذوي الأحساب . وقيل لمعاوية : أيّ الناس أحبّ إليك ؟ فقال : من كانت له عندي يد صالحة . وقيل : إذا أقبلت عليك الدنيا فأنْفِق منها، فإنّها لا تَفْنَى، وإذا أدبرت عنك فأنْفِقْ منها، فإنّها لا تبقى . وأخذ هذا المعنى الشاعر فقال:

لا تبْخَلَنّ بدنيا وهْيَ مُقبِلةٌ ... فَليسَ ينقُصُها التّبْذير والسَّرَفُ

فإن تولّت فأحْرى أن تجود بها ... والحَمد منها إذا ما أدْبَرتْ خَلَفُ

وقال الآخـــر :

إذا جادتِ الدُّنيا عليك فجُد بها ... على النّاس طرًا قبل أن تتقلّتِ

فلا الجود يُفنيها إذا هي أقبَلَت ... ولا البُخل يُبقيها إذا هي ولّتِ !

قوله : فكُنْ (البيت) مثله قول الآخـــر :

لَولا توقُّعُ مُعترٍ فَأرضِيَهُ ... ما كُنتُ أوثِرُ أتْرابًا على تِربي

وقال الآخـــر :

لَولا شماتَة أعداءٍ ذوي حَسدٍ ... وأن أنَالَ بِنَفعٍ مَن يُرجّيني

لما خَطبتُه إلى الدُّنيا مطايِبَها(17) ... ولا بَذلتُ لها عِرضي ولا ديني

15) بياض بالأصل.
16) سقط من أ.
17) في ب : مطالبها.

قوله : وما تنشّق نَشْر الشُّكْرِ ذُو كَرَمٍ (البيت)، نحوه ما يُحكى عن بعضهم قال : رأيت رجلا من وجوه أهل مكّة لا يزال دائبا في طلب حوائج الناس وإدخال الرفق على الضعفاء . فقلت له : أخبرني عن الحال التي أوجبت لك هذا التعب . فقال : قد والله سمعت تغريد الطير بالأسحار، من فروع الأشجار ؛ وسمعت خفوق أوتار العيدان، وترجيع أصوات القيان، فما طربت من صوت قط طربي من ثناء حسن، بلسان حسن، على رجل قد أحسن ؛ ومن شكر حرّ، لرجل حرّ ؛ ومن شفاعة محتسب لطالب شاكر ! وفي مدح الكرم وذمّ البخل قول الله تعالى : ومَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ (الآية) . وقول النبي صلّى الله عليه وسلّم : [إنّ اللّهَ يُحِبُّ الجُودَ ومَكَارِمَ الأخْلاقِ، ويَكْرَهُ سَفْسَافَهَا] . وقوله صلّى الله عليه وسلّم:أيّ داءٍ أدوأ من البُخْلِ ؟كما مرّ في فصّته.وقيل لمحمود بن عيّاد: أنت مِتْلافٌ ! فقال : مَنْعُ الجُود، سُوءُ الظّنّ بالمَعْبُود . أخذه محمود الورّاق فقال :

مَن ظنّ بِاللّه خَيْرًا جاد مُبتدِيًا والبُخل من سوءِ ظنّ المَرءِ باللّهِ

وخوّف بعض البخلاء بعض الأسخياء الاملاق، فردّ عليه السخيّ وقال : الشَّيْطَانُ يَعِدُكُم الفَقْرَ ويَأمُرُكُم بالفَحْشَاء، واللّهُ يَعِدُكُم مغْفِرةً مِنْهُ وفَضْلاً . وقيل لعبد الله بن جعفر : إنّك قد أسرفت في بذل المال . فقال : إنّ اللّه تعالى عوّدني أن يتفضّل عليّ، وعوّدته أن أتفضّل على عبيده ؛ فأخاف أن أقطع العادة، فيقطع عنّي عادته.

وقال أيضا :

إنّ الغريب الطّويل الذّيل مُمتهنٌ فكيف حالُ غريبٍ ما له قوتُ ؟
لكنّه ما يشينُ الحُرَّ موجِعةٌ : فالمسكُ يُسحقُ والكافور مفتوتُ
وطالما أُصليَ الياقوتُ جمرَ غَضا ثمّ انطفى الجَمرُ والياقوتُ ياقوتُ

وقال أيضا :

أستغفر اللّه من ذُنوبٍ أسرفتُ فيهنّ واعتديتُ
كَم خُضت بحْر الضّلال جُهرا ورحْتُ في الغَيّ واغتَديْتُ !

وكم أطَعتُ الهَوى اغترارًا   واخْتَلْتُ واغْتَلْتُ وافتريتُ !
وكم خَلعتُ العِذار ركضًا   إلى المعاصي وما ونَيْتُ !
وكَم تَنَاهَيتُ في التَّخَطّي   إلى الخَطايا وما انتهَيتُ !
فَليتني كُنت قَبْلَ هَذا   نسيًا ولم أجِد ما جَنَيتُ !
فالموتُ للمُجرمين خَيْرٌ   من المَساعِي الَّتي سَعَيتُ

وقال طُفيل الغَنَوي :

جزى اللَّهُ عنَّا جعفرًا حين أزلقت   بنا رجلُنا في الواطئين وزلَّتِ
أبَوْا أن يَملُّونا ولو أنَّ أمَّنا   تُلاقي الَّذي يلْقَون منَّا لملَّتِ
همْ أسْكنونا في ظِلال بيوتهم   ظلال بيوتٍ أدفأت وأكنَّتِ

ويُروى أنَّ مالاً جاء من البحرين فقسمه أبو بكر الصديق رضي الَّله عنه بالسويَّة، فغضبت الأنصار وقالوا : لنا فضل . فقال : صدقتم ! إن أردتم أن أفضّلكم ذهب عملكم للدنيا، وإن صبرتم كان ذلك لَّله . فقالوا : والَّله ما عملنا إلاّ لَّله ! وانصرفوا . فخطب أبو بكر وقال أثناء خطبته : يا معشر الأنصار ! لو شئتم لقلتم : إنَّا آويناكم في ظلالنا، وشاطرناكم في أموالنا، ونصرناكم بأنفسنا . يا معشر الأنصار ! لكم من الفضل ما لا يحصيه العدد، وإن طال به الأمد . فنحن وأنتم كما قال طُفيل الغَنَوي - وأنشد الأبيات، متمثلا .

وقال كُثيِّر :

هَنيئًا مريئًا غير داءٍ مُخامرٍ   لعزَّةَ مِن أعْراضِنا ما استحلَّتِ

حُكي أنَّ الشعبيّ أتى المسجد يوما فصادف فيه قوما يغتابونه، فأخذ بعضادتي الباب وقال : هَنِيئًا مَريئًا (البيت) . وهذا البيت من قصيدة كثيِّر التائيَّة المشهورة التي أوَّلها :

خليليَّ هذا ربعُ عزَّة فاعقِلا   قَلو صيكُما ثمَّ ابكيا حيثُ حلَّتِ !

ومنها :

وكُنت كَذي رجلين : رجلٍ صحيحةٍ   ورجلٍ رمى فيها الزَّمان فَشلَّتِ
وكُنت كذاتِ الظَّلع [لمَّا تحاملت][18]   على ضِلعها بَعد العِثار استقلَّتِ

18) سقط من المخطوطات وبقي مكانه بياض.

أريـد الثّـواءَ عندهــا وأظُنُّهــا إذا ما أطلنا عندها المكثَ ملَّتِ
ومنهــا.
وإنّي وتهْيامي بعزّةَ بعدمــا تخلَّـيتُ ممَّــا بيننــا وتــخلَّت
لكالمرتَـجي ظلَّ الغمامةِ كلَّمــا تبـوَّأ منهـا للمقـيلِ اضمـحلَّتِ
كأنّي وإيّاها سحابةُ مُمـحِلٍ رجاهــا فلمَّــا جاوزتْه استهلَّتِ
وذكر أبو علي البغدادي أنّه قيل لكثيّـر : مَن أشعر ؟ أنت أم جميل ؟ قال : أنا . فقيل له: كيف، وأنت راويَـتُـهُ ؟ فقال جميل الذي يقول :
رمى اللّهُ في عينيْ بُثينة بالقَـذا وفي الغُرِّ من أنيابها بالقَـوادِحِ !
وأنا أقول : هَنيئـًا مريئـًا غَـيرَ داءٍ مُخامِرٍ، إلخ.
قلت : وقد وقع له بعد هذا البيت نحو ما لجميل، حيث قال :
فإن تكُن العُتبى فأهلاً ومرحَبـًا وحقَّتْ لها العُتبَى لدينا وقلَّتِ
وإن تكُنِ الأخْـرى فإنَّ وراءَنـا منادِحَ لو سارت بها العِيسُ كلَّت[19]
فقوله : [وراءنا][20] مَنَـادِيحُ أضرّ على قلب عزّة من القذى في العين، غير أنّه قال أيضا:
أسيئي بنا أو أحسني لا مَلومةٌ لدينــا ولا مقلــيّةٌ إن تقلَّتِ
وقال الآخــر :
سقوني وقالوا لا تُـغنِّ، ولو سقَـوا جبال حُنينٍ ما سقوني، لغنَّتِ
ذكروا أنَّ فتى أُتي به بعض الخلفاء ثملا، فسأله . فأنشد ذلك . وقال آخرون : أُتي بفتى [من] قريش إلى عبد الملك بن مروان، فقال له : أين شربت ؟ فقال:
شربتُ مع الجوزاءِ كأسـًا رَوِيّـةً وأُخرى مع الشِّعرى إذا ما استقلَّتِ
مُعـتّقةً كانت قريشٌ تعافُـهــا فلمّا استَحلّتْ قَتل عُثْمان حلَّتِ
فاستظرفه وامر بإطلاقه، وأعطاه عشرة آلاف درهم . والسادات الصوفيّة، أسبل اللّه رضوانه عليهم، وحشرنا إليهم، يتمثّلون بالبيت السابق في شرابهم المستطاب، الذي كلُّ شراب

19) حرفت كلمة « مَنَادِحِ » في جل المخطوطات، فكتبت في بعضها « مناديح » وفي بعضها « مناريح ».
20) سقط من أ.

دونه سَراب" أو عذاب ؛ وفي ذلك قال الامام المقدسي، مضمّنا للبيت المذكور :

أباحت دمي إذ باح قلبي بحبّها   وحلّ لها في حُكمها ما استحلّتِ
وما كُنت ممَّن يُظهر السرَّ إنّما   عَروس هواها في ضميري تجلّتِ
فشاهدتُها فاستغرقتنيَ فكرة"   أغيب بها عن كُلّ" كُلِيِ وجُملتـ[ـي]
وحلّت محلّ الكلّ" منّي بكُلّها   فإيّايَ إيّاها إذا ما تبدّتِ
ونمّت على سرّي فكانت هيِ الّتي   عليها بها بين البريّة نمّتِ
إذا سألت من أنت ؟ قُلت أنا الّذي   بقائي إذا أفنيتِ قيل هويّتي
أنا الحقُ في عِشقي كما أنّ سيّدي   هو الحقُ في حُسني لغير مَعِيّةِ
فإن أكُ في سكري شَطحتُ فإنّني   حَكمت بتمزيق الفؤادِ المفتّتِ
ولا غَرو إن أُصليتُ نار تحرُقي   ونار الهوى للعاشقينَ أُعدّتِ
ومن عجبي أنّ الّذين أُحبُهُم   وقد أعلقوا أيدي الهَوى بأعنّةِ
سقوني وقالوا لا تُغنّ"، ولو سقوا   جبال حُنينٍ ما سقوني، لغنّتِ

وقال الآخر :

لقد بخِلَت حتّى لوَ انّي سألتُها   قَذى العين من ضاحي التُراب لضنّتِ
فإن بخلت فالبُخلُ منها سجيّة"   وإن بذلت أعْطت قليلاً وأكْدتِ

وسيأتي في هذا المعنى ما فيه كفاية، إن شاء الّله تعالى.

وقال أعرابي :

شرُّ قرينٍ للكبيرِ بَعْلَتُهْ   تُولغُ كلبًا سؤرهُ أو تَكفِتُهْ

البَعْلَةُ : الزوجة، والرجل بَعْل" . والمعنى أنّ الرجل إذا كبر، تقذّرته امرأته : فلا تشرب فضلة شرابه، بل تسقيه كلبًا أو تَكْفِتُهُ على الأرض.

وقال الآخر :

أقول إذْ حَوقَلتُ أو دَنَوْتُ،   وبَعض حيقالِ الرّجالِ المَوتُ :
مالي إذا أنْزعُها صَأيْتُ   أكِبَر" غيَّرني أمْ بيتُ ؟

والبَيْتُ : الزوجة أيضا.

فائدة : الزوجة لها أسماء عدّة : منه البَعْلَة والبَيْت وتقدّما، ومنها الشَّهْلَة .
قال الشاعـــر :

له شهلةٌ شابتْ ومامسَّ جيبها ولا راحَتيها الشّثْنَتَينِ عَبِيرُ

وتُطلق الشَّهْلَة أيضا على العجوز، كقول الآخـــر :

باتَت تُنَـزِّي دَلْوها تَنْزِيًّا كما تُنَـزِّي شَهْلَةٌ صَبِيًّـا

وهذا ايضا مُحتمل . ومنها الحَلِيلَة، وجمعها حلائل . قال [الّله] تعالى : وحَلائِل أبْنَائِكُمْ ؛ ومنها العِرْسُ، بكسر العين . قال امرؤ القيس :

كذبتِ لَقد أصبى على المرءِ عرسَه وأمنعُ عرسي أن يزنّ بها الخالي

ويقال للرجل أيضا عِرْسٌ، وكذا العَرُوسُ، يستويان فيه ؛ غير أنّه إنّما يوصفان به ما داما في أعراسهما، بخلاف العِرْس . وأمّا العُرْسُ، بضمّ العين، فاسم الوليمة ؛ ومنها الحَنَّة . قال الشاعر :

ما أنتِ بالحنَّةِ الوَدُودِ ولاَ عِندكِ خَيْرٌ يُرْجَى لِمُلْتَمِسِ

ومنها الطَّلَّة . قال الشاعر :

وإنّ امرءا في النّاس كنت ابن أمّه تبـدّل منّي طلّةً لَغَبِيـنُ
دعَتكَ إلى هجْرِي فطاوعْتَ أمْرها فنفْسَك لا نفسي بذاكَ تُهينُ

ومنها الرَّبَضُ، ويقال الرَّبَضُ أيضا لكلّ ما أويت إليه . قال الشاعر :

جاءَ الشّتاء ولمّا أتّخِذ ربضًا يا ويحَ نفسي من حفر القَراميصِ !

ومنها القَعِيدَةُ . قال الحُطيئَة :

أُطَـوّفُ ما أطـوّفُ ثمّ آوِي إلى بيتٍ قَعِيـدَتُهُ لَكَـاعِ

ومنها الزَّوْجُ، ويُطلق على الذكر والأنثى . وقد يُقال الزوجة على قِلَّة، كقول الفرزدق :

وإنّ الّذي يسعى ليُفسِدَ زوجتي كساعٍ إلى أُسْد الشَّرى يستبيلُها

وقال سليمان العدوي ـ أو الخزاعي ـ في مرثيَّته للحُسَيْن، رضي الّله عنه :

إذا افتقرت قَيسٌ جَبَرنا فقيرهَا وتقتُلُنا قَيسٌ إذا النَّعلُ زلّتِ

وهو مثل قول الحَيْص بَيْص :

ملكنا فكان العَفْوُ منّا سجيّةً فلمّا مَلكتُم ساك بالدّم أبْطَحُ

وَقُرِىءَ على قبر بالمدينة :

يا مُفرداً سكن الثّرى وبقيتُ لَو كُنت أصدّقُ إذ بَليتَ بَليتُ !

الحيُّ يكذب : لا صديق لميّتٍ لو صحّ ذاكَ ومُتّ كُنت أموتُ

ومثله قول الآخـــر :

ومن عجبٍ أن بِتّ مُستشْعِرِ الثّرا وبتُّ بما زوّدتَني مُتمتّعا !

ولو أنّني أنصَفتُك الودّ لم أبِت خِلافك حتّى تَنطوي في الثّرا معا

وقول الآخـــــر :

ما وَفيّ في العِباد حيٌّ لِميْتٍ بعد يأسٍ منه له في الاياب

وقول الآخـــــر :

نسيبك من أمسى يُناجيك طَرفُه وليس لِمن وارَى التّرابُ نسيبُ

وقال أبو محمّد الحريري، رحمه اللّه تعالى، في غُلامٍ أبقل عِذارُه :

قال العواذلُ ما هذا الغرامُ به : أما ترى الشّعر في خدّيه قد نبتا ؟

فقلت واللّه لو أنّ المفنّد لي تأمّل الرُّشد في عينيه ما ثَبتا

ومن أقام بأرضٍ وهْيَ مُجدبةٌ فكيف يرحلُ عنها والرّبيعُ أتى ؟

وقال ابن زهـر الاشبيلي، إذ غلب عليه الشيب :

إنّي نَظرت إلى المرآة إذ جُليَت فأنكَـرت مُقلتاي كلّ ما رأتا

رأيت فيها شويخًا لستُ أعرفُه وكنت أعهَده من قبل ذاكَ فَتى

فقلت : أين الّذي بالأمس كان هُنا متى ترحّل عن هذا المكان متى ؟

فاستضحكت ثمّ قالتْ وهي مُعجبةٌ : أتى الّذي أنكَرتْه مُقلتاك أتى

كانت سُليمى تُنادي : يا أخيّ وقد صارت سُليْمى تنادي اليوم : يا أبتا !

وتقدّم بعضه قبل هذا الباب . وقال الآخر :

الصّبــر مَحمــودٌ إلى غَــايَةٍ وهَذه الغَايةُ حتّى مَـتَى ؟

ما أحْسَـــن الصّبْـرَ ولَــكِنّهُ في ضِمْنِهِ يَذهَبُ عُمْرُ الفَتى !

وهو مأخوذ من قول بعض الحكماء : ما أحْسَنَ الصَّبْرَ لَولاَ أنَّ النَّفقَةَ عليْهِ مِنَ العُمْرِ !

وقال الآخـــر :

ألم تر أنَّ الدَّهْر يومٌ ولَيلَةٌ يَكرّان من سبتٍ عَليكَ إلى سَبتٍ ؟
فَقل لجديد العَيشِ : لا بُدَّ من بلَى وقُل لاجتماع العَيش : لابُدَّ من شتٌ !

وقال الآخـــر :

إذا لم يكن في السَّمع منّي تصامُمٌ وفي بصري غضٌّ وفي منطِقي صمتُ
فحظّي إذًا من صوميَ الجوعُ والظَّما وإن قُلت إنّي صمتُ يومًا فما صُمتُ

وفيه الجناس التامّ . وقال الآخـر، وقد قُدّم على المواريث :

وما نِلت من شُغل المواريث غير أن أُسرِّح نعشًا كلَّما مات ميّتُ
وأكتُب بالأمواتِ صكًا كأنّهُـم يُخاف عليهم في الحساب التَّفلُّتُ
كأنّي لعزرائِيلَ صِرتُ مُناقِضًا : فهاهو يمْحو كلَّ يومٍ وأُثْبِتُ

وقال الفرزدق :

بَنو دارمٍ أكفاؤهُم آلُ مِسمَعٍ وتَنْكِحُ في أكفائِها الحَبِطاتُ

وكان بلغه أنَّ رجلا من الحَبِطَات يخطب امرأة من دَارِم، فقال ذلك . ودَارِم هو مالك بن حَنْظَلَة بن مالِك بن زيد مَنَاة بن تميم ؛ وآل مِسْمَع - كمِنْبَر - من بني قيس بن ثَعْلَبة، وهم بيت بكر بن وائل في الاسلام . والحَبِطَات بنو الحارث بن عمرو بن تميم، وكان أبوهم الحارث يُلقَّب بالحَبِطِ، بكسر الباء الموحَّدة ؛ والحَبِطُ هو الذي يصيبه الحَبَطُ، بفتحتَيْن، وهو انتفاخ بطون الماشية من أكل النبات، كما مرَّ . وأصاب ذلك الحارث في بعض أسفاره، فقيل له الحبِط، وقيل لأولاده الحَبِطَات . ويُضرب هذا البيت مثلا لمن طَمَح إلى ما فوق قدره في هذا المعنى.

وقال بعض الأعراب :

وسائلي عَن خَبَري لَوَيْتُ فقلتُ : لا أدري، وقَد دريتُ

وقبلـه :

ومَنْهَلٍ فيه الغُرابُ مَيْتُ كأنَّهُ مِنَ الأجُونِ زَيْتُ
سَقَيْتُ مِنْه القَومَ واسْتَقَيتُ ولَيلَةٍ ذاتِ نَدًى سَرَيْتُ
ولَم يلِتْني عن سُراها ليتُ ولم تَضِرني كِنَّةٌ وبَيْتُ
وجِمَّةٌ تسألني أعْطَيْتُ وسَائِلِي عَن خَبَري لَبَّيْتُ

والبَيْتُ هنا أيضا الزوجة ؛ والجِمَّة : القوم يسألون في الديات.

وقال الآخر :

خليليَّ هذي زفْرَةُ اليوم قد مضت فمن لِغدٍ من زفرةٍ قد أظلّتِ
ومن زفراتٍ لو قَصَدنَ قتلْنَني تقُصُّ الّتي تبقى الّتي قد تولّتِ

وقال الآخر :

ألقني في لظًى : فإن أحرقتني، فيقينٌ أن لستُ بالياقوت !
جمع النَّسجَ كلُّ من حاكَ لكِن ليس داوُدُ فيه كالعَنْكَبُوتِ

وهذا الشعر معروف مشهور، ولم يُعرف قائله، ويُتمثّل به على نحو قولهم : مَا كُلُّ سَوْداءَ تَمْرَةٌ ؛ وقولهم : مَرْعًى ولا كالسَّعْدانِ . وتقدّم معنى البيت الأوّل في قول الحريري :

وربَّما أُصْلِيَ الياقوت جَمْرَ لظًى ثمَّ انطفَى الجَمر والياقوت ياقوتُ

وقال بعضهم في مناقضة البيتَيْن المذكوريْن :

أيُّهَا المُدَّعِي الفَخَارَ دَعِ الفَخْرَ لِذِي الكِبْرِيَاءِ والجَبَرُوتِ !
نَسْجُ دَاوُدَ لم يُفِد لَيْلَةَ الغَارِ وكَانَ الفَخَارُ لِلْعَنْكَبُوتِ
وبَقَاءُ السَّمَنْدِ فِي لَهَبِ النَّارِ مُزِيلٌ فَضِيلَةَ اليَاقُوتِ
وكَذَاكَ النَّعَامُ يَلْتَقِمُ الجَمْرَ ومَا الجَمْرُ لِلنَّعَامِ بِقُوتِ

وأراد أنّ للعنكبوت شرفًا عظيما بنسجها على فم الغار الذي دخله النبي، صلّى اللّه عليه وسلّم وأبو بكر، وذلك مشهور . وقد قيل إنّها نسجت أيضا على نبي اللّه داوود، عليه السلام، حين طلبه طَالُوت، وعلى عبد الله بن أنَس، حين بعثه النبي، صلّى اللّه عليه وسلّم، إلى قتل خالد الهُذَلَيّ، وعلى عورة زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي

طالب، رضي الله عنهم، حين صُلب عريانا، والّله أعلم . والسَّمَنْد الذي ذكره هو السَّمَنْدَل - باللام - وهو طائر يكون في أرض الهند، لا يحترق بالنار، تصنع منه المناديل : فإذا اتّسخت ألقيت في النار، فأكلت النار ما عليها من الأوساخ، وبقيت نظيفة، فكان ذلك لها غسلا ؛ وإذا غمس شيء منها في الزيت وجعل في المصباح، اشتعل بما فيه من الزيت، ولم يحترق منه شيء أصلا، ولو بقي ما بقي . وبعد كتبي هذا وجدت في بعض الدواوين أصل هذا الشعر وهو أنّ بعض الملوك كان له وزير، فعتب عليه شيئا وحلف ليستبدلنّهُ بمن لقي . فلقي أعرابيا رثّ الهيئة، فاستوزره، فقال الوزير الأوّل، وكان اسمه ياقوت يـعـرّضُ بالثاني :

أحْكَم النَّسْج كلُّ من حاكَ لكن نَسْجُ داوودَ لَمْ يَكالعَنكَبُوتِ !
ألْقِنَي فِي لَظَا (البيت)

فأجابه الثاني بقوله :

نسجُ داوودَ ما حَمى صاحبَ الغارِ وكان الفخَارُ لِلْعَنْكَبُوتِ
وفِراخُ السَّمنْد في لَهَبِ النَّارِ أزالَتْ فَضِيلَةَ اليَاقُوتِ

وقالت أمَامَةُ العامريّة، من شعراء الحماسة :

وحَربٍ يضِجُّ القَومُ من نَفَيانِها[21] ضجيجَ الجِمالِ الجِلَّةِ الدَّبِرَاتِ
سَيتركُها قومٌ ويَصْلَى بحرّها بنو نِسْوَةٍ للثّكْلِ مُصطَبِراتِ

وقال جَحْدَر :

قَد عَلِمَت والدتي ما ضَمَّتِ ولفَّفت في خِرقٍ وشمَّتِ
إذا الكُماةُ بالكُماةِ التَفَّتِ أمُخْدِجُ اليَدينِ أمْ أتَمَّتِ[22]

أي : [قد] علمت مخائل الكرم فِيّ منذ ولدتني، وعلمت أني تامّ الخلق غير ناقصه، لاقدامي وجُرأتي .

وقال سِنَان بن الفَحْل الطائي :[23]

21) في أ : « نقيانها » بالقاف المثناة، وهو تصحيف.
22) في الحماسة : « ما لفّفت » في الشطر الثاني من البيت الأول ؛ والشطر الأخير هكذا: « أمُخْدِجٌ في الحرب أم أتمَّت ». والمُخدج : الناقص الخلق.
23) حرف اسم هذا الشاعر الحماسي في بعض المخطوطات فكتب : « سنان العجل ».

وقالوا : قَد جُننْتَ، فقلتُ كلاَّ وربِّي ! ما جُننتُ ولا انْتَشَيتُ
ولكنِّي ظُلمتُ فكدتُ أبْكي منَ الظُّلمِ المبرِّحِ أو بَكَيت[24]
[فإنَّ الماء ماءُ أبي وجَدِّي وبئري ذو حَفَرتُ وذو طَويت][25]
وقَبْلَك رُبَّ خصمٍ قَد تمالَوا عليَّ فما جزعْتُ ولا ونَيتُ[26]
ولكنِّي نصَبتُ لَهُم جَبِيني وألَّةَ فارسٍ حتَّى قريتُ

وقال تأبَّط شرًّا :

ألم تَعلم بأنِّي، لا كَبِيرٌ فَتُوهِنَه، ولا ضَرِعٌ شخيتُ
وأنَّ على وداعيَ كلَّ خيرٍ وأنَّ قذافِيَ المَوْتُ المُميتُ

الضَّرَعُ : الضعيف ؛ والشَّخِيتُ : الضَّئِيلُ الحَقِيرُ ؛ والوداعُ : المُوادَعَةُ والمُسالَمَة ؛ والقَذاف : المقاذفة باللسان وقال المأمون العباسي :

ما أحدٌ طَالَتْ لَهُ لِحْيَةٌ فَزادَتِ اللّحْيَةُ فِي هَيْئتِهِ
إلاَّ وما يَنْقُصُ مِن عَقْلِهِ أكْثَرُ مِمَّا زادَ فِي لِحْيَتِهْ

وكان يوما جالسا [معِ ندمائه][27] يتذاكرون أخبار الناس، فقال المأمون : ما طالت لحيةُ إنسان قطّ إلاَّ نقص من عقله بمقدار ما طال من لحيته، وما رأيت عاقلا قطّ طويل اللحية، فلم يسلّم له جلساؤه ذلك . فبينما هم كذلك إذ أقبل رجل كبير اللحية، حسن الهيئة، حسن الثياب . فقال المأمون : ما تقولون في هذا الرجل ؟ فقال بعضهم : [هو] رجل عاقل . وقال آخر : يجب أن يكون هذا قاضيا . فقال المأمون : عليَّ به ! فلم يلبث أن أُصعد إليه، فسلَّم وأجاد السلام، واستنطقه بأحسن المنطق . فقال المأمون : ما اسمك ؟ فقال : أبو حمدوية . قال : ما الكنية ؟ قال : علوية . فضحك المأمون، وأقبل على جلسائه، فغمزهم عليه، ثمَّ قال له : ما صنعتك ؟ قال : أنا فقيه، أجيد الشرح للسائل . فقال المأمون : نسألك عن مسألة ؟ قال : سَلْ عمَّا بدا لك ! فقال له المأمون : ما تقول في رجل اشترى شاة من رجل، فلمَّا سلمها المشتري ومضى، خرجت من استها بعرة ففقأت عين رجل . على مَن تجب ديَة

---

24) يروى أيضا : « من الظلم المُبيِّن.... ».
25) سقط هذا البيت من ب.
26) يروى أيضا : ......فما هلِعتُ ولا دعَوْتُ.
27) سقط من ب.

العين؟ قال . تجب على البائع دون المشتري . فقال المأمون : وما العلّة التي أوجبت الديـَة على البائع دون المشتري ؟ قال : لأنـّه، لمّا باعها لم يشترط أنّ في استها منجنيقا . قال فضحك المأمون حتّى استلقى على قفاه، وضحك كلّ من حضر من الندماء، وأنشأ المأمون يقول : مَا أحَدٌ طَالَتْ لَهُ لِحْيَةٌ (البيتَيْن) ومثله قول الآخـــر :

إذا عَظُمت للفتى لِحْـيَةٌ فَطالت وصارتْ إلى سُـرَّتِهْ
فَنُقْصانُ عقلِ الفَتى فاعلمَنْ بمقدار مازاد في لِحيَتِهْ

وقول الآخـــر :

لا تَفْخَرَنَّ بِلِحْيَةٍ كَثُرَتْ، منابتُها طويلَهْ
تَهْوِي بِها هُوجُ الرِّيَاحِ كأنَّها ذَنَبُ الحَسِيلَهْ
قَد يُدركُ الشَّرَفَ الفَتَى يومًا ولِحْيَتُهُ قَلِيلَهْ

الحَسِيلَةُ : ولد البقرة، والجمع حَسِيل . وقول الآخـــر :

وكلُّ امرىءٍ ذي لِحيةٍ عَثوليَّةٍ يقوم عليها ظنّ أنّ له فَضْلاَ
وما الفَضْل في طول السِّبال وعَرضِها إذا الّله لم يجعَل لِصاحبها عقْلا

وقال الحسن بن المثنّى : إذا رأيت رجلا له لحية طويلة، ولم يتّخذْ لحيةً بَيْنَ لِحْيتَيْن، كان في عقله شيء . وسيأتي من هذا المعنى ما فيه كفاية، إن شاء الّله تعالى . وقال الآخر :

إذا لم يَكن فيكُنَّ ظلٌّ ولا جنًى فأبعَدكُنَّ الّلهُ مِن شَجَرَاتِ !

وقال الآخـــر :

يقول أُناسٌ : لو نَعَتَّ لنا الهَوى ووالّله ما أدري لهُم كيف أنْعَتُ !
فليس لشيءٍ منه حدٌّ أحُدُّهُ ولَيس لشيءٍ منه وقْتٌ مُوقَّتُ
إذا اشتدَّ مابي كان آخر حيلَتي لَه وضْعَ كفّي فوق خدّي وأصمُت
وأنضَح وجه الأرض طورًا بعبرتي وأقرعُها طورًا بظُفْري وأنكُتُ
وقَد زعَم الواشُون أنّي سلَوتُها : فما لي أراها من بعيدٍ فأبهَتُ ؟

وقال دِعْبِل بن عليّ الخُزاعي :

أحببت قومي ولم أعدل بحبِّهمُ قالوا : تَعصَّبتَ جهلاً قول ذي بهَتِ
دعني أصِلْ رحِمِي إن كنت قاطعها : لا بُدَّ للرَّحِيم الدّنيا من الصِّلة
فاحفَظ عشيرتك الأدنين إنَّ لهُم حقًّا يفرقُ بين الزَّوج والمَرةِ !

وقال أعرابي من بلحارث :

رئِمْتَ لسلمى في ضيمٍ وأنَّني قديمًا لآبي الضَّيمِ وابنُ أباتِ :
فَقد وقَّفتْني بين شكٍّ وشُبهةٍ وما كُنت وقّافًا على الشُّبُهات !

وقال الحماسي :

إذا ما يدٌ لم تُعط ممَّا تخوَّلت من المال في المعروف يومًا فشُلَّتِ !
فلولا ثلاثٌ هنَّ من عِيشة الفتى وجدِّك لم أحفل متى ما أظلَّتِ
فمنهنَّ أن ألقى الصَّليبَ وأهلَهُ وأُقْـدم فوق القارحِ المـتفلّتِ
ومنهُنَّ أن أُعطي الكَريمَ بسؤْلِه إذا شُعَبُ المعروفِ في النَّاس قلَّتِ
ومنهُنَّ إبْـرازُ الفتـاةِ بنانهـا وقَد أُعطيتْ من صُورةٍ ما تمنَّتِ
أصاح تروَّحْ نترُكِ الجهل والصِّبا ونَمحُ بقايا فتنةٍ قَـد أظلَّتِ
فما لك من لَيلى سواءُ تحيَّةٍ تكـون وداعًـا للفـراق وقلَّتِ
وزَفرة محزونٍ وذكـر مُصِيبةٍ سَلوتُ ولو عزَّت علـيَّ وجلَّتِ

لَم أحفِلْ : لَم أُبالِ ؛ وأظَلَّتْ : أقْبَلَتْ وغَشِيَتْ ؛ وشُعَبُ المَعْروفِ : طُرُقُهُ وأسْبابُهُ . وهذا التقَسيم كأنَّه أخذهُ من قول طرفة بن العبد :

فَلولا ثلاثٌ هنَّ من عيشة الفتى[28] وجدِّك لم أحفِل متى قام عُوَّدي :
فمنهنَّ سبقي العاذلاتِ بشَـربةٍ كُميتٍ متى ما تُعل بالماء تُزبِدِ
وكَرِّي إذا نادى المُضاف مجنَّبًا[29] كَسيد الغَضا نبَّهْته المتـورِّدِ
وتقْصير يومِ الدَّجْن والدَّجْنُ معجبٌ ببهكنَةٍ تحت الطِّرافِ المُعمَّـدِ[30]

28) يروى أيضًا : من لَذَّةِ الفتَى.
29) محنَّبًا يروى بالحاء المهملة، وبالجيم . والتحنيب : انحناءٌ وتوتيرٌ في رجل الفرس، وهو مما يوصف به صاحبه بالشدة . ويروى الشطر الثاني أيضًا هكذا : كسيد الغضاذي السَّوْرَةِ المتورِّد.
30) في **المعلقات** : تحت الخِباء المعمَّد. ويروى أيضًا : تحت الخباء الممدَّد.

وسيأتي مع بيانه في محلـّه، إن شاء الله تعالى.

وقال الشيخ ابن الفارض، رضي الله عنه :

كأنـّي هلالُ الشـّكّ لولا تأوُّهي   خفيت فلم تـُهد العيون لرؤيتي

وسيأتي إنشاد ما قيل في النحول، إن شاء الله تعالى . وقال :

أرُوم وقد طال المدى منك نظرةً   وكم من دماءٍ دون مرمايَ طُلَّتِ !

وقـــال :

وجنـَّبني حُبـّيكِ وصلَ مُعاشري   وحبـَّبني ما عِشْتُ قَطعَ عَشِيرتي

وأبعَدني عن أربُعي بُعْدُ أربعٍ :   شبابي وعقلي وارتياحي وصحـَّتي

فلي بعد أوطاني سكونٌ إلى الفلا   وبالوحشِ أنسي إذ من الأنـْس وحشتي

وزهـَّد في وصلي الغـَواني إذ بـَدا   تبلـُّجُ صُبحِ الشـَّيب في جُنحِ لِمَّتي

وما ظـَفِرت بالودّ روحٌ مُراحةٌ   ولا بالولا نفسٌ صـَفا العـَيشِ ودّتِ

وأينَ الصـَّفا ؟ هيهاتب من عيشِ عاشقٍ   وجنـَّةُ عـَدنٍ بالمكـارهِ حُفـَّتِ

وحُسنٌ به تـَسبي النـُّهى دلـَّني على   هوًى حسُنـَت فيه لعزّكِ ذلـَّتي

وقال أبو الفـَرَج بنُ هِنـْد :

لا يـَردُّ الرَّدى لـُزومُ بـُيـُوتٍ   لا ولا يـَقـْتضيه جـَوبُ فـَلاةِ

موليـد الـدُّر حـَمـأةٌ فإذا سا   فـَر حلَّ التـّيجانَ واللـّمـّاتِ

وتقدَّم في هذا المعنى شعر كثير . ولنذكر هنا شيئا من غير ما مرّ، من ذلك قول ابن السـّاعـَاتـِيّ :

أهْلك والـّليل مُنضيا جـَمـَلـَك   شمِّر فخير البِلاد ما حـَمـَلـَك !

لا خير في بـُقـْعةٍ ترُوق من الأرْ   ضِ إذا لم تـَنـَل بـِها أمـَلـَكْ !

حـَتـّامَ لا تعـمل الجيـاد ولا   تعمل في كل غاية جمـَلـَك ؟

لقــد تربـَّصت خِــيفة الأجـَل   المحتوم لو كان دافعـًا أجـَلـَك

وحبـَّذا ذاك لو وجـَدت فتـًى   أفضـَل يومـًا عـَلـَيك أو فضـَلك !

وقال ابن قـَلاقِس :

سافِـــر إذا حاولت قَـــدرا　　　سار الهِلال فصار بَـــدرا !
والمـاء يَـكسِب إن جَـرى　　　طِيبًا ويَخْبُثُ مَا اسْتَقَـر[31]
وبِنُقْلَةِ الـدُّرِرِ النَّفِـيسَةِ　　　بُـدِّلَتْ بالبَحْـرِ نَحْـرا

وله أيضـا :

شَرَفِي جَاوزَ الغِنَى ومِن العَا　　　رِضِ ما انْحطَّ عن رؤُوس الجِبال
كيف لا أُسْرِعُ التَّنقُّلَ والمَشْهورُ　　　لِلبَـدر سُـرعةُ الانتِقَـالِ ؟

وقوله أيضـا :

إنَّ مُقام المَـرءِ في بَيـتِهِ　　　مثْلُ مُقام المَيتِ في لحْدِهِ
فواصِلِ الرِّحْلَةَ نحـو الـغِنى　　　فالسَّيْفُ لا يَقْطَعُ في غِمْدِهِ !
والنَّـار لا يحـرقُ مشْبوبُهـا　　　إلاَّ إذا ما طار عَـن زَنْـدِهِ

وقول أبي الغَنَائم :

سِر طالبًا غاياتها : إمَّا تَـرى　　　فوقَ الثُّريَّا أو تُرى تحت الثَّرى
لا تُخلدنَّ إلى المُقام فإنَّما　　　سَيرُ الهلال قَضى لَه أن يُقمِرا
لا تَبْكِ دارًا فالفَتى مَنْ إن دعا　　　دمْعًا عَصاه وإن دعاه ما جرى
أين الكِناس من العَرين وغِـزْلا　　　نُ اللّوى في المَجد من أُسْد الشَّرى ؟
لو يُنتجُ الوطَنُ العُلا ماسار عَن　　　غُمدانَ سيِّدُ حِميَرٍ مُستنصِرا
واللّيث لو وجد الفريسة رابضًا　　　أو ناهضًا في خيسِهِ ما أصْحرا
لا عار في بيع النُّفوس على الرَّدى　　　عِندي إذا كان العَلاءُ المُشترَى
حَتَّامَ حظّي في الوهادِ وأصحابُ　　　الدَّناءةِ في الشَّواهِق والذُّرَى ؟
ما الجُبن يحميني الحِمامَ ولا أرَى　　　الاقْدام يجْلُب لي سوى ما قُدِّرَا
لا بُدَّ منها وثْبةً تسعَى الظُّبَى　　　فيها وتكْسو الجوَّ فيها العَيثَرا
أشكو إلى الأيَّام ما ألْقَى لَها　　　وجْهًا على تَلوينِها مُستبْشِرا

31) في هامش أ : لعله اسْتَتَمَّ.

ما عُذْرُ من لم يلقَ وجهًا أبْيضًا منهُنَّ إن لم يلقَ وجهًا أحْمرا ؟

وقال أبو الفضل التَّميمِي :

دعني أسيرُ في البِلاد مُلتمسًا فَضلَةَ مالٍ إن لم يفِر زَانا
فَبيْدقُ الرُّخِّ وهْو أيْسرُ ما في الدَّسْتِ إن سار صَار فِرزَانا

وقال ابن صُرَّدُرّ :

قَلقِلْ رِكابَكَ في الفَلاَ ودَعِ الغَوانِيَ لِلْقُصُورْ !
لَولاَ التَّغربُ ما ارتَقى دُرُّ البُحُورِ إلَى النُّحُورْ

وقول الآخر[32] :

دعي عزَماتِ المُستَضَامِ تَسيرُ فَتُنجِدُ في عَرضِ الفَلا وتَغوُر !
ألم تَعلمي أنَّ الثَّواءَ هُوَ التَّوَى وأنَّ بُيوتَ العَاجزينَ قُبورُ ؟

وقول أبي اسحاق الغزّي :

يا خَليليَّ حلّيا عاطلَ البيد بِوجْه النَّجيبَة الشِّملالِ !
زُحَلٌ أكْبَرُ الكَواكِبِ لاَ يَحْملُ إلاَّ مِنْ قلّةِ الانتقالِ

وقول ابن قَلاَقِس أيضا :

إن كُنتَ تَبغِي وطَنّا مِنَ العُلَى فَاغْتَرِبِ !
فالسُّمْرُ فِي غَابَاتِهَا مَعْدُودَةٌ فِي القَصَبِ
والشَّمْسُ لاَ تُرقَبُ فِي المَشْرِقِ لَوْ لَمْ تَغْرُبِ

وقول ابن السَّاعَاتي أيضا :

وكُنْ غَنيًّا عن كلِّ أرضٍ بأخْتِها وإن حلَّ مَغْناهَا كَواعِبُ عينُ
فَلولاَ فِراقُ الدُّرِّ أصدافَ بِحرِهِ لمَاأنكَرهُ تاجٌ وصَدَّ جَبِينُ

وقوله أيضا :

ولا يَصُدَّنكَ عَن شيءٍ تَرَفُّعُهُ فربَّمَا صَارَ ورْدًا نازحُ السُّحُب
لم يَشرُفِ الدُّرُّ لولا هجرُ موطنه [والبَدرُ ما تمَّ حتَّى جدَّ في الطَّلب]

---

32) هو ابن درّاج القسطلّي.

وقول الآخـــر :

فالتّبر كالتُّربِ ملقّى في مواطنه والعودُ في أرضِهِ نوعٌ من الحَطَبِ

ومثله قول الآخـــر :

أضيعُ في معشَري وكَمْ بَلَدٍ يَعُودُ عود الكِباءِ من حطبِه

وقول أبي السَّكن :

قالوا نَراك كثير السَّير مُجتهداً في الأرض تنزلُها طوراً وترتحلُ

فقلت لو لم يكُن في السَّير فائدةٌ ما كانت السَّبعُ في الأبراجِ تنتقِل

وقول الآخـــر :

أقـول لجـارتي والدَّمْـعُ جارٍ ولي عزْمُ الرَّحيل من الدِّيار

ذريني أن أسيرَ ولا تَنـوحِي فإنَّ الشُّهْبَ أشْرفُها السَّواري

وقال ابن سَنَاء المُلك :

وأسْعَد النَّاس من لاقَى بلا تَعبٍ مَبْدَا السَّعادةِ في مَبْدَا شَبيبَتِه

وهذا البيت من أبيات يمدح بها والده الرشيد، وهي :

إنّي لأرثي لدمعي من تَزاحُمِه كما رثَيْتُ لشَمْلي مِن تَشَتُّتِه

أنا القويُّ بعزمي والرَّشِيدُ أبي هُو الرَّئيس على الدُّنيا بهمَّتِه

أبني وأنشُر بيت المجْد مُجتهداً في لمّ لمَّته أو رمّ رمَّتهِ

أصبحتُ أحتال في حالٍ ونضرتِها به وأرْتَعُ في عيشي وخُضْرَتِه

وأسْعَـدُ النَّـاسِ (البـيت)

وممَّا مدحه به أيضا قوله :

يَكْفيك أنّي بِكَ يا سيِّدِي قَد طَابَ أصْلي وزكَا مَحْتِدِي

جاوزْتَ حدَّ البرِّ بي صاعداً فَقِف : فما أبْقَيتَ من مَصْعَدِ !

وقوله أيضا من قصيدة :

أنّي ليَ النَّقْصُ إنَّ مَجْدَ أبي سامٍ كما أنَّ قَدْرَهُ سَابِقُ

هُوَ الرَّشيدُ الَّذي رياسَتُهُ سارتْ، فلا زاجِرٌ ولا سَائِقُ

يُكْنَى أباْ الفَضلِ وهْوَ يَعشقُ نفْس الفَضْلِ، والمَرءُ لابنِه عاشِقُ

وأين هذا من ابن الرُّومي، حيث يقول في هجو أبيه، وبئس ما قال ! :

لَو كان مِثْلك في زَمَانِ مُحمَّدٍ ما جاءَ في القُرآنِ برُّ الوالِدِ !

وابْنِ عُنَيْنٍ في قوله :

وجنَّبني أن أفْعَل الخَير والدٌ قليلٌ إذا ما عُدَّ أهْلُ المَناسبِ !

بعيدٌ من الحُسنى قريبٌ من الخَنا وضيعُ مَساعي الخَير جمٌّ المثالِب

إذا رُمتُ أن أسمو صعوداً إلى العُلا غَدا عِرقُه نحو الدَّنيَّة جاذبي

ومثل هذا البيت قول الآخر في خالد بن عبد الله القَسْرِيّ، أو في غيره :

إذا نبَّهتْه نخْوةٌ عَربيَّةٌ إلى المجْدِ قالتْ إرْمِنِيَّتُهُ نَمِ

وممَّن هجا والده ابنُ بسَّام، حتَّى قال فيه بعض الشعراء :

مَن شاء يهجو عليَّا فَشِعْرُهُ قَدْ كَفَاهُ

لَوْ أنَّهُ لأبِيهِ مَا كَانَ يَهْجُو أبَاهُ

وقال الآخر :

لا تَخَفْ للخُطوبِ في كُلِّ وقْتٍ لا ولا تخْشَها وإن هِيَ جلَّتْ !

فحقيقٌ دَوامُها لَيسَ يبقَى كثُرَتْ في الزَّمانِ أو هيَ قلَّتْ

وادَّرِعْ للهمومِ صَبْراً جميلاً فالرَّزَايا إذا توالَتْ تولَّتْ

وقال الآخر في هذا المعنى :

اصْبِرِ إذا نائِبَةٌ حَلَّتِ فَهْيَ سَواءٌ والَّتِي ولَّتِ

واسْتَنْهِضِ العَزمَ فَليسَ الظُّبا تَبْرِي وتَفْرِي كالَّتي كلَّتِ

وفي هذا المعنى شعر كثير تقدَّم بعضه، وسيأتي في محلٍّ آخر، إن شاء الله تعالى .

وقال الآخر :

القَبر أخْفى سُتْرةٍ لِلبَناتْ ودَفْنُها يُرْوَى مِن المَكْرُماتْ

أما رأيْتَ اللّهَ جَلَّ اسْمُهُ قَدْ وضَعَ النَّعْشَ بِجَنْبِ البَناتْ ؟

وسيأتي هذا المعنى مستوفى، إن شاء الله تعالى.

وقال الآخـــر :

اقْنَـعْ بأيْسَرَ شيءٍ أنتَ نائِلُـه   واصْبر ولا تَـتَـعرَّض للولايَـاتِ !
فما صَفا النَّيلُ إلاَّ وهْوُ مُنتَقص   ولا تكَـدَّرَ إلاَّ في الزِّيَـادَاتِ

ومثله قول ابن طَبَاطِبَا :

كُـنْ بما أُوتِيتَـه مُغْتَبِطًـا   تَستدم عُمْر القَنُوعِ المُكتَفي !
إنَّ في نَيلِ المُنى وشْكَ الرَّدى   وقِياس القَصْدِ عِنْدَ السَّرَفِ
كَسِـــراجٍ دُهْنُه قُـــوَّتُهُ   فإذا أغْرَقْـتَهُ فِـيهِ طَفِي

وقال الآخـــر :

خُذْ مِن العَيشِ مَا كَفَى   [ ][33]
كَسِـــراجٍ مُنَـــوَّرٍ   إنْ طَفَـــا دُهْنُهُ انْطَفَـــا

وسيأتي هذا المعنى مستوفى، إن شاء الله تعالى.

وقال البُحتري :

إن أبْقَ أو أهْلِكْ فَقَد نِلتُ الَّتي   ملأتْ صُدور أقـاربي وعُـداتي
وغَنِيتُ نَدمانَ الخَلائِفِ نابِهًا   ذكْري وناعمَةً بِهم نشَواتي
وشَفَعتُ في الأمر الجَليلِ إليهمُ   بعد الجَليلِ فأنجحوا طَلباتي
ووضعتُفيالعرب الصَّنائعَ عندهم[34]   من رِفْدِ طُلاَّبٍ وفَكِّ عُنَاةِ

وقال دِعْبِلُ الخُزاعي :

لا تَعرضنَّ بمزْحٍ لامرىءٍ طَبِنٍ   ما راضَهُ قَلبُه أجْراهُ في الشَّفةِ
فربَّ قافيَةٍ بالمَـزْحِ جَـاريَةٍ   في مَحْفِلٍ لم يُردْ إنْماؤُها نمَتِ
إنِّي إذا قُلتُ بيتًا ماتَ قائِلُه   ومن يُقالُ له والبيتُ لم يمُتِ

ونحوه قول الآخـر :

فللشُّعَـــراءِ ألسِنَةٌ حِـــدَادٌ   على العَوْرَاتِ مُوفِيَةٌ دليلَهْ

---

33) بياض بالأصل.
34) في الديوان : وصنعتُ في العرب.....

ومِن عَقْل الكَريمِ إذا اتَّقاهُم   ودارأهُــمْ مُــدارَاةً جَمــيلَهْ
إذا وضَعُوا مكَاويَهُـم علَيْهِ   وإن كَذَبُوا فَلَيسَ لهُنَّ حِيلَهْ

وسيأتي هذا المعنى مستوفى، إن شاء الله تعالى.

وقال الآخر يتشوّق إلى أهله :

ولي كبدٌ مكلومةٌ لفِراقِكُمْ   أطمْئِنُها صبراً على ما أجنَّتِ
تمنَّتكُمْ شوقًا إليكُم وصَبْوةً   عَسى اللّهُ أن يُدنيني لها ما تمنَّتِ
وعينٌ جَفاها النَّومُ وأعتادَها البُكا   إذا عنَّ ذكر القَيرَوانِ استهلَّتِ

وقال تَميم بن جَميل بين يدي المُعتَصِم، وقد قدّم السيفُ والنِّطع ليقتله :

أرى المَوتَ بين النِّطعِ والسَّيف كامنًا   يُلاحظُني من حيثُ ما أتلفَّتُ
وأكبَرَ ظنّي أنَّك اليَومَ قاتِلي   وأيُّ امرىءٍ ممَّا قَضَى اللّهُ يُفلِتُ ؟
وأيُّ امرىءٍ يُدلي بعُذرٍ وحُجَّةٍ   وسَيف المنايا بين عينَيه مُصلَتُ ؟
يعزُّ على الأوسِ بن تَغلِبَ موقِفٌ   يهزُّ عليَّ السَّيف فيه وأسكُتُ
فما حَزَني أنّي أموتُ وأنَّني   لأعلَم أنَّ الموتَ شيءٌ مُوقَّتُ
ولكنَّ خَلفي صبيةً قَد تركتُهُم   وأكبادهم من حسرةٍ تتفتَّت !
كأنّي أراهم حين أُنعَى إليهمْ   وقَد خَمشوا تلك الوجوه وصوَّتوا
فإن عشت عاشوا خافضين بنعمةٍ   أذُود الرَّدى عنهم وإن مُتُّ موَّتوا
فكم قائلٍ لا يُبعدُ اللّهُ دارَه   وآخر جَذلانٌ يسرُّ ويشمَتُ !

فعفا عنه المعتصم، وأحسن إليه، وقلّده عملا . ونحو البيت الأخير قول الأوّل :

إذا مُتُّ كانَ النَّاس صنفان شامتٌ   وآخر مُثْنٍ بالّذي كُنت أصنَعُ

وقال ابنُ رشيق :

أيُّهــا المُــوحي إلَيْنَــا   نَفْــثَةَ الصِّلِّ الصمّــوتِ
ما سَكَتْنــا عَنْكَ عيًّــا   رُبَّ نُطْــقٍ في السُّكُــوتِ
لَكَ بَــيتٌ فِي البُيُــوتِ   مِــثْلُ بَــيْتِ العَنْكَبُــوتِ
إن يَهُــنْ وهْنًــا فَفِــيهِ   حِيلَتَــا سُــكْنَى وقُــوتِ !

ومثل هذا قوله أيضا :

وأخرقَ أكّالٍ لِلَحْمِ صَدِيقِهِ ... ولَيس لجاري ريقِهِ بمُسيغِ
سَكَتُّ لهُ ضنًّا بِعِرضي فلم أجِبْ ... ورُبَّ جَوابٍ في السُّكوتِ بَليغِ

وقول الآخــــر :

واعْلم بأنَّ من السُّكوتِ إبانةً ... ومِن التّكلُّمِ ما يكونُ خبَالاً

وقول الآخـــر :

أيا ربِّ إنَّ النَّاس لا يُنصفونني ... ولم يُحسنوا قَرضي على حسنَاتِ
إذا ما رأوني في رخاءٍ تودَّدوا ... إليَّ وأعداءٌ لَدى الأزمَاتِ
ومَهما أكُن في نِعمةٍ حزنوا لَها ... ذَوُو أنفُسٍ في شِدَّتي جَذِلاتِ
ثقاتيَ ما دامت صلاتي لديهِمُ ... وإن عنهُمُ أخَّرتُها فَعُداتِي
سأمنَعُ قَلبي أن يحنَّ إليهمُ ... وأصرفُ عنهُم قاليًا لحظاتي
وألزمُ نفسي الصَّبر دأبًا لعلَّني ... أعاينُ ما أمَّلتُ قَبل مماتي
ألا إنّما الدُّنيا كفافٌ وصحَّةٌ ... وأمنٌ ثلاثٌ طيبُ كُلِّ حَياةِ

وقال الآخــــر :

وما النَّفسُ إلاَّ حيث يجعلُها الفتى : ... فإن توَّقَت تاقَت وإلاَّ تَسلَّتِ

وقال الآخـــر :

إذا ما مددتُ النَّفس ألتمسُ الغِنى ... إلى غير من قال اسألوني فشُلَّتِ
سأصبِرِ جَهدي إنَّ في الصَّبر عزَّةً ... وأرضى بِدنيايَ وإن هي قلَّتِ

وقال الآخـــر :

مَن لي بذكري كُلمَّا أوحَشْته ... تمحو سُلوِّي واشتياقي تُثْبتُ
وسحاب دمْعٍ كُلَّما أمْطَرتُه ... غَير القَتاد بمضجَعي لا يُنبتُ ؟

وقد كنت قلت في معنى البيت الأخير، قبل أن أراه، وهو مطلع قصيدة :

طَرقَتك من بعد الهُدوِّ بلابل ... تهمى كما طرقَ الخميلة وابِلُ
سُحبٌ متى تحلُلْ بأكناف الحشى ... ينبتْ به منها القتاد الرّاعلُ

إلاّ أنَّه جعله في مطر الدموع، وأنا جعلته في مطر الأحزان ؛ وجعله في المضجع، وأنا جعلته في وسط الفؤاد، وإليك ارتياد الأبلغ !

تقسَّم منك التُربَ قومي وجيرتي : ففي الظّهر أحيائي وفي البطن أمواتي

وتقدّم كثير ممّا قيل في ذكر الوطن، وسيأتي مزيد فيه، إن شاء الله تعالى.

وقلت أنا في قوم غَشُوا لئيما فجعل جائزتهم الازدراء :

لأن تُهملوا أو يُزدَرى بوجوهكم فذُو ورطاتٍ خاضها الطّين بابتُهْ

ومن يستبِل يومًا حميرًا ينلنَه فلا يشجُه من بولهنّ إصابَتُهْ

ولو كان حِلمٌ لادَّرى المرءُ أنّه من النّوك أن تمتدّ للصّخر راحتُهْ

ألا إنّ برقًا خُلَّبًا غيْر ممطرٍ وشائمةُ الحرمان والغمّ غايتُهْ !

ودخلت يوما عليه للتسليم عليه، فرأيت من لقياه ما أكره، فقلت في نفسي ارتجالا أو شبه ارتجال :

أتكبُر يا ابن اللّؤم بالكِبر والخنا ولُؤمٌ لديه ما درى كرم الخُلق ؟

وتَلتمسْ ركنَ المعالي براحة مُغلّلةٍ منها البنانُ إلى العُنق ؟

وتستقبلَنْ وجهَ السّيادة مُسفرًا بوجهٍ كوجهِ الضّفدع التفّ في سحق ؟

وترقى سرير الملك يومًا بأخمصٍ لو اعتسفت خُضر الصّوحِ بالمحق ؟

ولو خاضت العذب الفُرات غَدابها زعاقًا يغصُ الشّاربين وذا رنقٍ

وتجري تصاريف الرّعايا جميعها على مسكة العصفور ذي الطّيش والخرق

وتُقدم في دفع المُلمّات عنهم بقلبٍ هيوبٍ يستفزُ من الوَقْ

فهيهات منك المجد إن كنت عاقلاً فدعه وإن كنت المهوّس فاسترق !

فلا خير فيه غير أنّ لقاءهُ يُعلّمك الهجو البليغ على صدقٍ

وإنّ هجاء النّاس ليس يسُوؤهُ وهل ساء إلاّ من على العرض يستبقي ؟

دخلت عليه زائرًا فإذا أنا بكلبٍ مُطير عابسٍ مائل الشّدق

وأحسن إذا أخطأت إن زرت مثله فعاقبني بالتّيه أو سيّء الخُلق

وأنا أستغفر الله العظيم من هجو المسلمين، وثلب أعراض الغافلين . ولولا أنّ اغتياب

البخيل، ورد فيه ترخيص وتسهيل، مع ابتناء الكتاب، على قصد الامتاع من كل باب، ما مَضْمَضْمتُ بالهجو لساني، ولا سطّرته ببناني.

وقال الوزير أبو عامر بنُ يَنَّق في باب الغزل :

وهيفاء يحكيها القضيب تأوُّداً إذا ما انثنت في الرَّيط أو حبراتِها
يضيق الازار الرَّحب عن ردفها كما يضيق بها الأحشاء عن زفراتها
وما ظَبية أدماء تألف وحدة تزيد ظِلال الضَّالِ أو أثلاتها
بأحسن منها يوم أومتْ بلحظها إلينا ولم تنطق حذار وشاتها

وقال ابن النبيه :

من لي بسلمى وفي أجفان مُقلتها للحرب بيضٌ حدادٌ قطُّ ما صفحت
يهتزُّ بين وشاحيها قضيب نقى حمائم الحلبي في أفنانه صدحتْ
وأسودُ الخال في محمرِّ وجنتها كمسكةٍ نفحت في جمرةٍ لُفحت

وقال الحماسي في غير هذا المعنى :

لا تنكحنَّ الدَّهر ما عِشْتَ أيِّمًا مجرَّبةً قد مُلَّ منها ومَلَّت
تحكُّ قفاها من وراء خمارها إذا فقدت شيئًا من البيت جنت
تجود برجليها وتمنع درَّها وإن طلبت منها المحبَّةُ هرَّت

قوله تحُكُّ قَفَاهَا : يريد أنَّها خرقاء لا تحسن احتكاكا، فضلا عن غيره . وقوله تَجُودُ برِجْلَيْهَا، إلخ : يريد أنَّها تتأتَّى لمن يريد غشيانها، ولا تصلح للولادة، لأنها قعدت عنها فلا درَّ لها . وتقدَّم هذا المعنى . وقال الحماسي أيضا في التمليح :

إذا اجتمَع الجوعُ المبرِّحُ والهوى على الرَّجل المسكينِ كاد يموتُ

وفي هذا القدر كفاية من هذا الباب، والله يقول الحقَّ ويهدي السبيل.

انتهى السفر الأوَّل من

زهر الأكم في الأمثال والحكم

للامام اليوسي رحمه الله

مطبعة النجاح الجديدة
الدار البيضاء

فهـرس موضوعات الكتاب

الجـزء الأول

الجــزء الثاني

الجـزء الثالث